لجنة التأليف والترجمة والنشر

H. G. WELLS

هـ . ج . ولز

معالم تاريخ الإنسانية

تعريب
عبد العزيز توفيق جاويد
خريج المعلمين العليا
المدرس بمدرسة مصر الجديدة الثانوية

راجعه
زكى على
أستاذ التاريخ القديم بجامعة فاروق الأول

المجلد الثانى

ويتضمن الكتابين الرابع والخامس
فى تاريخ الإغريق والرومان

الطبعة الأولى

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٤٨

لجنة التأليف والترجمة والنشر

H. G. WELLS

هـ . ج . ولز

معالم تاريخ الإنسانية

تعريب

عبد العزيز توفيق جاويد

خريج المعلمين العليا

المدرس بمدرسة مصر الجديدة الثانوية

راجعه

زكى على

أستاذ التاريخ القديم بجامعة فاروق الأول

المجلد الثانى

ويتضمن الكتابين الرابع والخامس

في تاريخ الإغريق والرومان

الطبعة الأولى

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٨

محتويات الكتاب

صفحة

الكتاب الرابع

جوديا (أرض الميعاد) وبلاد الإغريق والهند

صفحة

الكتاب الخامس

قيام الإمبراطورية الرومانية وانهيارها

فهرس الصور والخرائط

كلمة المترجم

هذا هو المجلد الثانى من « المعالم » ، أقدمه لقراء العربية راجياً أن يعود عليهم منه ما حفزنى إلى ترجمته من نفع وفائدة . وسيجد فيه القراء ذكرا مفصلا لمجتمعات ثلاثة مرت فى مواكب التاريخ ، أولها ذلك المجتمع الذى أبدع لنا فكرة الوعد وأرض الميعاد ، واتخذ التوحيد والخلود له عقيدة والكتب المقدسة له رباطا ونبراسا .

وأما المجتمع الثانى فمجتمع يونان الذى عرفت فيه الإنسانية أن لها عقلا يفكر ، وأن هذا العقل ينبغى له أن يفكر وهو طليق من أغلال الماضى وتقاليده ، وأن مالا يستقيم على صراط العقل وهم مبطل وخيال خائل . فى ذلك المجتمع عرف الناس أنهم سواسية لا فرق بين حاكم ومحكوم إلا بحسن السيرة واحترام القانون ، وعرفوا أن الحاكم ليس ظلا لله وأن مشيئته ليست كما زعموا قبسا من إرادة الله وإنما يستمد الحاكم قوته من فوق الأرض ، من ذلك الشعب المحكوم الذى لابد وأن تكون له إرادة وأن يكون له سلطان وأن تكون له أداة تعبّر عن تلك الإرادة وذلك السلطان ، وهى الديموقراطية التى اتخذها أولئك القوم مذهبا ومعتقدا ، وأورثوها من جاء بعدهم من القرون . وإلى جانب البحوث الفكرية التى امتاز بها ذلك المجتمع تولدت أساطير اليونان جميلة جذابة ساذجة ونشأت الرطازات حلوة عذبة ، تعبّر عن ذلك الخيال البدائى المبكر الحافل بالشاعرية الهادئة الرقيقة .

هنالك قام أفلاطون ينشئ خيالا ويعبر للإنسانية عن أمانيه العذاب فيما رسم لها فى « جمهوريته » من خطط وما ارتضى لها من مثل . وقام أرسطو منقبا فى ضوء عقله ، باحثا فى طوايا نفسه وفى أسرار هذا العالم وخفاياه ، وتم لسولون وضع القوانين التى تصون كرامة البشر وحقوقهم ، ثم جاء رجل الدولة بركليس فوطد للديموقراطية أركانها بما آتاه الله من حصافة وترفع وحسن تدبير وتقديس للحرية .

أولئك قوم نعجب بهم لا لأنهم قاموا بما قاموا به من أعمال بل لأنهم كانوا — فيما يرى ولز — البادئين بمعالجتها السباقين إلى التفكير فيها دون من تقدمهم من أجيال الإنسانية جميعا . تلك أمة قد خلت ، بعد إذ خلّفت للدنيا تراثا جليلا ما أحوج العالم العربى وهو فى إبان نهضته الحديثة إلى تدبره والتفكر فيه .

أما المجتمع الثالث فمجتمع روما الجامع بين النقيضين الوارث للضدين : جاهية الإترسك

ومدنية الإغريق . ففى مجتمع روما اجتمع من أسباب الحضارة أرقاها ومن دلائل الهمجية أحطها وأدناها . وفى مجتمع روما تطور فن المال نافعا وضارا وتنوعت أساليب استعماله . وفى مجتمع روما ازدهر فن عمارة عظيم لا يزال الناس يعجبون به ويفيدون منه إلى يومنا هذا وفى مجتمع روما تجمعت كل حضارة الغابرين وتكدس ترف الأولين . وامتدت الطرق وأنشئت الجسور وفيها بدأت أساليب التلاعب بالضعفاء ، وأحابيل العبث بإرادة الكثرة من الشعب وتزييف اتجاهاته . على أن مجتمع الرومان كان بين تجاريب إنشاء الدولة العظيمة سورتها الأولى فتهدى فيا يتبدي فيه كل تجريبي من نقص شائه لسنا نشعر أن الدنيا قد نفضته عن نفسها حتى فى عصرنا هذا على الرغم من تأخر الزمان وجهود المصلحين . وفى مجتمع روما الضخم عرف الناس أن فى الإمكان أن يحكم المجتمع نفسه بنفسه مهما أوتى من الضخامة ومهما كثرت مدنه ودساكره .

وعن مجتمع روما أخذت أوربا قانون الظفر والناب . ألم تكن روما قدوة الدول الغربية ومعلمتها الأولى فيا أخذت به هذه الدول من استعمار وأنانية واستغلال للشعوب المغلوبة وعدم اهتمام بمصالحها والأخذ بيدها إلى طريق النهوض والتقدم ؟ ولعل فى أسطورة أن رومولوس منشئ روما قد غذته ذئبة بلبنها ، انسجاما مع ما اتسمت به هذه الدولة من جشع وغدر وذئبية فلا عجب أن كانت الدول الاستعمارية فى القرن التاسع عشر قرن ثورة الاستعمار وفورته تضع روما موضع التقدير والإعجاب بسياستها الغشوم ونظمها الاستنزافية .

إن العالم لم يلق من روما وضريباتها فى العصر الحديث إلا كل شر ونكر ، ولكن الشرق العربى الناهض الذى لا يزال يصلى أساليب الاستعمار الجهنمية خليق بأن يقلب الرأى فى تاريخ روما عله أن يستفيد من سالف التجاريب فى رد ما يلقى من المحن فى حاضره ومستقبله .

***

والمؤلف لا يقتصر فى هذا السفر بالبداهة على التاريخ من الناحية السردية وحدها ، بل يتناوله من نواحيه الاجتماعية ثم الإنسانية ومن زاوية الحياة وتنظيماتها .

وإنك لا تدرى إذ تطالع هذا السفر من أى أقطاره يأخذك الإعجاب به وبمؤلفه ؛ فإن رمت التاريخ وجدت فيه ما يملك مشاعرك من أحداث وعبر وإن التمست السياسة ، أو الاجتماع ظفرت بكل رائع أخاذ فى نهج علمى محكم وتنسق بين الأقسام فريد .

وها هو ذا المؤلف يحلل بين يديك مقومات تلك المجتمعات ثم لا يقف عند هذا الحد بل

يتقدم إلى الموازنات فيعقد الواحدة منها تلو الأخرى بين تلك المجتمعات وبين ما يشا كلها أو يجافيها فى عصره ، فتخرج من كل ذلك بأن تلك المجتمعات إنما هى هيئات إنسانية مركبة تماثل أو تكاد ، معظم ماتنطوى عليه حياتنا العصرية من الظواهر . فإن ما كان يحرك عقول الرجال يومئذ من مشاكل وعواطف وشهوات لايزال يمتلج فى صدور الناس إلى وقتنا هذا . ولم يفت ولز ألا يقصر حديثه على الوقائع مجردة ، بل هو ينشئ للقارئ نسجا محبوكا لحمته آراؤه ومذاهبه التى خلقها وآمن بها ، جاعلا من أحداث التاريخ سدى لذلك النسيج فأنت إذ تطالع الكتاب تتناول معه خمائر ثمينة منها ما يبثك الديموقراطية ومنها ما يدعوك إلى تقديس الحرية وصون الكرامة البشرية والتحلل من قيود التعصب أيا كان مبعثه ومنها ما يحفزك إلى تقدير الانسان ووضعه فى مرتبته الشريفة بين الكائنات بوصفه إنسانا ، العالمُ موطنه والإنسانية قوميته وجنسيته .

* * *

ولا يفوتنى أن أسجل مزيد اغتباطى للتقدير الكريم الذى لقيه المجلد الأول من الأوساط العلمية ومن كثير من أساتذة الجامعة المحترمين وكبار رجال وزارة المعارف وخاصة أستاذى المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال بك الذى يعد بحق راعى الكتاب ونصيره — فقد تلقيت من حضراتهم من عبارات التشجيع ورسائل الرضاء مالا يسعنى إلا أن أشكر الله عليه أجزل الشكر وأعظمه . ولقد أحسنت لجنة التأليف الموقرة كل الإحسان كدأبها إذ عنيت بمواصلة طبع هذا الكتاب وإذاعته فى الناس فأسدت إلى المكتبة التاريخية فى لغة الضاد فضلا جديدا ذلك أنى لست أعلم — ويشركنى فى ذلك حضرة الأستاذ المراجع وهو الإخصائى الثقة — بأنه قد صدر فى العربية كتاب فى تاريخ الإغريق والرومان انطوى على ما ينطوى عليه هذا المجلد من الإحاطة والشمول مع الدقة العلمية وصحة المعلومات ولذلك أشعر بالسعادة إذ أقدمه للأمة العربية مشفوعا بشكرى العظيم لحضرتى صاحبى العزة الأستاذ الجليل أحمد أمين بك رئيس اللجنة والأستاذ الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى بك سكرتيرها العام وحضرات أعضائها المحترمين .

ولقد بذل حضرة المراجع العالم النحرير زكى على بك أستاذ التاريخ القديم بجامعة فاروق الأول جهداً صادقا وتفانيا بالغا فى مراجعة الكتاب وتوضيحه بالهوامش والإشراف

على خرائطه حتى أصبح على ما يلمس القارئ من يسر ولين . فلأياديه على العلم أجزل الشكر وأطيب الثناء .

* * *

وبعد فتلك هى انطباعاتى لدن تقليب الفكر فى هذا الكتاب وبعد مداومة النظر فيه ، أقدمها للقارئ ، وأنا أشعر أننى مهما نوهت بفضل الكتاب ومؤلفه فما أنا ببالغ ما يبلغ القارئ بمطالعته من التأثر والتزكى .

مصر الجديدة فى ٧ ديسمبر ١٩٤٨ .

ع . ث . جاوبر

الكتاب الرابع

جوديا (أرض الميعاد) وبلاد الأغريق والهند

الفصل الثامن عشر

الكتب المنزلة العبرانية والأنبياء العبرانيون

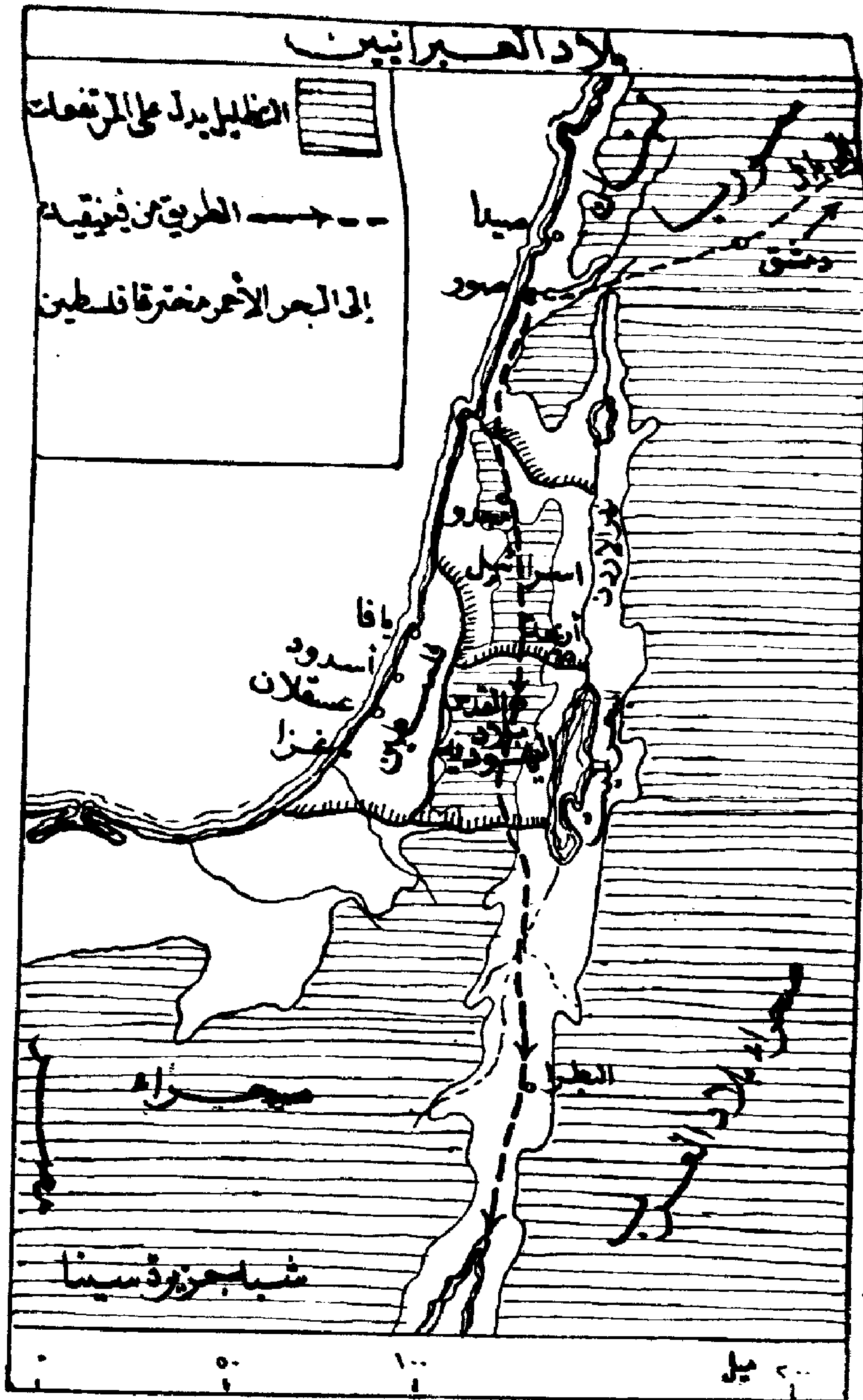
---

١ — مركز الإسرائيليين فى التاريخ

الآن بلغنا مركزاً نستطيع منه أن نضع الإسرائيليين ومعهم أعجب مجموعة من الوثائق القديمة فى الموضع الصحيح اللائق بهم ، بالنسبة إلى هذه المعالم التاريخية العامة التى تؤرخ للإنسانية . وأعنى بهذه المجموعة تلك الوثائق التى تعرفها جميع الشعوب المسيحية باسم « العهد القديم » . وإنا لنجد فى هذه الوثائق أكثر المستندات طرافة وأعلاها قيمة فى تبيان تطور المدنيـة ، كما نجد فيها أنصع الدلالات على انبثاق روح جديدة أخذت تتدسس إلى الشؤون الإنسانية أثناء المنازعات التى قامت بين مصر وآشوريا (مملكة آشور) من أجل التسلط والسيطرة على العالم .

ولا شك أن جميـع الأسفار التى يتكون منها العهد القديم كانت موجودة ، وفى نفس صيغتها الحالية تقريباً فى سنة ١٠٠ ق . م . على أقصى تقدير . والراجح أن معظمها كان يعتبر كتابات مقدسـة فى عصر الإسكندر الأكبر (٣٣٠ ق م) ، وكانت هذه الكتابات هى الأدب المقدس للشعب اليهودى الذين كانوا قد نقلوا وشيكا فيما عدا بقية صـغيرة من الدهماء من موطنهم الأصلى إلى مملـكة بابل عام ٥٨٧ ق م بأمر الملك الكلدانى نبوخذ نصر الثانى ، وكانوا قد عادوا إلى مدينتهم (أورشليم) وأعادوا بناء معبدهم هناك تحت رعاية قورش ذلك الفاتح الفارسى الذى خلع نابونيـداس ، آخر الحـكام الكلدانيين فى بابل (٥٣٩ ق م) كما

ذكرنا آنفا . دام الأسر البابلي قرابة خمسين سنة ، ويرى كثير من الأعلام الثقات أنه جرى بين اليهود وبين البابليين في أثناء هذه الفترة ، تمازج عنصري وفكري جسيم .



وموقع أرض اليهودية وعاصمتها أورشليم فريد في بابه ، فإن بقعتها مستطيلة الشكل تشبه الشريط يحصرها البحر الأبيض غرباً ، والصحراء الواقعة فيما وراء الأردن شرقاً . ويمر خلالها الطريق الرئيسى الطبيعى الذى يصل بين الحيثيين وسوريا وآشور وبابل شمالا ، وبين مصر جنوبا . فكانت لذلك قطراً قدر له تاريخ مضطرب حافل بالأعاصير .

وكانت هذه البلاد طريقا لمصر وكل قطر عزيز الجانب إلى الشمال ، تخترقها الجيوش للفتح

والتوسع الإمبراطورى ، وكانوا يشنون على أهلها الحروب رغبة فى شق طريق للتجارة . ولم يتوفر لها من سعة الرقعة ولا من القدرة الزراعية ، ولا الثروة المعدنية ما يكفل لها الأهمية . وقصة شعبها ، التى حفظتها لنا تلك الأسفار المنزلة تجرى كأنها تعليق مسطر على هامش التاريخ الأعظم ، وأعنى به تاريخ نظامى الحضارة القائمين فى الشمال والجنوب ومدنية الشعوب البحرية فى الغرب .

وتتكون هذه الأسفار المنزلة من بضع عناصر مختلفة ، وكان الناس من قديم الزمان ينظرون إلى الكتب الخمسة الأولى (البنتاتويك) باحترام خاص ، وهى تبدأ فى هيئة تاريخ عام شامل ذى قصة مزدوجة عن : خلق العالم والبشرية ، والحياة الأولى للجنس البشرى ، وعن طوفان عظيم دمرت فيه الإنسانية جمعاء سوى بعض أفراد محظوظين . وقصة الطوفان هذه عظيمة الانتشار فى الروايات القديمة ، وقد تكون ذكرى لذلك الفيضان الذى ثمل وادى البحر المتوسط والذى حدث فى العصر النيوليثى من تاريخ الإنسان ، ولعلها تعيد إلى الذاكرة صدى بعض الكوارث العظيمة التى حدثت فى جورجيا وإقليم بحر قزوين . وقد كشفت الحفائر الحديثة الأستار عن النصوص البابلية التى تروى كلا من قصتى الخليقة والطوفان ، وهى نصوص ترجع إلى تاريخ سابق لعودة اليهود إلى وطنهم ، ومن ثم فإنا نجد نقاد الكتاب المقدس يحاجون بأن اليهود استولوا فى أثناء أسرهم على تلك الفصول الافتتاحية ، وهى قوام الإصحاحات العشرة الأولى من سفر التكوين .

ويتلو ذلك تاريخ لآباء ومؤسسى الشعب العبرانى وهم إبراهيم واسحق ويعقوب . وهم يمثلون فى صورة رؤساء بدو يسود بينهم نظام الأبوة ويعيشون عيشة الرعاة الرحل فى المنطقة الممتدة بين بابل ومصر . ويقول النقاد إن قصة التوراة الراهنة ، قد صيغت من نصوص عديدة سابقة . ولكن مهما يكن شأن مصادر القصة ، فإنها بحالتها التى نجدها عليها اليوم ملأى بالقوة والحيوية . وما يسمى اليوم باسم فلسطين كان فى ذاك الوقت أرض كنعان ، يسكنه قوم ساميون يسمون الكنعانيين ، وهم وثيقو اللحمة بالفينيقيين الذين أسسوا صور وصيدا ، وبالعموريين الذين فتحوا بابل وأسسوا الإمبراطورية البابلية الأولى بقيادة حامورابى .

وكان الكنعانيون شعباً عرف الاستقرار فى زمن ربما عاصر حكم حامورابى — وفيه مرت قطعان ابراهيم ورعاته خلال الأرض . وتقول رواية الكتاب المقدس إن رب ابراهيم وعد إبراهيم وأولاده بهذه الأرض البسامة ذات المدن العامرة . ويجب أن يرجع القارئ إلى سفر التكوين فيقرأ كيف أن إبراهيم — ولم يكن له عقب — قد ارتاب فى هذا الوعد ، ثم

يقرأ أخبار ولادة إسماعيل واسحق . وسيجد القارىء في سفر التكوين كذلك ترجمة حياة اسحق ويعقوب ، الذى تغير اسمه فأصبح اسرائيل ، وترجمة حياة أبناء اسرائيل الاثنى عشر وكيف أنهم هبطوا مصر أيام قحط عظيم . وبهذا ينتهى سفر التكوين أول كتب البنتاتويك ويختص الكتاب الثانى وهو سفر الخروج بقصة موسى .

وقصة استقرار أبناء اسرائيل فى مصر واستعبادهم بها قصة عسيرة معقدة . ولدينا سجل مصرى يتناول استقرار بعض الشعوب السامية فى أرض (جوشن Goshen) بأمر الفرعون رمسيس الثانى ، وجاء فى هذا السجل أنهم اتجهوا نحو مصر بسبب افتقارهم إلى الطعام . ولكن ليس هناك قط أى سجل مصرى عن حياة موسى وأعماله .

ولم يصل إلينا بعد أى بيان عن إصابة مصر بالطاعون أو عن أى فرعون أغرق فى البحر الأحمر . وفى قصة موسى قدر كبير يشم فيه شىء من شذى الرطازات . ومن أبرز الحوادث فيها ، حادثة تخبئة أمه له فى فلك من الحلفاء ، ولها شبيه فى أسطورة سومرية قديمة .

فالقصة السومرية عن سرجون الأول تجرى كما يأتى : « ها أنذا سرجون الملك القوى ملك أكاديا . كانت أمى فقيرة ، وما عرفت أبى قط ، وكان شقيق أبى يعيش بين الجبال ... وقد ولدتنى أمى الفقيرة سراً ، ووضعتنى فى سلة من القصب ، وأغلقت بابها بالقار ، ثم ألقتنى فى النهر ، فلم تبتلعنى لجه وحملتنى مياهه حتى أوصلتنى إلى (أكّ) الساقى . وقد تلقانى أكّ الساقى فى طيب قلبه . وقد ربانى أكّ الساقى حتى أصبحت غلاما يافعا . وجعلنى أكى الساقى بستانيا . وقد أدخلت خدماتى بستانيا السرور على قلب (عشتار) وأصبحت ملكا »

إن هذا لأمر يحير اللب . وأشد من هذا إمعاناً فى الحيرة ما كشف أخيراً من لوحة طينية كتبها الولاة المصريون على إحدى مدن كنعان إلى الفرعون (أمينحوتب الرابع) وهو أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، وقد تقدم فى الزمن على رمسيس الثانى ، وفيها يذكرون إسم العبرانيين صراحة ، ويصرحون بأنهم يجتاحون أرض كنعان ، وواضح أنه إذا كان العبرانيون قد غزوا كنعان فى زمن الأسرة الثامنة عشرة ، فليس من الممكن أن يأسرهم ويضطهدهم رمسيس الثانى من الأسرة التاسعة عشرة قبل أن يفتحوا أرض كنعان . وغنى عن البيان أن قصة الخروج (Exodus) ، وقد كتبت بعد الحوادث التى ترويها بزمان طويل ربما تكون ركزت وبسطت ، ولعلها أن تكون أيضا قد نحلت ذلك التاريخ شخصياته ورموزه التى ترمز إلى ما كان فى حقيقة الأمر تاريخا طويلا معقداً لغزوات قبيلية . ولعل إحدى القبائل العبرانية انحدرت إلى مصر وأصبحت مستعبدة ، على حين شرعت القبائل الأخرى

من قبل ذلك ، تهاجم المدن الكنعانية النائية ، بل إن فى الإمكان ألا تكون مصر هى أرض الأسر (واسمها بالعبرانية مصرايم) وإنما هى (مصريم) فى شمال بلاد العرب ، على الجانب المقابل من البحر الأحمر . وقد بحثت هذه المسائل بحثا مستفيضا دقيقاً فى (موسوعة الكتاب المقدس فى مادتى موسى والخروج) يستطيع القارئ المحب للبحث أن يرجع إليهما .

ويتعلق كتابان آخران من الكتب الخمسة الأولى هما (سفر تثنية الاشتراع وسفر اللاويين) ، بالشرائع وبالقواعد الكهنوتية . أما سفر الأعداد فيسرد تجولات بنى إسرائيل فى الصحراء وغزوهم كنعان .

ومهما تكن التفاصيل الدقيقة لغزو العبرانيين أرض كنعان ، فمما لا ريب فيه أن ذلك القطر الذى فتحوه تغير تغيراً عظيما منذ أيام أسطورة (الميعاد) ، الذى وعد به إبراهيم قبل ذلك بقرون .

ثم يلوح القطر من بعد ذلك أرضاً سامية فى معظم أمرها ، بها كثير من المدن التجارية الناهضة . على أن موجات كبيرة من الشعوب الغربية زحفت على طول هذا الشاطئ . ولقد قلنا من قبل كيف هوجمت الشعوب الأيبيرية الداكنة أو شعوب البحر الأبيض القاطنة فى إيطاليا وبلاد الأغريق ، وشعوب المدنية الأيجية التى بلغت الأوج فى كنوسوس ، (Cnossus) إذ هاجمتها موجة متجهة جنوبا من أجناس ناطقة بالآرية من أمثال الإيطاليين والإغريق ، وبينا كيف نهبت كنوسوس حوالى (١٤٠٠ ق م) ، وكيف دمرت تدميراً تاما قرابة (١٠٠٠ ق م) . وبديهى أن شعب هذه الموانى الأيجية كانوا يجتازون البحر طلبا لمستقرات أكثر أمنة وسلاما وهم قد غزوا الدلتا المصرية وما يليها غربا من الشاطئ الأفريقى ، وأنشأوا أحلافا بينهم وبين الحيثيين وبعض الشعوب الآرية أو المصطبغة بصبغة آرية .

حدث هذا كله بعد عصر رمسيس الثانى ، فى عهد رمسيس الثالث وتسجل الآثار المصرية معارك بحرية عظيمة ، كما تمثل مسير هؤلاء القوم إلى مصر على امتداد ساحل فلسطين . وكانت وسيلة النقل لديهم هى المجلات التى تجرها الثيران ، وهى إحدى خصائص القبائل الآرية ، وواضح أن هؤلاء الكريتيين كانوا يعملون متحالفين مع بعض الغزاة الآريين الأول ولم يتم بعد الوصول إلى قصة متصلة الحلقات عن هاته المنازعات التى استمرت بين ١٣٠٠ق م و ١٠٠٠ ق م ، على أنه واضح من رواية الكتاب المقدس أنه عندما قام العبرانيون تحت إمرة (يوشع) بمواصلة إخضاعهم البطئ لأرض الميعاد ، اصطدموا بشعب جديد هم الفلسطينيون ، الذين كانوا يستقرون على امتداد الشاطئ فى سلسلة من المدن أصبحت أهمها

وأعظمها غزة ، وجات ، وأسدود ، وعسقلان ، وأكرون ، وكان هؤلاء الفلسطينيون فى الحقيقة نازحين كالعبرانيين تماما . وكانوا على أرجح التقديرات هم هؤلاء الكريتيون اللاجئون من البحر والهابطون من الشمال وعلى ذلك فإن الغزو الذى ابتدأ بشكل هجوم على الكنعانيين سرعان ما أصبح نزاعا طويلا ، لم يحالفه التوفيق التام — بين أهل تلك الأرض الموعودة التى كانت مطمع الأنظار — وبين هؤلاء الفلسطينيين النازحين ، الذين كانوا أكثر قوة وأشد بأساً .

ولا يستطيع أحد أن يقول إن أرض الميعاد كانت يوما فى قبضة العبرانيين تماما . ويلى الكتب الخمسة الأولى فى الكتاب المقدس أسفار يشوع ، والقضاة وسفر راعوث (وهو استطراد) وصموئيل الأول والثانى والملوك أول ، وثان ، مع سفر الأيام الأول والثانى وفيه تكرار مع بعض التنويع لكثير من مادة سفر صموئيل الثانى وسفر الملوك . وفى معظم أجزاء هذا التاريخ المتأخر ظل للحقيقة يزداد على اطراد الأيام ظهوراً ، وفى هذه الأسفار نجد الفلسطينيين مستمسكين بملكية أراضى الجنوب الواطئة الخصبة ، كما نجد الكنعانيين والفينيقيين صامدين فى الشمال ضد أعدائهم الإسرائيليين . وليست انتصارات يشوع الأولى مكررة . وكتاب القضاة إنما هو سَرْدٌ محزن للفشل المتوالى الذى يفقد بسببه القوم شجاعتهم فهم لم يتخلوا عن عبادة ربهم الخاص « ياهوه Jehovah » وعبدوا بعل وعشتوزث وأخذوا يختلطون بالفلسطينيين والحيثيين وغيرهم حتى صاروا شعباً مختلط الجنس كما أصبح هذا طابعهم فيما بعد ، وكانوا يخوضون وهم تحت إمرة سلسلة من الحكام والأبطال غمار حروب فاشلة على وجه العموم — لم يتحدوا فيها قط جد الاتحاد . ويقهرهم على التعاقب المؤابيون (Moabites) والكنعانيون والمديانيون والفلسطينيون . ويتحدث سفر القضاة عن قصة هذه المنازعات التى شنها جديون وشمشون وغيرهم من الأبطال الذين يلقون بين الفينة والفينة بصيصاً من أمل فيما كان يلم بإسرائيل من نكبات . ويروى سفر صمويل الأول قصة كارثتهم العظيمة فى إبنزار Ebenezer أيام أن كان « عالى » قاضياً .

وكانت تلك معركة عظيمة اشتركت فيها كل جيوش الطرفين برمتها وخسر فيها بنو إسرائيل ٣٠٫٠٠٠ رجلا (!) وكانوا قبل ذلك قد أصيبوا بهزيمة فادحة خسروا فيها ٤٠٠٠ رجلا ، ثم أبرزوا أقدس رمز لديهم ، وهو تابوت عهد الرب[١]

---

(١) (الإصحاح الرابع من صمويل الأول من الكتاب المقدس) .

« وكان عند دخول تابوت عهد الرب إلى المحلّة أن جميع إسرائيل هتفوا هتافاً عظيماً حتى ارتجت الأرض ، فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف فقالوا : ما هو صوت هذا الهتاف العظيم فى محلة العبرانيين ، وعلموا أن تابوت الرب جاء إلى المحلّة ، فخاف الفلسطينيون لأنهم قالوا قد جاء الله إلى المحلة . وقالوا ويل لنا لأنه لم يكن مثل هذا منذ أمس ولا ماقبله . ويل لنا من ينقذنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين ؟ هؤلاء هم الآلهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات فى البرية . تشددوا وكونوا رجالا أيها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم .

فحارب الفلسطينيون وانكسر اسرائيل ، وهربوا كل واحد إلى خيمته ، وكانت الضربة عظيمة جداً ، وسقط من اسرائيل ثلاثون ألف راجل ، وأُخذ تابوت الله ومات ابنا عالى حفنى وفينحاس .

فركض رجل من بنيامين من الصف وجاء إلى شيلوه فى ذلك اليوم وثيابه ممزقة وتراب على رأسه . ولما جاء فإذا عالى جالس على كرسى بجانب الطريق يراقب لأن قلبه كان مضطرباً لأجل تابوت الله . ولما جاء الرجل ليخبر فى المدينة صرخت المدينة كلها ، فسمع عالى صوت الصراخ فقال ما هو صوت الضجيج هذا ؟ فأسرع الرجل وجاء وأخبر عالى ، وكان عالى ابن ثمان وتسعين سنة وغامت عيناه ولم يقدر أن يبصر .

فقال الرجل لعالى أنا جئت من الصف ، وأنا هربت اليوم من الصف . فقال كيف كان الأمر يا إبنى ؟ فأجاب المخبّر وقال هرب إسرائيل أمام الفلسطينيين ، وكانت أيضا كسرة عظيمة فى الشعب ، ومات أيضا أبناك حفنى وفينحاس وأُخذ تابوت الله . وكان لما ذُكر تابوت الله أنه سقط عن الكرسى إلى الوراء إلى جانب الباب فانكسرت رقبته ومات ، لأنه كان رجلا شيخا ثقيل الجسم . وقد قضى لإسرائيل أربعين سنة .

« وكنته امرأة فينحاس كانت حبلى تكاد تلد ، فلما سمعت خبر أخذ تابوت الله وموت حميها ورجلها ركعت وولدت لأن مخاضها انقلب عليها ، وعند احتضارها قالت لها الواقفات عندها : « لا تخافى لأنك قد ولدت ابناً فلم تجب ولم تعرها التفاتة ، فدعت الصبى إيخابود . قائلة قد زال المجد من بنى إسرائيل لأن تابوت الله قد أُخذ ولأجل حميها ورجلها » .

(صمويل الأول الإصحاح الرابع)

وكان خلف (عالى) وآخر القضاة هو صمويل ، وقد حدثت فى أواخر حكمه حادثة فى تاريخ بنى إسرائيل تدارج ما للشعوب العظمى المحيطة بهم من خبرات وأحوال ، وهى التى

أوحت بها إليهم ، إذ نشأ بينهم ملك حكم فيهم وظهرت فيهم الملوكية ، وهم يقصون علينا بأوضح عبارة نبأ الصراع المحتدم بين حكم الكهانة العتيق الأقدم عهداً وبين الطريقة الأحدث في تصريف شؤون البشر . ومن المستحيل علينا ألا نقتبس اقتباساً ثانيا ، فلكم يبدو عظيم استياء الكاهن واضحاً جليا في حديث الرب إلى صمويل .

« فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة ، وقالوا له : هوذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا في طريقك ، فالآن اجعل لنا ملكا يقضي لنا كسائر الشعوب .

« فساء الأمر في عيني صموئيل إذ قالوا : اعطنا ملكا يقضي لنا وصلى صموئيل إلى الرب . فقال الرب لصموئيل : اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم وحسب كل أعمالهم التي عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلى هذا اليوم ، وتركوني وعبدوا آلهة أخرى . هكذا هم عاملون بك أيضا . فالآن اسمع لصوتهم ، ولكن أشهدن عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذي يملك عليهم .

« فكلم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكا بجميع كلام الرب وقال : هكذا يكون قضاء الملك الذي يملك عليكم : يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه ، لمراكبه وفرسانه ، فيركضون أمام مراكبه ، ويجعلهم لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين ، فيحرثون حراثته ، ويحصدون حصاده ، ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه . ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات ، ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده . ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وشبانكم وجواريكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله ، ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً فتصرخون في ذلك اليوم بالشكوى من وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب في ذلك اليوم .

« فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا : لا بل يكون علينا ملك فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضي لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا . » (صمويل الأول الإصحاح الثامن)

٢ — شاول وداود وسليمان

على أن طبيعة بلاد العبرانيين وموقعها كانت عوناً عليها ، فلم يكن ملكهم الأول شاول أوفر حظا في النجاح من القضاة ، فإن المكايد الطويلة التي كان يدبرها المغامر داود ضد شاول مسرودة في الجزء الباقي من سفر صمويل الأول ، وكانت خاتمة شاول هي الهزيمة المنكرة التي

أصابته على جبل جلبوع Gilboa إذ قضت بسالة رماة السهام من الفلسطينيين على جيشه قضاء تاما .

« وفى الغد لما جاء الفسطينيون ليعروا القتلى وجدوا شاول وبنيه الثلاثة ساقطين فى جبل جلبوع ، فقطعوا رأسه ونزعوا سلاحه وأرسلوا إلى أرض الفلسطينيين فى كل جهة لأجل التبشير فى بيت أصنامهم وفى الشعب ، ووضعوا سلاحه فى بيت عشتاروت وسمروا جسده على سور بيت شان »

(صمويل الأول الإصحاح ٣١)

وكان داود (٩٩٠ ق م على وجه التقريب) أشد كياسة وأكثر نجاحا من سلفه . ويلوح أنه وضع نفسه فى حماية حيرام ملك صور . فثبتت هذه المحالفة الفينيقية ملكه ، وكانت العامل الجوهرى فى عظمة ابنه سليمان . وقصة داود بما تحوى من قتل وسفك دماء واغتيالات يأخذ بعضها برقاب بعض[١] ، أشبه بتاريخ بعض رؤساء المتوحشين منها بتاريخ ملك ممدن . وهذه القصة مسرودة بأسلوب رائع واضح فى السفر الثانى من صمويل[١] .

ويبدأ سفر الملوك الأول بحكم الملك سليمان (٩٦٠ ق م على وجه التقريب) وأشد أمور تلك القصة إمتاعا للمؤرخ العام ، هو علاقة سليمان بالديانة القومية والكهانة وتصرفاته فى هيكل سليمان والكاهن صادوق (Zadok) والنبى ناثان .

وبداية حكم سليمان مخضبة بالدماء كحكم أبيه سواء . وآخر ما سجل من حديث داود تدبيره لولده الوسيلة لقتل شيماى (Shimei) ، وآخر ماسجل من كلماته هى (الدم) إذ يقول لابنه « وأحدر شيبته بالدم إلى الهاوية[١] » هكذا يقول مشيراً إلى أنه وإن كان شيماى الشيخ يحميه القسم الذى أخذه داود على نفسه للرب ما دام حيا ، فما من عهد يرتبط به سليمان فى هذا الشأن . ويغلو سليمان فيقتل أخاه ، الذى حاول أن يغتصب العرش ثم مالبث أن تخاذل وقدم الطاعة . ومن ثم أخذ يتصرف بملء حريته فى أنصار أخيه . وإن ضعف مكانة الدين عند العبرانيين المخلطة أجناسهم والمبلبلة فى ذلك الأوان عقولهم ، لتتضح من السهولة التى يستبدل بها الملك رئيس الكهنة المعادى له نصيره صادوق ، كما يتضح ذلك بشكل أدعى للعجب من قتل يوآب Joab فى الهيكل على يد بَنَايَاهُوَ أعظم صنائعه إجراما ، على حين لاذت الضحية بقدس حرم المعبد ، واستمسكت بقرنى مذبح يَاهوَه Jehovah . ثم شرع سليمان بعد ذلك فى العمل ، على أسلوب كان فى ذلك الزمان ذا روح عصرية حقة ، فعمد

---

(١) الكتاب المقدس سفر الملوك الأول وصمويل الثانى .

إلى صوغ ديانة شعبه فى قالب جديد . وقد واصل المحافظة على ميثاقه مع حيرام ملك صور ، وطفق هذا يستخدم مملكة سليمان طريقاً عاما يسلكه لينفذ بوساطته إلى البحر الأحمر فيبنى فيه السفن ، ونتيجة لهذه الشركة بينهما تكدست فى أورشليم ثروة لم يسمع بها من قبل .

وقد ظهرت عصائب العمال عند بنى إسرائيل ، وكان سليمان يرسل أفواجا من العمال تحل إحداها محل الأخرى لقطع أخشاب الأرز من لبنان ، فى عهد حيرام وكان ينظم فى بلاده هيئة من الحمالين . (وفى هذا كله شيء كثير مما يذكر القارئ بعلاقات أحد الرؤساء فى افريقيا الوسطى بإحدى المصالح التجارية الأوربية) . وبعد ذلك بنى سليمان لنفسه قصراً ومعبداً لياهوه الرب لايكاد يقارب قصره فى الكبر . وكان تابوت عهد الرب ، ذلك الرمز المقدس لهؤلاء العبرانيين الأقدمين ، قد استقر مقامه حتى ذلك الحين فى فسطاط كبير . كان ينقل من مكان مرتفع إلى آخر ، وكانت تقدم القرابين لرب إسرائيل فى عدد من الأماكن المرتفعة المختلفة . فالآن أدخل التابوت بين الروائع الذهبية الموجودة فى حجرة داخلية من معبد كسيت جدارنه الحجرية بخشب الأرز ، ووضع بين تمثالين عظيمين لهما أجنحة ، ومصنوعين من خشب الزيتون المذهب ، وتحتم منذ ذلك الحين ألا تقدم القرابين على غير المذبح الذى بين يديه .

ويذكرنا هذا التجديد المنطوى على مركزية دينية بكل من أخناتون ونابونيداس . ولا يتم لمثل هذه الأمور نجاح إلا متى كانت سطوة هيئة الكهنوت ونفوذها وتقاليدها وعلمها ، قد هوت إلى الدرك الأسفل .

« وأوقف حسب قضاء داود أبيه فرق الكهنة على خدمتهم واللاويين على حراساتهم للتسبيح والخدمة أمام الكهنة عمل كل يوم بيومه والبوابين حسب فرقهم على كل باب . لأنه هكذا هى وصية داود رجل الله . ولم يحيدوا عن وصية الملك على الكهنة واللاويين فى كل أمر وفى الخزائن »

ولم تحل إقامة سليمان لعبادة ياهوه فى أورشليم على هذا الأساس الجديد ، ولا رؤياه لربه ومحادثته له فى مستهل حكمه ، دون إثارته ضربا من الفتنة الفجائية فى اللاهوت حين علت به السن . فإنه أكثر من الزواج ، وإن يكن ذلك لأسباب تتصل بالدولة وأبهة الملك ، وكان يرفه عن زوجاته الكثيرات بتقديم الضحايا لآلهتهن القومية ، فهو يقدم القربان لربة صيدا عشتورث وكوش (وهو رب مؤابى) ومولك وهلم جرا . والواقع أن وصف الكتاب المقدس لسليمان يصوره لنا ملكا متقلبا كغيره من الملوك ، لا يفضل البتة أيا منهم

فى تمسكه بأهداب دينه ، ويمثل لنا شعبا معتقداً بالخرافات وذا عقلية مبلبلة ككل شعوب العالم المحيط بهم .

وفى قصة سليمان ناحية ذات أهمية كبيرة جداً لدلالتها على طابع خاص فى الشئون المصرية تلك هى زواجه من ابنه فرعون . ولابد أن يكون هذا أحد فراعنة الأسرة الحادية والعشرين ففى أيام عظمة امنحوتب الثالث ، كما تشهد بذلك رسائل تل العمارنة ، كان من الإمكان أن يتنازل فرعون فيقبل فى حريمه أميرة بابلية . ولكنه كان يرفض رفضا باتا أن يسمح لأميرة مصرية تتمتع بما تتمتع به من قداسة ، أن تصبح زوجة لعاهل بابلى . ومما يدل على انحطاط النفوذ المصرى واضطراد تدهوره أن يحدث الآن بعد انقضاء ثلاثة قرون ، أن ملكا صغيراً كسليمان ، يستطيع أن يتزوج من أميرة مصرية على قدم المساواة . وقد نهضت مصر مع ذلك إبان حكم الأسرة المصرية التالية (الثانية والعشرين) يوم اغتنم الفرعون شيشاق مؤسس تلك الأسرة فرصة الإنشقاق بين اسرائيل ويهوذا Judah ، وهو الإنشقاق الذى ظل ينمو طوال حكم كل من داود وسليمان ، فاستولى على أورشليم ونهب كلا من مستودعى الأبهة والعظمة القصيرى الأجل وهما المعبد الجديد وقصر الملك .

ويبدو أن شيشاق استطاع كذلك أن يخضع فلسطين . وجدير بالذكر أن الفلسطينيين ذوت أهميتهم منذ ذلك التاريخ فما بعده ، بعد أن فقدوا لغتهم الكريتية واتخذوا لغة الساميين الذين أخضعوهم . ومع أن مدائنهم ظلت مستقلة إلى حد ما ، فإنهم انغمروا رويداً رويدا فى غمار الحياة السامية العامة لفلسطين .

وهناك من الشواهد ما يدل على أن قصة حكم سليمان الأصلية على صورتها البدائية الأولى المقبولة عقلا ، وقصة ما أتاه من اغتيالات متنوعة ، وارتباطه بحيرام ، وابتنائه القصر والمعبد[١] ، وذلك البذخ الذى أوهن مملكته ثم مزقها آخر الأمر شطرين — قد تعرضت (أعنى القصة) لحشو وإضافات فيها توسع عظيم على يد كاتب متأخر ، كان مشغوفا بالمبالغة فى وصف رخاء عصر سليمان مولعاً بتمجيد حكمته . وليس هذا مجال معالجة موضوع أصول الكتاب المقدس ومصادره ، وإن لم يتطلب الأمر منا إلا معقولا عاديا بسيطاً دون تفقه فى العلم — لندرك ما يتجلى فى المادة الرئيسية لقصة داود وسليمان من حقيقة ثابتة وصدق مطابق للواقع . وهى قصة يعمد كاتبها إلى الشرح والتوضيح آونة ؛ وإلى التبرير أخرى ، وإن كانت مع ذلك تسرد كل الحقائق ، ولا تدع منها حتى أقسى الحقائق ، على النحو الذى لا يفعله

---

(١) الكتاب المقدس سفر الملوك الأول والأيام .

إلا كاتب معاصر أو كاتب يكاد يكون معاصراً ، يقصها وهو مقتنع بأن لاسبيل إلى إخفائها ، ثم يلاحظ الإنسان أيضاً ذلك التحول والإنحراف إلى الإطراء والثناء ساعة وجود الفقرات المزيدة

ومما يبرز مافى هذه القصة المكتوبة من الاقتدار والقوة والتسلط على أذهان الناس ، أن تستطيع أن تحمل العالم المسيحى بله الإسلامى على الاعتقاد بأن الملك سليمان لم يكن من أشد الملوك عظمة وفخامة فحسب بل كان أيضاً من أحكم الرجال . ومع ذلك فإن سفر الملوك الأول يسهب فى الكتابة عن أقصى ما وصل إليه مجده من أبهة وفخامة ، وإذا قيست هذه إلى جمال وعجائب المبانى والأنظمة التى قام بها عاهل عظيم كتحوتمس الثالث أو رمسيس الثانى أو بعض من الفراعين الأخر ، أو سرجون الثانى أو سرد اناپالوس أو نبوخذ نصر العظيم ، فإنها تبدو من التوافه الهينات . كان بُعدُ معبده من الداخل ، عشرين ذراعا عرضاً أى ما يقارب خمسة وثلاثين قدماً وهذا لايزيد عن عرض ڤيلا للسكنى العادية ، وستين ذراعا أى مئة قدم طولا ، وتختلف الأقوال فى تقدير الذراع ، وهو على أكبر تقدير يعادل أربعاً وأربعين بوصة . وعلى هـذا الاعتبار يتسع العرض فيصبح سبعين قدما ليس غير ويصبح الطول مائتى قدم . فأما حكمته ومعرفته بأصول الحكم ، فما القارئ بمحتاج أن يجاوز الكتاب المقدس[1] لكى يعرف أن سليمان لم يتجاوز منزلة المعاون للملك التاجر حيرام ، على تحقيق خططه ومشروعاته الواسعة النطاق ، فأما مملكته فرهينة تتجاذبها مصر وفينيقيا . وترجع أهميتها فى معظم أمرها إلى ضعف مصر الموقوت ، ذلك الضعف الذى استحث طماح الفينيقيين واستلزم منهم استرضاء القابض على مفتاح طريق آخر للتجارة إلى الشرق . كان سليمان فى عين شعبه ملكا مبذراً شديد الضغط عليهم ، وكانت مملكته قد أخذت قبل موته تتداعى وتتجزأ بددا . وينتهى بانتهاء حكم سليمان مجد العبرانيين القصير الأمد ، فإن القسم الشمالى من مملكته وهو الأكثر ثراءاً ، وقد طال تحمله عبء الضرائب المفروضة فى سبيل بذخه ، انسلخ عن أورشليم وأصبح مملكة إسرائيل المنفصلة ، وقد قصم هذا الصدع تلك العلاقة التى كانت تربط بين صور وصيدا وبين البحر الأحمر ، وهى التى كان عليها معوّل سليمان فى تألق الثروة . وليس هناك بعد ذلك أى ثراء فى التاريخ العبرانى . فأما أورشليم فإنها ظلت قصبة قبيلة واحدة ، هى قبيلة يهوذا ، وحاضرة أرض ملؤها التلال الجدبة ، تحول فلسطين (فلسطيا)، بينها وبين البحر وتحيط بها الأعداء من كل جانب .

---

(١) يستطيع القارئ إذا شاء أن يرجع إلى أسفار صموئيل والملوك الأول والأيام الثانى التى رجع إليها المؤلف من الكتاب المقدس .

وتستمر بعد ذلك ثلاثة قرون مسرحا لحروب ومنازعات دينية واغتصابات واغتيالات وقتل الإخوة للإخوة طلبا للملك . وهى قصة سافرة فى همجيتها . فإن اسرائيل تحارب يهوذا وما جاورها من دول ، وتعقد المحالفات مع إحداها ثم تعقدها مع الأخرى . وتبدأ قوة سوريا الآرامية أن تتوقد توقد نجم يؤذن العبرانيين بالشر والأذى . ثم تنهض من خلفها القوة العظيمة النامية ، قوة الأمبراطورية الآشورية الأخيرة ، ولقد ظلت حياة العبرانيين طوال ثلاثة قرون شبيهة بحياة رجل يصر على العيش فى وسط سوق صاخب فتدوسه نتيجة لهذا سيارات الجمهور والبضائع .

وكان پول ، (وواضح أنه هو تجلات بلسر الثالث نفسه TiglathPileser) أول ملك آشورى كما تقول رواية الكتاب المقدس ، ظهر فى أفق العبرانيين ، حتى اشترى مناحم Menahem الخلاص منه بألف تالنتوم talent من الفضة (٧٣٨ ق . م) وأجلاه عن البلاد . على أن قوة آشوريا تسير الآن قدما نحو أرض مصر بعد إذ تدهورت وشاخت . ويخترق طريق المغيرين أرض يهوذا ، ويعود تجلات بلسر الثالث أدراجه ويعقبه فى المسير شلما نصر فتآمر ملك إسرائيل مع مصر: تلك (القصبة المهشمة) على تبادل العون (٧٢١ ق م) فاحتجت مملكته كما ذكر آنفا ووقعت فى ربقة العبودية ، وزالت من التاريخ تمام الزوال . وكانت يهوذا عرضة لنفس المصير ولكنها نجت منه فترة يسيرة من الزمان . ولقد ذكرنا لك من قبل مصير جيش الملك سناخريب أيام حكم الملك حزقيا ٧٠١ ق م وكيف قتله ابنه (سفر الملوك الثانى الإصحاح ١٩ ، ٣٧) . وليس فى الكتب المقدسة أي إشارة لما يلى ذلك من إخضاع الآشوريين مصر . على أنه من الواضح أنه قبل حكم سناخريب ، كان الملك حزقيا يتبادل المراسلات السياسية مع بابل (٧٠٠ ق م) ، التى كانت ثائرة على سرجون الثانى ملك آشور . وتبع ذلك غزو إيسار حادون مصر ، ثم شغلت آشوريا زمانا بمشاغلها الخاصة ، ذلك أن الاسكيذيين والميديين والفرس كانوا يضغطون عليها من الشمال ، وكانت بابل نهباً للفتن . وقد أسلفنا كيف أن مصر قد خف عنها الضغط الآشورى فترة من الزمان ، شرعت تنهض من كبوتها، وكان هذا أول الأمر فى عهد أبسماتيك ثم فى عهد نخاو الثانى .

وهنا خان التوفيق مرة أخرى القطر الصغير الواقع فى الوسط فلم يحسن اختيار حلفائه . ولكن أين يجد العبرانيون السلامة وعلى كلا جانبيهم عدو ؟ فإن يوشع Josiah وقف فى وجه نخاو فذبح فى معركة ما جدو (٦٠٨ ق م) . وأصبح ملك يهوذا تابعا يدفع الجزية لمصر . ولكن عندما سقط نخاو أمام نبوخذ نصر الثانى بعد أن توغل حتى وصل إلى الفرات

سقطت يهوذا معه (٦٠٤ ق م) ، حتى إذا جرب نبوخذ نصر ثلاثة ملوك على التبعية له ، استاق غالبية الشعب أسرى إلى بابل (٥٨٦ ق م) ، وأشب الباقون نار ثورة ذبحوا فيها الموظفين البابليين ، ثم التجأوا إلى مصر فرارا من انتقام كالديا .

« وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتى بها جميعا إلى بابل وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة . وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيدا إلى أن ملكت مملكة فارس »

(سفر الأيام الثانى إصحاح ٣٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠)

وهكذا انتهت القرون الأربعة التى عاشتها المملكية العبرانية وكانت من بدايتها إلى نهايتها مجرد حادثة صغيرة بين حوادث تاريخ مصر وسوريا وآشوريا وفينيقيا ، ذلك التاريخ الأكثر سعة وعظا . ولكن جرى القدر بأن تنشأ عنها نتائج أخلاقية وعقلية ذات أهمية كبرى للبشرية كافة .

٣ — اليهود شعب مختلط الأصل

واليهود الذين قفلوا بعد فترة تربو على الجيلين عائدين إلى أورشليم من بابل أيام الملك قورش شعب مختلف جد الاختلاف عن أولئك المتقاتلين من عُباد (بعل) وعباد (ياهوه) ، وعمن يقدمون القرابين فى المرتفعات ، ومن كانوا يقدمون القرابين فى أورشليم فى مملكتى اسرائيل ويهوذا . والحقيقة المجردة المستخلصة من رواية الكتاب المقدس هى أن اليهود ذهبوا إلى بابل همجاً وعادوا منها مُمدَّنين ، فخرجوا جمهوراً مخلطا منقسما على نفسه ، لا يربطه وعى ذاتى وطنى ، وعادوا بروح قومية شديدة وجنوح إلى الاعتزال ، جعلهم ينأون بجانبهم عمن عداهم ؛ ذهبوا وليس لهم أدب مشترك معروف بينهم كافة ، إذ لم يحدث إلا قبل الأسر بأربعين عاما أن اكتشف الملك يوشع كما يقال « كتابا للقانون » فى المعبد (سفر الملوك الثانى الإصحاح الثانى والعشرون) ، وفيما عدا ذلك فليست هناك أى إشارة فى السجل إلى تلاوتهم أى كتاب ، فعادوا إلى وطنهم ومعهم القسم الأكبر من مادة العهد القديم . وواضح أن اليهود وقد تخلصوا من ملوكهم القتلة المتنازعين وحُجبوا عن السياسة ، وعاشوا فى ذلك الجو الباعث على النشاط الذهنى فى العالم البابلى ، فإن العقل اليهودى مالبث فى أثناء مدة الأسر أن خطا إلى الأمام خطوة عظيمة .

كان ذلك العصر في بابل عصر بحوث تاريخيـة وعلوم ، وكانت المؤثرات البابلية التى حملت سرداناپالوس على اقتناء مكتبة عظيمة من مخطوطات قديمة فى نينوى ، لا تزال تعمل عملها . ولقد أخبرناك من قبل كيف بلغ انشغال نابونيداس بالبحوث الخاصة بالآثار القديمة حدا جعله يهمل الدفاع عن مملـكته ضد اعتداء قورش . ومن ثم كانت كل الظروف مما يحفز اليهود المبعدين على البحث فى تاريخهم الخاص ، ثم إنهم وجدوا فى نبيهم (حزقيال) زعيما يستنهض هممهم . ومن أمثال تلك السجلات المخبأة والمنسية التى كانوا يحملونها معهم — ما بين تواريخ أنساب وتواريخ معاصرة تؤرخ لداود وسليمان وغيرهما من الملوك ، وما بين أساطير وتقاليد قديمة — صاغوا قصتهم وأطنبوا فيها ثم قصوها على بابل وعلى أنفسهم .

وقصة الخليقة والطوفان ، والـكثير من قصة موسى ، والشىء الـكثير من قصة شمشون قد جمع شتاتها من مصادر بابلية ، وهناك نصـان ، نصٌ عن قصة الخليقة ، ونص آخر عن قصة عدن ، يلوح أنهما وإن كان فى أصلهما بابليين ، كانا معروفين للعبرانيين قبل النفى .

وعندما عاد اليهود إلى أورشليم ، لم يكن قد اكتمل لهم كتاب يجمع بين دفتى سفر واحد غير الأجزاء الخمسة الأولى المسماة بالبنتاتويك (أى توراة موسى) ، ولـكن كان محتما أن يتلو ذلك تجميع سائر الـكتب التاريخية .

ولقد ظل سائر أدبهم قرونا طويلة فى صورة كتب منفصلة ، كانت تولى من الإحترام قدراً متفاوتا جدا . وبعض الـكتب المتأخرة كان — فى غير إنكار — من توليف عهد ما بعد الأسر . وقد أضيفت إلى كل هذا الأدب ، فـكرات رئيسية بأعيانها . فثمة فـكرة ، كانت هذه الـكتب نفسها تدحضها فى تفصيلها ، وهى القول بأن كل الناس قاطبـة أبناء ابراهام الخلص الدماء . وثمة فـكرة أخرى عن وعد قطعه ياهوه لأبراهام بأن يفضل الشعب اليهودى على جميع الأجناس الأخرى . و ثم فـكرة ثالثة هى ما كان يخالجهم قبل كل شىء من الاعتقاد فى أن ياهوه هو أعظم وأقوى آلهة القبائل طرا ، وأنه كان على ذلك ربا يعلو على كل الأرباب ، وأخيرا أنه كان الرب الحق الوحيـد . وانتهى الأمر بالشعب اليهودى بأن اقتنعوا عن بكرة أبيهم ، بأنهم الشعب المختار للرب الأوحد للكون كله .

وكانت هناك فـكرة رابعة نشأت نشوءا طبيعياً جدا من هاته الفـكرات الثلاث ، وهى القول بزعيم منتظر . مخلِّص للعالم ، ومسيح يحقق ما تراخى به الزمن من وعود ياهوه التى طال الأمد عليها فهذا الالتئام الذى ضم شتات اليهودفأصبحوا فى مدى هذه السنين السبعين شعبا تؤلف بينه تقاليد مكتوبة متواترة ، هو أول مثال فى التاريخ للقوة الجديدة الـكامنة بين

القرطاس والقلم فى شئون البشرية . كان ذلك الذى حدث تماسكا عقليا لم يقف أثره عند حد توحيد الشعب الذى عاد إلى أور شليم ، بل تجاوز ذلك كثيرا . وهذه الفكرة القائلة بالانتساب إلى شعب مختار قدرت له الرفعة من قبل ، كانت فكرة خلابة . واستولت هذه الفكرة أيضا على لب اليهود الذين ظلوا فى بابل ووصل الأدب الخاص بها إلى اليهود الذين كانوا مستقرين فى مصر إذ ذاك ، كما أنها أثرت فى الشعب المختلط الذى أسكن ساماريا ، (وهى العاصمة القديمة لملوك اسرائيل) عندما أبعدت القبائل العشر إلى ميديا . وهى التى أوحت إلى عدد كبير من البابليين وغيرهم أن يدّعوا فى أبراهام أبا لهم ، وأن يفرضوا أنفسهم على اليهود العائدين . وكذلك أصبح العمونيون Ammonites والمؤابيون Moabites أنصارا لهم . وسفر نحميا Nehemiah حافل بأخبار المحن التى نجمت عن انتحال هؤلاء المتطفلين لامتيازات الشعب المختار . كان اليهود من قبل شعبا متناثرا فى أقاليم ومدن كثيرة ، يوم توحدت عقولهم وأمانيهم ، ثم أصبحوا شعباً ذا نزعة انعزالية لا يقبل من عداه . ولكن نزعتهم الانعزالية كانت بادئ الرأى مجرد رغبة فى حفظ التعاليم والعبادة سليمة مصونة خشية تكرار أمثال تلك المخالفات المحزنة التى حدثت فى عهد الملك سليمان . وأقامت اليهودية زمانا طويلا فاتحة ذراعيها مرحبة بمقدم كل من ينضوى مخلصا تحت لوائها من أبناء الشعوب الأخرى .

ولا بد أن الفينيقيين بعد سقوط صور وقرطاجنة كانوا يرون الدخول فى اليهودية أمرا يمتاز بسهولته وجاذبيته . وكانت لغتهم وثيقة القربى بالعبرانية . ومن المحتمل أن الغالبية العظمى ليهود أفريقيا وأسبانيا ، كانت فى حقيقة الأمر ذات أرومة فينيقية . كذلك دخل العرب فى زمرتهم أفواجا . وكما سنلحظ فيما بعد ، كان فى جنوب الروسيا يهود من الجنس المغولى نفسه .

٤ — أهمية الأنبياء العبرانيين

والأسفار التاريخية من سفر التكوين إلى نحميا ، التى فرضت عليها فيما بعد فكرة الوعد المقطوع للشعب المختار ، كانت ولا شك العمود الفقرى الذى تقوم عليه وحدة اليهود العقلية ولكنها ليست البتة الفصل الختامى الذى يتم به الأدب العبرانى ، الذى تكون منه الكتاب المقدس آخر الأمر . وما هذا بمجال الكتابة عن أسفار من أمثال سفر أيوب Job (الذى يقال أنه محاكاة للمأساة الإغريقية) هذا إلى أنشودة سليمان ، والمزامير ، والأمثال وغيرها ،

على أن من الضرورى معالجة الكتب المعروفة بأسفار الأنبياء فى شىء من التوسع . وذلك لأن هـذه الأسفار تكاد تكون أقدم الشواهد ، بل هى ولا مراء أفضل الدلائل على ظهور صنف جديد من الزعامة فى الشئون الإنسانية ، هو زعامة الأنبياء . وليس هؤلاء الأنبياء بطبقة جديدة فى المجتمع ، إذهم أكثر الناس تبايناً فى أصولهم وطبقاتهم . فكان حزقيال مثلا من طائفة الكهنة ، وكان ذا عواطف كاهنية ، وكان عاموس Amos راعيا ، على أنهم يشتركون جميعاً فى كونهم يبثون فى الحياة قوة دينية خارج نطاق القربان وشكليات الكهانات والمعبد . ولقد يبدو الأنبياء الأول أشد الناس شبهاً بالكهنة الأول ، فإنهم يستلهمون الوحى ويتكهنون بالغيب ، ويقدمون النصح ويتنبأون بالأحداث المقبلة ، ومن الجائز أن الأمر ابتدأ إبان الأيام التى كانت العبادة فيها تقام على مرتفعات كثيرة فى البلاد ، والتى كانت الفكرات الدينية فى أثنائهـا غير مستقرة نسبيا — بأن لم يكن هناك أى فارق كبير بين الكاهن والنبى .

وكان الأنبياء يرقصون فيما يلوح على طريقة تشبه إلى حدما طريقة الدراويش ، وينطقون بالوحى . وكانوا يرتدون على وجه العموم جلبابا يميزهم مصنوعا من جلد الماعز الخشن . وكانوا يتبعون تقاليد المترحلين مناقضين بذلك طرائق المستقرين الجديدة . على أن طراز الأنبياء ظل على الرغم من بناء المعـابد وتنظيم الكهانات عاملا آخر منعزلا عن الخطة الدينية الرسمية . ولم يبرح الكهان فى الأرجح يتبرمون بالأنبياء تبرما يتفاوت قدره . إذ أنهم أصبحوا الناصحين غير الرسميين للناس فى الشئون العامة ، والناعين عليهم الخطايا والتصرفات الغريبة ، وكان لهم كيان ذاتى إن جاز مثل هذا القول . ولم يكن لهم من هاد يهديهم إلا ما يحسون من نور باطنى . والكتاب المقدس يحتوى عبارة لا تتغير وهى « وعنـد ذلك جاءت كلمة الرب إلى . . . » بكذا وكذا .

وفى الأيام الأخيرة لمملكة يهوذا وهى أشد أيامها اضطرابا وفتنة ، يوم أطبقت مصر وشمال بلاد العرب ومملكة آشور ثم مملكة بابل إطباق المنجلة على البلاد ، أصبح لهؤلاء الأنبياء شأن وقوة عظيمان وكانت دعوتهم موجهة إلى العقول القلقة الوجلة ، وكان تحضيضهم فى بادىء الأمر منصبا بخاصة إلى الندم ، وإلى هدم هذا المكان المرتفع أو ذاك وإلى إعادة العبادات إلى أورشليم وما إلى ذلك . ولـكن قد يتفق أن تظهر فى طيات بعض نبوءاتهم نغمة تشابه النغمة التى تصدر فى أيامنا هذه عمن نسميهم « بالمصلحين الاجتماعيين » وذلك أنهم لاينون عن ترديد أقوال ينقدون بها الظلم الاجتماعى . فإن الأغنياء يسحقون وجوه الفقراء

وإن المترفين ليستنفدون خبز الأطفال ، وإن ذوى النفوذ والأثرياء ليقلدون بذخ الأجانب ورذائلهم ويضحون بالعامة على مذبح هذه البدع الجديدة ، وهذا مالا يرضاه الإله «ياهوه» ، ولا مراء أنه مُنزل سخطه بالبلاد من أجله .

ولكن اتساع أفق الأفكار الذى نجم عن الأسر ، أفضى إلى تغيير نغمة التنبؤ وتوسيع مجالاتها ، فإن التماسك والانضاع اللذين يشوهان الفكرات القبلية الأولى عن الإله ، قد حلت محلهما فكرة جديدة تقول بآله ذى صلاح عام شامل . وواضح أن سلطان الأنبياء المتزايد لم يقتصر على الشعب اليهودى ، بل كان شيئاً يحدث فى تلك الأيام فى كافة أنحاء العالم السامى . فإن تحطم الشعوب والممالك وانضوائها فى إمبراطوريات ذلك العصر العظيمة السريعة التغير ، وإن تحطيم النحل والعبادات والكهانات ، وما كان يجرى من تبادل التكذيب بين المعبد والمعبد فى تنافسهما ومنازعاتهما ، — كانت كلها مؤثرات تفك عقال أذهان الناس وتفتح أمامها آفاقا أكثر سعة وأشد حرية . كانت المعابد قد جمعت كنوزا عظيمة من المواعين الذهبية ، ثم فقدت سيطرتها على أخيلة الناس .

ومن العسير علينا أن نقدر هل أصبحت الحياة فى ظلال هذه الحروب المستديمة أقل استقرارا وسعادة مما كانت عليه من قبل ؛ ولكن مما لا سبيل إلى الشك فيه أن الناس أصبحوا أشد إدراكا لما فيها من شقاوة وعدم اطمئنان . فلم يبق للناس إلا القليل من الارتياح والاطمئنان — اللهم إلا فى قلوب الضعفاء والنساء — إلى تلك القرابين والطقوس وإلى عبادات المعبد الشكلية .

هكذا كان العالم الذى شرع أنبياء إسرائيل المتأخرون يتكلمون فيه عن الرب الأوحد وعن الوعد بأنه لابد أن يأتى يوم يسود العالم السلام والوحدة والسعادة . فهذا الإله العظيم الذى شرع الناس إذ ذاك فى الكشف عنه ، كان يعيش فى معبد لم تصنعه يد ، وهو سرمدى فى السموات ، ولا يخالجنا إلا القليل من الشك فى وجود مقدار عظيم من أمثال هذه الأفكار وتلك الأقوال فى مملكة بابل ومصر وفى كل أرجاء الشرق السامى . وأسفار الأنبياء فى الكتاب المقدس لا تعدو أن تكون نماذج لتنبؤات ذلك الزمان .

ولقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى تحرر الكتابة والعرفان تدريجيا ، من أفقهما المحدود المقصور على الكهنة وخدم المعبد وحرمه المقدس ؛ أعنى من تلك القوقعة التى نمت فيها وترعرعت أول الأمر . ولقد اتخذنا من هيرودوت نموذجا شائقا لما أطلقنا عليه اسم الذكاء الطليق للجنس البشرى ؛ وها نحن أولاء نعالج فيضا جديدا مماثلا لذلك القديم الذى تم به

انطلاق الكتابة من المعبد ، قوامه أفكار أخلاقيــة تنساب فى المجتمع العام . وإن فى ظهور الأنبياء العبرانيين ، وفى الانتشار المطرد الذى لقيته فكراتهم النازعة إلى الاعتقاد بوجود رب واحد فى هذا العالم بأسره ، لتطوراً آخر مماثلا لذاك ، تهيأ لضمير البشرية الحر . ومنذ ذلك الزمان فصاعداً ، والفكر الإنسانى تخالجه — إما فى شىء من الضعف والخفاء ، وإما على حالة من التآزر وتجميع القوى — فكرة تهدف إلى إقامة حكم واحد فى العالم ، وفكرة أمل واحتمال وجود سلام فعال بديع وسعادة رائعة فى الشئون الإنسانية . بذلك خرجت الديانة العبرانية من ديانة معبد من الطراز القديم ، وأصبحت إلى حد كبير ديانة أنبياء إنشائية وذات طراز جديد ، ثم تعاقب الأنبياء .

ثم ولد فيما تلى ذلك من أيام — كما سنذكر لك — نبى ذو قوة لم يسبق لها مثيل ، هو عيسى ، الذى أسس أتباعه تلك الديانة العالمية العظيمة ، وأعنى بها الديانة المسيحية . وبعد ذلك ظهر أيضاً نبى آخر ، هو محمد ، وكان ظهوره فى بلاد العرب ، وقد أسس الإسلام .

وعلى الرغم من انفراد كل منهما بخصائصه المميزة ، فإن هذين المعلمين قد نشآ بطريقة ما على شاكلة هؤلاء الأنبياء اليهود .

وليس من عمل المؤرخ أن يناقش صدق الدين أو كذبه ، وإنما يقتصر عمله على تسجيل ظهور الفكرات الإنشائية العظيمة . فمنذ ألفين وأربعمئة من السنين ، وبعد أن انقضت ستة أو سبعة أو ثمانية آلاف من السنين ، على بناء حوائط المدن السومرية الأولى ، ظهرت فى العالم فكرة وحدة البشرية ، الوحدة المعنوية ، وفكرة السلام العالمى .

الفصل التاسع عشر

الشعوب المتكلمة بالآرية فى عصور ما قبل التاريخ

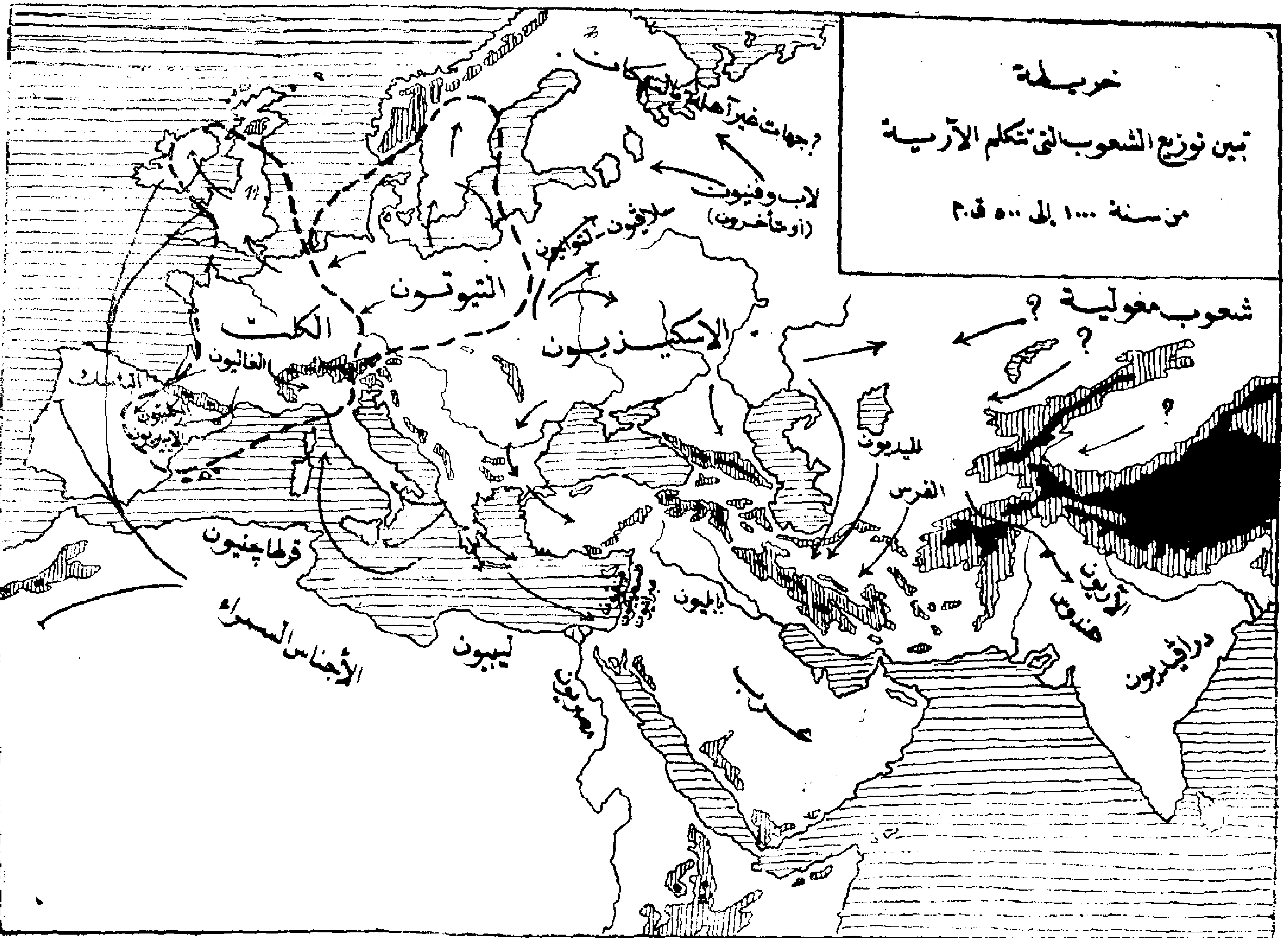
١ — انتشار الناطقين بالآرية   ٢ — الكلام عن حياة الآريين الأصلية .
٣ — العائلة الآرية .

---

١ — انتشار الناطقين بالآرية

تكلمنا عن اللغة الآرية بوصفها لغة نشأت فيما يرجح فى إقليم الدانوب وجنوبى الروسيا ، ثم انتشرت من منطقتها الأصلية إلى مناطق أخرى ، ونحن إنما نقول (على الأرجح) لأنه لم يثبت قط ثبوتاً محققا أن ذلك الإقليم كان مركزها ، ولقد أثيرت حول هذا الموضوع مناقشات عظيمة ، وحدث بصدده اختلاف كبير فى الرأى . فنحن إنما نقدم إليك وجهة النظر السائدة ، كانت تلك اللغة فى الأصل لغة مجموعة من الشعوب النوردية الجنس . فلما أن انتشرت الآرية انتشارا واسعا أخذت فى التفرع والانقسام إلى عدد من اللغات الثانوية ، فالتقت فى الغرب والجنوب بلغة « الباسك » التى كانت سائدة فى اسبانيا ، ولعلها لقيت أيضاً لغات أخرى متنوعة على شواطئ البحر الأبيض .

وقبل انتشار الآريين من بلادهم الأصلية نحو الجنوب والغرب كان الجنس الأيبيرى موزعا بين بريطانيا العظمى ، وإرلندا وفرنسا وأسبانيا وأفريقيا الشمالية وإيطاليا الجنوبية ، كما كان على حالة أكثر مدنيـة وتحضراً فى بلاد الإغريق وآسيا الصغرى ، وكانت بينه وبين المصريين صـلات وثيقة . وإذا حكمنا قياسا على آثارهم الباقيـة فى أوربا ، قلنا إنه يكاد يكون طرازا إنسانيا صغير الحجم ، كان بوجه عام بيضاوى الوجه مستطيل الرأس . وكان يدفن رؤساءه وذوى المكانة من أفراده فى حجرات من الجنـدل — أعنى مبنية من الأحجار الضخمة ، ومغطاة بروابى عظيمة من التراب ولما كانت هذه الروابى أكثر طولا منها عرضا ، فإنها تعرف باسم الرواميس (التلعات) المستطيلة ، وكان هؤلاء الأقوام يلجأون فى بعض الأحيان إلى الكهوف ، كما كانوا أيضا يدفنون بعض موتاهم فيها . ومن آثار العظام الإنسانية ، سواء المحترق منها والمهشم والمقطع ، بما فى ذلك عظام الأطفال — نستنتج أنهم كانوا من أكلة لحوم البشر .



٥٩ — خريطة توزيع الشعوب الناطقة بالآرية

فهذه القبائل الأيبيرية القصيرة الأجساد الداكنة اللون (يضاف إليهم الباسك إن فرض أنهم كانوا شعبا مغايرا) قد ردوا إلى الخلف جهة الغرب ، ثم هزموا واستعبدوا على أيدى موجات تتقدم وئيدا ، من أولئك الناطقين بالآرية الأطول قامة والأشد شقرة ، الذين زحوا نحو الجنوب والغرب عابرين أوربا الوسطى ، وهم الذين نسميهم الكلْت (Kelts) . ولم يقف فى وجه ذلك اللسان الآرى القاهر غير شعب الباسك وحده . وشرع أولئك الناطقون بالكلتية يتخذون طريقهم رويداً رويداً نحو المحيط الأطلسى ، وكل ما يتبقى اليوم من أعقاب الأيبيريين مختلط بالسكان الكلتيين . ولا زال موضوع المدى الذى وصل إليه تأثير الغزو الكلتى فى السكان الإيرلنديين ، مدار جدل إلى وقتنا هذا . وربما كان الكلت فى تلك الجزيرة مجرد طائفة من الغزاة فرضوا لغتهم على رعية من السكان أكثر عددا . وربما صح مثل هذا القول عن أسبانيا . بل يشك بعض الناس فيما إذا كان شمال انجلترا نوردى الدم أو يغلب عليه الدم السابق للكلتى . فإن بين أهل ويلز من هو قصير داكن البشرة ، وإن بين الإرلنديين لطرازات معينة إيبيرية الجنس . والبرتغاليون العصريون يغلب عليهم كذلك الدم الأيبيرى .

وكان الكلت يتكلمون لغة هى الكلتية ، يقال عنها إنها كانت تجمع بين مفردات آرية ، وبين أجرومية البربر Berbers (أى الأيبيريين) ، وهى اللغة التى قدر لها أن تتفرع بدورها فتصبح اللغات الغالية ، والويلزية ، والبريطونية Briton ، والإسكتلندية ، والإرلندية الغيلية Gaelic ، وألسنة أخرى . وكان الكلتيون يدفنون رماد رؤسائهم فى رواميس (تلعات) مستديرة . وعلى حين كان هؤلاء الكلتيون النورديون ينتشرون غربا ، كانت هناك شعوب آرية نوردية أخرى تضغط جنوبا على شعب البحر المتوسط ذى اللون الأبيض الداكن فى أشباه الجزائر الإيطالية والأغريقية ، وتطور مجاميع الألسن اللاتينية والإغريقية . وثمة أنماط أخرى آرية تندفع نحو البلطيق وعبره حتى تدخل اسكنديناوه ، وهى تتكلم ضروبا من الآرية أصبحت النورسية القديمة — وهى أصل السويدية والدانمركية والنرويجية والإيسلندية — والقوطية والجرمانية العليا والسفلى .

وفى نفس الوقت الذى كان اللسان الآرى البدائى ينتشر على هـذا النحو ، وينقسم إلى لغات وليدة فى الغرب ، كان ينتشر ويتفرع فى الشرق كذلك . فإن القبائل الناطقة بالآرية كانت تستعمل فى شمال جبال الكربات والبحر الأسود لهجة تميزها تسمى السلافونية (الصقلبية) التى منها جاءت الروسية والصربية ، والبولندية ، والتشيكية وألسنة أخرى . وثمة لهجات أخرى للغة الآرية موزعة فى آسيا الصغرى وبلاد إيران ، تجسمت فى صورة الأرمنية

(والهندو إيرانية) وهى أم اللغتين السنسكريتية والفارسية . ولقد أطلقنا فى هذا الكتاب كلمة الآرية على كل هذه العائلة الضخمة من اللغات ، وإن كان اصطلاح الهندوأوربية مستعملا فى بعض الأحيان للدلالة على العائلة بأسرها ، على حين اقتصر استعمال كلمة الآرية على حيز أضيق هو اللسان الهندو إيرانى . ثم قدرت الأيام لهذا اللسان الهندو إيرانى أن يتشعب فيما بعد فيصبح عددا من اللغات من بينها الفارسية ، والسنسكريتية ، والأخيرة إنما هى لغة قبائل بعينها من الناطقين بالآرية ذوى البشرة الشقراء ، زحفوا شرقا ودخلوا الهند فى زمان ما بين ٣٠٠٠ ، ١٠٠٠ ق م ، وتغلبوا على الشعوب الدراڤيدية السمراء الذين كانت تلك الأرض فى أيديهم إذ ذاك .

ولقد انتشرت قبائل آرية أخرى من مجال جولانها الأصلى فى شمال البحر الأسود ، كما انتشرت فى جنوبيه ، كما ساروا ملازمين شواطئ بحار تلك المنطقة أثناء انحسارها أمامهم ، فساروا فى شمال بحر قزوين وشرقه ، وبذلك أخذت تنشب المنازعات ، فضلا عن الاختلاطات بينهم وبين الشعوب المغولية من مجموعة الأورال آلتاى اللغوية ، وهم القوم الذين يربون الحصان فى سهوب آسيا الوسطى المعشبة . ويلوح أن الآريين اكتسبوا طريقة استخدام الحصان فى الركوب والحرب من هاته الشعوب المغولية . ولقد كانت هناك فى عصر ما قبل التاريخ ثلاثة أو أربعة أضرب أو أنواع فرعية من الحصان فى أوربا وآسيا . على أن أرض السهوب أو الأراضى شبه الصحراوية هى التى أعدّت فى مبدأ الأمر خيولا ذات بنية موطأة لغاية أخرى غير أمر الإنتفاع به فى الغذاء .

ولزام علينا أن ندرك أن كل هذه الشعوب القاطنة السهوب الروسية والآسيوية ، كانوا يغيرون موطنهم بسرعة . ذلك أن تعاقب الفصول المتطرفة المناخ ، ربما قذف بهم مئات كثيرة من الأميال . وليس فى ميسورنا اليوم أن نستدل على مضارب أقدامهم وتنقلاتهم إلا على سبيل الظن والإستدلال . فكانوا ينزحون إلى الشمال فى كل صيف ، ثم يعودون أدراجهم إلى الجنوب من جديد عند ما يحل الشتاء . وكان هذا التأرجح السنوى يقطع فى بعض الأحيان مئات الأميال . ونحن فى خرائطنا — رغبة منا فى التبسيط — نمثل انتقالات الشعوب المترحلة بخط مستقيم ، وإن كانوا فى حقيقة الأمر يتحركون فى تأرجحات سنوية مثلهم فى ذلك مثل خادم يكنس دهليزا فتنتقل مكنسته من جانب إلى جانب آخر وهو يخطو إلى الأمام فى عمله . وكانت المنطقة الممتدة حول شمال البحر الأسود وربما كذلك شمال بحر قزوين ، والمبتدئة من نطاق القبائل التيوتونية الأصلية القاطنة فى أوربا الوسطى ، وأوربا الوسطى

الشمالية حتى منطقة الشعوب الإيرانية التى تفرعت إلى الميديين والفرس والهنود (الآريين) هى أراضى الرعى التى تنتجعها قبائل اختلط حابلها بنابلها ، اختلاطا يحسن بنا إزاءه ويكون أقرب إلى الصدق أن نتكلم عنها على حال من الإبهام لا الدقة ، وهى قبائل من أمثال السمّريين ، والسرماتيين وأولئك الإسكيذيين الذين اشتركوا مع الميديين والفرس فى الاتصال بطريقة فعالة بالإمبراطورية الآشورية ، قرابة سنة ١٠٠٠ ق م أو قبلها .

وإلى الشرق والجنوب من البحر الأسود ، بين الدانوب وبين الميديين والفرس وإلى الشمال من الشعوب السامية وشعوب البحر الأبيض المتوسط الساكنة على السواحل ، وفى أشباه الجزائر ، كانت تنتشر سلسلة أخرى من قبائل آرية لا تقل عن الأخرى فى عدم تحديد مستقراتها ، وهى تنتقل تنقلا سهلا هينا من مكان إلى آخر وتختلط اختلاطا حراً ، وهو أمر تنجم عنه ربكة عظيمة للمؤرخين . فيلوح عليهم مثلا أنهم مزقوا الحضارة الحيثية وتمثلوها ، وهى التى كانت فيما يرجح سابقة للآريين فى أصل نشأتها . وربما لم يكن هؤلاء الآريون الأخيرون قد وصلوا إلى نفس المرحلة العالية من حياة الترحل التى بلغها إسكيذيو السهول العظيمة .

٢ — الكلام عن حياة الآريين الأصلية

أى نوع من الحياة كان يعيشه هؤلاء الآريون فى عصر ما قبل التاريخ ؟ أولئك الآريون النورديون الذين هم أهم أسلاف معظم الأوربيين ومعظم الأمريكيين البيض والمستعمرين الأوربيين فى أيامنا هذه ، كما هم أسلاف الفرس والطائفة العليا من الهندوس ، وربما كانوا أيضا أسلاف الأرمينيين ، على أن هؤلاء الأخيرين كانوا على الأرجح — شعبا غير آرى ولعلهم شعب حيثى — تعلم لغة آرية .

ولدينا فى الإجابة عن هذا السؤال مصدر جديد من مصادر المعرفة يضاف إلى ما كشف عنه الحفر من الآثار والبقايا التى التزمنا أن نعتمد عليها فى حالة أسلاف الآريين ، لدينا ميدان اللغة نطرقه . ذلك أن دراسة اللغات الآرية دراسة عناية وتمحيص ، تبين أن من الممكن استنتاج طائفة من النتائج عن حياة هؤلاء الشعوب قبل ٥٠٠٠ أو ٤٠٠٠ سلفت من السنين فإن بين كل هاته اللغات مشابهة عامة . وهى جميعا كما سبق أن بينا تدخل على الكلمات تغييرات تحدث فى أصوات الحروف رنات شتى وتقوم على عدد من أصول (جذور) الكلمات المشتركة . فمتى وجدنا نفس أصل الكلمة وجذرها متداولا فى كل هذه الألسن أو جلها بدا من المعقول

أن تستنتج أن المعنى الذى يومئ اليه أصل الكلمة هذا ، كان لا ريب معروفا للأجداد المشتركين . وبديهى ، أنه إن وجدت بلغاتهم نفس الكلمة بالضبط فربما اختلف الحال إذ أنها قد تكون اسماً جديداً دالا على شيء جديد أو فكرة جديدة ، انتشرت فى العالم فى زمان حديث جداً ، فكلمة (غاز) مثلا لفظة صاغها « فان هلمونت » وهو كيماوى هولندى ، حوالى سنة ١٦٢٥ ، فانتشرت فى معظم الألسن المدنة ؛ وكلة (التبغ) كذلك كلة هندية أمريكية ، جاءت فى أثر انتشار التدخين فى كل مكان تقريبا . على أنه إذا وجدت نفس الكلمة فى عدد من اللغات (وإذا كانت تتبع فى تصريفاتها خصائص التصريف فى كل لغة على حدة) جاز لنا أن نوقن أنها كانت فى تلك اللغة ، وأنها ظلت جزءا من تلك اللغة ، منذ البداية ، وأنها قد مرت عليها نفس التغييرات التى مرت على سائر ألفاظ تلك اللغة . وإنا لنعرف مثلا أن الكلمتين الدالتين على العربة والعجلة تتداولان على هذا المنوال فى جميع الألسن الآرية ، وبذلك نستطيع أن نستنتج أن الآريين البدائيين ، وأعنى بهم الآريين النورديين الخلّص ، كانت لديهم العربات ، وإن كان يبدو من عدم وجود أى كلمات مشتركة دالة على برانق العجلة وإطارها ، ومحورها ، أن عجلاتهم لم تكن من صنع صانع عجلات ولا كانت ذات برانق ، بل كانت تؤخذ من جذوع الشجر ، وتسوى الأجزاء الوسطى بين الأطراف ببلطة .

وكانت هذه العربات البدائية تجرها الثيران ، إذ لم يكن الآريون الأول يركبون أو يسوقون الخيل ، ولم يكن للخيل عندهم كبير منفعة .

كان المغول النيوليثيون « فى العصر الحجرى الجديد » شعبا من الفرسان راكبى الخيل ، على حين كان الآريون النيوليثيون شعبا من البقارة ، فكانوا يأكلون لحم البقر ، وليس لحم الحصان . وشرعوا بعد عصور كثيرة فى استعمال الماشية فى الجر ، وكانوا يقدرون الثراء بعدد الأبقار ، ويضربون بها فى الأرض طلبا للمرعى ، ويحملون بضائعهم على عرباتهم التى تجرها الثيران كما يفعل بوير أفريقيا الجنوبية ، وإن لم يخف بالطبع أن عرباتهم كانت أقبح شكلا من أى عربة توجد الآن فى العالم ، والراجح أنهم كانوا يتنقلون فى مناطق فسيحة شاسعة الأرجاء ، إذ كانوا شعباً نزوعا إلى الهجرة ، ولكنه لا يدخل تحت المعنى الدقيق الذى تحمله كلة « الترحلين » إذ ينتقلون انتقالا أبطأ وأثقل حركة من الشعوب التى أصبحت فيما بعد هى الشعوب المترحلة الأكثر تخصصاً . كانوا قوم غابات أو أحراش خفيفة Park lands ولا حصان لديهم ، وكانت حياتهم تتطور صوب الهجرة متحولة عن الحياة النيوليثية الأولى الأكثر استقرارا ، والمشتغلة بقطع الغابات ، وقد تكون التغيرات المناخية التى كانت تحيل

الغابات إلى مراعى ، هذا إلى احتراق الغابات بالنار عرضاً ، من العوامل المساعدة على هذا التطور

ولقد سبق أن وصفنا لك نوع البيت الذى كان يسكنه الآرى البُدائى ، كما وصفنا لك حياته المنزلية ، بقدر ما سمحت لنا بقايا أكوام المساكن السويسرية . وكانت منازله فى معظم أمرها بالغة من الضعف والركاكة كما كانت مصنوعة على الراجح من فروع الأشجار المشبكة والطين ، بحيث لم يبق لها أثر . ولعله كان يتركها لأتفه الأسباب ، راحلا عنها بعرباته التى تجرها الأبقار . وكانت الشعوب الآرية تحرق موتاها ، وهى عادة لا يزالون يرعونها فى الهند ، على أن أسلافهم أصحاب الرواميس (التلعات) المستطيلة وهم الأيبيريون . كانوا يدفنون موتاهم راقدين على جنوبهم فى هيئة الجالسين . وفى بعض ركام الدفن الآرية القديمة (وهى الرواميس المستديرة) ، كانت الأوعية المحتوية على رماد الراحلين مصنوعة على شاكلة المنازل ، وهذه تمثل أكواخا مدورة لها سقوف من القش .

وكان انتجاع الآرى البدائى للمرعى ، أعظم أهمية لديه من الزراعة . وكان يزرع فى مبدأ الأمر بفأس خشبى خشن . ثم مالبث حيناً كتشف استخدام الماشية لأغراض الجر ، أن بدأ فى الحراثة الحقيقية بالثيران متخذا محراثه فى مبدأ الأمر من فرع شجرة معوج اعوجاجا يفى بحاجته . وزراعته الأولى التى ظهرت قبل هذه ، لاشك أنها كانت أقرب إلى صورة البساتين الصغيرة المجاورة لمبانى المنازل منها إلى زراعة الحقول . وكانت معظم الأراضى التى يسكنها قبيلة أرضا مشاعة ترعى فيها الماشية بعضها مع بعض .

وهو لم يستعمل الحجر قط فى بناء جدران المنازل ، حتى شارف حافة العصر التاريخى ذاتها ، وكان يستعمل الحجر فى المواقد (أمثال ما يوجد فى جلاستونبرى Glastonbury) ، كما كان يستعمل الحجر أحيانا فى الأجزاء السفلى من المبانى . على أنه قد شاء بالفعل نوعا من البيت الحجرى فى وسط الركام العظيمة التى كان يدفن فيها رماد النابهين من موتاه . ولعله تعلم هذه العادة عن جيرانه وسابقيه الأيبيريين . فقد كان هؤلاء البيض الداكنون أصحاب الثقافة الجندلية[1] (الميجاليثية) . وليس الآريون البدائيون هم أصحاب الفضل فى إقامة معابد من أمثال (ستونهنج Stoneheng) فى (ولتشير Wiltshire) أو (كارناك Carnac) فى (بريتانى Brittany) . وما كان هؤلاء الآريون يحتشدون فى مدن ، ولكن فى مناطق للرعى ، فى هيئة عشائر ومجتمعات قبيلية ، ويؤلفون فيما بينهم أحلافا مفككة تهدف إلى

---

(١) الجندل هو الصخر العظيم والجندلى تعريب لكلمة Migalithic ومعناها المكون من الصخور العظيمة .

التعاون المتبادل بزعامة رؤساء مختارين . وكانت لهم مراكز يستطيعون أن يلجأوا إليها مع ماشيتهم إن دهمهم خطر ، وكانوا يقيمون المخيمات المحوطة بالجدران الطينية والسياجات . وما نزال علينا حتى الآن تقصى آثارها فى طيات ما عفى عليه التاريخ من معالم الأراضى الأوربية . والزعماء الذين كانوا يقودون الناس فى الحرب ، هم فى غالب الأمر نفس الأشخاص الذين يقومون بالتطهير من الرجس بتقديم القرابين ، وهم كهنتهم الأول .

وقد انتشرت المعرفة بالبرونز فى أوربا فى أوان متأخر فإن الأوربى النوردى ظل يسير فى سبيل التقدم البطىء عقداً بعد عقد مدة ترامت إلى ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ سنة قبل ظهور المعادن ، وكانت حياته الاجتماعية قد تطورت فى تلك الفترة حتى لقد كان هناك رجال ذوو حرف مختلفة فضلا عن رجال ونساء من مراتب مختلفة فى المجتمع ، فكان هناك رجال يعملون فى الخشب والجلد ، وكان ثم الفخرانيون والحفارون ، وكان النساء يغزلن وينسجن ويطرزن ، وكان هناك رؤساء وعائلات تسنموا مراتب الزعامة والنبالة وكان الرجل من أفراد القبيلة الآرية يذهب عن نفسه سآمة حياة الرعى والتجول بأن ينذر النذور ويقيم الحفلات ابتهاجا بالنصر ، ويقيم الجنازات ويميز بين فصول السنة التقليدية بما يقيم من أعياد ، ولقد مر بنا من قبل حديث اللحوم التى كان يتناولها ، وكان شغوفا بتناول المشروبات المسكرة ، يصنعها من الشهد ومن الشعير ثم عاد فصنعها من العنب مع انتشار القبائل الناطقة بالآرية جنوباً فتتملكه نشوة السكر والمرح . ولسنا نعرف إذا كان قد عرف الخميرة لتخفيف خبزه ورفعه أو لتخمير مشروباته ، وكان فى ولائمه أفراد أوتوا موهبة المجون والسخر يعمدون إلى ذلك لا جرم ، للفوز بضحك إخوانهم . على أنه كان هناك نوع آخر من الرجال أوتوا أهمية عظيمة فى عصرهم وأهميتهم لدى المؤرخ أعظم وأكبر ، أولئك هم بعض المغنين الذين كانوا يرجّعون الأغانى ويروون القصص ، وهم الشعراء أو المنشدون المتجولون . وكان هؤلاء الشعراء يعيشون بين ظهرانى كافة الشعوب الناطقة بالآرية .

جاء ظهورهم نتيجة لذلك التطور الذى أصابته لغة الكلام بل هم عامل آخر مساعد فى تطور تلك اللغة التى كانت رأس كل ما أصاب الإنسان من تقدم فى الأزمان النيوليثية . وكانوا ينشدون أو يلقون أقاصيص عن الماضى ، أو أقاصيص عن رئيسهم الراهن وشعبه ، وينشدون أقاصيص أخرى استحدثوها ، وكانوا يستظهرون النكات والقفشات ، وهم الذين استحدثوا الأوزان والقوافى وتمسكوا بها وحسنوها كما وفّقوا إلى السجع والجناس (فى الحروف الأولى من الكلمات) وما شابه ذلك مما يتهيأ فى اللغة من احتمالات ، وأتقنوها وضبطوها .

والراجح أنهم بذلوا جهداً كبيراً فى إحكام قواعد اللغة ووضعها على أسس ثابتة . وكانوا فيما يحتمل أول من أمتع الآذن من عظماء الفنانين على نحو ما كان مصورو الصخور الأورينيا كيون فيما بعد أول عظماء الفنانين الذين نعمت بآثارهم الأيدى والعيون ، ولا ريب أنهم كانوا يأتون بالكثير من الحركات والإشارات ، والراجح أنهم كانوا يتعلمون الحركات والإشارات المناسبة وهم يحفظون أناشيدهم . على أن ترتيب اللغة وعذوبتها وقوتها كانت لا جرم شغلهم الشاغل .

وهؤلاء الشعراء يؤذنون بخطوة جديدة تقدمتها إلى الأمام قوة العقل الإنسانى وآفاقه ، وإليهم يرجع الفضل فى توجيه أذهان الناس إلى شعور جديد « بكائن » أكبر من أشخاصهم هو القبيلة ، وشعور بحياة ترجع إلى الماضى البعيد ، فلم يقتصروا على مجرد تذكير قومهم بقديم الإحن والمعارك ، بل أخذوا يترنمون بذكرى المحالفات القديمة والتراث المشترك ، فبُعثت على أيديهم جلائل أعمال السالفين من الأبطال . وبذا صار الآريون يعيشون فى الخيال قبل مولدهم وبعد انتهاء أجلهم .

وهذه التقاليد الشاعرية نمت فى مبدأ الأمر نموا وئيدا ، ثم مالبث نموها أن زاد سرعة ، شأن معظم أمور الإنسان ، حتى إذا حان الزمان الذى كان البرونز يدخل فيه إلى أوربا ، لم يكن هناك شعب آرى واحد لا يقوم فيه احتراف الشعر وتدريب الشعراء ، وعلى أيديهم أصبحت اللغة كأجمل مايمكن أن تكون ، فقد كان هؤلاء الشعراء كتباً حية ، وكانوا تواريخ فى صورة رجال ، وكانوا قوامين ومنشئين لتقاليد جديدة فى الحياة الإنسانية أشد قوة ، وكان لكل شعب آرى سجله الشاعرى الطويل يتوارثونه على هذا الوجه نقلا وسماعا ، فكان للألمان قصائد الساجا ، كما تسميها اللغة التيوتونية ؛ وللإغريق ملاحمهم وللهنود الآريين شعرهم القصصى الفيدانتى بالسنسكريتية القديمة ، وأقدم الشعوب الآرية كان بحكم الضرورة شعب صوت ، إذ يلوح أن الإلقاء كان متسلطا على كل شيء حتى على تلك الرقصات الطقوسية والتمثيلية (الدرامية) وعلى ارتداء ثياب الماضى وأشكاله وهى أمور كان لها أيضا لدى معظم الشعوب الإنسانية الفضل فى نقل التقاليد من السلف إلى الخلف .

ولم تكن هناك فى ذلك الزمان كتابة ، ولما أن تسرب فن الكتابة لأول عهده فى أوربا ، كما سنقص عليك نبأه فيما بعد ، فلا بد أن الناس رأوا فيه طريقة بتسجيل أشد ماتكون بطئا أو سماجة وجموداً ، حتى لكادوا أن يضنُّوا بتدوين هذه الكنوز الوهاجة الجميلة التى تعيها ذاكرتهم . وقُصرت الكتابة فى أول الأمر على الحسابات والحقائق الواقعية .

وازدهر شأو الشعراء والزجالين المتجولين ، حتى بعد إدخال الكتابة بزمن بعيد جدا ، بل الواقع أنهم بقوا فى أوربا حتى العصور الوسطى فى صورة المنشدين (Minstrels).

ولم يكن لتقاليدهم لسوء الحظ ما للسجل المكتوب من ثبات . إذ أنهم كانوا لا ينفكون يصلحون ويهدمون ويبنون ، وكانت لهم طرائقهم ، وكانت لهم نواحى إهمالهم . فترتب على ذلك أن لم يبق من ذلك الأدب غير المسطور لعصور ما قبل التاريخ غير آثار ضئيلة داخلها الشىء الكثير من التحوير والتحريف والتنقيح . ومن أمتع تواليف الآريين قبل التاريخ وأحفلها بالمعلومات تلك الملحمة الباقية المتمثلة فى الإلياذة الإغريقية . ويرجح أن صيغة أولى من الإلياذة ، كانت تتلى على الناس إبان ١٠٠٠ ق م . ولكن لعلها لم تسطر حتى (٧٠٠ أو ٦٠٠ ق م) ولابد أن لكثير من الرجال يدا فيها ، إما مؤلفين أو محسِّنين منقحين . على أن ما عقب ذلك من التقاليد الإغريقية تنسبها إلى شاعر ضرير يدعى هوميروس ، كما ينحلونه كذلك الأوذيسيا . وهى مؤلف شديد الاختلاف عنها فى الروح والنظرة . ويحتمل أن يكون بين الشعراء الآريين كثير من المكفوفين . والشعراء كما يقول الأستاذ ج . ل ميرز Myres كانوا يُسلبون البصر لمنعهم من الشرود من القبيلة . ولقد رأى المستر ل . لويد . موسيقاراً لدى جوقة ممن احترفوا الرقص من أهالى روديسيا ، وقد سلبه رئيسه بصره لهذا السبب عينه . وكان السلاف (الصقالبة) يسمون الشعراء باسم سليباك Sliepac ، وهى الكلمة التى يطلقونها على الرجل الضرير .

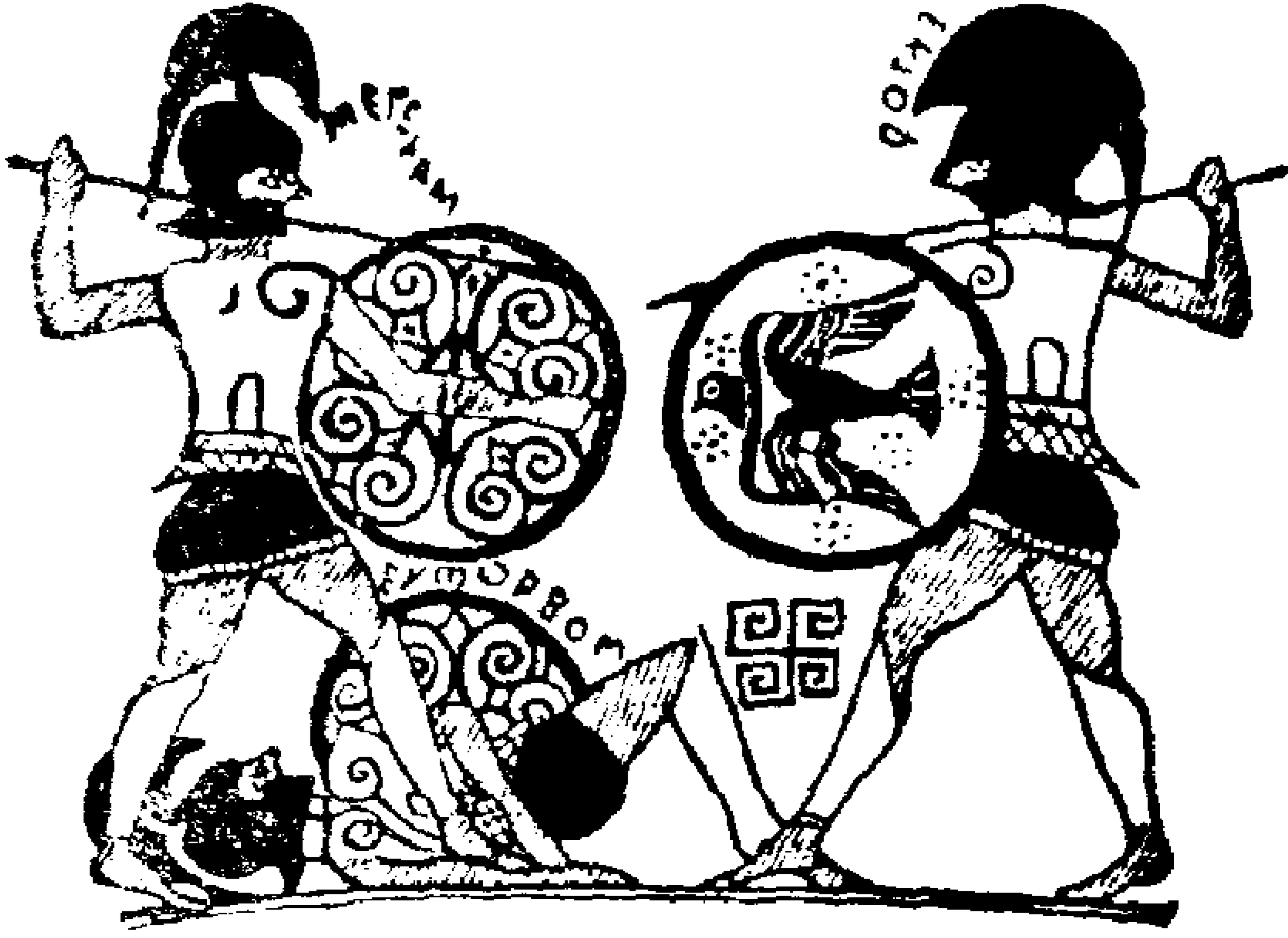
ونص الإلياذة الأصلى الذى كان الناس يتلونه أقدم من الأوذيسيا عهدا . ويقول الأستاذ جلبرت مرى : « إن الإلياذة بوصفها أثرا شعريا نص كامل أقدم من الأوذيسيا عهداً ، وإن كانت مادة الأوذيسيا وهى فى معظمها من القصص الشعبى (الفولكلور Folk-lore) الذى لا يمكن تحديد تاريخه ، أقدم من أية مادة تاريخية فى الإلياذة . ويرجح أن كلا من الملحمتين كتبت مرة ثانية ، ثم أعيدت كتابتها فى تاريخ لاحق ، على نفس النحو الذى أعاد به لورد تنيسون أمير شعراء الملكة فكتوريا فى كتابه أناشيد الرعاة الملكية ، كتابة قصة « موت آرثر » وهى بذاتها التى أعاد كتابتها السير توماس مالورى قرابة ١٤٥٠ ، نقلا عن الأساطير السابقة لعصره ، وفيها جعل الأقوال والمشاعر والشخصيات أقرب إلى الاتساق مع عصره هو . على أن حوادث الإلياذة والأوذيسيا ، وطريقة العيش التى تصفان ، وروح الأفعال المدونة فيهما ، تنتمى إلى القرون التى تختم عصرما قبل التاريخ ، ثم إن هاته الأشعار سواء منها الساجا والملاحم والفيدا تمدنا هى وعلم الآثار القديمة وعلم فقه اللغة بينبوع ثالث للإحاطة

بهاته الأزمان البائدة . وإليكم مثلا فقرة الإلياذة الختامية ، وهى تصف على وجه الضبط طريقة إقامة الراموس قبل التاريخ[1] :—

أسرعوا جملة لشد البغال وقوىّ الثيران حول المجال
ثم ساروا بهن فورا وجدوا وإلى السور أقبلوا أسرابا
أنهرا تسعة بجمع الضرام لبثوا ثم عاشر الأيام
رفعوا الميت والعيون هوام
فوق ذاك الوقود ثم النارا أضرموها به تؤج أوارا
ولهم حين لاح ورد بنان الـ فجر من حوله أقاموا عصابا
حيث هبت لواهب النيران أخمدوها بصرف خمر الدنان
ولفيف الإخوان والخلان
جمعوا كل أعظم الميت جمعا بكئيب الفؤاد يذرون دمعا
أودعوها من ثم حق لجين وكسوه برفيرهم[2] جلبابا
أنزلوها فى حفرة حفروها وبجلمود صخرهم طمروها
ثم شادوا الضريح إذ دفنوها
وحواليه أوقفوا الأرصادا من السرى قروما شدادا
خشية من عدوهم أن يفاجى بغتة حين غفلة واحتسابا
وإذا القبر أكملوا وأتموا صرح ذاك المليك فريام أموا
حيث حوليه للعزاء انضموا
ولهم هيأ المليك طعاما كان فى مأتم الفقيد ختاما
ذاك ما كان مناحة هكطو ر الذى روّض الجياد الصلابا

(١) اعتمد المؤلف فى هذا الاقتباس على ترجمة شابمان الشعرية للالياذة ونقلناها نحن عن ترجمة البستانى العربية لها .

(٢) البرفير والفرفير ضرب من الألوان مركب من الأحمر والأزرق ، والثوب صبغ به ويعرف بالأرجوان .



٦٠ — القتال بين منيلوس وهكتور

وما تزال هناك أيضاً ملحمة انجليزية قديمة (أى ساجا) هى (بيوولف) (Beowulf) وقد صنفت قبل عبور الانجليز من ألمانيا إلى إنجلترا بزمن طويل ، وهى تختتم بوصف منظر للدفن شبيه بذلك ، وهى تبدأ بالحديث عن إعداد كومة الحطب للاحراق ، وقد علقت من حولها التروس والدروع ، وتحمل الجثة وتوقد النار ، وبعد ذلك يدأب المحاربون على إقامة تلعة ضخمة لكى يراها عن بعد كل مسافر بالبر أو البحر .

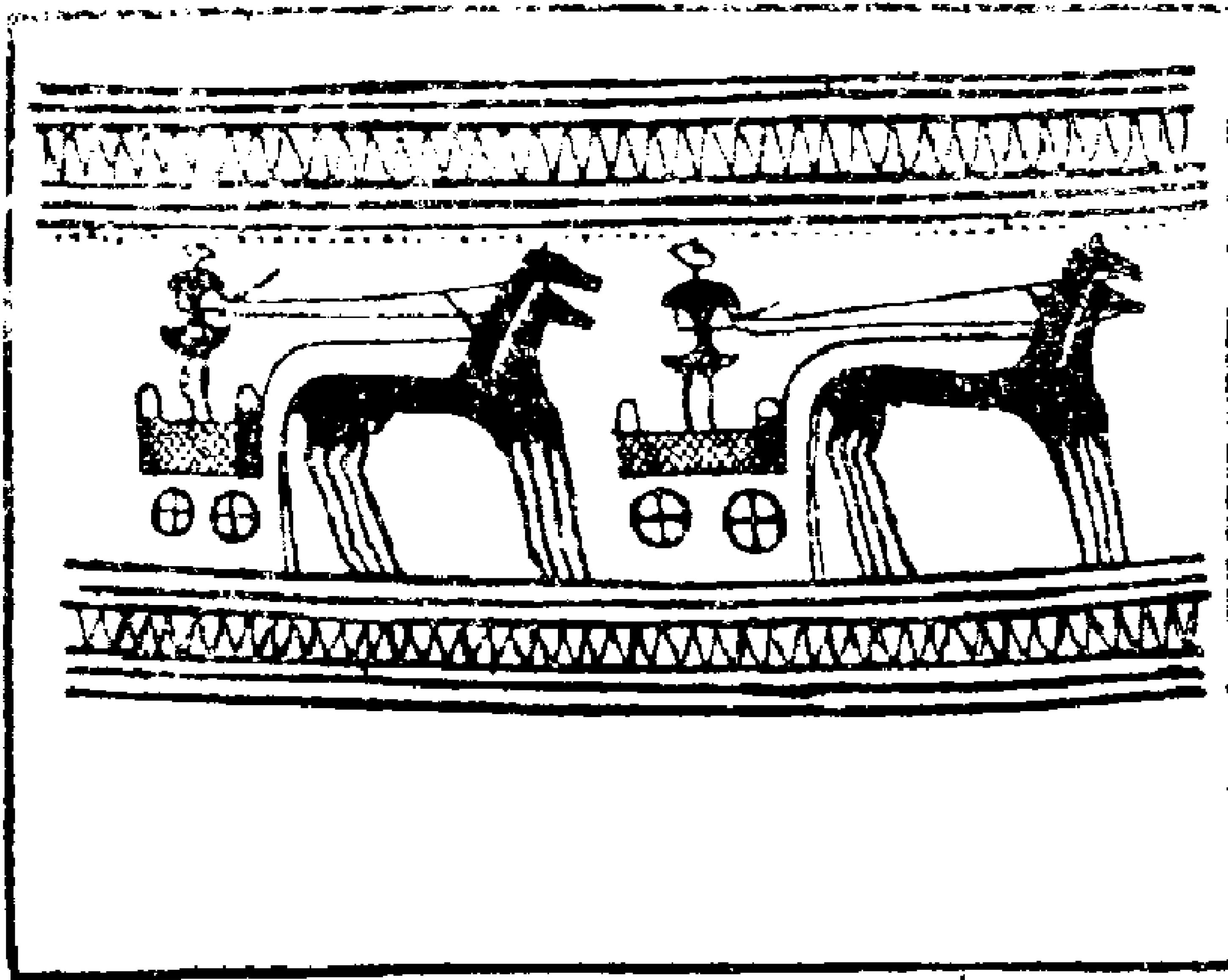
وملحمة بيوولف التى ظهرت بعد الإلياذة بألف سنة على الأقل شائعة هى الأخرى وذلك ، لأن إحدى مغامراتها الكبرى تدور حول نهب كنوز راموس (: قبر) قديم يرجع إلى عهد أقدم من ذلك .

٣ — العائلة الآرية

وتبدى لنا الملاحم الإغريقية ، الإغريق الأولين خلواً من كل معرفة بالحديد ، صفراً من كل علم بالكتابة وتصورهم قبل أن يؤسسوا أى مدن إغريقية فى تلك البلاد التى تدل كلُّ الدلائل على حداثة عهدهم بفتحها . فأنشأوا ينتشرون جنوبا من مواطن الآريين الأصلية ، وكانوا فيما يلوح قوماً من الشقر كانوا نازحين حديثى عهد ببلاد الإغريق أى حديثى العهد بأرض كان يتملكها حتى حين شعوب البحر المتوسط أو الشعوب الأيبيرية .

ونحن وإن تعرضنا لشىء طفيف من التكرار لاتخاذنا الوضوح التام رائداً لنا فى هذه المسألة بالذات ، نذكرك بأن الإلياذة لا تعطينا صورة الحياة النيوليثية البدائية الخاصة بذلك الإقليم الآرى الأصلى بل تعرض علينا تلك الحياة وقد بلغت من التطور مرحلة تتجه إلى حالة جديدة ، وكانت طريقة العيش النيوليثية قد انتشرت فيما بين ١٥٠٠٠ ، ٦٠٠٠ ق م بانتشار الغابات ووفرة النباتات فى المدة المطيرة فوق الجزء الأكبر من العالم القديم من نهر النيجر إلى نهر الهوانج هو ومن إرلنده إلى جنوبى الهند ، وبينما كان مناخ أجزاء عظيمة من الارض يرتد من جديد إلى حالة أكثر جفافا وأشد تعريا من النبات ، كانت الحياة النيوليثية الأولى

الأكثر بساطة تتطور فى اتجاهين ، أحدهما يؤدى بها إلى حياة أكثر تجوالا وانتقالا ، أى إلى حياة تنتهى آخر الأمر إلى أن تصبح حياة هجرة مستديمة بين مراعى الصيف والشتاء وهى ما تسمى باسم (حياة الترحل) ، والآخر يفضى بها فى وديان معينة لأنهار تسطع عليها الشمس ، إلى حياة رى يختزن فيها الماء ، وهى التى تجمّع فيها الناس فكوّنوا المدن الأولى وأقاموا المدنيات الأولى ، ولقد أسلفنا وصف أوليات المدنيات وألمعنا إلى تعرضها من وقت لآخر لغزوات الشعوب المترحلة ، ولحظنا من قبل أنه انقضت آلاف عديدة من السنين ، ظلت فيها المدنيات يتردد عليها المترحلون تردداً يكاد يكون ايقاعيا كخفق الطبول ، وينبغى لنا أن نلحظ أن الإغريق ، كما تصورهم لنا الإلياذة ، ليسوا محض مترحلين نيوليثيين مجردين من الحضارة ، ولاهم بالقوم الممدنين ، وإنما هم مترحلون فى حالة اضطراب ، لأنهم كانوا قد دخلوا من فورهم مشهد المدنية ورأوا فيها فرصة للحرب والمغنم والسلب .



٦١ — صورة الخيول والعربات الحربية فى عصر ماقبل التاريخ

وإغريق الإلياذة الأوائل محاربون شديدو المراس ، ولكن يعوزهم النظام ، وما معاركهم إلا فوضى قوامها النزال الفردى . ولديهم الخيل ولكن ليس لديهم فرسان ، وهم يستخدمون الحصان وهو حيوان عرفه الآريون فى زمن حديث نسبيا — يتخذونه لجر مركبة حربية بدائية فى ميادين القتال .

وكان الحصان فى ذلك الزمان شيئا جديداً حتى لقد كان فى حد ذاته مبعثاً للرعب . فأما أغراض الجر العادية فكانت الثيران أنعامها ، كما رأينا من الاقتباس الذى قدمناه لك من الإلياذة .

ولم يكن لهؤلاء الآريين من كهنة سوى سدنة القاصير والأماكن المقدسة . ومن رؤساء العائلات من كان يقوم كذلك بتقديم القرابين ، ولكن لا يبدو أن دياناتهم تنطوى على خفايا كثيرة أو شعور بأسرار مقدسة . فعندما يخرج الإغريق للقتال ، يلتئم من هؤلاء الرءوس والأكابر مجلس ينصّبون عليهم فيه ملكا ، يتمتع بسلطات فضفاضة . وليس لديهم قوانين . بل لديهم العرف وحده دون أى معايير مضبوطة للسلوك والأخلاق .

وكانت الحياة الاجتماعية لدى الإغريق الأوائل تدور حول دوارات هؤلاء الزعماء .

وكان هناك ولا ريب أكواخ للقطعان وما شابهها ، ومبان « للعزب » منعزلة ، على أن بهو الرئيس كان مركزاً جامعا ، يؤمه كل الناس لحضور الولائم ، ولسماع الشعراء وللأخذ بنصيبهم من الألعاب والرياضة ، وكان أرباب الحرف البدائيون يتجمعون هناك . وكانت من حوله حظائر البقر واسطبلات الخيل وما إلى ذلك من اللوازم . وكان الدهماء من غير ذوى المكانة ينامون فى أى مكان حول ذلك البهو على النحو الذى كان يفعله الخدم والأتباع فى قلاع القرون الوسطى ، وكما لا يزال الناس يفعلون فى الدوارات الهندية . وفيما عدا وجود الملكيات الشخصية البحتة كان لا يزال يحيط بالقبيلة جو من الشيوعية التى يسودها نظام الأبوة ، فكانت القبيلة أو رئيس القبيلة يملك أرض المرعى ، وكانت الغابة والأنهار على المشاع .

ويلوح أن التنظيم الاجتماعى الآرى الأول — بل فى الحق كافة المجتمعات الأولى — لم يكن يقوم على المنازل الصغيرة المنفصلة التى تتكون منها فى الوقت الحاضر كتلة السكان فى أوربا الغربية أو أمريكا ، بل كانت القبيلة عائلة كبيرة ، وكانت الأمة جماعة من العائلات القبيلية ، وكان الدوار كثيراً ما يضم مئات من الناس ، وقد ابتدأت الجماعة الإنسانية أمرها على نفس الشاكلة التى ابتدأ بها تكوين القطعان والأسراب بين الحيوانات ، وذلك بأن كانت العائلة تؤخر تفككها وانقسامها . وإنك لتجد الأسود فى الوقت الحاضر فى أفريقيا الشرقية جانحة بشكل واضح لأن تصبح حيوانات اجتماعية من هذه الناحية ، وذلك فى ملازمة الصغار لأمهاتها بعد استكمالها لنموها ثم فى خروجها للصيد جميعا ، وكان الأسد حتى حين أقرب شىء إلى حيوان منفرد . ولئن لم يتعلق الرجال والنساء بعائلاتهم فى الوقت الحاضر ، بالقدر الذى كانوا يتعلقون به فى الماضى ، فذلك لأن الدولة والمجتمع يزودان الناس بالطمأنينة والعون والتسهيلات التى كانت فى يوم ما فى متناول جماعة العائلة دون غيرها . ومجتمع الهندوس فى الوقت الحاضر ، لا يزال يحتوى تلك الدوارات الكبيرة التى كانت فى المراحل الأولى للجماعة الإنسانية . وقد وصف (المستر بوبندرانات باسو) من أمد قريب دوارا هندوسيا طرازيا ، هو دوار آرى تهذب وتلطف بمرور آلاف من سنى المدنية . بيد أن تركيبه الاجتماعى ، هو عين تركيب الدوارات التى تتحدث عنها الملاحم الآرية .

قال : « إن العائلة المشتركة قد وصلت إلينا من أزمان سحيقة فى القدم ، ولا يزال النظام الأبوى الآرى القديم مرعياً بل له الكفة الراجحة فى الهند . وهو على قدمه لا يزال زاخراً

بالحيوية . والعائلات المشتركة إنما هى هيئة تعاونية ، فيها للرجال والنساء منزلة محددة المعالم ، وعلى رأس تلك الهيئة تجد أرشد أعضاء العائلة ، وهو فى العادة أكبر الذكور سناً ، غير أنه كثيراً ما تتسلم مقاليد السلطة أرشد النساء فى حالة غيابه (راجع قصة Penelope بنلوب فى الأوذيسيا) .

« وعلى ذوى القوة الجثمانية من الأعضاء أن يكرسوا جهودهم وكسبهم إلى الذخيرة العامة سواء أكان ذلك آتيا من طريق المهارة الشخصية ، أم من طريق الزراعة والتجارة ، فأما الضعفاء والأيامى واليتامى وذوو القربى الموزون ، فقد كان لزاما أن يمالوا جميعا ، وأن يمانوا ، وكان لزاما أن يُعامل الأبناء وأبناء الإخوة والإخوة وأبناء العم جميعا على قدم المساواة ، إذ أن أى تفضيل لا محل له ربما أفضى إلى تفكك العائلة . وليس لدينا (فى الهند) أى كلمة للدلالة على أبناء العمومة . فهم إما إخوة أو أخوات ، ولسنا نعرف ماذا يعنى أبناء العمومة الذين يبعدون فى قرابتهم لنا درجتين ، فإن أولاد ابن عمك لحًّا إنما هم أبناء أو بنات أخيك ، مثلهم كمثل أولاد إخوتك أو أخواتك ، والرجل لا يستطيع أن يتزوج من ابنة عمه مهما بعدت درجة قرابتها منه إلا بقدر ما يستطيع التزوج من أخته لحا اللهم إلا فى أجزاء بعينها من «مدراس» ، حيث يستطيع الرجل أن يتزوج ابنة خاله . والعواطف العائلية والروابط العائلية قوية جدا بينهم على الدوام . ولذلك كانت المحافظة على معايير المساواة بين هذا العدد الكبير من الأعضاء ، لا تبلغ من الصعوبة الدرجة التى تبدو عليها لأول وهلة . زد على ذلك أن الحياة هناك جد بسيطة ، فلم يكن استعمال الأحذية حتى زمن قريب شائعا داخل المنازل ، وإنما كانوا يستعملون الخفاف أى الصنادل غير ذات الشسوع الجلدية ، وإنى لأعرف عائلة ميسورة الحال من الطبقة الوسطى مكونة من عدد من الأخوة وأبناء العمومة ، ولها زوجان أو ثلاثة من الأحذية الجلدية تتناوب استعمالها . إذ كانت تلك الأحذية لا تستعمل إلا إذا حدث ما يستدعى خروجهم ، ولا تزال تلك الطريقة عينها مرعية فى حالة الثياب الأكثر نفقة ، أمثال الشيلان التى تبقى أجيالا عدة ، والتى تلقى مع تقادم العهد بها عناية ملؤها المحبة لسابق استعمالها على يد أجداد كريمى الذكرى .

«وتبقى العائلة المشتركة أحيانا بعضها مع بعض مدة أجيال عدة ، حتى تصبح كبيرة الجرم ثقيلة العبء فتتجزأ إلى عائلات أصغر منها ، وإنك لترى على هذا النحو قرى بأكلها مأهولة بأعضاء عشيرة واحدة . قلت إن العائلة هى جماعة تعاونية ، وربما أمكن تشبيهها بدويلة ،

ويحتفظ لها بمكانتها نظامها القوى القائم على المحبة والطاعة ، وإنك لترى فى كل يوم تقريبا أفراد العائلة الصغار ، يتقدمون إلى كبيرها « ويأخذون تراب قدميه » علامة على التبرك ، وكلما انطلقوا فى مشروع لهم ، استأذنوه فيه وتقبلوا بركاته . . . وهناك روابط كثيرة تربط العائلة بعضها ببعض : أولها رابطة المودة ، والمسرات المشتركة ، والأحزان المشتركة ، فعند ما تحدث فى العائلة وفاة ، يشمل الحداد كل أفرادها ، وإذا ولد مولود أو تزوج فرد ، عمت الأفراح كل العائلة ، وهناك فوق كل شيء إله العائلة وهو تمثال لفشنو Vishnu الحافظ ، وله حجرة خاصة ، تعرف عادة باسم حجرة الرب ، على أن بعض العائلات الميسرة الحال تخصص له معبداً ملحقاً بالمنزل ، تؤدى فيه العائلة عبادتها اليومية ، وترتبط العائلة بتمثال الرب بنوع من المحبة الشخصية ، لأن التمثال ينحدر على العموم من الأجيال السابقة ، وكثيرا ما يكون أحد الأجداد الأتقياء قد حصل عليه بمعجزة من المعجزات فى بعض الأزمان السحيقة ... وكاهن العائلة وثيق الارتباط برب العائلة . والكاهن الهندوسى جزء من حياة أتباعه العائلية لا يتجزأ ، وقد دامت الرابطة بينها وبين شخصه مدة أجيال كثيرة . وليس الكاهن على وجه العموم رجلا واسع العلم ، وهو على كل حال ملم بتقاليد عقيدته . وليس الكاهن بالعبء الثقيل على العائلة إذ هو يرضى بالقليل . فإن ملء حفنات قليلة من الأرز لتكفيه ، وإن عددا قليلا من أصابع الموز أو الخضر المزروعة فى المنزل ، وإن قليلا من السكر غير المكرور المصنوع فى القرية ، وإن قليلا من قطع العملة النحاسية تعطى له فى بعض الأحيان — لهى كل ما يلزمه .

« وكل صورة لحياتنا العائلية لا تتناول بالحديث خدم الدوار تكون صورة بتراء . فالخادم الأنثى تعرف فى البنغال باسم « چهى » أى البنت ، فهى تشبه بنت البيت ، وهى تدعو رب البيت وربته أبا وأما ، وتدعو شبان وفتيات العائلة إخوة وأخوات ، وهى تقاسم العائلة حياتها ، وتذهب إلى الأماكن المقدسة مع سيدتها ، إذ أنها لا تستطيع الذهاب بمفردها ، وهى على العموم تقضى حياتها مع العائلة التى تبنتها ، وتعنى العائلة بأطفال الخادمة . والخدم الرجال يلقون معاملة شديدة المماثلة لهذه . وهؤلاء الخدم الرجال منهم والنساء ، هم فى العادة قوم من طوائف أدنى مرتبة ، على أن شعورا بالتعلق الشخصى ينمو بينهم وبين أفراد العائلة ، وحين تتقدم بهم السن يسميهم الصغار من أفراد العائلة — فى حنان ومحبة — إخوة كباراً وأعماما وخالات . ولكل بيت ميسر الحال مدرس مقيم على الدوام ، يعلم أطفال العائلة كما يعلم أولاداً آخرين من أبناء القرية . وليست مبانى المدارس كثيرة النفقة ، فإن فى أية شرفة

« فراندة » أو مظلة فى الفناء متسعاً للأطفال ومعلمهم ، ويقبل أبناء الطوائف الدنيا فى هذه المدرسة مجاناً . فهذه المدارس الوطنية (البلدية) لم تبلغ يوما مرتبــة عالية جدا ، بيد أنها كانت مركزاً لتعليم الجماهير ، لم يتيسر مثله فى أى قطر آخر .

« ويرتبط بالحياة الهندوسية واجب الكرم الذى تحتمه التقاليد فإن واجب صاحب الدار يقضى عليه بأن يقدم الطعام لأى غريب يحضر قبل الظهيرة ، وإن ربة البيت لتمتنع عن تناول طعامها حتى يتناوله كل أفراد العائلة — وإذ أن طعامها يكون فى بعض الأحيان هو كل ما تبقى فى المنزل ، فانها لاتتناول غداءها حتى يمضى على وقت الظهيرة زمن كاف ، خشية أن يأتى غريب جائع ويطلب الغداء . »

لقد استمرأنا الاقتباس من المستر باسو فى شىء من الإسهاب ، لأننا بهذا نصل فعــلا إلى شىء يشبه الفهم الحى لطراز الدوارات التى عمت المجتمعات الإنسانية منذ العصر النيوليثى ، والتى لا تفتأ تعم إلى اليوم الهنــد والصين والشرق الأقصى ، والتى أخذت فى الغرب تخلى مكانها سريعاً لنظام للتعليم تقوم به الدولة ومجالس البلديات . ولنظام « تصنيع » واســع النطاق يتيسر فيهما من استقلال الفرد وحريته قدر لم تعرفه قط تلك الدوارات الـكبيرة .

ولنعد الآن إلى التاريخ الذى تحفظه لنا الملاحم الآرية ، فإن الملاحم السنسكريتية تنبئنا بقصة شديدة الشبه بتلك القصة التى تنطوى عليها الإلياذة . وهى قصة شعب أشقر يأكل لحم البقر — فإنهم لم يعودوا نباتيين إلا فى زمن لاحق — ينحدر من بلاد الفرس إلى سهل الهند الشمالية ويشق طريقه فى مهَـلٍ إلى نهر السند . ومن السند ينتشرون فى أنحاء الهند ولـكن بينا هم فى انتشارهم تراهم يقتبسون الشىء الـكثير من الدراڤيديين الداكنين الذين غزيت بلادهم ، ويبدو أنهم فقدوا تقاليدهم الشاعرية . ويقول المستر باسو : إن الأشعار القديمة كانت تتناقل على الأخص فى الدوارات ، على ألسنة النساء .

أما أدب الشعوب الـكلتية الشفوى ، وهم الذين اتجهوا غرباً ، فلم يبق بكامل سلامته كما بقى أدب الإغريق والهنود ، وذلك لأنه سطر بعد انقضاء قرون عديدة ، ولذلك — فإنه شأن ملحمة البيوولف (Beowulf) الانجليزية البدائيــة — قد فقد كل شاهد واضح يشهد بوجود فترة هجرة إلى أراضى شعب سالف . ولئن بدا السابقون للآريين فيه ، فإنهم إنما يظهرون فقط ظهور « الفيرى[1] Fairy » فى القصص الإرلندية . وإرلندا — وهى أشد

---

(١) الفيرى — كائن أو روح خيالى كثير الورود فى القصص الأوربى ، له صورة إنسانية وقامته أقصر من الإنسان وله قدرة على عمل أشياء كثيرة خارقة لا يستطيع الإنسان عملها .

المجتمعات الناطقة بالكلتية انقطاعا عن العالم — احتفظت بحياتها البدائية إلى أحدث الأزمان . وقصة التين (Tain) وهى الإلياذة الإرلندية تصف حياة قوم يربون الماشية ، ولا يزالون يستعملون العربات الحربيـة ، كما لا تزال كلاب الحرب مستعملة كذلك ، وتحمل رءوس القتلى معلقة حول رقاب الخيول ، « والتين » إنما هى قصة غارة لسرقة الماشية ، وفيها أيضا يبدو النظام الاجتماعى على نحو ما شاهدت فى الإلياذة ، فإن الرؤساء يجلسون فى قاعات عظيمة ويقيمون فيها الولائم ، ذلك أنهم يبتنون لأنفسهم القاعات ، وهناك ترتفع الأصوات بالغناء وقص الأقاصيص يلقيها الشعراء ، على حين تدور الكأس بالشراب وينتشى الحاضرون .

وليس هناك ما يدل دلالة واضحة على وجود كهنة ، بيـد أن هناك نوعا من رجل الطب يمارس التعاويذ والتنبؤات .

الفصل العشرون

الإغريق والفرس

---

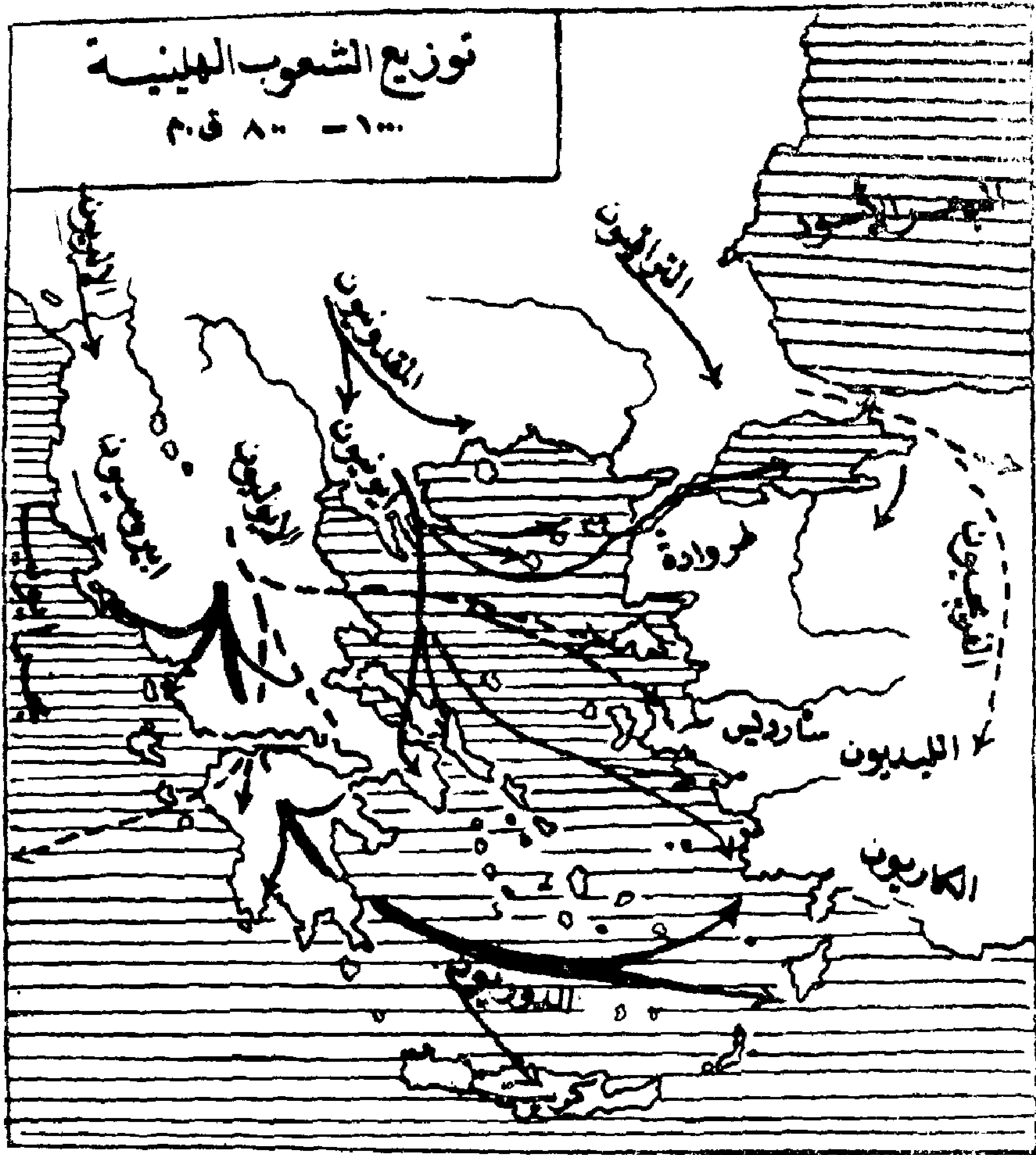
١ — الشعوب الهلينية

يظهر الإغريق فى ذلك الضوء المعتم السابق لفجر التاريخ (قبل عام ١٥٠٠ ق م على التقريب) بوصفهم أحد الشعوب الآرية الجوالة غير الكاملة الترحل . وكانوا يوسمون نطاق رعيهم شيئاً فشيئاً نحو الجنوب متغلغلين فى شبه جزيرة البلقان ، ويقاتلون شعوب تلك المدنية الإيجية السابقة التى كانت مدينة كنوسوس على مفرِقها ، ويختلطون بها .

وتنبئنا الأشعار الهوميرية ، بأن تلك القبائل الإغريقية تتكلم بلسان واحد مشترك ، وإن تقاليدها المشتركة التى تدعمها أشعار الملاحم لتشدهم بعضهم إلى بعض فى وحدة مفككة الأوصال ، وهم يسمون قبائلهم المختلفة باسم مشترك هو الهلينيون ، ولعلهم نزحوا على موجات متعاقبة ، إذ يميز العلماء فى لغة الإغريق القديمة ثلاث لهجات رئيسية : هى الأيونية Ionic والإيولية Aeolic ، والدورية Doric ، على أن لديهم أيضاً أضربا كثيرة من اللهجات ، ويلوح أن الأيونيين سبقوا من عداهم من الإغريق إلى الميدان ، واختلطوا اختلاطا وثيقاً بالشعوب المتحضرة الممدنة التى غلبوها على أمرها ، وقد يكون سكان مدن من أمثال اثينا وميليتوس من ناحية الجنس أقل نوردية[١] وأقرب إلى سكان البحر المتوسط ، وواضح أن الدوريين هم قوام آخر موجات الهجرة ، وأقواها مُنّة وأقلها تمدنا . فهاته القبائل الهلينية

---

(١) راجع الأجناس البشرية (المجلد الأول) .



غزت المدنية الإيجيـة ودمرتها إلى حد كبير وهى المدنية التى سبقت وصولهم ، وبنوا على أنقاضها مدنية خاصة بهم . وهفت نفوسهم إلى البحر وعبروه إلى آسيا الصغرى بطريق الجزائر ، وبعد أن ركبوا السفن مخترقين الدردنيل والبسفور ، نشروا مواطنهم ومستقراتهم على امتداد سواحل البحر الأسود الجنوبية ، ثم ما لبثوا أن مدوها على امتداد سواحله الشمالية كذلك انتشروا فى جنوبى إيطاليا ، التى أطلقوا عليها آخر الأمر ماجناجريكيا (Magna Graecia) أى (بلاد الإغريق العظمى) ، ثم انتشروا حول الشاطئ الشمالى للبحر المتوسط ، وأسسوا مدينة مرسيليا محل مستعمرة فينيقية قديمة ، ثم أخذوا ينشئون لأنفسهم فى صقلية المستقرات (المستعمرات) منافسين بذلك القرطاجنيين فى زمان يرجع إلى ٧٣٥ ق م .

وجاء فى أعقاب الإغريق الخلّص أقاربهم المقدونيون والتراقيون وعلى جناحهم الأيسر عبر الفريجيون البوسفور إلى آسيا الصغرى ، وإنا لنجد كل هذا التوزع يتم للإغريق قبل بواكير التاريخ المكتوب . حتى إذا حل القرن السابع ق . م . أعنى إبان الأسر البابلى

لليهود كانت قد زالت من الوجود كل المعالم الدالة على العالم القديم عالم المدنية السابقة للهلينية فى أوربا . ألا ترى إلى تيرينز (Tiryns) وكنوسوس (Cnossus) كيف صارتا مواقع غير ذات بال ، وإلى مسيناى (Mycenae) وطروادة (Troy) كيف لا تعيشان إلا فى عالم الأساطير ؟ ، فأما المدن العظيمة فى هذا العالم الإغريقى الجديد فهى أثينا ، وإسبرطه (وهى عاصمة لاسيديمون) وكورنثة ، وطيبة ، وساموس وميليتوس . ومن ثم يكون العالم الذى كان أجدادنا يسمونه باسم « بلاد الإغريق القديمة » قد قام على أطلال منسية تنتمى لبلاد إغريق أشد أمعانا فى القدم من تلك ، وهى بلاد بلغ تمدنها وتقدمها الفنى من كثير من الوجوه نفس الحد الذى بلغته تلك ، بل إننا اليوم لم نكد نتجاوز المرحلة الأولى فى تعرف تلك المدنية السحيقة القدم والفضل فيه إلى جهود المنقبين عن الآثار .

بيد أن بلاد الإغريق القديمة فى عصورها المتأخرة ، التى نحن الآن بصدد الحديث عنها لا تزال تعيش عيشا ناصما رائعاً فى أخيلة الرجال ونظمهم ، لأنها كانت تنطق بلسان آرى جيل أشد ما يكون بيانا ، قريب الصلة بلساننا (الانجليزى) ولأنها تناولت الأبجدية المستعملة عند شعوب البحر الأبيض وبلغت بها مرتبة الكمال باضافةحروف الحركة إليها ، حتى أصبحت القراءة والكتابة عند ذاك فنين يسيرين يسهل تعلمهما وممارستهما ، وحتى أصبح فى ميسور عدد كبير من الناس اتقانهما ووضع سجل خالد للأجيال المقبلة .



٦٣ — معركة بحرية إغريقية ٥٥٠ ق م

٢ — المظاهر المميزة للمدنية الهلينية

والآن فإن هذه المدنية الإغريقية التى نراها تدرج فى جنوب إيطاليا وبلاد الإغريق وآسيا الصغرى فى القرن السابع ق م ، إنما هى مدنية تخالف من أوجه كثيرة هامة كلا من المدنيتين العظيمتين اللتين قفونا نموهما من قبل ، وهما مدنية النيل ومدنية رافدى أرض

الجزيرة . نمت هاتان المدنيتان حيث هما خلال عصور طويلة . نمتا على مهل حول حياة مركزها المعبد ، دارجتين عن زراعة بدائية . ثم قام الملوك الكهنة والملوك الآلهة يجمعون شمل تلك المدن [1] الحكومية الأولى فى امبراطوريات . على أن رعاة الإغريق (التبريين) انحدروا جنوبا مغيرين على عالم كانت مدنيته قد أصبحت قصة طال بها العهد ، إذ كان تسيير السفن والزراعة ، وإقامة المدن المسوّرة والكتابة ، أموراً معروفة بها من قبل . فلم ينشئ الإغريق مدنية خاصة بهم ، بل حطموا مدنية وأقاموا من أنقاضها وعلى أطلالها مدنية أخرى .

وإلى هذا الأمر يجب أن ننسب تلك الحقيقة المنبئة بأنه ليس فى سجل الإغريق مرحلة دولة معبد[2] ولا مرحلة الملوك الكهنة ، بل وصل الإغريق فوراً إلى نظام المدينة التى لم تنبت فى الشرق إلا حول المعبد ، فعرفوا من الشرق فكرة ارتباط المعبد بالمدينة ، تسلموها منه لقمة سائغة ، ولعل أشد ما أثر فيهم من مظاهر المدينة أسوارها ، وإنا لفى ريب من أنهم أقبلوا من فورهم على حياة المدينة والمهادنة ، فكانوا فى بادئ أمرهم يعيشون فى قرى مفتوحة طلقة خارج أطلال المدن التى حطموها ، ولكن النموذج كان ماثلا أمام أعينهم لا يبرح يوحى إليهم ويذكرهم . وطبيعى أنهم فكروا فى المدينة فى بادئ الأمر كوضع أمين لهم ، فى زمان كله نزاع وصراع ، كما فكروا فى المعبد فى غير فحص عنه ولا تمحيص ، إذ اعتبروه مظهراً صادقاً للمدينة . وانتقل اليهم هذا الميراث عن حضارة سابقة ولما تزل فكرات الآجام وتقاليدها قوية ناضرة فى أذهانهم . واستولى على زمام البلاد النظام الاجتماعى القائم على الأبطال والذى تمجد الإلياذة ذكره ، ولم يلبث أن وفق بين نفسه وبين ما يحوطه من ظروف جديدة ، وبمرور الأيام أصبح الإغريق أكثر تديناً وأشد اعتقاداً فى الخرافات على حين استمرت عقائد المغلوبين حية وإن توارت عن الأنظار .

ولقد ذكرنا آنفا أن التركيب الاجتماعى للآريين البدائيين كان نظاما ذا طبقتين مكونا من النبلاء والعامة ، ولم تكن الطبقتان منفصلتين انفصالا شديدا إحداهما عن الأخرى ، كان يقودهما فى الحرب ملك لم يكن إلا كبير إحدى العائلات النبيلة وهو الزعيم المقدم بين نظرائه (Primus inter pares) وبانتصار الإغريق على السكان الأصليين وابتنائهم البلدان أضيف إلى هذا التنظيم الاجتماعى البسيط المزدوج الطبقات ، طبقة دنيا من عمال المزارع وحذّاق الصناع وغير حذّاقهم ، وهى فى جل أمرها من العبيد . على أن المجتمعات الإغريقية

---

(١) المدينة الحكومية تسمى أيضا دولة المدينة

(٢) وهى دولة قوامها المعابد والكهنة

لم تكن بأجمعها من هذا الطراز القائم على الفتح ، فكان بعضها مدنا من اللاجئين تضم أفراداً من مجتمعات محطمة خاضعة ، وكانت تعوز هذه المدن الأخيرة الطبقات الدنيا المكونة من السكان الأصليين .

وفى كثير من الحالات الأولى كان الباقون من السكان الأقدمين يكونون طبقة محكومة تتمثل فى رقيق الدولة بوجه عام كما هو الحال فى جماعة الهليوتيهى فى أسبرطة ، وأصبح النبلاء والعامة أصحاب الأراضى وأعيان الزراع ، وكانوا هم المديرين لحركة بناء السفن والمشتغلين بالتجارة ، على أن بعض المادنين الأحرار الأشد فقرا احترفوا الفنون والصناعات الآلية ، وكانوا — كما سبق أن لاحظنا — لا يأنفون حتى الاشتغال بالتجديف فى إحدى السفن مقابل أجر معلوم . أما أولئك الكهنة الذين كانوا فى العالم الإغريقى فكانوا إما سدنة للمقاصير والمعابد أو موظفين يقومون بتقديم القرابين ؛ واعتبرهم أرسطو فى كتابه (السياسة Politics) قسما فرعياً محضاً فى طبقة الموظفين ، وكان المادن (المواطن) يشتغل فى شبابه محاربا ، وفى كهولته حاكما وفى شيخوخته كاهنا ، وكانت طبقة الكهان بالمقارنة إلى الطبقة المعادلة لها فى مصر وبابل طبقة صغيرة لا يعتد بها . فأما آلهة الإغريق الخلص الأبطال فكانوا كما أسلفنا كائنات بشرية ممجدة ، كما كانوا يعاملون فى غير كثير خوف أو رهبة . ولكن من دون هؤلاء الآلهة آلهة الغزاة الأحرار ، كانت تكمن آلهة أخرى للشعوب المقهورة ، تجد من يتبعونها خلسة بين الأرقاء والنساء . ولم يكن منتظرا من الآلهة الآرية الأصلية أن تأتى بالمعجزات ، أو أن تسوس حياة الناس . بيد أن بلاد الإغريق كانت شديدة التعلق باستشارة النبوءات Oracles أو العرافين ، شأنهم فى ذلك شأن معظم العالم الشرقى فى ألف السنة السابقة للميلاد . وكانت دلفى Delphi شهيرة بنبوءتها على وجه خاص وفى ذلك يقول جلبرت مرى : « عند ما يعجز أسن شيوخ القبيلة عن إخبارك وإرشادك بما يجدر بك أن تعمله ، فإنك تذهب إلى الأموات الميامين ، إن النبوءات جميعها عند قبور الأبطال ، فهم يطلعونك على القدور Themis [1] وما يجدر بك أن تعمله ، ويكشفون لك عن إرادة الله على حد قول رجال الدين اليوم » .

ولم تكن تضم كهنة هذه المعابد وكاهناتها طبقة واحدة ، كما أنهم بوصفهم إحدى الطبقات لم يكونوا يمارسون سلطة ما فى البلاد ، وإنما كان كل قوام الدولة الإغريقية النبلاء والعامة الأحرار ، وهما طبقتان اندمجتا فى بعض الحالات فى هيئة واحدة مشتركة من المادنين

---

(١) Themis كلمة يونانية معناها القانون الوضعى أو العرف أو المقدور .

الأحرار . وفى كثير من الحالات وخاصة فى دول المدن الكبرى ، كان عدد العبيد الأرقاء وعدد الغرباء غير المتمتعين بالحقوق يفوق عدد المادنين الأحرار فوقا عظيما . على أن الدولة فى نظر المادنين لم تكن لتقوم لولا ما يبذلون من مجاملة وتكرم ، إذ هى موجودة من الناحية القانونية من أجل الهيئة المختارة هيئة المادنين الأحرار Citizens وحدهم ، وهى حرة فى أن تتسامح أو لا تتسامح مع الدخيل والرقيق . ولكن لم يكن لهؤلاء أى صوت قانونى فى نوع المعاملة التى يلقون ، الأمر الذى يجعل معاملتهم لا تختلف عنها فى ظل أى نظام استبدادى .

فهذا تركيب اجتماعى يختلف اختلافا بعيدا عن تركيب الملوكيات الشرقية . والأهمية الكبرى التى كان ينفرد بها المادن الإغريقى الحر تذكرنا بعض الشىء بالأهمية الماحقة الساحقة التى كان يستمتع بها أبناء إسرائيل فى الدولة اليهودية الأخيرة . بيد أن الجانب الإغريقى خلو من كل معادل للأنبياء والكهان ، ومن فكرة وجود (ياهوه) أعنى إلهاً واحداً له السيطرة والسلطان على كل شىء .

وهناك وجه آخر للتباين بين الدول الإغريقية ، وبين أىٍّ من المجتمعات الإنسانية التى وجهنا إليها اهتمامنا حتى الآن ، وهو انقسامهم المستمر الذى استعصى علاجه .

ولا مراء أن المدنيات فى مصر وسومر والصين ، ثم شمال الهند أيضا ابتدأت كلها فى شكل عدد من دول المدن المستقلة ، كل واحدة منها تتكون من مدينة يحيط بها بضعة أميال من القرى الزراعية التابعة ، ومن الأراضى والمزارع ، ولكنها خرجت من هذا الدور بعد أن اجتازت مرحلة تماسك التآمت بها فأصبحت ممالك عظيمة وامبراطوريات ، ولكن الإغريق لم يتماسكوا قط حتى انصرم تاريخهم المستقل بأكمله . ويرجع هذا بوجه عام إلى الظروف الجغرافية التى كانوا يعيشون فيها ، فإن بلاد الإغريق قطر مجزأ إلى عدد كبير من الوديان ، تقطعت أوصاله بفعل كتل جبلية وخلجان من البحر ، جعلت الاتصال فيما بينها أمرا عسير المنال ، بل لقد بلغ الاتصال من العسر حدا جعل عدداً قليلا من المدن قادرا على الاحتفاظ بكثير من المدن الاخرى تحت سيطرتها أىّ مدة من الزمان .

وفضلا عن ذلك فإن الكثير من المدن الإغريقية كانت تقع فى جزائر ، وكانت متناثرة على امتداد سواحل شاسعة . ولقد ظلت أكبر دول المدن الإغريقية حتى النهاية أصغر من كثير من المقاطعات الإنجليزية . وكانت مساحة بعضها لا تتجاوز بضعة أميال مربعة ، وأثينا وهى واحدة من أكبر المدن الإغريقية كان فيها من السكان فى أوج عزها عدد ربما بلغ ثلث المليون ، وقل من المدن الإغريقية الأخرى من تخطى سكانه الخمسين ألفا ، وكان نصف هذا

العدد أو ما يتجاوز النصف من الرقيق والغرباء ، وكان ثلثا الهيئة الحرة من النساء والأطفال .

٣ — الملكية والأرستقراطية والديمقراطية فى بلاد الإغريق

كانت حكومة هذه المدن تختلف فى طبيعتها اختلافا بعيدا . فإن الإغريق عند ما شرعوا يستقرون بعد فتوحاتهم احتفظوا إلى حين بحكم ملوكهم ، ولكن هذه الممالك ما لبثت أن عادت رويدا رويدا إلى حكم الطبقة الأرستقراطية . فى إسبرطه أى (لاسيديمون) كان الملوك لا يزالون متمتعين بمنزلة رفيعة فى القرن السادس ق . م . وكان لأهل لاسيديمون نظام غريب فى بابه ينطوى على ملكية ثنائية ، إذ يولون عليهم ملكين من أسرتين ملكيتين مختلفتين يحكمان معاً .

على أن معظم دول المدن الإغريقية أصبحت جمهوريات أرستقراطية قبل حلول القرن السادس بزمان بعيد . ومهما يكن من شىء فإن هناك نزوعا إلى التوانى وعدم الكفاية يتجلى فى غالب العائلات التى تتولى الحكم بالحق الوراثى ، ولابد أن ينتهى أمرها إلى الزوال طال بها الزمن أو قصر . ولما أن خرج الإغريق إلى البحر ، وأسسوا المستقرات ، وانتشرت تجارتهم ، برزت بينهم عائلات غنية جديدة ، فزحزحت العائلات القديمة عن مكانتها وتسلمت مقاليد الأمور شخصيات جديدة . وأصبح هؤلاء الأغنياء الجدد الحديثو الثراء أعضاء فى طبقة حاكمة كبيرة أقامت ضربا من الحكومة يعرف بالأوليجركية — تمييزاً له من الأرستقراطية — وإن كان المعنى الدقيق للفظ الأوليجاركية — (وهو حكومة الأقلية) يجب أن يضم الأرستقراطية الوراثية بصفتها حالة خاصة له .

وفى كثير من المدن كان أشخاص من ذوى النشاط الفذ ينتهزون فرصة حدوث شىء من النزاع الاجتماعى ، أووقوع شىء من المظالم على بعض الطبقات ويقبضون على زمام سلطات استثنائية فى الدولة إلى درجة ما . ومما هو جدير بالذكر أن هذا المزج بين الشخصية والفرصة قد حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث يسمى الرجال الذين ينعمون بأنواع مختلفة من السلطات غير الرسمية باسم الزعماء Bosses ، وكان أمثال هؤلاء يسمون فى بلاد الإغريق باسم الطغاة Tyrants على أن الطاغية يوشك أن يكون أكثر من الزعيم الأمريكى Boss نفوذا وسلطاناً ، فقد كان يعترف به ملكا . كما أنه كان يطالب بسلطات الملك . ثم إن الزعيم الأمريكى فى العصر الحديث يستتر وراء بعض الأوضاع القانونية التى استحوذ عليها ، ويستخدمها فى أغراضه الخاصة . وكان الناس يفرقون بين الطغاة والملوك الذين كانوا يدعون لأنفسهم بعض الحقوق ، أعنى ضربا من الأسبقية العائلية فى أمور من أمثال تولى الحكم . وربما ناصر

هؤلاء الطغاة الطبقات الفقيرة المظلومة . مثـال ذلك أن بزستراتوس الذى كان طاغية من طغاة أثينا تولى الحكم مدة تتخللها فترتان نفى أثناءهما ما بين ٥٦٠ و ٥٢٧ ق م . وكان يؤيده الآثينيون من سكان التلال الذين أضناهم الفقر . وربما حدث فى بعض الأحيان كما حصل فى صقلية الإغريقية أن وقف الطغاة فى صف الأغنياء ضد الفقراء . وعند ما أخذ الفرس فيما بعد فى إخضاع المدن الإغريقية بآسيا الصغرى ، أقاموا طغاة يناصرون الفرس .

وكان أرسطو المعلم الفيلسوف العظيم ، وقد ولد أيام الملكية الوراثية المقدونية ، وقضى بضع سنين مربياً لابن الملك ، يفرّق فى كتابه (السياسة) بين الملوك الذين يحكمون بحق طبيعى مسلم به ، كملك مقدونيا الذى كان يعمل فى خدمته مثلا ، وبين الطغاة الذين يحكمون بغير رضاء المحكومين . فالواقع أن من العسير على المرء أن يقبل عقلا وجود طاغية يحكم بغير رضا الكثرة من رعاياه ودون مشاركة العدد الجوهرى منهم المشاركة الفعلية ، وإن إخلاص « ملوككم الحقيقيين » ونكرانهم الذات ، قد عرفا بأنهما يثيران الامتعاض والتشكك . وقد استطاع أرسطو أيضاً أن يقول إنه بينما يحكم الملك من أجل خير الدولة ، كان الطاغية يحكم لمصلحته الخاصة . وكان أرسطو فى هذا الموضوع كما كان فى قدرته على اعتبار الرق أمراً طبيعياً واعتبار النساء غير جديرات بالحرية والحقوق السياسية — منسجما مع سير الحوادث حوله .

وكان الشكل الثالث للحكومة التى انتشرت فى بلاد الإغريق انتشارا متزايداً فى القرون السادس والخامس والرابع ق م معروفا باسم الديموقراطية . ولما كان العالم المعاصر فى هذه الأيام لا يفتأ يتكلم عن الديموقراطية وإذ أن الفكرة الحديثة عن الديموقراطية إنما هى شىء يختلف اختلافا بعيداً عن ديموقراطية دول المدن الإغريقية ، فلا علينا إذن أن نعمد إلى أشد الوضوح فى تبيين معنى الديموقراطية فى بلاد الإغريق ، فقد كانت الديموقراطية عند ذاك حكومة تديرها العامة (Demos) . كانت حكومة تديرها هيئة المادنين جماء وتديرها الكثرة تمييزاً لها عن القلة . ولكن على القارئ المصرى أن يلحظ كلمة (ممادن) هذه فقد كان الرقيق مستبعداً منها ، وكان الرجل المتوق « المحرر » مستبعداً منها ، وكذلك الغريب ، وحتى الإغريقى المولود فى المدينة ، والذى نزح أبوه إليها من مسافة ثمانية أو عشرة أميال عن المدينة التى تقع وراء أحد الرءوس الممتدة فى البحر ، كان يستبعد من عداد الممادنين .

وكانت الديموقراطيات الأولى (وإن لم تكن كلها) تشترط فى الممادن [1] مؤهلات من الملكية العقارية ، وكان قوام الملكية فى تلك الأيام هو الأرض . على أنهم مالبثوا فيما بعد أن تسامحوا فى هذا الشرط ، بيد أن القارئ المعاصر سوف يدرك أنه يلمس هاهنا شيئا مختلفاً جداً عن الديموقراطية الحديثة ، وفى نهاية القرن الخامس ق م ، كانت هذه المؤهلات قد ألغيت فى أثينا مثلا .

على أن بركليس وهو السياسى الأثينى المظيم الذى سوف نتكلم فيما بعد عنه فى شىء من الإسهاب — سن قانونا (٤٥١ ق م) يقصر حق المادنة على أولئك الذين يستطيعون أن يثبتوا لأنفسهم الإنحدار من أبوين آثينيين خالصين . ومن ثم يكون حال هؤلاء المهادنين الأحرار فى الديموقراطيات الإغريقية كحالهم فى الأوليجاركيات تماما ، إذ يؤلفون هيئة متماسكة تتولى أحيانا ، كما فى حالة آثينا فى أيام عظمتها — حكم عدد كبير من السكان الأرقاء والغرباء .

فلو أن سياسيا عصريا عامر الذهن بفكرة الديموقراطية ، وأعنى بها الفكرة الجديدة التامة الجدة والاختلاف ، القائلة بأن الديموقراطية فى شكلها التام معناها أن لكل رجل بالغ وامرأة بالغة صوتا فى الحكومة ، لو أنه رد فجأة إلى الديموقراطية الإغريقية المتطرفة لعدها ضربا من الأوليجاركية . وكان الفارق الحقيق الوحيد بين الأوليجاركية الإغريقية والديموقراطية الإغريقية هو أنه فى الأولى لم يكن للمهادنين الأحرار الأفقرين والأقل أهمية صوت فى الحكومة ، وأن لكل ممادن حر فى الثانية صوتا . ويبين أرسطو فى كتابه « السياسة » بغاية الجلاء ، النتيجة العملية لهذا الفارق . إذ كانت الضرائب خفيفة العبء على الأغنياء فى الأوليجاركيات . بينما كانت الديموقراطيات من الناحية الأخرى تفرض الضرائب على الأغنياء ، وتدفع فى العادة للمهادن الحر المعدم مايقيم أوده من غذاء وكساء وغير ذلك من نفقات خاصة . وفى أثينا كان للمهادنين الأحرار جعل يدفع لهم ، حتى على حضور مجلس العامة . على أن العامة والدهماء ممن هم خارج نطاق الطائفة المحدودة من المهادنين الأحرار ، كانوا يكدحون ويصدعون بما يؤمرون . فإن رغب أحدهم فى حماية القانون ، كان عليه أن يبحث عن ممادن حر يتولى الدفاع عنه ، إذ لم يكن لغير المهادنين الأحرار أى حق فى الالتجاء إلى المحاكم . أما الفكرة العصرية القائلة بأن أى فرد فى الدولة يجب أن يكون ممادنا

---

(١) المادن (Citizen) هو كل مواطن حر يستمتع بالمادنة أى الحقوق والواجبات المدنية

حراً فلا بد أنها كانت غير مستساغة عند الديموقراطيين ذوى الامتيازات فى أثينا .

وقد نشأت عن جعل الدولة حكرة لطبقة المادنين الأحرار نتيجة بينة واحدة ، هى أن وطنية هؤلاء القوم المتازين اتخذت شكلا حاداً ضيقا . فكانوا يكونون الأحلاف مع (مدن حكومية) أخرى ، ولكنهم لم يندمجوا أبداً بعضهم مع بعض ، إذ كان فى ذلك قضاء على كل مزية يعيشون بها . كما أن الحدود الجغرافية الضيقة فى تلك الدول الإغريقية الصغيرة زادت شعورهم حدة وإرهافا . وكان مما يشدُّ من أزر حب الرجل لوطنه حُبه لبلدته وهى مسقط رأسه ، ولدينه وبيته ، إذ كانت هذه جميعا أمراً واحداً .

وبديهى أن الأرقاء لم يكونوا يشاطرونهم تلك المشاعر ، وفى الولايات الأوليجاركية كانت الطبقة المهيضة المحرومة فى الكثير الغالب تتحكم فى كراهيتها للأجانب وتطغى عليها كراهيتها العظمى للطبقة التى تسومها العذاب فى أرض الوطن . ولكن الوطنية الإغريقية فى أعظم أمرها عاطفة شخصية ذات حدة مخطرة تبعث الإلهام ، وهى كالحب المرفوض ، سهلة التحول إلى شىء أقرب ما يكون إلى الكراهية . والمنفىّ الإغريقى يشا كل المهاجر الفرنسى أو الروسى فى استعداد كل منهم لمعاملة بلاده المحبوبة معاملة لا تخلو من الخشونة ، لكى يقيها شر شياطين الإنس . الذين تملكوها وأخرجوه من ربوعها .

وقد نظمت أثينا فى القرن الخامس ق م علاقاتها بعدد من دول المدن الإغريقية الأخرى فأنشأت بذلك نظاما كثيراً ما يتحدث عنه المؤرخون باسم الإمبراطورية الآثينية . على أن دول المدن الأخري احتفظت جميعا بحكوماتها الخاصة . وهناك حقيقة جديدة أضافتها هذه الامبراطورية الآثينية ، وهى القضاء المبرم على القرصنة ، وثمة حقيقة أخرى جديرة بالذكر وهى إقامة نظام هو ضرب من القانون الدولى . نعم كان القانون فى واقع الأمر ، هو القانون الآثينى ، ولكن أصبح من اليسير به إقامة القضايا ونشر لواء العدالة بين مادنين ينتمون إلى دول الحلف المختلفة . وبديهى أن هذا أمر لم يكن فى الإمكان من قبل

والإمبراطورية الآثينية إنما تطورت فى حقيقة الأمر نتيجة لعصبة دفاع مشترك تألفت ضد فارس ، وكانت قاعدتها فى الأصل فى جزيرة ديلوس ، وقد ساهم الحلفاء فى رصيد مالى مشترك أودعوه خزانة فى تلك الجزيرة ، ثم نقل رصيد ديلوس إلى أثينا لأنه كان هناك عرضة للغارات الفارسية المحتملة الوقوع ، وسرعان ما تقدمت مدينة فى أثر الأخرى تعرض دفعات من المال عوضا عن الخدمة العسكرية مما أفضى إلى أن أصبحت أثينا آخر الأمر تقوم

بعبء العمل كله تقريبا ، وتتلقى النقود منهن جميعاً تقريباً ، ويعينها فى النهوض بذلك العبء جزيرة أو اثنتان من كبريات الجزائر . وبهذه الطريقة تحولت « العصبة » بالتدريج إلى إمبراطورية . على أن ممادنى الدول المتحالفة ، اللهم إلا حيث كانت هناك معاهدات خصوصية تنظم تبادل التزاوج وما شابهه — لبثوا من الناحية العملية أجانب بعضهم عن البعض . وكان المادنون الأقرون ذوو المتربة فى أثينا هم بوجه خاص الذين شدوا بنيان الإمبراطورية بفضل ما كانوا يبذلون من خدماتهم الشخصية المتتابعة القوية . وكان كل ممادن عرضة للخدمة العسكرية داخل موطنه أو خارجه بين سن الثامنة عشرة والستين . وكان يطلب آونة للذود عن موطنه فى شئون آثينية محضة ، ويتصدى آنا آخر للذب عن مدن الإمبراطورية التى افتدى ممادنوها أنفسهم بالمال . ولم يكن هناك على الراجح بين أفراد مجلس الأحرار ، رجل واحد تزيد سنه على الخامسة والعشرين لم يتمرس بالحرب فى حملات عديدة فى نواح مختلفة من البحر المتوسط أو البحر الأسود ، أو لم يكن يتوقع أن يعود إلى الخدمة العسكرية ثانية . وخصوم الاستعمار المصرى إنما يتهمونه بأنه استغلال الأغنياء للعالم ، على أن الاستعمار الآثينى كان استغلال الماًدنين من فقراء الآثينيين للعالم .

وثم فارق آخر يباعد ما بين ديمقراطيتهم وبين الظروف المصرية ، يرجع إلى حجم دول المدن الإغريقية الصغير ، وهو أنه كان لكل ممادن فى النظام الديمقراطى الحق فى حضور مجلس الأحرار والتكلم والتصويت فيه . وكان فحوى هذا أن يلتئم لجل المدن ، مجلس لا يضم سوى بضع مئات من الناس ، فلم يكن عددهم فى أكبرها يزيد على بضع آلاف من الماًدنين . وليس شىء من هذا القبيل بممكن فى ديموقراطية عصرية فيها من الأصوات ما قد يصل عدده إلى ملايين عديدة . ويلاحظ أن صوت الماًدن المصرى فى الشئون العامة ، مقصور على حقه فى التصويت لواحد أو لآخر من مرشحى الأحزاب الذين يقدّمون إليه . ومفروض عند ذاك « موافقة » الناخب أو الناخبة على الحكومة التى يتمخض عنها ذلك الانتخاب . وهذا أرسطو الذى لو أنه عاصرنا لأثلجت فؤاده الأساليب الانتخابية التى تستخدمها ديمقراطياتنا العصرية ، يوضح بطريقة جد بارعة ، كيف أن طبقة الماًدنين من الفلاحين الذين نأت مساكنهم يمكن فى الديمقراطية القديمة أن يحرموا حرمانا فعليا من حقوقهم المدنية بالإكثار من دعوة مجلس الأحرار دعوة متداركة متكررة لا يستطيعون معها أن يحضروا الجلسات بانتظام . وفى الديمقراطيات الإغريقية المتأخرة فى القرن الخامس كان تعيين الموظفين العموميين ، فيما عدا الضباط الذين يجب أن تتوفر فيهم دراية خاصة جدا ،

يتم بالقرعة ورمى القداح ، إذ كانوا يزعمون فى هذه الوسيلة ضماناً يقى الهيئة العامة للمادنين أرباب الامتيازات من دوام تسلط الأغنياء وذوى النفوذ والمبرزين من أهل الكفاية .

كان لدى بعض الديمقراطيات (مثل أثينا وميليتوس) نظام يسمى النفى السياسى Ostracism وهى كلمة مشتقة من أوستراكون Ostrakon ومعناها الشقافة إذ كان الناخب يستطيع فى أيام النازعات والأزمات أن يكتب اسم أحد المادنين على قطعة من الشقافة أو المحار فيصدر طبقاً لذلك قرار إما بإبعاد ذلك المادن لمدة عشر سنوات أو عدم إبعاده ، وقد يبدو هذا للقارىء العصرى نظاما قائما على الغيرة ، على أن الغيرة لم تكن صفته اللازمة . ويقول جلبرت مرى أنه كان وسيلة للوصول إلى قرار حاسم فى مسألة انقسم الشعور السياسى بصددها انقساما ينذر بوقوع أزمة سياسية لاسبيل إلى حلها . وكان فى الديمقراطيات الإغريقية أحزاب وزعماء أحزاب ، ولكن لم يكن لديهم حكومة منتظمة بيدها مقاليد الحكم ، ولم تكن لديهم معارضة منتظمة ، فلم يكن هنالك إذن أية وسيلة لتنفيذ سياسة ما ، وإن كانت هى السياسة الشعبية التى تروق فى نظر الشعب - إذا انبرى زعيم قوى أو جماعة قوية لمناهضتها . على أن النفى السياسى كان يلزم أقل الزعماء الكبار منزلة فى قلوب الشعب وأقلهم استمتاعا بثقته أن ينسحب من الميدان إلى حين دون أن يلحق أى ضرر بشرفه أو ممتلكاته .

وقد خلد نظام النفى السياسى هذا ، اسم عضو خامل من أعضاء الديموقراطية الآثينية يكاد يكون أميا ، ذلك أن شخصاً اسمه أريستيدس قد ذاع صيته فى المحاكم لاستقامته ولمناصرته العدل والقانون — حدث ذات مرة أن نشب بينه وبين تيموستوكليس نزاع ، بشأن موضوع يتعلق بالسياسة البحرية ، إذ كان أريستيدس من أنصار تقوية الجيش على حين كان تيموستوكليس من أنصار النهوض بالبحرية ، فكان الجو منذراً بفادح الخطب ، وكان أن عمدت المدينة إلى اللجوء إلى النفى السياسى لحسم هذا النزاع بينهما . ويقص علينا بلوتارك أنه بينما كان أريستيدس يتجول فى شوارع المدينة ساعة التصويت ، استوقفه ممادن غريب من الأصقاع الزراعية المحيطة بالمدينة لا يعرف فن الكتابة وطلب إليه أن يكتب اسمه هو نفسه على قطعة من الشقافة قدمها إليه فسأله أريستيدس قائلا « ولماذا ؟ فهل حدث قط أن أساء إليك أريستيدس ؟ » فقال المادن : كلا ، كلا ، فإن عيناى لم تقعا عليه أبدا ولكننى مع الأسف برمت جداً بما وصل إلى سمعى من أنه يدعى أريستيديس العادل » وعند ذلك كما يقول بلوتارك — كتب أريستيدس ما أشار به الرجل دون أن يطيل عليه الكلام

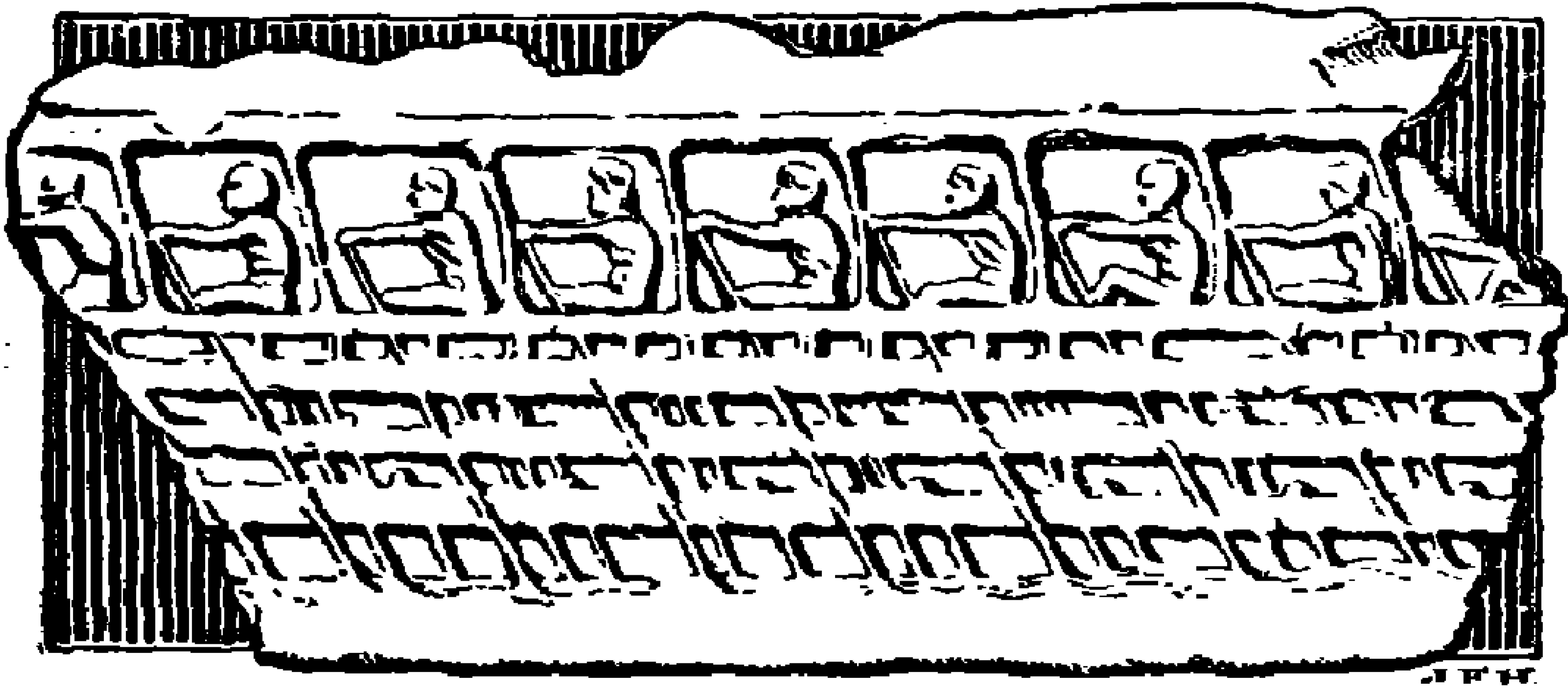
ومتى فهم المرء المغزى الحقيقى لهذه الدساتير الأغريقية ، وفهم بوجه خاص مسألة حصر جميع السلطات سواء أ كان ذلك فى الديموقراطيات أم الأوليجاركيات فى يد طبقة ذات امتياز محلى ، أدرك كيف كان من المحال قيام أى اتحاد فعال بين مئات المدن الأغريقية المتناثرة حول إقليم البحر المتوسط ، أو حتى وجود أى تعاون منتج بينها يرمى إلى غاية مشتركة فإن كل مدينة كانت فى قبضة فئة قليلة أو بضع مئات من الرجال الذين كان أهم ما يعنون به ويحرصون على تحقيقه فى حياتهم هو أن تظل مدينتهم منفصلة عن المدن الأخرى . ولم تكن فى العالم قوة تستطيع أن توحد الإغريق غير الغزو الخارجى . ولم تتحقق لهم أى وحدة سياسية حتى غزيت بلاد الأغريق ، فلما أن غزيت بلادهم آخر الأمر ، كان غزوها كاملا بحيث لم تجعل لوحدتهم أدنى قيمة حتى لهم أنفسهم ، إذ اجتمعوا على وحدة الاستسلام والخضوع .

ومع ذلك فقد كان هنالك على الدوام مقومات لوحدة بين الإغريق كافة فى بعض التقاليد السائدة بينهم ، دعامتها لغة مشتركة وكتابة مشتركة ، وتراث مشترك من ملاحم الأبطال ، هذا إلى اختلاطهم التواصل الذى يسره موقع دولهم من البحر ، عدا روابط دينية بأعيانها كانت مما يعين على توحيد البلاد . ولو تأملت بعض المقاصير — كمقصورة الالة أبولو بجزيرة ديلوس ومعبد دلفى مثلا — لرأيت أن ما كانت تلقاه من تأييد وعون لم يقتصر أمره على دول بمفردها بل تجاوز ذلك إلى اتحادات من الدول (Amphictyonies) والأمفكتيون هو الحلف من الجيران .

وقد أصبحت عصبات الجيران هـذه (من أمثال عصبة دلفى) إتحادات واسعة النطاق جداً ، وكانت العصبة تحمى المقصورة وتحافظ على سلامة من يؤمها من حجاج وتصون الطرق المؤدية إليها ، وتحفظ السلام إبان الأعياد الخاصة ، وتسن قواعد معينة للحد من اللجوء إلى الحرب بين أعضائها ، ولقد تم القضاء على القرصنة — على يد العصبة الديلية خاصة . وثمة رابطة أخرى للاتحاد الهلينى أكثر أهمية مما سلف وهى الألعاب الأولمبية ، التى كانت تعقد فى أولمبيا كل أربع سنوات . وكان سباق الجرى والملاكمة والمصارعة وقذف الرمح وقذف القرص والقفز وسباق المركبات والخيول ، أهم الألعاب . وكانوا يحتفظون بسجل للفائزين وللزوار المتازين ، وظلت هذه الألعاب منذ ٧٧٦ ق م تقام بانتظام مدة تربو على ألف سنة ، وكان أثرها كبيراً فى الاحتفاظ بذلك الإحساس بوجود حياة إغريقية مشتركة ذات طابع هيلينى عام يسمو على السياسات الضيقة التى تجرى على سننها دول المدن . وتعتبر

(٧٧٦ ق م) وهى أول سنة عقدت فيها الألعاب الأولمبية نقطة بداية عظيمة القدر فى أحداث التاريخ الإغريقى .

على أن أمثال تلك الروابط القائمة على العواطف وروح التآلف لم يقم لها كبير غناء إزاء « روح الانفصال » الحادة التى ترجع إلى النظم السياسية الإغريقية . وفى طوق طالب العلم أن يحس لدى مطالعته « تاريخ هيرودوت » بمبلغ الحدة والعنف الناجمين عن طول عهد المنازعات التى ألقت بالعالم الأغريقى فى غمرة حرب مزمنة . وفى الأيام الخوالى (أى حتى القرن السادس ق م على وجه التقريب) كانت تسود بلاد الأغريق عائلات كبيرة نوعا ما ظل لها شىء من نظام الدورات الآرى القديم بكل ما يلازمه من شعور قوى واعتداد بالعشيرة ، ومن قدرة على مداومة الإحتفاظ بالمنازعات وإن طال بها الأمد . ويدور تاريخ آثينا مدى سنين عديدة حول منازعات حدثت بين عائلتين عظيمتين هما عائلتا الألكمانوتداى (Alcmaeonidae) والبزستراتيداى (Peisistratidae) والأخيرة تعادل الأولى فى الأرستقراطية ، بيد أنها أسست صرح قوتها على معونة الطبقة الفقيرة من الشعب وعلى استغلالها لما يحل بهم من الحيف والمظالم . وفيما عقب ذلك من الزمان أى فى القرنين السادس والخامس أدى تحديد النسل ونقص أفراد العائلات إلى اثنين أو ثلاثة (وهى عملية لحظها أرسطو وإن لم يدرك لها سببا) — أدى إلى اختفاء العشائر الأرستقراطية القديمة . وكانت الحروب التى وقعت بعد ذلك راجعة إلى منافسات تجارية وإلى مظالم — سببها وأثارها أفراد من المجازفين — أكثر منها إلى الأحقاد العائلية وروح الأخذ بالثأر



٦٤ — ٤٠٠ سفينة حربية آثينية ق . م

ومن اليسير علينا الآن أن نفهم ، بالنظر إلى تلك الروح الانفصالية الحادة لدى الإغريق ، كيف سهل وقوع الأيونيين بآسيا وبالجزائر تحت سلطة مملكة ليديا أول الأمر ثم سلطان الفرس ، عندما قام قورش بخلع كروسوس ملك ليديا عن عرشه . ثم هب الأيونيون بالثورة وكأنهم لم يثوروا إلا لكى يعود إليهم الفرس ثانية بالبطش والإخضاع ثم جاء دور بلاد الإغريق الأوربية فكان مما يدعو إلى الدهشة ، ومما دهش له الإغريق أنفسهم أن وجدوا أن بلاد الإغريق نفسها لم تقع تحت سلطان الفرس ، أولئك الآريين المتبربرين سادة الدنيات

القديمة فى آسيا الغربية ، على أننا قبل أن نتحدث عن هذا الكفاح نرى لزاما علينا أن نلقى نظرة إلى هؤلاء الآسيوين الذين صمد الإغريق أمامهم ووقفوا لهم بالمرصاد وعلى الأخص إلى الميديين والفرس ، الذين ما كادت تحل بهم ٥٣٨ ق . م حتى كانوا قد استولوا على حضارتى آشور وبابل القديمتين وكانوا على وشك أن يقهروا مصر .

٤ — مملكة ليديا

سنحت لنا فيما سلف الفرصة لذكر مملكة ليديا وربما كان من المستحسن أن ندلى إليك ها هنا بنبذة موجزة عن الليديين قبل أن نواصل الحديث فى قصتنا . وربما كان السكان الأصليون فى معظم أجزاء آسيا الصغرى ، يمتون بالقرابة إلى السكان الأصليين ببلاد الإغريق وكريت فان كان الحال كذلك فقد كانوا من جنس البحر المتوسط ولعلهم فرع آخر من أولئك القوم الميالين إلى السمرة والذين هم أعم انتشاراً وأقدم عهداً وأقرب إلى الجنس الأساسى والذين نشأ منهم جنس البحر المتوسط فى الغرب والجنس الدرافيدى فى الشرق .

وهناك بقايا من نفس الفن الذى امتازت به كنوسوس وميسيناى وجدت متناثرة فى نواحى آسيا الصغرى . ولكن كما أن الإغريق النورديين انسابوا جنوباً إلى بلاد الإغريق ، فغزوها واختلطوا بالسكان الأصليين ، فإن قبائل أخرى نوردية تمت إليها بصلة القربى ، فعلت ذلك سواء بسواء فتدفقت عبر البسفور إلى آسيا الصغرى .

وقد عمت هذه الشعوب الآرية بعض المناطق ، وأصبحت لها الغلبة فيها ، مكونة كتلة السكان ، محتفظة بلغتها الآرية ، ذلك شأن الفريجيين ؛ وهم شعب لغته تكاد تكون شديدة الصلة بلغة الإغريق ، قدر شدة صلة اللغة المقدونية بالإغريقية . على أن بعض المناطق الأخرى لم يعمها الآريون إلى مثل هذا الحد : ففى ليديا حافظ الجنس الأصلى على نفسه وعلى لغته ، فلم يهن ولم يخضع ، وكان الليديون شعباً غير آرى يتكلمون لغة غير آرية ، لا يعرف منها فى الوقت الحاضر سوى بضع كلمات قليلة . وكانت سارديس Sardis عاصمتهم .

وكانت ديانتهم غير آرية كذلك ، فإنهم كانوا يعبدون إلاهة أنثى هى الأم العظيمة . والفريجيون كذلك ، وإن احتفظوا بلغتهم شبه الإغريقية ، فقد انتقلت إليهم عدوى الديانة ذات الأسرار الخفية ، والواقع أن قدرا كبيرا من الديانة ذات الأسرار الخفية mystical والطقوس السرية ، التى عمت أثينا فى تاريخ تال ، كانت فريجية (إن لم تكن تراقية) فى أصلها .

وقد احتفظ الليديون بادىء الأمر بساحل آسيا الصغرى الغربى ، ولكنهم طردوا منه نتيجة لقيام الإغريق الأيونيين الذين جاءوا بطريق البحر وأسسوا المدن ، ومع ذلك فإن هذه المدن الأيونية الإغريقية أخضعها فيما بعد الملوك الليديون .

وتاريخ بلاد ليديا هذه ، ما يزال غامضاً غير معروف معرفة واضحة ، ولو أنه عرف مابلغت أهميته قدرا يجعله جديرا بأن يذكر فى هذه المعالم التاريخية ، على أن القرن الثامن ق م . يظهر لنا اسم ملك جدير بالذكر يدعى جيجيس ، فإن البلاد تعرضت فى أيامه إلى غزو آخر ، ذلك أن قبائل مترحلة تسمى السمريين ، جاءت تتدفق عبر آسيا الصغرى ، فردهم جيجيس وابنه وحفيده بغاية الجهد والمشقة ، واستولى هؤلاء البرابرة الهمج على مدينة سارديس وأحرقوها مرتين . ويذكر التاريخ أن جيجيس دفع الجزية لساردانا بالوس Sardanapalus وهذا أمر يربط ما بينه وبين فكراتنا العامة عن تاريخ مملكة آشور وبنى إسرائيل ومصر . ثم ثار جيجيس فيما بعد ضد مملكة آشور ، وأرسل الجنود لمساعدة أبسماتيك الأول فى تحرير مصر من عبوديتها القصيرة الأجل للآشوريين . وإلى ألياتيس Alyattes حفيد جيجيس يرجع الفضل فى جعل ليديا قوة يعتد بها ، وظل فى الملك سبع سنين ، وهو الذى أخضع غالبية المدن الأيونية فى آسيا الصغرى لحكمه ، وأصبحت البلاد مركزا لتجارة عظيمة بين آسيا وأوربا وكانت على الدوام بلادا مثمرة غنية بالذهب ، واشتهر الملك الليدى بأنه أغنى ملوك آسيا ، وكان هناك بين البحرين الأسود والمتوسط وبين الشرق والغرب حركة غدو ورواح لا تنقطع ، واشتهرت ليديا بأنها أولى أقطار العالم فى إنتاج النقود المسكوكة ، وفى تقديم الخانات (الفنادق) للمسافرين والمتجرين ينزلون بها ويجدون وسائل الراحة والاستجمام . ويلوح أن الأسرة المالكة الليدية كانت أسرة تجارية من طراز أسرة مينوس فى كريت وقد بلغ نظام المصارف (البنوك) والمالية فيها شأواً طيباً ، وفى هذا القدر الكفاية من أخبار ليديا نقدمه على سبيل التوطئة للقسم التالى .

٥ — قيام الفرس فى الشرق

وعلى حين تطورت سلسلة من الغزاة الناطقين بالآرية ، على الشاكلة التى وصفناها فى فى بلاد الإغريق ، وبلاد الإغريق العظمى (أى إيطاليا) ، وما حول شواطىء البحر الأسود ، فإن هناك سلسلة أخرى من الشعوب الناطقة بالآرية ربما كان دمها النوردى

الأصلى مختلطا من قبل بأحد العناصر المغولية ، قد أخذت تستقر وتنتشر فى شمال وشرق الامبراطوريات الآشورية والبابلية .

ولقد أسلفنا الكلام عن تشتت الشعوب النوردية الآرية على صورة تشابه شكل القوس فى شمال البحر الأسود وبحر قزوين ، والراجح أن هذا الطريق ، هو الذى سلكته الأجناس الهندية الفارسية الناطقة بالآرية فى نزولها التدريجى إلى ما يكون الآن بلاد فارس ، وانتشرت شرقا إلى الهند من ناحية (من نحو ٢٠٠٠ إلى ١٠٠٠ ق م) . وازدادت من الناحية الأخرى وتكاثرت فى المرتفعات الفارسية حتى بلغت من القوة حدا جعلها تهاجم مملكة آشور بادىء الأمر (٦٥٠ ق م) ثم بابل (٥٣٨ ق م)

ويحيط الغموض الكثير بتغيرات المناخ التى كانت تحدث فى أوربا وآسيا خلال العشرة الآلاف السنة الأخيرة ، فإن ثلج العصر الجليدى الأخير تراجع تراجعاً تدريجيا ، وبذلك تحول سهل أوربا العظيم طوال فترة مديدة إلى سهوب وأحوال شبيهة بالبرارى . ومنذ اثنى عشر ألفا أو عشرة آلاف من السنين تقريبا ، كما يقدرون اليوم ، كانت هذه الحالة آخذة فى الزوال لتحل محلها الغابات والآجام .

ولقد ذكرنا آنفاً كيف حدث نتيجة لهذه التغيرات ، أن أخلى صيادو الحصان السوليتريون (Solutrean) مكانهم لصائدى السمك المجدلينيين[1] (Magdalenian) ولصائدى غزال الغابات ، كما أخلى هؤلاء أيضا مكانهم بدورهم للرعاة والزراع النيوليثيين . ويلوح أن المناخ الأوربى لبث بضع آلاف من السنين أدفأ منه الآن ، وكان هناك بحر عظيم يمتد من ساحل شبه جزيرة البلقان متوغلا فى آسيا الوسطى ، ويصل امتداده شمالا إلى روسيا الوسطى ، وكان انحسار ذلك البحر وانكماشه وما نجم عن ذلك من جمود (جفاف) المناخ فى روسيا الجنوبية وآسيا الوسطى ، معاصراً تماما لقيام المدنية الأولى فى وديان الأنهار ومتمشياً مع تطورها ، وإن هناك لحقائق كثيرة تبدو دالة على وجود مناخ أكثر اعتدالا فى أوربا وآسيا الغربية ، وتشير أيضا بشكل أقوى إلى ازدهار فى حياة النبات والخضراوات منذ أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف سنة خلت ، يفوق ما نراه الآن . كانت هناك آنذاك غابات فى آسيا الجنوبية وفى القطر الذى هو الآن التركستان الغربية ، حيث تعم اليوم السهوب والصحارى .

---

(١) راجع المجلد الأول

ومن ناحية أخرى كانت المنطقة الأورالية القزوينية منذ مدة تتراوح بين ١٥٠٠ سنة و ٢٠٠٠ سنة أجف فيما يرجح ، كما كانت تلك البحار أصغر مما هي عليه في الوقت الحاضر .



وقد نلحظ في هذا الصدد أن تحتمس الثالث (في القرن ١٥ ق م) على وجه التقريب صاد في حملته التي امتدت إلى ماوراء الفرات ، قطيعاً مكوناً من مئة وعشرين فيلا في ذلك الإقليم ، وعدا ذلك فثمة خنجر إيجي من مسيناى يرجع تاريخه إلى حوالى (٢٠٠٠ ق م) وعليه صورة منظر صيد أسد يحمل الصائدون فيه تروساً كبيرة ويقفون في صفوف ، الواحد منهم تلو الآخر ، فيطعن الرجل الأول الأسد بحربته ، فإذا وثب الوحش الجريح عليه ، ارتمى الرجل على الأرض متوقياً بترسه الكبير ، تاركا للرجل الذي يليه أن يكرر طعنته ، وهكذا حتى يقضي على الأسد . وما برح شعب الماساى (Masai) يمارس إلى اليوم طريقة الصيد هذه ، على أنها لا تصلح إلا في أرض كثيرة الآساد ، ولكن كثرة الأسود تشير ضمنا إلى كثرة القنائص ، وهذا بدوره ينم عن وجود وفرة من النبات . وكان تحول المناخ إلى الجفاف حوالى ٢٠٠٠ ق م في الأجزاء الوسطى من العالم القديم ، وهو الذي سبق أن أشرنا إليه ، مدعاة لتغير اتجاه الشعوب الآرية المترحلة فجعلها تتجه جنوباً نحو الحقول والغابات بين الشعوب الأكثر استقراراً وتمدنا .

ومما هو جدير بالذكر أن الأسود بقيت في شبه جزيرة البلقان حتى قرابة القرن

الرابع ق م ، إن لم يكن بعد ذلك . وربما كانت الفيلة قد اختفت من آسيا الغربية ، قبيل القرن الثامن ق م . ولكن الأسد — وقد كان أضخم من الأسد الحالى جثة — ظل فى ألمانيا الجنوبية حتى العصر النيوليثى ، ولبث النمر الأرقط (Panther) يسكن بلاد الإغريق ، وجنوب إيطاليا ، وأسبانيا الجنوبية ، حتى بداية الحقبة التاريخية (قرابة ١٠٠٠ ق م) .

وتنحدر الشعوب الآرية إلى التاريخ من إقليم قزوين الشرقى ، قرابة الوقت الذى كانت فيه طروادة وميسيناى وكنوسوس تسقط فى يد الإغريق . ومن الصعب فصل القبائل والأجناس المختلفة وتمييزها بعضها عن بعض . وهى تظهر تحت حشد كبير من الأسماء فى السجلات والمخطوطات التى تسجل أول ظهورهم ، على أنه من حسن الطالع ، أنه ليست بنا حاجة إلى هذه الفروق المميزة فى معالم أولية كهذا الكتاب . ويظهر شعب يسمى السمّريين فى ناحية بحيرات أوروميا (Urumya) وڤان (Van) . وبعد ذلك بوقت قصير ينتشر الآريون من أرمينيا إلى عيلام (Elam) . وفى القرن التاسع ق م تذكر المخطوطات الآشورية اسم شعب يسمى الميديين (Medes) وثيق اللحمة بالفرس ، يظهرون إلى الشرق منهم ، ويدّعى كل من تجلات بيلسر الثالث وسرجون الثانى وهما اسمان غير جديدين على أسماعنا فى هذه القصة ، بأنهما ألزماهم دفع الجزية . والمخطوطات تشير إليهم بأنهم « الميديون الخطرون » ، وهم بعد شعب قبيلى لم يتحد تحت لواء ملك واحد .



٦٦ — أشكال الإسكيذيين

وقرابة القرن السابع ق م ، ترى عيلام والعيلاميين ، وكانت عاصمتهم سوسا وهم شعب له تقاليد ومدنية لا تقل عن تقاليد السومريين ومدنيتهم من حيث القدم ، يتوارون من سجل التاريخ فجأة . ولسنا ندرى ما حدث . ويلوح أن الغزاة اجتاحوهم وامتصوا السكان ، ووقعت سوسا فى قبضة الفرس .

وثمة شعب رابع يمت بصلة إلى هذه القبائل الآرية ، يظهر فى هذا الزمان فى رواية

هيرودوت ، وهو الاسكيذيون (Scythians) ، فإن ملوك دولة آشور يوقمون الشحناء طرفا من الزمان بين مختلف هذه الشعوب ذوات القربى ويغـرون السمريين والميديين والفرس والاسكيذيين بعضهم ببعض ، وتتزوج أميرات آشوريات (بينهن بنت إيسار حادون Esarhadon مثلا) من رؤساء إسكيذيين . ومن جهة أخرى نرى نبوخذ نصر العظيم ، يتزوج من ابنة سيا كسارس (Cyaxares) الذى أضحى ملـكا على الميديين كافة . والآريون الاسكيذيون يتجهون نحو الآشوريين الساميين ، على حين ينزع الميديون الآريون صوب البابليين الساميين . وسيا كسارس هذا هو الذى فتح نينوى عاصمة آشور سنة ٦٠٦ ق . م وبذا خلص بابل من النير الآشورى ، ومن ثم تأسست الأمبراطورية البابلية الثانية تحت الحـكم الـكلدانى . ثم يعود أحلاف دولة آشور الاسكيذيون فيسقطون من القصة بعد هذا ويواصلون عيشهم فى مكان بعيد فى الشمال ، دون كثير تدخل فى شئون الشعوب التى فى الجنوب ، وإن نظرة إلى خريطة تلك المـدة لتريك كيف أنه خلال ثلثى قرن من الزمان استقرت الأمبراطورية البابلية الثانية استقرار الحمل بين ذراعى الأسد الميدي .

ولن نتدخل فى معترك المنازعات الداخلية بين الميديين والفرس ، وهى التى انتهت آخر الأمر باعتلاء قورش Cyrus الفارسى عرش سيا كسارس الميدى عام ٥٥٠ ق . م ففى تلك السنة كان قورش يحكم إمبراطورية تمتد من حدود ليديا إلى فارس وربما وصلت إلى الهند ، على حين كان نابونيداس آخر الحـكام البابليين ، كما ذكرنا آنفا يحفر منقباً عن السجلات القديمة ويبنى المعابد فى مملـكة بابل (بابلونيا) .

٦ — قصة كرويسوس Croesus (قارون)

على أن هناك ملـكا واحداً فى العالم تنبه لخطر تلك القوة الجديدة المجتمعة بين يدى قورش ذلك هو كرويسوس ملك ليديا وقد قتل ابنه بطريقة محزنة جداً ذكرها هيرودوت ولـكننا لا نتعرض لوصفها ها هنا قال هيرودوت :

« أقام كرويسوس بعد ذلك الحادث مدة سنتين فى حداد عميق ، ولـكن راعه بعد تلك الفترة ما رآه من خلع قورش لابن سيا كساريس من الحـكم ومن تزايد الفرس عظمة وسلطانا فأقلع كرويسوس عن أحزانه ، وأخذ يعمل بكل ما أوتى من وسيلة على تقويض قوة الفرس وهى ما تزال فى طور النمو ، وقبل أن تبلغ غاية العظمة . وعند ذلك أخذ يجرب ضروب الوحى المتنوعة ويستـلهم مختلف النبوءات . وقد كلف كرويسوس الليديين الذى كان عليهم

أن يحملوا العطايا إلى المعابد ، بأن يسألوا الوحى هذا السؤال : « هل يهاجم كرويسوس الفرس ، وإن كان الحال كذلك ، فهل يجب عليه أن يضم إليه أى جيش من الرجال بوصفهم أصدقاء ؟» ولما أن وصل الليديون إلى الأماكن التى بعثوا إليها ، وزعوا العطايا وقدموا النذور استفسروا من الوحى قائلين : «إن كرويسوس ملك الليديين والشعوب الأخرى ، إذ يعد هذه هى ضروب الوحى الصادقة الوحيدة بين الناس ، يقدم لكم من العطايا ما يستحقها كشفكم أستار الغيب ، ويسألكم الآن مرة أخري هل قدر له أن يسيّر جنده ضد الفرس ، وإن كان الأمر كذلك ، فهل كتب عليه أن يضم أى جيش من الرجال بوصفهم أحلافا ؟ » هكذا استفسروا ، واتفقت إجابات كل من النبوءتين على أمر واحد ، هو التنبؤ لكرويسوس بأنه إن سار ضد الفرس فإنه سيحطم إمبراطورية عظيمة . وعلى ذلك فلما نقلت الإجابة إلى الملك وبلغت مسامعه ، سره الوحى ، ولتوقعه أنه لابد مدمر مملكة قورش ، أرسل ثانية إلى بيثو (Pytho) وأهدى إلى رجال دلفى كافة ، بعد أن استوثق من عددهم ، قطعتين من الذهب لكل رجل منهم ، (قيمة الواحدة ستاتير Stater) وفى مقابل هذا ، أعطى الدلفيون كرويسوس والليديين حق الأسبقية فى استشارة الوحى والاعفاء من كل الرسوم ، وحق الجلوس فى القاعد الأمامية فى حفلات الألعاب ، مع منحهم امتيازاً آخر يبقى لهم على مر الزمان ، وهو أن يسمح لكل من يرغب منهم ، بأن يكون له حق المادن الحر فى دلفى ، ومن ثم أنشأ كرويسوس حلفاً دفاعيا مع كل من اللاسيديمونيين (Lacedemonians) والمصريين . ثم يستطرد هيرودوت فيقول : « وبينما كان كرويسوس يتأهب للمسير على الفرس ، نصح له أحد الليديين وكان من قبل هذا الزمان معروفا بالحكمة والحصافة ، على أن هذه النصيحة زادته شهرة على شهرته بالعقل والحكمة بين الليديين ، — نصح الملك بما يلى ، قال « أيها الملك ، إنك تستعد للهجوم على رجال يرتدون سراويل من الجلد ، وسائر ثيابهم من الجلد كذلك ، وهم يأكلون طعاما ليس مما يشتهونه ، وإنما مما يستطيعون الحصول عليه ويعيشون فى أرض وعرة ، وفضلا عن ذلك ، فإنهم لا يتناولون النبيذ بل يشربون الماء ، وليس لديهم من التين ما يتخذونه حلوا بعد طعامهم ، ولا أى غذاء طيب آخر . فمن ناحية ، إن كانت الغلبة لك عليهم ، فماذا أنت آخذ منهم ، وليس لديهم شيء يستلب ؟ ومن جهة أخرى إن غلبوك ، فتأمل كم من الأشياء الطيبة تذهب عنك حين ذاك ، فإنهم إذا ذاقوا خيراتنا لأول مرة ، تشبثوا بها لا محالة ، ولن يستطاع بعد ذلك إقصاءهم عنا . وأنا عن نفسى أشعر بالشكر للآلهة لأنهم لم يبثوا فى عقول الفرس أن يزحفوا على الليديين .» هكذا تكلم من

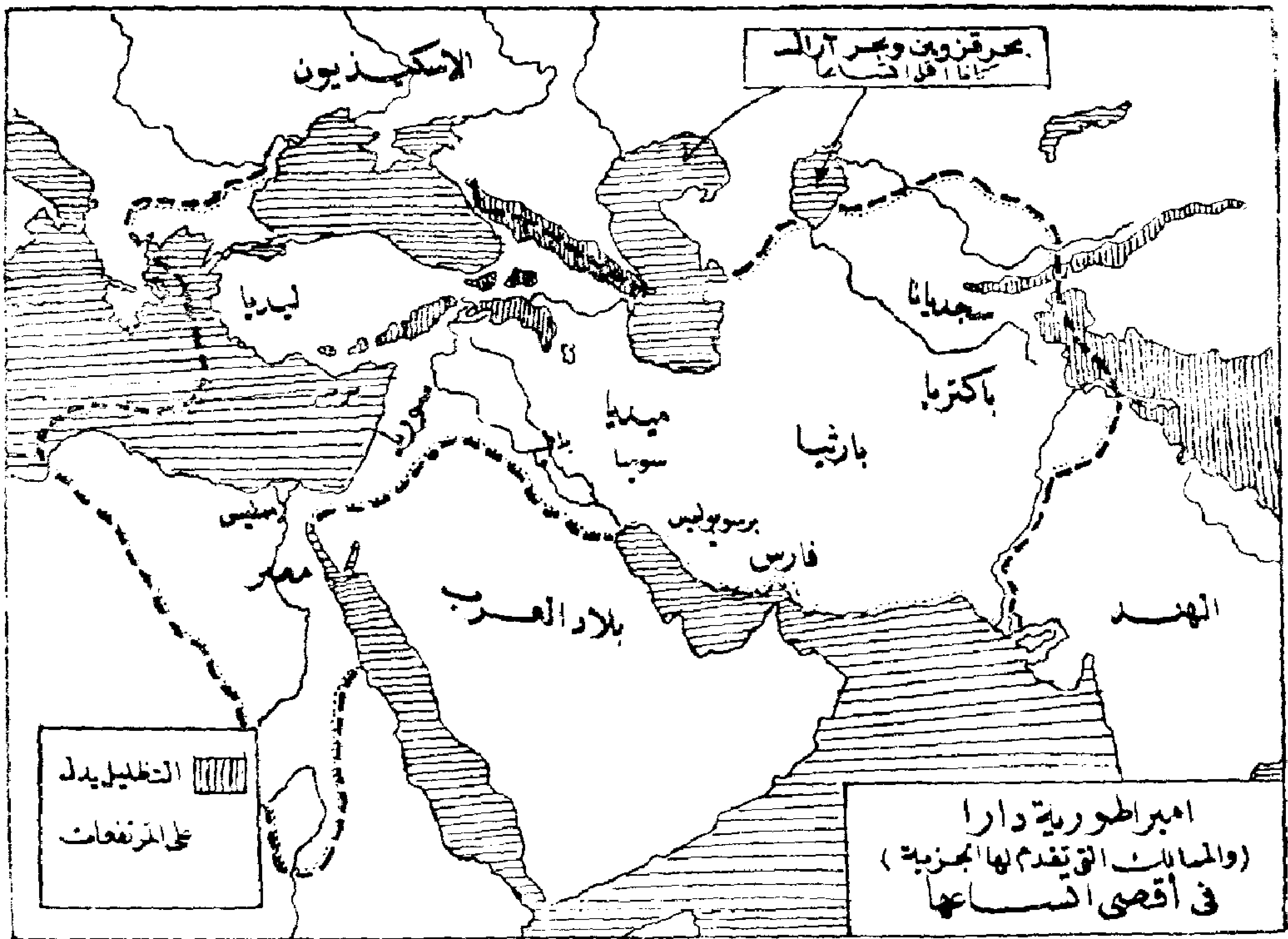
غير أن يقنع كرويسوس ، لأنه من المحقق إنه لم يكن لدى الفرس قبل أن يخضعوا الليديين ، شيء من وسائل الترف ولا من الطيبات »

« واقتتل كرويسوس وقورش فى معركة غير فاصلة فى ابتريا (Pteria) تراجع منها كرويسوس ، وتبعه قورش فالتحما فى معركة خارج عاصمته ساردیس ، وكانت قوة الليديين تنحصر فى فرسانهم ، إذ هم من متفوقة الفرسان ، وإن كانوا راكبة غير منظمين يقاتلون برماح طويلة . فأما قورش فإنه رأى الليديين مصطفين للقتال ، وخشى راكبهم فأقدم على ما يأتى تنفيذاً لمشورة هارباجوس (Harpagos) أحد الميديين : فإنه جمع فى صف واحد كل الجمال التى كانت فى مؤخرة جيوشه تحمل المؤن والمتاع ، ورفع عنها أحمالها وأقام عليها رجالا مزودين بعتاد الفرسان ، وبعد أن أعد عدتهم على هذه الشاكلة ، أمرهم بأن يكونوا فى مقدمة سائر الجيوش وأن يتجهوا إلى فرسان كرويسوس ، ومن خلف فصيلة الجمال ، أمر المشاة أن يتبعوهم ، ومن خلف المشاة وضع قوة فرسانه بأكلها . وعند ما عبأ رجاله كلا فى مكانه الخاص ، أمرهم ألا يتركوا فرداً واحداً من الليديين الآخرين حيا ، وأن يذبحوا كل من قد يقف فى سبيلهم ، على أنهم لم يكونوا ليذبحوا كرويسوس نفسه ، وإن أبدى المقاومة ساعة القبض عليه . تلك كانت أوامره . وهو قد وضع الجمال ضد الخيل لهذا السبب : لأن الخيل تخشى الجمل ولا تستطيع أن تحتمل رؤية هيئته أو أن تشم رائحته . فلهذا السبب إذن دبرت الحيلة ، حتى تصبح فرسان كرويسوس ولا غناء فيها ، وهى نفس القوة التى كان يتوقع منها الملك الليدى كل التفوق والتبرز .

« وبينما هم يتقدمون جميعا للالتحام فى المعركة ، وبمجرد أن اشتمت الخيل رائحة الجمال ورأتها ، دارت على أعقابها ، وانهارت آمال كرويسوس على الفور » وهوجمت ساردیس طوال أربعة عشر يوما ووقع كرويسوس فى الأسر . . . ولما أن ظفر به الفرس قدموه بين يدى قورش ، فجمع الملك كومة عظيمة من الحطب وأمر فجعل كرويسوس من فوقها مشدود الوثاق ، كما جعل معه أربعة عشر من أبناء الليديين ، فهل كان يقصد أن يقدم هذا القربان ثمرة أولى لنصره إلى أحد الأرباب ؟ أو هل كان يبغى تحقيق الوفاء بنذر قطعه على نفسه ؟ أو أنه سمع أن كرويسوس رجل يخشى الله ، فأمر به فجعل من فوق كومة الحطب ، لأنه أراد أن يعرف هل يستنقذه أى فرد من أفراد القدرة الإلهية ، فلا يحرق حيا ؟ فى قولهم أنه أتى ذلك الأمر ابتغاء تلك الغاية .

على أن كرويسوس وهو واقف على كومة الحطب هبطت عليه على الرغم مما كان فيه من سوء الحال ذكرى حكمة سولون (Solon) حين قال بوحى من الآلهة : إنه ليس بين الأحياء من يدعى بالسعيد ، فلما خطر ذلك الخاطر بباله ، قالوا إنه تأوه تأوهاً عميقاً وأنّ أنيناً عالياً ، بعد أن ظل صامتاً زمانا طويلا ، ثم هتف باسم سولون ثلاثا . فلما أن سمع قورش ذلك ، أمر المترجمين أن يسألوا كرويسوس ، عمن يكون ذلك الشخص الذى يناديه ، فاقتربوا منه وسألوه ، ويقال أن كرويسوس لزم الصمت زمانا عندما سئل فى هذا ، ولكنهم لما ألحوا عليه بعد ذلك قال « إنه رجل وددت وإن فقدت فى سبيل ذلك ثروة طائلة — لو أنه تحدث إلى كل الملوك » وعند ذلك لما كانت كلماته ذات مضمون مريب ، سألوه من جديد عما قال ، وإذ كانوا ملحفين لا يعطونه أى سلام أو راحة ، أخبرهم كيف أن سولون ، وهو فرد آثينى ، قد جاءه ، وبعد أن فحص كل ثروته استخف بها بكلمات كيت وكيت ، وكيف أن كل ما حدث له جاء مطابقاً لما قاله سولون ، وهو لم يكن يتكلم البتة بالنسبة إلى كرويسوس نفسه بوجه خاص ولكن بالنسبة إلى الجنس البشرى أجمع ، وخاصة إلى أولئك الذين ينوحون لأنفسهم رجالا سعداء . وبينما كان كرويسوس يقص هذه الامور ، كانت النار قد أضرمت فى كومة الحطب وكانت حوافيها قد اتقدت من كل النواحى . وعند ذلك يقال أن قورش عندما سمع من المترجمين ما قاله كرويسوس ، غيّر عزمه وأيقن أنه هو نفسه إن هو إلا إنسان ، وإنه كان يقدم رجلا آخر ، لا يقل عنه سعادة ، وهو حى إلى النار ، وفضلا عن ذلك فقد خشى القصاص ، ورأى أنه ما من شىء من ذلك الذى يملكه الناس مضمون ، ولذلك يقولون إنه أمرهم أن يطفئوا بأسرع مايستطاع ، تلك النار التى كانت تتلظى وأن ينقذوا كرويسوس ومن معه من فوق كومة الأحطاب ، وإذ أخذوا يبذلون الجهود ، لم يستطيعوا إذ ذاك أن يتغلبوا على لهيب النار ، ثم يقص الليديون بعد ذلك أن كرويسوس ، وقد علم كيف عدل قورش عن رأيه ورأى كل إنسان جاهدا فى إطفاء النار ؛ وأنهم لم يعودوا قادرين على الحد من امتدادها صاح متوسلا إلى أبولون (Apollo) : إنه إذا كانت أية منحة قد منحت الدهر على يديه وكانت مقبولة عند الآلهة ، فإنه لابد منجده ومنقذه من الشر الذى كان محيقاً به . هكذا تضرع إلى الرب والدمع ملء عينيه . وفجأة كما يقولون ، وبعد أن كانت السماء مصحية والجو هادئا مستقراً ، تجمع الغمام وانفجرت العاصفة ، وأمطرت السماء وابلا مدرارا فأُطفئت نار الحطب ، ثم لما أدرك قورش أن كرويسوس محب للآلهة ورجل خير أمر به فأنزل من فوق كومة الحطب وسأله كما يأتى : « أخبرنى يا كرويسوس من من الناس قاطبة أغواك بأن

تزحف على أرضى وتصبح عدواً لى بدل أن تكون صديقاً ودوداً ؟ » فقال له : «أيها الملك لقد فعلت ذلك فكان فيه سعادتك وجر على شقاوتى ، والسبب فى ذلك هو رب الهلينيين ، الذى حرضنى على الزحف بجيشى ، إذ ما من فرد بلغت به الحماقة حداً يجعله يختار بمحض إرادته الحرب دون السلم ، لأن الأبناء يوارون آباءهم التراب فى أوان السلم ، على حين يوارى الآباء أبناءهم فى زمن الحرب . على أنى أعتقد أنه كان مما يسر القوى الإلهية أن تقع هذه الحوادث على هذا النحو . »



على أن هيرودوت رفيق شائق جذاب يغرى من يكتب معالم التاريخ بالإسهاب ، وبقية حياة كرويسوس وكيف أخذ يقدم إلى قورش نصائح حكيمة ، يجب أن تقرأ على صفحات هيرودوت الزاخرة .

ولما أن أخضعت ليديا ، وجه قورش التفاته إلى نابونيداس فى بابل ، فقهر الجيش البابلى ، تحت قيادة بلشازار (Belshazzar) خارج بابل ، ومن ثم ألقى الحصار على المدينة ، فدخلها ٥٣٨ ق م ، والراجح أن ذلك الفتح تم كما سبق أن أشرنا برضاء كهنة بعل وإغضائهم .

٧ — دارا يجتاح الروسيا

خلف قورش على الملك إبنه قمبيز ، الذى اقتاد جيشاً دخل به مصر (٥٢٥ ق م) ؛ فحدثت معركة على أرض الدلتا ، حارب فيها مرتزقة من الأغريق فى كل من الجانبين . ويصرح هيرودوت أنه رأى عظام القتلى وهى ما تزال فى الميدان بعد ذلك بخمسين أو ستين سنة ، وهو يلوّح بصغر حجم الجماجم الفارسية نسبيا ، ولم يخفف هيرودوت قط من دعايته ضد الفرس[١] ، واستولى قمبيز بعد هاته المعركة على منف ومعظم أجزاء مصر .

ويحدثوننا أن قمبيز أصيب بمس من الجنون فى مصر ، فاستباح المعابد المصرية أيما استباحة وظل فى ممفيس « ينبش المقابر القديمة ويفحص جثث الموتى » ، وكان قمبيز قد اغتال قبل وصوله إلى مصر كلا من كرويسوس ملك ليديا السابق ، وشقيقه نفسه سميرديز (Smerdis) ثم مات فى سوريا ، إبان عودته إلى سوسا متأثراً بجرح عارض ، ولم يترك عقباً يخلفه على العرش فعقبه فى الحال دارا الميدى (٥٢١ ق م) وهو ابن هيستاسبس (Hystaspes) أحد كبار مستشارى قورش .

وكانت إمبراطورية دارا الأول ، أعظم من جميع الإمبراطوريات السابقة التى تتبعنا فيما سلف نموها ، فهى تضم كل آسيا الصغرى وسوريا ، أى تضم الإمبراطوريتين الليدية والحيثية القديمتين ، وكل الأمبراطوريات الآشورية والبابلونية القديمة وتحوى مصر وبلاد القوقاز وإقليم قزوين وميديا وبلاد الفرس ، ولعلها امتدت فى الهند حتى نهر السند . دانت كل هذه البلاد لحكم دارا فأقام عليها حكاما إقليميين (ينعت الواحد منهم باسم ساتراب) ، ولم ينج من دفع الجزية للساتراب الفارسى إلا العرب الرحل وحدهم دون سائر شعوب ما يسمى الآن باسم الشرق الأدنى التابعين لدارا . ويلوح أن تنظيم هذه الامبراطورية العظيمة كان على مستوى من الكفاية أعلى كثيراً مما كان فى بواكير الامبراطوريات التى سبقتها ، فكانت الطرق الرئيسية العظيمة تصل الولاية بالولاية ، وكان هناك نظام للبريد الملكى ، وكانت خيول البريد تقف على مسافات مقررة وهى مستعدة على الدوام لحمل رسل الحكومة ، أولحمل المسافر إن كان لديه تصريح من الحكومة — إلى المرحلة الثانية من مراحل رحلته . ويلوح أن الحيثيين رصفوا الطرق الكبرى الممتدة عبر بلادهم فى زمن أبكر من هذا بكثير . على أن هذا أول تنظيم للبريد معروف لدينا ، وفيما خلا مسألة حق الحكومة المركزية فى استعمال

(١) مذكور فى الطبعة الإنجليزية كلمة Russians ولعلها Persians التى يقتضيها السياق

الطرق الإمبراطورية واستيلائها على الجزية ، فقد كانت الحكومات المحلية تستمتع بقدر جسيم جداً من الحرية المحلية ، بل أفضت تبعيتهم للحكومة المركزية إلى الحيلولة دون وقوع نزاع داخلي قتال بينهم وهو أمر عاد عليهم جميعاً بالخير العميم . وفى أول الأمر كانت المدن الإغريقية الواقعة فى القارة الأسيوية تدفع الجزية وتشترك فى الاستمتاع بهذا السلم الفارسى .

وقد استحث دارا على مهاجمة الإغريق فى أوربا طبيب إغريقى فى بلاطه كان يحن إلى وطنه ، ويريد أن يعود إلى بلاد الإغريق بأى ثمن . وكان دارا قد رسم من قبل الخطط لحملة على أوربا ، لا يهدف من ورائها إلى بلاد الإغريق ، وإنما إلى ماهو فى شمال الإغريق عبر البسفور والدانوب (الطونة) ، كان يريد أن يضرب روسيا الجنوبية ، التى كان يعتقد أنها موطن الإسكيذيين المترحلين ، الذين يهددونه على حدوده الشمالية الشرقية . على أنه أعار مستحثه أذنا مصغية ، وأرسل الرسل إلى بلاد الاغريق .

وهذه الحملة العظيمة التى قام بها دارا توسع رحاب الأفق أمام نظرتنا فى هذا التاريخ ، فهى ترفع الستار عن بلاد البلقان من خلف بلاد الإغريق ، وهذه أول مرة نذكر لك فيها البلقان . وهى تحملنا إلى الدانوب وما وراء الدانوب . سارت نواة جيشه من سوسا وهى تجمع الأحلاف وفرق الجند المساعدة أثناء تقدمها إلى البسفور . وهنا كان حلفاء دارا من الإغريق وهم الإغريق (الأيونيون) قد أقاموا جسراً من الزوارق وعليها عبر الجيش ، على حين واصل الحلفاء الإغريق رحلتهم بسفنهم إلى نهر الطونة ، ثم رسوا على ميسرة يومين من مصبه ونصبوا جسراً طافياً آخر على حين كان دار يتقدم بجيوشه بإزاء الساحل الذى نسميه الآن بلغاريا ، والذى كان يسمى حينذاك تراقيا فعبروا نهر الدانوب وأخذوا يستعدون لمنازلة الجيش الاسكيذى والاستيلاء على مدن الإسكيذيين . على أن الإسكيذيين لم تكن لهم مدن ، كما أنهم تجنبوا الالتحام فى أية موقعة . وتحولت الحرب إلى عملية طراد مضنية موئسة قوامها اقتفاء أثر أعداء أكثر من الفرس سرعة ، وأخف حركة . وكان المترحلون يطمرون الآبار ويدمرون المراعى ، وكان فرسان الإسكيذيين يغيرون على أطراف الجيش المكون فى معظمه من جنود من المشاة ، فيتصيدون الشاردين منهم ويحولون دون المرعى وجمع الأعلاف وبذلوا كل مافى مقدورهم لحمل الإغريق الأيونيون الذين أقاموا الجسر عبر الطونة وقاموا على حراسته — على أن يفكوا الجسر ، وبذلك يضمنون تدمير (دارا) تدميراً محققاً لا ريب فيه . على أن إخلاص حلفاء دارا من الإغريق ظل ثابتاً لا يتزعزع . على أن ضروب الحرمان والتعب والمرض نالت من الجيش الفارسى وأعجزته عن التقدم ، وفقد دارا

عدداً كبيراً من الرجال ممن شردوا عن جيشه ، واستنفذ كل مؤنه ثم ساوره خاطر أليم بأن التراجع عبر الدانوب كان أمراً ضروريا لإنقاذه من إعياء وهزيمة كاملين .

ولكي يجد مخرجا ينقذه من ورطته عول على أن يبدأ تراجعه بتضحيته بالمرضى والجرحى من رجاله ، فأخبرهم بأنه يتأهب لمهاجمة الاسكيذيين فى أثناء الليل ، وتسلل من المسكر تحت هذه الدعوى مع نخبة من جنوده المختارين وانطلق جنوبا تاركا نيران المسكر متقدة فضلا عن الضوضاء والحركة العاديتين . وفى اليوم التالى أدرك الرجال المخلفون فى المسكر ، الحيلة التى لعبها ملكهم عليهم ، فسلموا أنفسهم إلى رحمة الإسكيذيين . ولكن دارا كان قد حصل على ما يشتهى ، فاستطاع أن يصل إلى جسر الزوارق قبل أن يلحق به مطاردوه . على أنهم كانوا أسرع من عسكره حركة ، لولا أنهم ضلوا عن قنيصتهم فى الظلام . وعند النهر بلغ الخوف بالفرس المتراجعين أقصى غايته إذ وجدوا بعض أجزاء الجسر قد تفككت وانهارت ووجدوا نهايته الشمالية محطمة .

وفى هذه المرحلة يدوى فى آذاننا صوت يتردد من القرون الخوالى . فهؤلاء جماعة من الفرس الوجلين يقفون حول الملك العظيم ، على شاطئ النهر المتدفق وهذه كتل الجيوش المتوقفة عن السير وقد أجهدها الجوع وأضنتها الحرب ، وهذا ذيل طويل من السفن المحطمة يمتد نحو الأفق الذى قد يظهر عليه فى أى وقت جنود مقدمة المتعقبين . وليست هناك ضوضاء كبيرة على الرغم من الجمع الحاشد ، بل يسودهم صمت القلق المستريب . وكانت بقية من جسر الزوارق تمتد امتداد المرساة على الجانب الآخر من مجرى النهر العظيم ، وكأنما هى لغز لا سبيل إلى حله ، ولسنا نستطيع أن نميز هل هناك رجال عنده أم لا فان سفائن الإغريق الأيونيين تلوح كأنما لاتزال تسحب على الشاطئ الآخر ، ولكن كل شيء بعيد بعداً سحيقا

وكان مع دارا إذ ذاك رجل مصرى له صوت أجهر من صوت أى رجل على الأرض ، وقد أمر دارا ذلك الرجل أن يتخذ موقفه على شاطئ إيستر (Ister = الدانوب) وأن ينادى هيستيايوس الميليطى (Histiaeus of Miletus) وإذا بهذا المبجل الذى كان موضع التكريم — وسيأتى يوم تحمل فيه رأسه إلى دارا فى سوسا كما سنفصل ذلك من تونا — يبدو عبر النهر مقتربا رويداً رويداً فى قارب ، وتدور أحاديث نستنتج منها أن (كل شيء على مايرام) .

والتفسير الذى قدمه هستيايوس عن الأمر تفسير معقد ، ذلك أن بعض الإسكيذيين حضروا ثم انصرفو ، وربما كان هؤلاء من الطلائع الكشافة . ويبدو أنه جرت مناقشة بين

الإسكيذيين والإغريق ، وكانوا يطلبون إليهم تحطيم الجسر ويتعهدون بأن يأتوا عند ذلك على الجيش الفارسى ، ويقضوا على دارا وإمبراطوريته ، وعنـد ذلك يستطيع إغريق آسيا الأيونيون تحرير مدنهم ثانية . وكان ملتيادس الآثينى يدعو إلى قبول هذا المقترح . على أن هستيايوس كان أشد منه دهاء ، فإنه قال إنه يفضل ، لو رأى الفرس وقد دمروا تدميراً قبل الانحياز عن صفوفهم انحيازاً تاما . فهل يستطيع الإسكيذيون أن يعودوا أدراجهم ويدمروا قوة الفرس ليطمئن إليهم الإغريق ، على حين يقوم الإغريق من ناحيتهم بتدمير الجسر ؟ ومهما يكن الجانب الذى انحاز إليه الإغريق آخر الامر ، فقد كان من الواضح الجلى لهم أن من حسن التدبير تدمير نهاية الجسر الشمالية ، فإن لم يفعلوا ذلك فإن الإسكيذيين قد يجتاحونه والواقع أنه حتى حين كان الطرفان يتفاوضان ، شرع الإغريق فى العمل بأسرع ما يستطاع على هدم الطرف الذى كان يربطهم بالإسكيذيين ، ثم انطلق الإسكيذيون بخيولهم باحثين عن الفرس ، وبذا تركوا الإغريق مطمئنين على كلا الحالين ، فإن فرّ دارا ونجا ، استطاعوا أن يكونوا إلى جانبه ، وإن دمّر لم يكن للإسكيذيين موضع للشكوى .

ولم يعرض هستيايوس الأمر على دارا على نفس هذه الصورة ، ولـكنه حافظ على الأقل على السفائن وعلى معظم الجسر . كما أظهر نفسه بمظهر صديق فارس المخلص ، ولم يكن دارا ميالا إلى شدة النقد والتدقيق . وجاءت السفائن الأيونيـة . وسرعان ما أخذت بقية الفرس المجهدة المـكدودة تنظر من خلفها بشعور ارتياح لا حد له إلى لجج الدانوب الفولاذية القاسية وهى تنساب مترامية وفاصلة بينهم وبين متعقبيهم .

وزال عن نفس دارا كل سروره واهتمامه بالحملة الأوربيـة فعاد إلى سوسا ، تاركا فى تراقيا جيشا ، تحت إمرة قائد أمين هو ميجابازوس (Megabazus) فأخذ ميجابازوس هذا على نفسه إخضاع تراقيا . ومن بين الدول الأخرى التى أذعنت لدارا مُكرهة ، مملـكة تظهر فى تاريخنا الآن لأول مرة ، وهى مملـكة مقـدونيا ، وهى بلاد يسكنها شعب شديد الارتباط بالإغريق إلى حد أن أحد أمرائها أذن له من قبل ذلك بأن يتبارى فى الألعاب الأولمبية ويستولى على جائزة فيها . وكان دارا ميالا إلى مكافأة هستيايوس ، بالسماح له بأن يبنى لنفسه مدينة فى تراقيا ، لولا أن ميجابازوس كان له رأى مغاير لهذا فى جدارة هستيايوس بالثقة ، فحمل الملك على أخذه إلى سوسا ، وأن يحتفظ به هناك أسيرا يحمل لقب مستشار ، ولقـد غر هذا المنصب فى البلاط هستيايوس بادئ ذى بدء ، ثم أدرك حقيقة مغزاه . فأضجره البلاط

الفارسى وأخذ يحن إلى موطنه ميليتوس فنصب نفسه لعمل الشر واستطاع أن يقيم ثورة على الفرس ، بين الأيونيون من الإغريق فى آسيا الصغرى . ولهذه القصة ملابسات ملتوية وتأويلات وتخريجات بلغت من التعقيد درجة لا يتسع لها هذا المقام . وهى تتضمن إحراق ساردیس على يد الأيونيين وهزيمة أسطول إغريق فى لادى ٤٩٥ ق م ، وهى قصة حالكة مليئة بالخيانة والقسوة والبغضاء ، حتى ليبدو فيها مصرع هستيايوس الماكر حدثاً ساطعا وضاءا أو يكاد يكون ، فإن (ساتراپ) ساردیس ، التى أخذ فيها هستيايوس أسيرا وهو فى طريقه إلى سوسا ، كان له فيه رأى يطابق رأى ميجابازوس ، كما كان يعرف مقدرته على التهويل والتهويش على دارا فقتله هناك فى التو والساعة واكتفى بإرسال رأسه إلى مولاه .

ولقد أقحمت قبرص والجزائر الإغريقية فى هذا النزاع الذى أثاره هستيايوس واشتبكت فيه أثينا آخر الأمر . وأدرك دارا الغلطة التى وقع فيها حين اتجه يمينا بدل أن يعرج يسارا

عندما عبر البوسفور ، ومن ثم نصب نفسه لغزو كل بلاد الإغريق فبدأ بالجزائر .

وكانت صور وصيدا المدينتان التجاريتان الساميّتان العظيمتان ، خاضعتين للفرس ، ومن ثم انضمت سفائن الفينيقيين والأيونيين من الإغريق إلى الفرس ، فصار لهم أسطول استطاعوا به إخضاع الجزائر الإغريقية : الواحدة تلو الأخرى .

٨ - معركة ماراتون Marathon

وكان أول هجوم شنه الفرس على بلاد الإغريق نفسها (٤٩٠ ق م) وكان هجوما بحريا على أثينا بقوة دُرِّبت بعناية تدريبا طويلا لتلك الغاية ، وكان الأسطول مزوداً بنقالات بنيت خصيصاً لراحة الخيول . وقد نزلت هذه الحملة العسكرية قرب ماراتون فى أتيكا (Attica) وأرشد الفرس إلى ماراتون رجل إغريقى من الخونة هو هبياس ابن بيزستراتوس الذى كان طاغية على أثينا . فإذا سقطت أثينا ، يصبح هبياس طاغية لها تحت حماية الفرس . وفى الوقت ذاته تمكن من نفوس القوم شعور بأن شئون هيلاس أخذت تستحكم فيها أزمة حرجة ، — تمكنا جعل رسولا من العدائين ينطلق من أثينا إلى إسبرطه ، ناسياً كل العداوات القديمة بين البلدين ، لكى يقول : « أيها اللاسيدعونيون الإسبرطيون يرجوكم الآثينيون أن تهبوا خفافا لمساعدتهم ، وألا تسمحوا لمدينة أقدم ما تكون بين الهلينيين بأن تقع فى ربقة العبودية على أيدى الهمج البرابرة [(١)] » وذلك لأن أرتريا (Eretria) كانت إذ ذاك قد استعبدت من قبل فضعفت قوة هيلاس بفقد هذه المدينة الشهيرة .

قطع هذا الرجل واسمه « فيديبيدس Pheidippides » المسافة من أثينا إلى إسبرطة وهى قرابة مئة ميل ، قَطْعَ الغراب لها طائراً ، بل أسرع — إذا ضربنا صفحاً عما بالطريق من التعريجات والمنعطفات — فيما يقل عن أربعين وثمانية من الساعات .

على أنه قبل أن يستطيع الإسبرطيون إلى المكان وصولا ، كان الفريقان قد التحما . فهاجم الآثينيون العدو وقاتلوهم « فى طريقة جديرة بالخلود لأنهم فيما نعرف كانوا أول من تقدم من الهيلينيين لمهاجمة العدو جريا ، كما كانوا كذلك أولهم فى الصبر على تحمل النظر إلى أكسية الميديين وملاقاة الرجال الذين يرتدونها ، حين كان مجرد اسم الميديين حتى ذلك الزمان مما يرعب الهلينيين سماعه » .

---

(١) البرابرة (أو الهمج) اصطلاح فى التاريخ اليونانى أطلقه اليونان على كل من عداهم تحقيراً لشأنهم .



٦٩ — جندى آثينى من المشاة

وتزعزع جناحا الفرس أمام ذلك الهجوم المنيف ولكن القلب صمد . على أن الآثينيين كانوا مع ذلك هادئى الروع مثلما كانوا أشدّاء ، فحملوا الجناحين على الفرار ، ثم أطبقوا على جانبى القلب ، وعند ذلك فرّت كتلة الفرس الرئيسية إلى السفن . وسقطت سبع سفن فى أيدى الآثينيين ولاذت الباقية بالفرار . وبعد أن قامت السفن بمجهود فاشل تروم به التقدم إلى أثينا ، والاستيلاء على المدينة قبل أن يعود إليها الجيش الإغريقى ، تراجع الأسطول إلى آسيا .

ولندع هيرودوت يختم القصة بفقرة تلقى إلينا ضوءاً ساطعاً على مهابة الميديين الهائلة فى ذلك الزمان .

« ومن اللاسيدعونيين حضر إلى أثينا ألفان بعد تمام القمر وبعد أن أسرعوا سرعة عظيمة ليصلوا فى الأوان ، حتى وصلوا إلى أتيكا فى اليوم الثالث لخروجهم من إسبرطة . وهم وإن حضروا بعد فوات فرصة المعركة بزمن طويل ، فإنهم كانوا يرغبون فى مشاهدة الميديين ، فذهبوا وفقاً لهذا إلى ماراتون وشاهدوا جثث القتلى ، ثم رحلوا بعد ذلك إلى وطنهم ، وهم يثنون على الآثينيين وعلى العمل الذى أتوه » .

٩ — ترموبيلاى وسلاميس

بذلك الفوز العظيم أحرزت بلاد الإغريق — وقد وحد الخوف كلتها ردحا من الزمان — أول نصر لها على فارس . وترامت الأنباء بذلك إلى دارا فى نفس الوقت الذى وصلت إليه فيه أخبار شبوب فتنة فى مصر ، ولكنه مات قبل أن يجمع رأيه على الاتجاه الذى يتوجه إليه . واتجه ابنه وخلفه اجزرسيس (Xerxes) فى بادىء الأمر إلى مصر فولى عليها واليا (ساتراپ) فارسيا ثم استمر أربع سنوات يعد العدة لهجوم ثان على بلاد الإغريق . ويقول هيرودوت — ولا بد للمرء أن يتذكر أنه كان إغريقيا وطنى النزعة — فى مؤلفه التاريخى الذى أخذ يسمو آن ذاك إلى أوج الروعة والبهاء « **فأى شعب لم يخرج به إجزرسيس من آسيا ضد هيلاس ؟ وأى ماء لم ينضب معينه حين ينهال عليه جيشه شربا ، اللهم إلا الأنهار العظيمة دون سواها ؟ إذ أن بعضها كان يزوده بالسفن**

كما كان بعضها مكلفا بالخدمة فى الجيش البرى ، وكان على بعضها أن يقدم الراكبة كما تعين على البعض الآخر أن يقدم سفنا تحمل الخيل ، على حين كانوا هم أنفسهم يشتغلون كذلك فى الحملة ، وكان أن أمر آخرون بتقديم سفن حربيـة للجسور ، وأمر آخرون كذلك بتقديم سفن محملة بالمؤن . »

وعبر إجزرسيس إلى أوربا ، لا عند معبرة البوسفور ذات النصف ميل كما فعل « دارا » ولـكن عند الهلسبونت (Hellespont : الدردنيل) . وهيرودوت فى وصفه لتجمع ذلك الجيش العرمرم ، ومسيره من ساردیس إلى الهلسبونت ، إنما يغلب الشاعر على المؤرخ فى روحه . وعبر الجحفل العظيم الجرار بكل أبهته بمدينة طروادة Troy . واجزرسيس وإن كان فارسيا ومن الهمج ، يلوح فى زى المتأدبين بأدب القدامى (الـكلاسيكى) فهو يعرج عليها ، كما يقول مؤرخنا ، لزيارة قلعة بريام (Priam) . وقد أقيم الجسر على الهلسبونت عند أبيدوس ، وأقيم على قمة أحـد التلال عرش من الرخام ، ليشرف منـه اجزرسيس على عرض جيشه بأجمعه . حتى إذا نظر فرأى الهلسبونت تغطيه السفائن ، ورأى كل شواطىء سهول أبيدوس غاصة بالرجال ، قال عن نفسه إنه لسعيد ، وما لبث بعد ذلك أن هملت عيناه بالدموع . فأما عمه أرطبانوس (Artabanus) ، فإنه عندما رآه — وهو نفسه الذى صرح برأيه بادئ الأمر فى جرأة ناصحاً اجزرسيس بأن لا يزحف على هيلاس ، — أقول إن هذا الرجل عندما لاحظ أن اجزرسيس كان يبكى ، سأله كما يأتى :

« أيها الملك ، ما أبعـد الشقة بين الأمور التى أتيتها الآن ، وقبل الآن ببرهة وجيزة ، فإنك وقد دعوت نفسك رجلا سعيداً ، تذرف الدمع الآن ! »

فأجاب الملك : « أجل ، فإنى بعد أن أحصيتهم عدداً ، دار بخلدى ، إحساس الإشفاق والحسرة ، لتذكرى كم حياة الإنسان كلها قصيرة ، لعلمى أنه من بين هذا الجمع الحاشد ، لن يكون واحد حيا بعـد أن تمضى مئة من السـنين » وربما لم تـكن هذه الحادثة صحيحة من الناحية التاريخية ، ولـكنها على كل حال شعر رائع عظيم .

ورافق الأسـطول الفارسى هذا الحشد البرى منتقلا من ساحل أرض القارة إلى أرض القارة الأخرى ، على أن عاصـفة هوجاء أنزلت بالأسطول أضراراً عظيمة ، فأغرقت أربعمئة سفينة ، بينها الـكثير من حاملات القمح . وسار الهلينيون بادئ الأمر وقد توحـدت صفوفهم لملاقاة الغزاة فى وادى تمبى (Tempe) فى الشمال قرب جبل أوليمبوس ولـكنهم



٨ — جنديان من الحرس الفارسى

تراجعوا بعد ذلك مخترقين تساليا ، واختاروا آخر الأمر أن ينتظروا الفرس المتقدمين عنـد مكان يدعى « ترموبيـلاى » (ترموبيـل Thermopylea) ، حيث كانت هناك فى ذلك الوقت صخرة عظيمة يقع البحر إلى الشرق منها ، وبينهما ممر ضيق لا يكاد يتسع لمركبة واحدة إلا بشق الأنفس — وقد غيرت الألف والأربعمئة من السنين التى انصرمت ، معالم كل شىء فى تلك البقعة . والميزة العظيمة التى كانت للإغريق من هـذا الموقـع فى ترموبيلاى هى أنه كان يمنع أعداءهم من اسـتخدام كل من الراكبة والمركبات . وكان الممر يضيق مجال جبهة المعركة إلى حد يقلل من شأن عدم التـكافؤ بينهما فى العدد . وهناك التحم الفرس بهم فى معركة فى أحد أيام صيف ٤٨٠ ق م .

ولقد صد الأغريق هذا الجيش العظيم ثلاثة أيام ، وأنزلوا بهم خسائر بليغة لقاء خسارة طفيفة نالتهم ؛ ثم ظهرت فى اليوم الثالث فصـيلة من الفرس فى مؤخرة الإغريق ، بعد أن أرشـدها فلاح إلى طريق فوق الجبل . وسرعان ما اشتد الجدل والخلاف بين الإغريق ، فكان البعض يدعو إلى الانسحاب ، والبعض يدعو إلى الثبات . وكان ليونيداس Leonidas قائد القوة جمعاء يرى وجوب البقاء ، على أن يستبقى معه ثلاثمئة اسبرطى . وفى الوقت نفسه يستطيع سائر الجيش الإغريق أن يتقهقر إلى الممر الثانى الذى يمكن الدفاع عنـه . ومع ذلك فإن الفرقة التسبية (Thespian) وعددها سبعمئة رفضوا أن يتراجعوا ، مفضـلين البقاء والموت مع الاسبرطيين (Spartans) وبقيت كذلك فرقة أخرى من أربعمئة محـارب من طيبة (Thebes) . ولـما كانت طيبة انحازت فيما بعد إلى الفرس ، فإن هناك قصة تقول

بأن الطيبيين احتجزوا فى هذا الموضع قسراً ورغم إرادتهم ، وهو أمر ليس له ما يرجحه من أسس عسكرية أو تاريخية .

وقد ثبت هؤلاء الألف والأربعمئة ، وذبحوا على بكرة أبيهم بعد قتال تجلت فيه البطولة والبسالة . واتفق أن تخلف رجلان من الاسبرطيين لإصابتهما بالرمد . فلما أن سمعا الخبر ، كان أحدهما على حالة شديدة من المرض لايستطيع معها حراكا ، وأمر ثانيهما عبده (helot) أن يقوده إلى مكان المعركة ، وهناك أخذ يضرب ضرب العميان حتى قتل . وأخذ الإسبرطى الحى أرستو ديموس (Aristodemus) مع الجيوش التراجعة وأعيد إلى إسبرطة حيث لم يعاقب عقوبة فعليــة على سلوكه ، ولـكنه عرف باسم « المتقهقر Tresas » ، وكان ذلك كافياً لتمييزه عن سائر الإسبرطيين ، وما لبث أن عمل على أن يقتــل فى معركة بلاتيا بعد ذلك بسنة ، بعد أن أبدى ضروبا عجيبة من شجاعة المستهين بالموت . . .

ولقد ظلت تلك الفئة القليلة قابضــة على الممر يوما كاملا ، يهاجمها من الأمام والخلف كتلة قوة الفرس بأجمعها ، فاستطاعت أن تغطى تراجــع الجيش الإغريقى الرئيسى ، وأنزلت بالغزاة خسائر عظيمة ، ورفعت مهابة المحاربين الإغريق على مهابة الميديين ، رفعاً يعلو بها عما فعله النصر فى معركة ماراتون (marathon) . وأخذت فرسان الفرس والمركبات الفارسية تنساب انسياباً بطيئاً خلال ممر ترموبيلاى الضــيق ، وتقدمت نحو أثينا بينما كانت تدود فى البحر سلسلة من الالتحامات البحرية .

وتراجع الأسطول الهلينى أمام تقدم العمارة الفارسية ، التى أصيبت بخسارة فادحة بسبب جهلها النسبى بالسواحل المعقدة الكثيرة التعاريج وبتقلبات الجو المحلى . على أن ضخامة العدد هى التى حملت الجيش الفارسى قدما نحو أثينا ؛ والآن وقد ضاع ممر ترموبيلاى ، لم يبق هناك من خط دفاع أقرب من برزخ كورينثة وكان معنى هــذا هو التسليم فى كل الأراضى الواقعــة بين منطقتى ترموبيلاى وكورينثة بما فى ذلك مدينة أثينا ، وهذا معناه أنه لم يبق أمام السكان إلا أن يختاروا بين أمرين لا ثالث لهما : فإما أن يفروا وإما أن يســلموا للفرس . خضعت طيبة ومعها كل بوءوشيا (Boeotia) وانضوت بأجمعها فى الجيش الفارسى ، سوى مدينة واحدة هى بلاتيا (Plataea) التى هرب سكانها إلى أثينا . وجاء دور أثينا بعد ذلك ، وبذل الفرس جهودا عظيمة لإقناعها بالتسليم لهم ، ولـكن جمهم السكان أصروا على التضحية بكل شىء والنزول إلى السفن . فحمل النساء وغير المحاربين إلى سلاميس (Salamis) والجزائر المختلفة المجاورة . ولم يبق فى المدينة غير عدد قليل من الناس ممن أقعدتهم السن عن الحركة

أو ممن خالفوا الإجماع ، فاحتلها الفرس وأحرقوها . فأما الأشياء المقدسة والتماثيل التى أحرقت فى هذه المرة فإنها دفنت فيما بعد فى الأكروبول إذ تولى دفنها الأثينيون العائدون ، وعثر عليها فى عصرنا هذا وعليها آثار الحريق ظاهرة . وأرسل إجزرسيس إلى سوسا رسولا راكباً يحمل البشرى ودعا أبناء بيزستراتوس (Peisistratus) الذين أحضرهم معه ، أن يعودوا إلى تراثهم وأن يقدموا الضحايا من فوق الأكروبول جريا على الطريقة الأثينية . وفى نفس الوقت كان الأسطول الهلينى الموحد قد انتقل إلى سلاميس وهناك انقسمت الآراء انقساماً مريراً بين أعضاء مجلس الحرب ، وكانت كورنثة والدول التى وراء البرزخ تطلب أن يتراجع الأسطول إلى ذلك المركز ، أى إلى كورنثة تاركا مدن ميجارا (Megara) وإيجينا لرحمة القضاء ولكن تميستوكليس (Themistocles) أصر بكل قواه على القتال فى مضيق سلاميس ، وظلت الغالبية تميل إلى التقهقر ، حتى جاءت الأخبار فجأة بأن خط التراجع قد قطع ، فإن الفرس أبحروا حول سلاميس وقبضوا على ناصية البحر من الجهة الأخرى ، وقد حمل هذه الأخبار أريستيدس العادل ، الذى أسلفنا عليك أمر نفيه من أثينا ، وأبلت رجاحة عقله وفصاحته أحسن بلاء فى معاونة تميستوكليس على تشجيع القواد المترددين . كان هذان الرجلان عدوين لدودين فيما سلف ولكنهما إزاء الخطر العام تناسيا شحناءهما فى تسامح نادر فى تلك الأيام . وخرجت السفن الإغريقية للقتال عند الفجر وكان الأسطول الآخر أكثر تخليطا وأقل انسجاما من أسطولهم ، غير أنه كان يبلغ ثلاثة أضعاف أسطولهم تقريباً . وكان الفينيقيون فى أحد جناحيه ، والإغريق الأيونيون من سكان آسيا والجزائر فى الجناح الآخر ، فحارب بعض هؤلاء الآخرين حرب العتاة ، على حين تذكر الآخرون أنهم هم كذلك من الأغريق . وكانت سفن الإغريق فى الناحية الأخرى يديرها فى غالب الأمر رجال من الأحرار ، يقاتلون من أجل أوطانهم . واحتدمت المعركة فى ساعاتها الأولى احتداما اختلط فيه الحابل بالنابل ثم اتضح لإجزرسيس ، وهو يراقب النضال ، أن أسطوله كان يحاول الهرب ؛ وتحول الهرب إلى كارثة .

وكان اجزرسيس قد اتخذ مجلساً فى مكان يرقب منه المعركة ، فرأى سفنه تدقها حيازيم السفن الأخرى الحادة ، ورأى رجاله المحاربين يصرعون ، ورأى الأعداء ينزلون فى سفنه . وكانت طريقة حرب البحر الغالبة فى تلك الأيام هى الصك والمصادمة فكانت السفن الكبيرة تثقب السفن المعادية لهنا وتغرقها لتفوقها عليها فى قوة الصدمة أو كانت تهشم مجاديفها ، وبذلك تقضى على مقدرتها على المداورة ، وتتركها قعيدة مغلوبة على أمرها . ثم مالبث إجزرسيس

أن رأى أن بعض سفنه المكسورة كانت تسلم للأعداء ، وكان يستطيع أن يرى فى الماء رؤوس الإغريق وهم يسبحون إلى البر « فأما رجاله البرابرة فقد هلك العدد الأكبر منهم فى البحر ، لجهلهم بالسباحة » ثم بذل الصف الأول من الأسطول الفارسى وهو منهك محصور جهداً غير موفق ليتزحزح عن مكانه قليلا فأفضى ذلك إلى ربكة لا سبيل إلى وصفها ، فاصطكت بعضها بالسفن الفارسية الواقفة خلفها ، وكانت هذه السفن القديمة أصنافا ضعيفة هزيلة لاتصلح للبحر إذا قيست إلى أى صنف حديث من السفن . وكانت الريح الغربية تهب وكان كثير من سفن إجزرسيس المهشمة تسوقها الرياح حتى تتوارى عن مجال بصره ، وتتحطم على أحد الشواطئ البعيدة . وكان الإغريق يسحبون بعضها الآخر إلى سلاميس على حين شرع البعض الآخر مما هو أقل إصابة وما يزال كامل عدة القتال ، ينسحب نحو السواحل القريبة التى من دون الملك ، لكى يصبح فى حماية الجيش . وهناك أخذت السفن تتقابل متناثرة على الجزء البعيد من البحر فيما وراء الرؤوس ، وهى بعيدة غير واضحة المعالم لائذة بالفرار — تطاردها السفن الأغريقية . وقد أخذت الكارثة تتجلى لناظرى الملك — فى بطء — إذ يظهر له منها حدث بعد حدث . وإنا لنستطيع أن نتصور الحال وقد أخذ الرسل يغدون ويروحون ويصدر الملك أوامر لا غناء فيها ويغير الخطط طيلة نهاره . وكان إجزرسيس قد خرج فى الصباح مزوداً بالمنصات لكى يلحظ من فوقها أحسن قواده بلاء فى القتال فيكافئه على حسن بلائه ، ولكنه رأى وذهب الأصيل يملأ السماء — قوة فارس البحرية تذهب بددا ، بين غريقة ومحطمة ، ورأى الأسطول الإغريقى سليما مظفراً أمام سلاميس ، وهو ينظم صفوفه ، كأنما لايزال غير مصدق بما أصاب من نصر .

وظل الجيش الفارسى عدة أيام على مقربة من مكان المعركة البحرية ، كأنما لم يستقر على رأى ، ثم أخذ يتراجع إلى تساليا ، حيث أشار بعض الناس على الملك أن يقضى الشتاء ثم يواصل الحملة ، بيد أن إجزرسيس شأنه شأن دارا الأول من قبله ، تملكه السأم والضيق من الحملات الأوربية ، وخشى تدمير جسر الزوارق ، فواصل السير مع جزء من جيشه حتى الهلسبونت (الدردنيل) تاركا القوة الكبرى فى تساليا تحت قيادة قائد اسمه ماردونيوس (Mardonius) ويروى لنا المؤرخ قصة تراجعه قائلا « إنهم أيان ساروا ، وحيثما حلوا عند أى من الشعوب يأخذون حاصلات ذلك الشعب ، ويستعملونها فى مؤونتهم ، فإن لم يجدوا حاصلات ، أخذوا الكلأ النابت فى الأرض ، وكم كانوا يسلبون الأشجار لحاءها ، ويسقطون أوراقها ويلتهمونها ، لا تمييز فى ذلك عندهم ، بين الأشجار المزروعة والأشجار التى تنمو برية .

وكانوا لا يتركون شيئاً من ورائهم ، وقد فعلوا ذلك بسبب المجاعة . ثم فشا فيهم إلى ذلك الطاعون والدوسنتاريا ، التي دمرتهم أثناء الطريق كل مدمر والبعض منهم أيضاً — وكان مريضا — تركه الملك من ورائه ، مكلفا المدن التي قد يحدث أن يمر بها آنذاك فى مسيره بأن تعنى بهم وتعولهم ، وترك بعض هؤلاء فى تساليا ، وبعضهم فى سيريس (Siris) الواقعة فى بايونيا (Paiona) ، وترك البعض فى مقدونيا . وبعد أن اخترقوا تراقيا وصلوا إلى مضيق الهلسبونت فعبروه فى سرعة إلى أبيدوس بالسفن ، إذ أنهم لم يجدوا الجسر الطافى ممتداً عبر البحر ، لأن إحدى العواصف حطمته . وأقام الجند هناك حينا وزعت عليهم فيه جراية من الطعام ، أكثر مما كانوا ينالون فى الطريق . فمات كثير من رجال الجيش الذين ظلوا سالمين حتى ذلك الحين ، نتيجة لإشباعهم نهمهم بغير حساب وكذلك من تغيير الماء ، ووصل الباقون مع إجزرسيس إلى سارديس .

١٠ بلاتيا وميكالى

ظل سائر الجيش الفارسى فى تساليا تحت قيادة ماردونيوس ، الذى استمر سنة بأكملها يقوم بالحملات العدوانية على الأغريق ، ثم هزم آخر الأمر وقتل فى معركة فاصلة فى بلاتيا عام ٤٧٩ ق . م ، وفى نفس ذلك اليوم أصيب أسطول الفرس وأحد جيوشهم البرية بكارثة مزدوجة تحت ظلال جبل ميكالى على أرض آسيا الأصلية بين إفيسوس (Ephesus) وميليتوس ذلك بأن الفرس غلبهم الخوف على سفنهم من الإغريق فسحبوها إلى الشاطىء وبنوا من حولها جداراً ، ولكن الأغريق نزلوا إلى البر واقتحموا تلك الحظيرة عنوة ، ثم أقلعوا إلى الهلسبونت ليدمروا ما تبقى من جسر الزوارق حتى لقد اضطر من فر عقيب ذلك من الفرس الهاربين من بلاتيا أن يعبروا بالسفن عند البسفور مكابدين فى ذلك أكبر مشقة .

ويقول هيرودوت إن المدن الأيونية فى آسيا شجعتها تلك الكوارث التى أصابت قوة الإمبراطورية ، فظهرت فيها للمرة الثانية بوادر العصيان ضد الفرس .

وبهذا ينتهى الجزء التاسع من تاريخ هيرودوت الذى كان مولده قرابة (٤٨٤ ق . م) فهو إبان معركة بلاتيا كان طفلا يناهز الخامسة ، والكثير من مادة تاريخه قد جمعه هو بنفسه ممن حضروا بأنفسهم وشهدوا بأعينهم الأحداث العظيمة التى يقصها . واستمرت الحرب تجر أذيالها زمانا طويلا . فإن الإغريق ناصروا ثورة شبت ضد الحكم الفارسى فى مصر ،

وحاولوا أن يأخذوا قبرص فلم يوفقوا . ولم تنته الحرب إلا حوالى سنة ٤٤٩ ق م . ثم أصبحت سواحل آسيا الصغرى الإغريقية والمدن الإغريقية فى البحر الأسود حرة بوجه عام ، على أن قبرص ومصر استمرتا تحت الحكم الفارسى ، فأما هيرودوت الذى ولد رعية فارسية فى مدينة هاليكارناسوس الأيونية ، فكان يبلغ عند ذاك الخامسة والثلاثين ، ولابد أنه انتهز أول فرصة ، بعد ذلك السلم بين بلاده وبين الفرس ليزور بابل وفارس ، والراجح أنه ذهب إلى أثينا ، ومعه تاريخه معداً للإلقاء حوالى (٤٣٨ ق م) .

ولم تكن فكرة إيجاد اتحاد عظيم للإغريق ، هدفه مهاجمة فارس ، فكرة غريبة كل الغرابة على هيرودوت . ويظن بعض قارئيه أنه كتب مؤلفه التاريخى لتقوية تلك الفكرة ورفع شأنها . ولا شك أن جو ذلك الزمان كان مشبعاً بعبير تلك الفكرة . وهو ينسب إلى أرستاجوراس ، زوج إبنة هيستيايوس أنه عرض على الاسبرطيين « لوحة من البرونز حفرت عليها خريطة العالم أجمع بما فيه من بحار وأنهار » وهو يحكى على لسان أرستاجوراس قوله :

« إن هؤلاء الهمج ليسوا شجعانا فى القتال ، وأنتم من الناحية الأخرى ، قد وصلتم إلى أقصى درجات المهارة فى الحرب ، وهم يحاربون بالقسى والسهام وبالحربة القصيرة ، ويدخلون المعارك مرتدين السراويل وقد وضعوا الكمات (أى الطواقى) على رءوسهم ، وأنتم قد استكملتم عدة قتالكم وأسلحتكم ونظامكم ، فهم قريبوا الغلبة هينوها ، وليس لدى كل شعوب العالم ما يملكونه من الذهب والفضة والبرونز والأثواب المطرزة والحيوانات والعبيد فكل هذا ربما تحتازونه لأنفسكم لو أنكم شئتم ذلك » ولقد مضت مئة سنة قبل أن تؤتى هذه الآراء ثمارها .

وقتل إجزرسيس فى قصره حوالى (٤٦٥ ق م) ومن بعدها لم تقم فارس بأية محاولة أخرى للغزو فى أوربا . وليس لدينا من العلم بما كان يجرى فى إمبراطورية الملك العظيم من أحداث قدر مالدينا عن أحداث الدول الصغيرة ببلاد الإغريق الوسطى ، فقد شرعت بلاد الإغريق فجأة فى إنتاج الأدب ، وخلدت نفسها فى سجل التاريخ على شاكلة لم يأتها من قبل أى شعب حتى ذلك الزمان . ويبدو أنه بعد (٤٧٩ ق م) (أى عام معركة بلاتيا) أخذت روح النشاط تفارق حكومة الميديين والفرس ، ثم دخلت إمبراطورية الملك العظيم بعدها فى فترة شيخوخة وانحلال ، ويمر عبر المسرح أرتجزرسيس ثم إجزرسيس ثان ثم دارا جديد . وتحدث فى مصر وسوريا الفتن ، ويثور الميديون ، ويقتتل على الملك أرتجزرسيس آخر وقورش آخر وهما شقيقان . ويكاد هذا التاريخ أن يماثل تاريخ بابل وآشور ومصر فى قديم

الأيام ، فهو يمثل صورة الأوتوقراطية وقد عادت سيرتها الطبيعية الأولى من جرائم القصور والأبهة الملوثة بالدماء ، والفسوق والأرجاس الأخلاقية . على أن هذا الكفاح بين الشقيقين أنتج درة إغريقية يتيمة ، لأن هذا الملك المسمى قورش الثانى جمع جيشاً من مرتزقة الإغريق دخل به مملكة بابل . وهناك قتل فى ساعة نصره على أخيه ارتجزرسيس الثانى ، وعند ذلك أصبح عشرة الآلاف إغريقى ولا سيد لهم يستخدمهم ؛ فتراجعوا إلى ساحل البحر ثانية (٤٠١ ق م) .

وقد خلد هذا التراجع كتاب من أوائل كتب الحرب وسير أبطالها هو كتاب الأناباسيس (العنبسيس[1]) الذى ألفه قائدهم زينوفون . وتوالت جرائم القتل والثورات وحوادث القمع والتأديب . وتعاقبت المحالفات الخبيثة والخيانات الوضيعة . ومن أسف أن الأيام لم تتح لها مؤرخاً عظيماً كهيرودوت يسجل أحداثها . ذلكم هو نسيج التاريخ الفارسى !!! . وجاءت حقبة من الزمن ازدهر فيها على شىء من الخفوت حكم ملك آخر هو أرتجزرسيس الثالث الملطخ بالدماء « ويقال أن أرتجز رسيس الثالث قد قتله باجواس وولى على العرش مكانه أرسيس أصغر أبناء الملك لكى يقتله بدوره ، عند ما أظهر شيئاً من الاستقلال فى التصرف » . وعلى هذا النهج تسير الأمور ، فأما أثينا فإنها بعد أن أخذت بأسباب التقدم حيناً من الزمان عقيب صد الفرس ، ألم بها الطاعون الذى مات فيه بركليس أعظم حكامها (٤٢٩ ق م) غير أنه تنهض فى غمرة هذه الفوضى حقيقة جديرة بالذكر : فإن عشرة الآلاف الذين يقودهم زينوفون كانت تتناثر آنذاك بين ظهرانى المدن الإغريقية ، مكررة على الأسماع مالمسته بنفسها من صدق ما أعلنه أرستاجوراس من أن الإمبراطورية الفارسية إنما هى فوضى شاملة يخالطها الغنى والثراء وأن أمر غزوها من السهولة بمكان على ذوى العزم من الرجال .

---

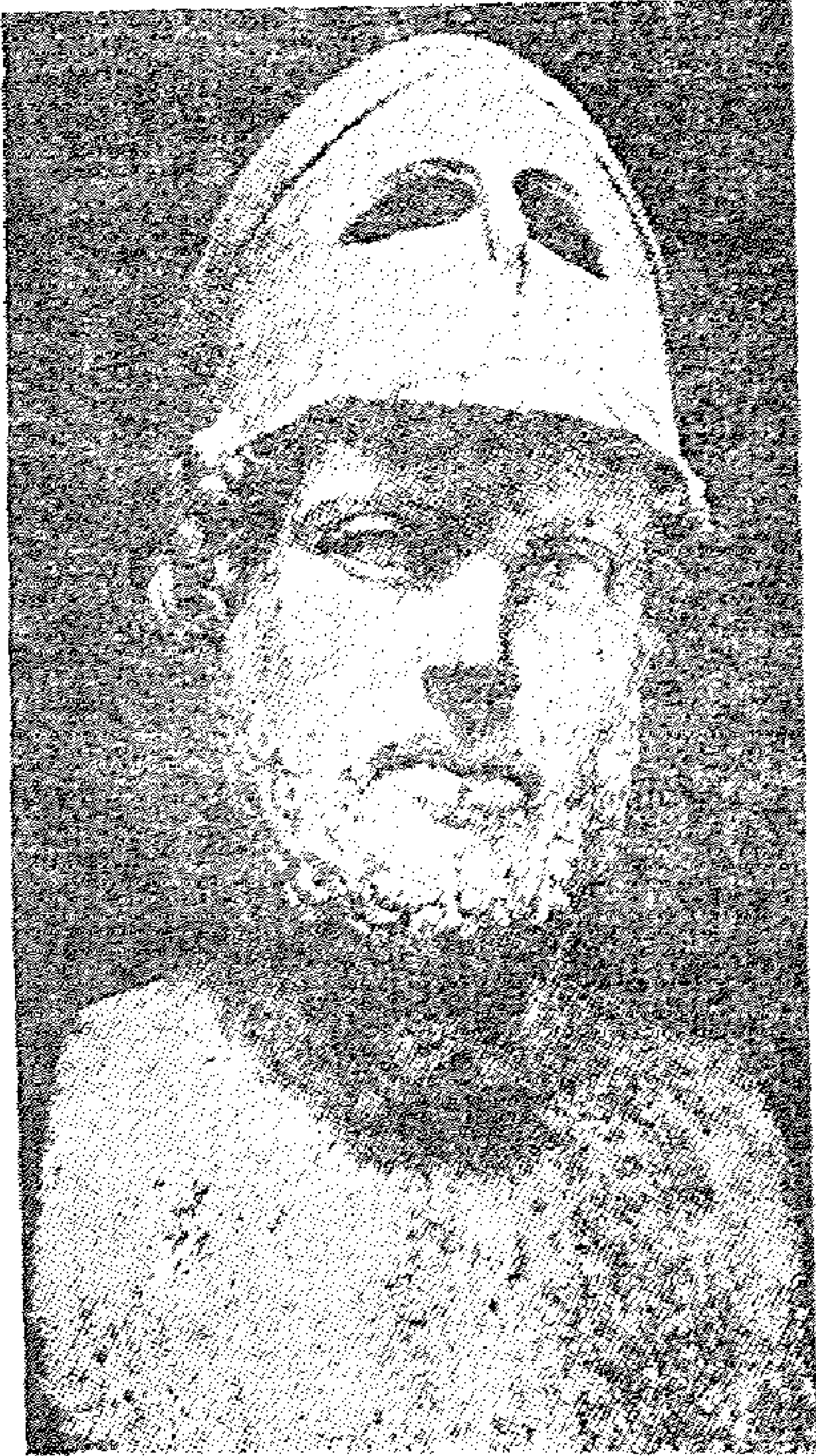
(١) الأناباسيس — كلمة يونانية معناها التوغل والزحف من شاطىء البحر إلى هضبة آسيا الصغرى ، والكتاب يمتاز بأسلوبه السهل البسيط .

الفصل الحادي والعشرون

الفكر والأدب والفن عند الإغريق

١ — أثينا فى عصر بركليس
٢ — سقراط
٣ — أفلاطون والأكاديمية
٤ — أرسطو والليسيوم
٥ — الفلسفة تصبح غير دنيوية
٦ — نوع الفكر الإغريقى وقيوده
٧ — أول أدب خيالى عظيم
٨ — الفن الإغريقى

١ — أثينا فى عصر بركليس



٧١ — بركليس

وتاريخ الإغريق فى الأربعين سنة التالية لمعركة بلاتيا وميكالى إنما هو قصة سلم وهدوء نسبيين . نعم نشبت الحروب ، ولكنها لم تكن حروباً ضروساً . ولقد سنحت لفئة من الموسرين فى أثينا الفرص والفراغ إبان فترة قصيرة من الزمان ، فكان لهذه الفرص وهذا الفراغ أبعد النتائج أثراً ، وأطولها عمراً ، بسبب تفاعل الحوادث بعضها مع بعض ومسلك فئة قليلة من الناس . وكان لوصولهم إلى طريقة للكتابة تستطيع أن تنقل الأصوات وتحمل دقائق لغة الكلام ، أثر جعل نشوء الأدب أمراً مستطاعاً ، فنتج الكثير من الأدب الجميل الرائع ، وازدهرت فنون التشكيل ، وثبتت دعائم العلم الحديث التى سبق أن وضعها من قبل فلاسفة المدن الإغريقية الأيونية الأول . ثم انقضت فترة امتدت خمسين عاماً أو تزيد ، انفجرت على أثرها العداوة التى ظلت نيرانها تسرى تحت الرماد بين أثينا وإسبرطة ، فأصبحت حرباً عبوساً موهنة للقوى ، امتصت آخر الأمر كل حيوية هذه الحركة الإنشائية الخلاقة .

وتعرف هذه الحرب باسم حرب البيلوبونيز التى استمرت قرابة ثلاثين عاما ، واستنفدت

كل قوى بلاد الإغريق . وقد سطع نجم أثينا فى بادئ الأمر . ثم تألق حظ إسبرطة . ثم قامت طيبة وهى مدينة تقل المسافة بينها وبين أثينا عن خمسين ميلا ، تنافس إسبرطة وتبزها . وعادت أثينا مرة ثانية إلى الطليعة بوصفها رئيسة لحلف عقدته بين المدن . تلك قصة منافسات ليس لهـا من سبب معقول يبررها وكانت حرية أن يتناساها الناس منذ أمد طويل لولا أن الإغريق دونوها وصوروها فى أدب رفيع .

وتبدو فارس طيلة هـذا الزمان ثم تختفى ثم تعود فتبدو من جديد حليفة لهذه العصبة أو لتلك . ثم يداخل بلاد الإغريق عند قرابة منتصف القرن الرابع ق . م شعور بوجود مؤثر جديد فى شئونها ، وهو فيليب ملك مقدونيا ، فإن مقدونيا تنهض بالفعل فى خلفية(١) بلاد الإغريق التى أعيى انقسامها من يداويه — نهضة الميديين والفرس من قبل خلف الإمبراطورية الـكلدانية . ثم يأتى زمان يولى فيه العقل الإغريقى ظهره لمنازعاته (إن حق لنا استعمال هـذا التعبير) ويحدق شاخصاً إلى ذلك المقدونى وقد شمله منه فزع عام .

دامت المنازعات ارتجالية إجرامية كدأبها ، ولن يمحو هذه الوصمة ، ما اكتسبناه من قيام ثوسيديدس(٢) بقص القصة بحذافيرها على أسماعنا ، ولن يزيدها إلا إمعاناً فى الإجرام والارتجال — أنها انتهت إلى ما انتهت إليه من تحطيم بدايات عظيمة لحضارة جديدة بسبب ما تمخضت عنه من شامل الفوضى . ولسنا بمستطيعين فى هذه المعالم العامة أن نفسح المجال لتفاصيل هذه المنازعات الداخلية ، وهذه الحروب والهزائم التى كثيراً ما أطاحت إلى عنان السماء بهذه المدينة الإغريقية أولا ثم بتلك ثانياً وهى تتأجج ناراً وتتسعر لهيباً . ونحن لو تأملنا بلاد الإغريق لما وجدناها تعادل بالقياس إلى كرة أرضية مصغرة قطرها قدمان إلا نقطة صغيرة لا تكاد العين تميزها لدقتها . ثم يخفت ضجيج كل هذا القرن الملىء بالانقسامات والذى يمتد بين أيام سلاميس وبلاتيا وبين ظهور الملك فيليب . فيصبح فى ضجيج هذا التاريخ الإنسانى الموجز ، وسوسة خفيضة لا تكاد تسمع لها نأمة ، أو يصبح مجرد هينمة عابرة على صفحة الفرصة المسرعة المـارة بالشعوب والرجال على السواء .

ولـكن الشىء الذى لا تتناقص أهميته ، لأنه امتزج بثقافة الأمم اللاحقة كلها ، ولأنه

---

(١) الخلفية كلمة تعبر عن Back ground وضعها المجمع اللغوى ومعناها ما يظهر فى خلف الصورة .

(٢) ثوسيديدس سياسى وزعيم آثينى معارض لبركليس ؛ أعظم مؤرخى الإغريق كافة ؛ ألف كتاب تاريخ حرب البيلوبونيز . وهو سفر يمتاز بالدقة والتمحيص ؛ كاتبه شاهد عيان مستقل محايد غير متحيز ؛ وجيز النسج بارع السبك ؛ يتصف أسـلوبه بالتدفق والبساطة ، رائع الخطاب . ولد ٤٦٠ ق م . تقريباً ، وأصبح قائداً بحرياً فى حرب البيلوبونيز ونفى ٢٠ عاما وعاد وقتل ٣٩٥ ق م .

جزء من دعامتنا العقلية لا يمكن فصله عنها — ذلك الشيء هو الأدب الذي أنتجته بلاد الإغريق في أثناء فترات قصيرة من السلام ولمحات بارقة من الهدوء والطمأنينة التي أتاحتها تلك الأيام. ويقول الأستاذ جلبرت مري « الواقع أن تاريخهم السياسي الخارجي، كتاريخ كل الشعوب الأخرى، ملئ بالحروب والدبلوماسية، وبالقساوة والخداع. وإنما العظيم حقاً هو التاريخ الداخلي، تاريخ الفكر والشعور والخلق. كانت أمامهم بعض صعاب يناضلونها، وهي صعاب لا تكاد اليوم تعرض لنا. ولم تكن لديهم في الواقع أية خبرة ولا مرانة، بل كانوا يجربون كل شيء لأول مرة. وكانوا على غاية الضعف في مواردهم المادية، وكان ما يعتلج في نفوسهم من عواطف ورغبات ومخاوف وغضبات فيما يرجح أشد جموحاً مما لدينا، ومع ذلك فإنهم أنتجوا أثينا بركليس وأفلاطون ».

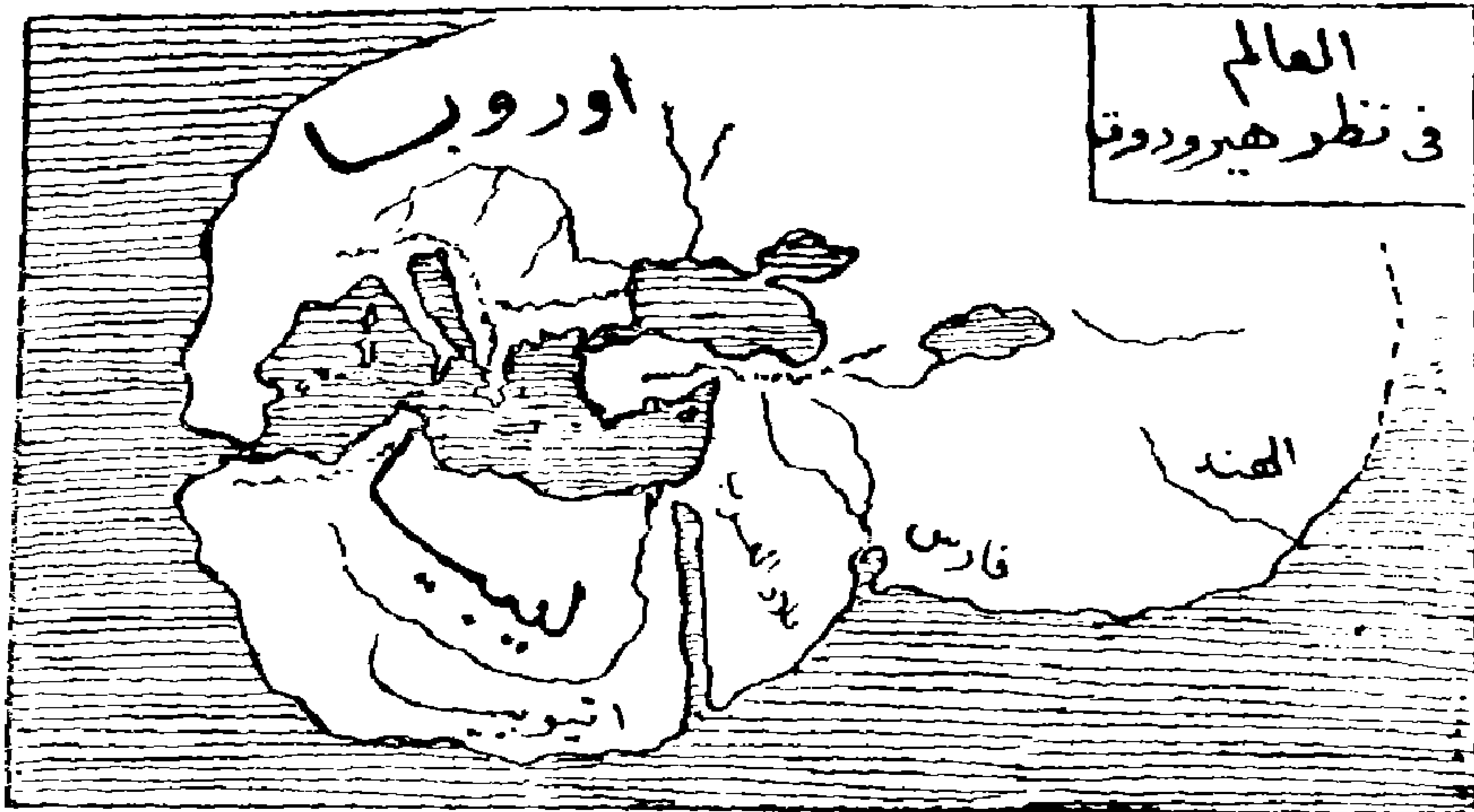
فهذه الذرا العجيبة التي تسنمتها قوى العقل الإغريقي الخلاقة التي ظلت زماناً طويلا تتجمع والتي ظلت عشرين وثلاثة من القرون نبراساً منيراً من الماضي لذوي الألباب من الرجال يرشدهم ويبث فيهم الإلهام، قد ثارت حمياها بعد معركتي ماراتون وسلاميس وجعلت من أثينا بلداً حرا لا يخشى شيئا، وهيأت لها السيادة والسلطان في عالمها وإن لم يتح لها تفوقها العسكري والمادي ما يبرر تلك العظمة. كان ذلك عمل فئة قليلة جداً من الرجال تعد على الأصابع. فإن بضع نفر من مواطنيها قضوا معظم جيلهم في ظروف مما تبعث دائما على إنتاج كل جميل خير. كانوا في أمنة وكانوا أحراراً وكانت بهم كبرياء. وما كانوا يعرفون ذلك الإغراء الذي يصاحب كل ذي سلطان، له الغلبة التي لا سبيل إلى تحديها، الأمر الذي يحملنا جميعا على إيقاع الأذى بإخواننا. ولما أن ضاق صدر الحياة السياسية مرة ثانية فتحولت إلى ميدان للفساد والضياع يقتل فيه الأخ أخاه كما تجلى في الحرب مع إسبرطة، كان هناك لهيب متقد للنشاط الذهني بلغ من قوته واتساعه وحسن تغذيته أن استمر على كل المحن العاصفة في تلك الحرب، وإن جاوز حياة الإسكندر الأكبر الوجيزة الأمد، فاستمر بذلك فترة من الزمان مجموعها الكلي يربو على مئة سنة منذ بداية الحروب.

وإذ كان أهل أثينا قد ملأهم النصر حمية، وتشبعت نفوسهم بشعور الحرية التي ظفروا بها عن جدارة فإنهم لبثوا يرقون مراقي النبل والعزة ردحا من الزمان، وعندما كانوا تحت قيادة الديماجوج[1] العظيم بركليس وهو كبير موظفي الجمعية العمومية الآثينية. وهو

(١) الديماجوج Demagogue باليونانية ومعناها زعيم الأحرار وهي مشتقة من ديموس Demos وأجوجوس Agogos بمعنى قائد ومرشد. وكانت تدل على الزعيم المسيطر على الجماهير ثم حولوها فيما بعد فغدت تعبر عن الفوضى.

رجل دولة وسياسى خطير يكاد يقارب غلادستون أولنكولن فى التاريخ المصرى — هفت أنفسهم للقيام بواجب إعادة بناء مدينتهم وتوسيع تجارتهم . وانقضت فترة من الزمان استطاعوا أثناءها أن يتبعوا فى سماحة زعيما كريم النفس ، وحباهم القدر بذلك الزعيم فى شخص بركليس ، وكان يجمع بشكل نادر المثال بين المقدرة السياسية والإحساسات الحية نحو الأمور العميقة والرفيعة الرائعة . وظل متملكا ناصية الحكم ما يربو على الثلاثين عاماً . وكان رجلا ذا قوة وحرية فكر تفوق ما ألفه الناس . فرسَّخ تلك الصفات فى زمانه . وقد نوه وينكلر (Winckler) بأن « وجه بركليس وطابعه » ظلا حينا من الدهر مطبوعين على الديمقراطية الآثينية . وكان ركن بركليس الذى عليه يعتمد ، صداقة ربما كانت نبيلة سامية، عقدت أواصرها بينه وبين إسبازيا . وهى امرأة من ميليتوس عالية الروح ممتازة التربية وكان لا يستطيع الزواج منها بسبب القانون الذى يقصر حق المهادنة الآثينية على المولودين فى أرضها ، ولكنها كانت فى الواقع زوجة له . لعبت إسبازيا دورا عظيما فى أن تجمع من حوله رجالا لهم مواهب غير عادية ، فكان يعرفها كل عظماء الكتاب فى زمانها ، وأثنى الكثير منهم على حكمتها . حقا إن بلوتارك يتهمها بإضرام حرب خطيرة مروعة ضد ساموس وإن انتهت بالنصر ، ولكن الأمر كما يبينه هو نفسه فيما بعد ، كان أمراً تحتمه العداوة البحرية التى أظهرها أهل ساموس والتى كانت تهدد تجارة أثينا فيما وراء البحار ، وكان يتوقف عليها كل رخاء الجمهورية ورفاهيتها .

وأطماع الرجال عرضة على الدوام أن تعكس صورة المعايير التى عليها قرناؤهم وخلطاؤهم فقد كان بركليس قانعا على كل حال ، بأن يخدم أثينا زعيما عن أن يتسلط عليها طاغية . وبإرشاده وتدبيره عقدت المحالفات وتأسست مستعمرات جديدة ومحطات تجارية من إيطاليا إلى البحر الأسود . ونقلت كنوز الحلف من ديلوس إلى أثينا ، ولما كان بركليس واثقا من منعته وعصمته من خطر فارس ، فإنه أنفق مدخرات الحلفاء لحرب فارس فى تجميل مدينته . ولم يكن هذا تصرفا قويما إذا قيس بمعايير عصرنا هذا ، على أنه لم يكن تصرفا وضيعا أو قائما على الطمع ، فإن أثينا كانت قد قامت بما على حلف ديلوس من أعباء أفليس العامل جديراً بنوال أجره ؟ فاستيلاؤه على هذا المال هيأ له فرصا جمة لاستخدام مهندسى العمارة والفنانين . وما كان البارثينون Parthenon الآثينى الذى ما تزال على خرائبه مسحة الروعة والجمال ، إلا الإكليل الذى توج مجد أثينا التى أعاد بناءها بركليس . وإن أمثال تلك النحاتات التى تركها فيدياس Phidias ومايرون Myron وبوليكليتوس Polyclitus والتى ما تزال موجودة ، لتشهد بعظمة الفن فى ذلك الزمن .



٧٢ — خريطة

وعلى القارىء أن يتذكر تلك الملاحظة المشرقة التى أشار بها وينكلر إلى أن أثينا تلك الناشئة من جديد ظلت حينا من الدهر تحمل طابع وجه بركليس . فإن عبقرية هذا الرجل ، والجو الزاكى المحيط به هما اللذان أطلقا نبوغ من حوله من الرجال من عقاله ، واجتذبا إلى أثينا رجالا على قوة ذهنية عظيمة . وقد تلثمت أثينا بوجهه فترة من الزمان كما يرتدى المرء أحد الأقنعة ، ثم داخلها القلق ورغبت فى أن تنحيه عنها . وما كانت نفس الأثينى العادى تنطوى على مثقال ذرة من العظمة والسماحة . ولقد عرضنا عليك من قبل نموذجا لروح الناخب فى أمر نفى أريستيدس نفيا سياسيا . ويصرح لويد فى كتابه « عصر بركليس » بأن الأثينيين لم يكونوا يطيقون سماع اسم ملتيادس مقرونا بمعركة ماراتون .

وسرعان ما دفع الإعتزاز الشديد بالكرامة ، عامة الناخبين إلى الثورة على تلك المبانى الأنيقة التى ترتفع أمام أنظارهم إلى عنان السماء ، وعلى ما كان يلقاه أمثال فيدياس من المثالين من حظوة وتكريم يفوقان ما يناله إخوانهم فى الصنعة المحبوبون من الشعب ، وعلى المنح التى كانت تعطى لأجنبى بسيط مثل هيرودوت الهاليكارناسوسى ، وعلى خدش بركليس لكرامتهم بإيثاره لصحبة امرأة ميليطية وتفضيله حديثها . وكانت حياة بركليس العامة منظمة تنظيما ملحوظا أدى برجل الشارع أن يظن فى حياته الخاصة الفساد والرشوة على أن الدلائل كلها تنبىء أن بركليس كان ممتازاً مترفعاً فى سلوكه وقد أظهر فى بعض الأوقات احتقاره للمادنين الذين كان يسهر على رعاية مصالحهم . « ولم يقف الأمر ببركليس عند حد التسامى بالعاطفة والتعالى والتنزيه لأسلوبه الذى كان شديد البعد عن تعبير السوقة الوضيع ، بل كان كذلك وقوراً عبوسا بحيث لا يلين ولا يجنح إلى ضحك أو تبسم ، كما كانت نبرات صوته

ثابتة متزنة وسلوكه هيناً سهلا ، وكان ذوقه فى الثياب سليما فلم يؤثر عنه قط أنه تخلى عن حسن هندامه لحدة فى الحديث ، فهذه الأشياء وغيرها مما يماثلها فى طبيعتها ، قد استثارت إعجاب كل من رآه ، وعلى هذه الشاكلة كان خلقه وسلوكه ، عندما ظل أحد الأوغاد يلاحقه يوما كاملا بألوان التقريع والسباب . فإنه تحمل الأذى بالصمت والصبر ، واستمر يرسل الرسل أمام الملأ فى بعض الشئون الماسة ، ثم سار فى المساء إلى منزله فى هدوء ، يتبعه ذلك التعس الوقح ، وهو يهينه أثناء الطريق بأقذع لغات السباب . ولما كان الظلام قد خيم عندما وصل إلى باب داره ، فإنه أمر أحد خدمه بأن يأخذ مشعلا يضيء للرجل الطريق حتى يعود إلى منزله . ومع ذلك يقول الشاعر أيون (Ion) ، إنه كان متكبراً ومترفعاً فى حديثه ، ويخالط وقاره وعزة نفسه قدر عظيم من الغرور والاحتقار لمن سواه ، فكان لا يبدو فى الشوارع إلا ساعة ذهابه إلى الفوروم (سوق المدينة[١]) أو دار الشيوخ[٢] . وكان يرفض دعوات أصدقائه ، ويمتنع عن كل حفلات السمر والنزهات الاجتماعية إلى حد أنه إبان توليته السلطة — وهو أمد طويل — لم يذهب قط ليتعشى مع أى من أصدقائه إلا مرة واحدة ، وذلك يوم زواج ابن أخيه يورى بطلموس (Eury Ptolemus) ولم يلبث هناك إلا ريثما انتهى طقس صب الماء المقدس . وكان ممن يعتقدون أن حرية السمر تزيل كل جاه الوظيفة ووقارها ، وأن الكرامة لا تستقيم مع رفع الكلفة » .

ولم يكن هناك حتى ذلك الحين أية صحافة وضيعة تظهر العالم على دنايا الخاصة المبرزين والموفقين وخستهم . على أن الرجل العامى كان لما يداخله من الغرور والاعتداد بالنفس ، يجد قدراً كبيراً من السلوى فى فن الكوميديا (الملهاة) التى ازدهرت أيما ازدهار ، ولقد أشبع كتّاب الكوميديا ما كان يخامر العامة من تلهف يكاد يشملهم جميعاً على الحط من قدر أولئك الذين تجرح عظمتهم الظاهرة حب الناس لأنفسهم . فكانوا لا ينون عن إلقاء الأقذار على بركليس وأصدقائه ، وحدث ذات يوم أن صور أحد المثالين بركليس وعلى رأسه خوذة ، فأصبحت إشارة إليه ورمزاً تهكمياً عليه ، ولعله ألم بطرف من تلك القصة . وأثارت قصة الخوذة مرحا ومزاحا لا نهاية له عندما اقترح بعضهم عمل رأس بصلة مشوهة تشويهاً مخيفاً . وكانت حركات اسبازيا وسكناتها بالطبع كرمة مثمرة تنهشها تخرصات الشارع .

---

(١) الفوروم Forum هو سوق المدينة عند الرومان ، أما عند اليونان فيسمى ذلك السوق باسم الأجورا Agora .

(٢) هو مجلس المشورة Boule عند اليونان ويقابله تقريبا السناتو عند الرومان .

ولطالما عنت النفوس الحالمة حين تضيق ذرعا بسوقيات زماننا هـذا وانحطاطه ، لو نقلت إلى عصر بركليس الرفيع ، على أنهم لو قذفوا إلى أثينا المشتهاة تلك ، لوجدوا أنفسهم فى نفس الجو الوضيع الذى تتمرغ فيه الحياة فى أدنى أنواع صالات الموسيقى العصرية ، والذى يتجلى فى الصحف الشعبية تجلياً كبيراً ، ولوجدوا أخس لفحات السباب والقذف العلنى الصاخب اللاذع ولهبت عليهم نفس التهم الدنسة والوطنية الشرهة ، والوضاعة العامة ، ولظلت النغمة المصرية تتقفى آثارهم . حتى إذا بليت ذكريات بلاتيا وسلاميس ، وألفت عيون الناظرين المبانى الجديدة ، أخذ بركليس وفخامة أثينا يثيران ثائرة الجمهور وتفكهه الوضيع شيئاً فشيئاً . أجل لم يحدث قط أنه نفى من أثينا نفياً سياسياً ، لأن مكانته لدى المادنيين الأكثر اتزانا وقته غائلة ذلك الأمر ، بيد أنه لبث عرضة لهجمات تتزايد على الأيام جرأة ورسوخا . وقد عاش ومات رجلا فقيراً ، ولعله أشد زعماء العامة الدعاجوجيين نزاهة وطهارة على أن هذا لم ينقذه من تهمة اختلاس الأموال فقدم من أجلها إلى محاكمة شوهاء عقيمة . فلما فشل أعداؤه فى ذلك لجأوا إلى وسيلة أكثر ضلالة ، فأخذوا يقصون عنه أصدقاءه .

والتعصب الدينى والتهم الأخلاقية إنما هى الأسلحة الطبيعية لمن أكل الحسد قلوبهم ضد زعماء الرجال ، فنفى صديقه دامون (Damon) من المجتمع الأثينى ، وهوجم فيدياس بتهمة عدم الصلاح والتدين فإن فيدياس اجترأ أن يضع على درع التمثال المظيم للربة أثينا ، صوراً له ولبركليس أضافها إلى صورة تمثل المتحاربين فى قتال بين الإغريق والأمازون ومات فيدياس فى السجن . وكان أناجزاجوراس (Anaxagoras) أجنبياً استدعاه بركليس إلى أثينا — يوم كان فيها عدد وفير من نزهاء الرجال فأقام فيها وهو على أتم الاستعداد لإشباع كل ما يخالج محبى الاستطلاع من رغبات كريمة — كان يقول أعجب الأشياء عن الشمس والنجوم ويلمح تلميحاً غير خفى ، أنه لا وجود للآلهـة ، وإنما توجـد فى العالم روح تبعث الحياة هى نوس[1] . عند ذلك تبين كتّاب الـكوميديا على حين فجأة أن لهم مشاعر دينية عميقة ، يمكن أن تنزعج انزعاجاً شديداً ، بل تنزعج بشكل خطر ، ومن ثم فر أناجزاجوراس مما كان يحاك من تدبير لمحاكمته . ثم جاء دور أسبازيا وبدا على أثينا النزوع إلى نفيها من المجتمع ، وكان بركليس موزعا بين المرأة التى يهواها فؤاده وبين المدينة الناكرة للجميل والتى أنقذها ودافع عنها وجعلها أجمل شكلا وأخلد ذكرا من أية مدينة أخرى فى التاريخ ، فوقف يدافع عن أسبازيا ، حتى غلبته عاصفة من العواطف الإنسانية الحقة ، فانهلت الدموع من عينيه

---

(١) نوس Nous وهى كلمة يونانية معناها العقل .

وهو يتكلم ، وأنقذت عبراته أسبازيا إلى حين .

وقنع الأثينيون بما لحق بركليس من إذلال ، بيد أنه كان قد أسدى إليهم من الخدمات ما طال به الأمد حتى لم يعد فى إمكانهم الاستغناء عنه ، إذ مضى عليه وهو فى مقام زعامتهم ثلث قرن .



٧٣ — تمثال الربة آثينا فى البارتنون

وفى (٤٣١ ق . م) نشبت الحرب ضد إسبرطة ، ويتهم بلوتارك بركليس بأنه عمل على إشعالها ، إذ أنه شعر أن حب الجمهور له قد ذوى بسرعة فأشب الحرب ليتمسك به الناس ولما كان هو نفسه قد أصبح لديهم بغيضاً بسبب ماكان من فيدياس وكان يخشى أن يستدعى ليسأل ، — فإنه حرض على الحرب وكانت حتى ذلك الوقت أمراً غير محقق . فأثار ذلك اللهيب الساكن تحت الرماد ، وكان يأمل أن يزيل عن نفسه بهذه الوسيلة التهم التى تهدده ، وأن يخفف من ثورة الحاقدين عليه إذ بلغ من مهابته وسلطانه ، أنه كلما اعترى الجمهورية خطب عظيم ، أو تعرضت لخطر فادح استطاعت أن تودع كل ثقتها فيه دون سواه .

على أن الحرب كانت حرباً بطيئة مخطرة حتى عيل صبر الشعب الآثينى ونهض رجل طموح يدعى كليون Cleon يريد أن ينحى بركليس عن زعامته . وقامت فى المدينة ضجة تدعو إلى إنهاء الحرب عاجلا . فأخذ الشعراء الشعبيون يعملون على هذا المنوال وينشدون :

« وأنت يا ملك الساتير[١] .... لماذا تفاخر بشجاعتك ،

---

(١) الساتير Satyr : طبقة من الكائنات الرطازية (الميثولوجية) الإغريقية ، التى ترتبط بعبادة الإله ديونيسوس . وتمثل هذه الطبقة قوى الطبيعة الحيوية الوافرة . وتبدو الساتير بشعر خشن وأنف مستدير وأذن مدببة كآذان الحيوان وقرنين صغيرين وذنب وساقين كساق الماعز . وهى تمثل دائما وبيدها الكأس (إيماء إلى حبها للنبيذ والملذات الحسية) أو راقصة رقصاً تهتكيا أو ممسكة بإحدى الآلات الموسيقيه. وكان الناس يخشون شرها .

ومع ذلك فأنت ترجف فرقاً لدى سماعك صليل السيوف المشحوذة ،
أعن غل ذلك منك على كليون المتوقد ؟ »

وقد فشلت إحدى الحملات تحت قيادة بركليس ، فانتهز كليون الفرصة وطالب بمحاكمته وأوقف بركليس عن مباشرة عمله فى القيادة وحكم عليه بالغرامة . وتقول القصة بعد ذلك بأن أكبر أبنائه — ولم يكن هذا ابن اسبازيا ، بل من زوجة سابقة — تنكر له وأخذ يكيل له اتهامات دنيئة لا يصدقها العقل ، وقد قضى الطاعون على هذا الفتى ، ثم ماتت شقيقة بركليس ثم آخر أبنائه الشرعيين ، وبينما هو يضع — على عادة ذلك الزمان — أكاليل الجنازة على جثمان ذلك الغلام أعول بالبكاء وسرعان ما انتقلت العدوى إليه هو نفسه فمات (٤٢٩ ق . م)

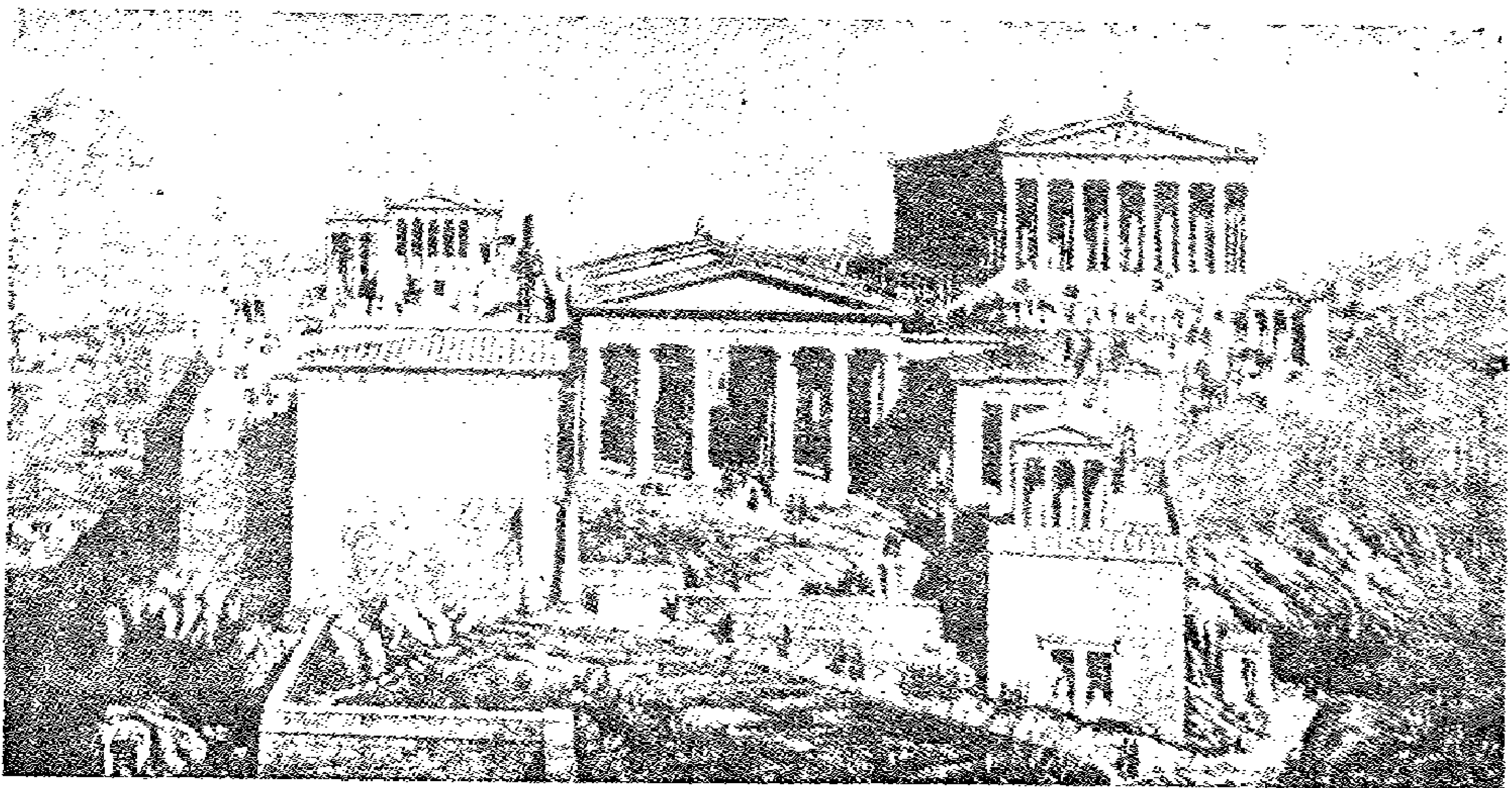
والحقائق البارزة فى هذه الخلاصة الوجيزة ، تساعدنا على تبيان مبلغ تنافر بركليس وعدم انسجامه مع الشىء الكثير من حياة مدينته . على أن النهضة الذهنية والفنية التى غمرت أثينا كانت تساعدها ولا شك الظروف السائدة فى ذلك الزمان وهى لم تكن حركة عامة ولكنها ترجع كذلك فى بعض نواحيها إلى ظهور بعض الشخصيات الفذة ممن أتيحت لهم فرص استثنائية وأوتوا مواهب فريدة .

٣ — سقراط

ومن الشخصيات الأخرى البارزة المترعمة فى أثينا فى ذلك الزمان ، رجل اسمه سقراط ، وهو شخص أشد من بركليس عدم اتساق مع حياة عصره وأكثر منه إظهاراً لها كما أنه يعدله فى كونه مصدراً اشتهر بالأصالة والابتكار حتى أصبح عاملا مميزاً ومرشداً له أثره فى عظمة عصره الخالدة . وهو ابن أحد البنائين ولد بعد هيرودوت بنحو ستة عشر عاماً ، وكان صيته آخذا فى الذيوع قرب الوقت الذى مات فيه بركليس . وهو نفسه لم يكتب شيئاً ، على أن عادته جرت أن يتكلم فى الأماكن العامة . وكان يدور فى تلك الأيام بحث عظيم عن الحكمة وكان هناك جمهور مخلط من المعلمين ، يسمى السفسطائيين ، كانوا ينكرون الصدق والجمال والحياة الحقة ، وكانوا يثون العلم وحب الاطلاع وسعة الخيال فى الشباب الناشىء . وكان هؤلاء يضطلعون بتربية النشء لأن الكهنة لم تكن لديهم مدارس عظيمة الشأن فى بلاد الإغريق . وإلى حلبة هذه المناقشات ، دخل هذا الرجل بسماجته وقبح منظره وتثاقله وحفاء قدميه فالتف من حوله حلقة من المعجبين والتلاميذ .

وكانت طريقته طريقة التشكك العميق ، وكان يرى أن الفضيلة الممكنة لعصره إنما هى

المعرفة الحقة . فهو لا يسمح بأى معتقد ، ولا يجيز أى أمل لا يستطيع أن يصمد للامتحان النهائى المرير . وكان معنى ذلك عنده هو الفضيلة ، على أن ذلك كان معناه فى عين الكثيرين من أتباعه الضعاف النفوس ضياع المعتقدات والعادات الأخلاقية التى كانت تحد من نزعاتهم ودوافعهم الجامحة ، وقد أصبح هؤلاء الضعاف النفوس أنذالا مجرمين يتلمسون المعاذير وينغمسون فى الملذات . وكان من بين خلطائه الشبان أفلاطون ، الذى خلد بعد ذلك طريقة أستاذه فى سلسلة من المحاورات الفلسفية ، وأسس المدرسة الفلسفية « الأكادمية » ، التى استدامت ٩٠ سنة ، وكان أحدهم زينوفون قائد العشرة الآف الذى دبج وصفا لموتة سقراط ومن بينهم كذلك إزوقراط Isocrates وهو من أحصف المفكرين السياسيين عند الإغريق وأرجحهم عقلا ، ولكن كان منهم كذلك كريتياس Critias الذى أصبح عند ما هزمت إسبرطة أثينا هزيمة نهائية — زعيما على الطغاة الثلاثين الذين عينهم الإسبرطيون ليرغوا المدينة المحطمة فى حمأة الحضيض الأدنى وليدمروا نظامها التعليمى ، وخارميدس Charmides الذي قتل إلى جانب كريتياس عند ما خلع الثلاثون وغلبوا على أمرهم ، والسيبيادس وهو خائن معتقد وقاد الذهن خبيث الطوية ، قام بدور كبير فى دفع أثينا إلى القيام بالحملة على سيراقوزة ، تلك الحملة الخاسرة التى انتهت بتحطيم قواها ، نخانها عند ذلك وانضم إلى الإسبرطيين ، ثم اغتيل آخر الأمر وهو فى طريقه إلى البلاط الفارسى حيث كان يبغى أن يدبر الشر لبلاد الإغريق . ولم يكن هؤلاء التلاميذ الأخيرون هم الشبان الوحيدين الذين لاح عليهم من الدلائل ما يبشر بمستقبل حسن ، والذين قضى سقراط على عقيدتهم ووطنيتهم .



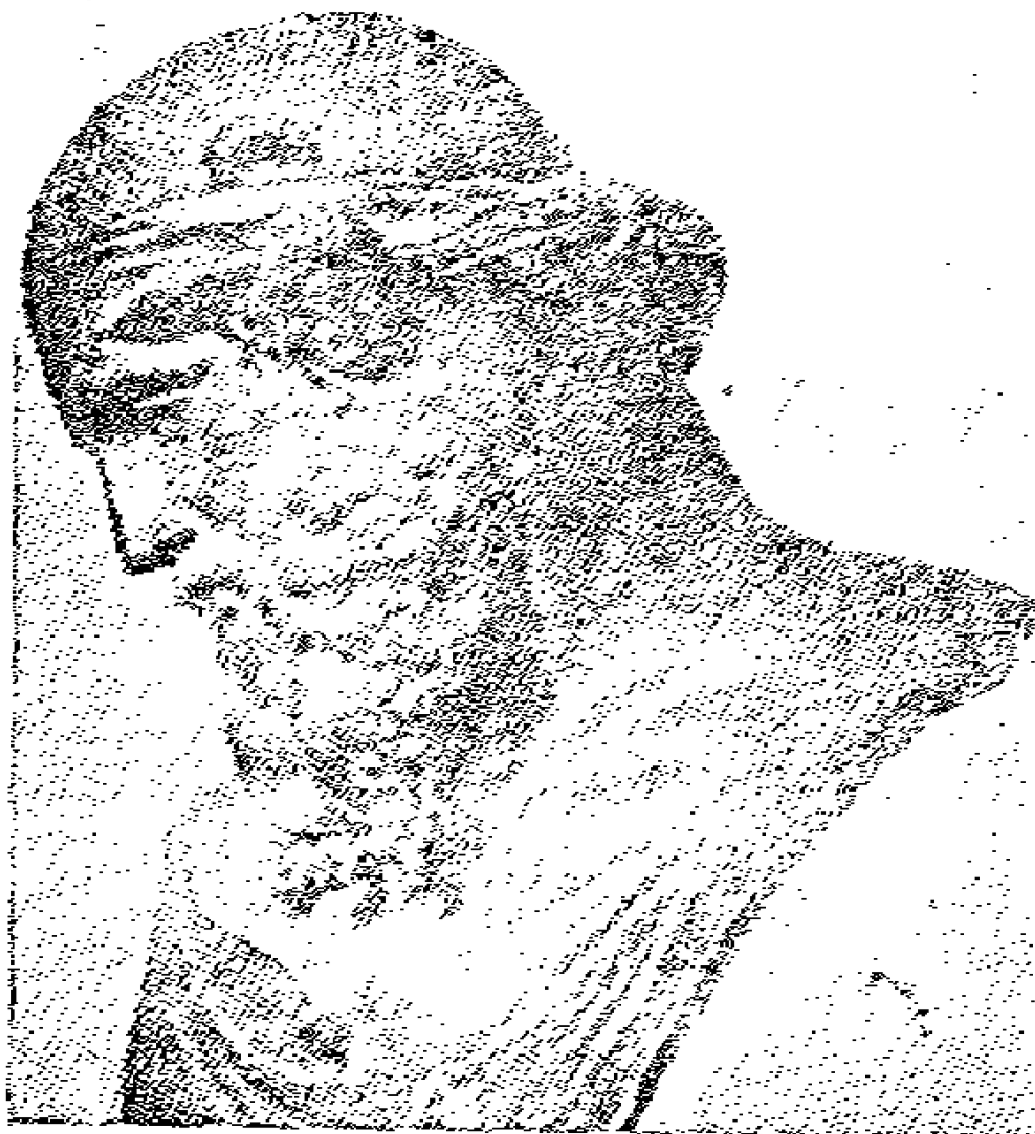
٧٤ — الإكروبوليس قديما

السوفيتين وترك مكانها شاغراً فى نفوسهم . وكان ألد خصومه شخص يدعى أنيتوس الذى أصبح ابنه وهو تلميذ مخلص لسقراط ، سكيرا مدمنا لا يرجى صلاحه ، فسعى أنيتوس جاهدا حتى قدم سقراط آخر الأمر إلى المحاكمة بتهمة إفساد شباب أثينا ، وقضى عليه بالإعدام بشرب جرعة سامة مستخرجة من نبات الشوكران (٣٩٩ ق . م) .

وفى محاورة أفلاطون المسماة باسم فيدون Phaedo وصف لوفاته بالغ درجة عالية من الروعة والجمال .

٣ — أفلاطون والأكاديمية

ولد أفلاطون فى (٤٢٧ ق . م) وعمّر ثمانين عاماً . وكانت طباعه واستعداده الفكرى من طراز مخالف تماما لمواهب سقراط . فقد كان كاتباً أشد الكتاب رقة وجمال ذوق ، على حين لم يكن سقراط ليستطيع أن يكتب شيئاً متصل الحلقات . وكان يعنى بالجميل من الأشياء على حين كان سقراط يزدرى الجمال . وكان يعنى عناية فائقة بتنظيم الشئون العامة ، وبتدبير الخطط لإقامة علاقات جديدة بين الناس تفضل ما فى العالم ، على حين كان سقراط يركز ذهنه وهو ساكن النفس فى إماطة حجب الأوهام عن ناظريه غير آبه بحر أو قر ولا برأى من يحيط به من الناس . كان سقراط يقول بأن الحياة خداع ، وأن الروح وحدها تعيش . وكان أفلاطون شديد التعلق بهذا المعلم الهرم الجاف الطبع . وقد وجد طريقته ذات قيمة قصوى فى تنقية الآراء وتخليصها من التعقيد ، فجعله الشخص الذى تدور عليه محاوراته الخالدة على أن أفكاره الخاصة به ونزعته أفضت به إلى وجهة تخالف تمام المخالفة الحالة العقلية المتشككة التى عليها سقراط ، ومن ثم يكون الصوت والاسم لسقراط ، ولكن الفكر هو فكر أفلاطون .



٧٥ — أفلاطون

كان أفلاطون يعيش فى زمان شك وتساؤل يخيمان على كل ما بين الناس من علاقات ، والظاهر أن الناس فى أثينا فى أيام بركليس العظيمة قبل (٤٥٠ ق . م) كان يخامرهم شعور الرضا التام عن النظم الاجتماعية والسياسية ولم يكن يبدو أى سبب للتشكك حين ذاك . إذ كان الرجال يشعرون بأنهم أحرار ، وكان المجتمع فى رخاء ، وكان الحسد أهم ما يشكو منه الناس ولا يكاد تاريخ

هيرودوت ينم عن شيء من عدم الرضا عن النظم السياسية الآثينية .

ولكن أفلاطون الذى ولد قرابة الزمان الذى مات فيه هيرودوت ، والذى ترعرع فى جو عسير تكاثرت فيه المحن ما بين حرب طاحنة وجوائح اجتماعية شديدة وارتباكات عظيمة ، واجه منذ نعومة أظفاره ما بين الإنسانية من تنافر وما بين النظم الإنسانية من عدم تجانس . وكان أن استجاب عقله لذلك التحدى . ومن بين أوائل مؤلفاته وأواخرها ، مناقشات جريئة نفاذة تستهدف إدخال التحسين على العلاقات الاجتماعية . وكان سقراط قد علمه ألا يقبل شيئا مسلما به ، حتى ولا العلاقات المشتركة : علاقات الزوج والزوجة والوالد والولد . وكتابه « الجمهورية » وهو أول الكتب اليوتوبية [1] إنما يبحث فى المدينة التى يحلم بها خيال الشباب وفيها تنظم الحياة الإنسانية على أساس خطة جديدة تفضل ما سلفها . ومؤلفه الأخير الذى لم يتمه وعنوانه « القوانين » ، هو مناقشة تستهدف تنسيق قواعد يوتوبية أخرى شبيهة بتلك . وإن هناك لشيئا كثيرا من آراء أفلاطون لا نستطيع هنا أن نلقى إليه حتى مجرد نظرة عابرة ، غير أنه — لا جَرَم — يمثل ركنا من الأركان الأساسية فى تاريخنا هذا ، ذلك أن ظهور فكرة إعادة تشكيل الظروف البشرية وصياغتها صياغة ابتداع كاملة إرادية ، شيء من الأشياء الجديدة فى تطور الإنسانية . فكان البشر حتى ذلك الحين يعيشون بالتقاليد فى خشية من الآلهة . وها نحن الآن حيال رجل يقول للناس فى جرأة ، وكأنما قوله هذا أمر طبيعى معقول :

« تناولوا حياتكم بالبحث فإنكم تستطيعون أن تجتنبوا معظم تلك الأشياء التى تؤلمكم وإنكم لتستطيعون أن تلقوا عن كواهلكم نير معظم الأشياء التى تتسلط عليكم ، بل وإنكم لتستطيعون أن تفعلوا بها ما تشاءون » .

وهناك شيء آخر ربما كان له ، بالإضافة إلى منازعات ذلك العصر ، الفضل فى استثارة عقل أفلاطون فى ذلك الاتجاه . فإن أثينا كانت أسست فى أيام بركليس مستقرات كثيرة وراء البحار ، وكانت إقامة هذه المستقرات مما جعل الفكرة القائلة بأنه لا حاجة بالمجتمع إلى النمو ، فكرة مألوفة للناس كافة .

وكان يخالط أفلاطون مخالطة شديدة فتى أحدث منه سناً ، أدار فيما بعد مدرسة فى آثينا ، وعاش عمراً يكاد يربو على عمره ، وكان هذا الفتى هو إيزوقراطيس (إيزوقراط)

---

(١) اليوتوبيا (Utopia) كتاب يدعو إلى المدينة المثالية الفاضلة .

وفى استطاعتنا أن نعد إزوقراطيس هذا صحفياً ناشراً وأن نعتبره كاتباً أكثر منه خطيباً . وقد اختص بمناصرة فكرة هيرودوت ، القائلة بتوحيد بلاد الإغريق ضد الإمبراطورية الفارسية واتخاذ ذلك علاجا لما تفشى فى شئونها السياسية من انضاع وفوضى ، ودواء للخسارة والدمار اللذين يصيبانها من جراء ما نشب بينها من حروب طاحنة ، وكان أفقه السياسى أرحب من أفق أفلاطون ، وكان يتطلع فى سنيّه الأخيرة إلى الملكية ، وعلى الأخص ملكية فيليب المقدونى ، بوصفها وسيلة لحكومة أكثر توحيداً للشعب وأكثر اتساعاً من ديموقراطيات المدن . وكذلك اتجهت نفس زينوفون صاحب الأناباسيس إلى التفكير فى الملكية . وكتب زينوفون وقد علت به السن السيروبيديا[1] (Cyropaedia) وهو دفاع وتزكية نظرية وعملية تدعمها البراهين ، الملكية المطلقة التى تتجلى فى تنظيم الإمبراطورية الفارسية .

٤ أرسطاطاليس والليسيوم

كان أفلاطون يعلم الناس فى الأكاديمية وقد وفد عليه وهو فى سن عالية حدث وسيم الطلعة قدم من استاجيرا فى مقدونيا ، هو أرسطاطاليس (أرسطو) ابن طبيب ملك مقدونيا ، وهو رجل له عقلية صيغت من معدن مختلف جداً عن عقلية ذلك الآثينى العظيم أفلاطون وكان بطبعه شاكا فى الإرادة المتخيلة ، وكان يكن عظيم الاحترام والفهم للحقائق الثابتة . وبعد ذلك الزمان ، وبعد أن مات أفلاطون ، أنشأ مدرسة فى الليسيوم بأثينا ، وأخذ يعلم الناس منتقداً أفلاطون وسقراط فى شىء من العنف . وبينما هو يلقى تعاليمه كان شبح الإسكندر الأكبر يلقى ظلاله مخيما على حرية بلاد الإغريق . وكان يحبذ وجود الرق ونظام الملوك الدستوريين . واشتغل حيناً من الدهر مربياً للإسكندر فى بلاط فيليب المقدونى .

وكان قد استولى الجزع على النابهين من الرجال فى تلك الأيام ، وكان إيمانهم فى قدرة الناس على صوغ ظروفهم الخاصة فى الحياة قد أخذ يتناقص ويفتر ، فلم تعد تظهر على وجه البسيطة أية يوتوبيا . وتبين لهم أن اندفاع الحوادث وتتابعها كان من القوة بحيث لا تستطيع أن تصده تلك الجهود المنظمة التى كان فى الوسع أن ينفقها حينذاك ذوو الذكاء الممتاز من الرجال، فقد كان من المستطاع التفكير فى إعادة صوغ الجماعة الإنسانية حين كانت الجماعة الإنسانية مدينة صغيرة تضم بضع آلاف من المادنين ، على أن ما كان يحدث من حولهم من أحداث كان طوفانا عظيما لا سبيل إلى دفعه وكان معنى ذلك الأمر هو إعادة الصوغ السياسى لكل العالم المعروف ، ولشئون

---

(١) «السيروبيديا» كتاب من تصنيف زينوفون كتبه على شكل قصة سياسية اعتمد فيها على تاريخ ملك الفرس قورش .

جمهور من الناس لابد أن عدده بلغ حتى فى تلك الأيام حدا يتراوح بين الخمسين والمئة مليونا ، وكانت العملية عملية إعادة صوغ على مقياس لم يكن أى عقل إنسانى مهيئاً بعد لإدراكه . فكان معناها أن يكر الفكر راجعاً ادراجه إلى فكرة «القضاء والقدر» الهائل المحتوم . وأصبح الناس يحاولون التشبث بكل ما يخالونه عامل ترابط واستقرار . فقد كانت الملكية مثلا ، رغم ما يشوبها من رذائل ظاهرة — حكومة فى وسع الملايين قبولها عقلا ، وكثيراً ما وضعت من قبل موضع التنفيذ والاختبار إلى مدى معين . كانت تفرض إرادة حاكمة ، حيث تتجلى استحالة وجود الإرادة الحشدية . فهذا التغيير الذى لحق حالة الناس العقلية عامة ، كان يتسق مع احترام أرسطو الطبيعى للحقائق القائمة . فلئن جعله من ناحية يستصوب الملكية والرق وإخضاع النساء بوصفها كلها نظما معقولة ، فإنه جعله من الناحية الأخرى تواقا إلى فهم الحقيقة والحصول على طرف من المعرفة المنظمة عن هذه الحقائق ، حقائق الطبيعة والفطرة الإنسانية التى كانت آنذاك فى حالة انتصار بيّن على أحلام الجيل السابق وما كانت تتمخض عنه من روح .



٧٦ — أرسطاطاليس

وأرسطو سليم العقل ناصع الذهن إلى حد رهيب، وتعوزه الحماسة المضحية بالنفس إعوازاً رهيباً . فهو يناقش أفلاطون منكرا عليه دأبه على استبعاد الشعراء من مدينته الفاضلة اليوتوبيا ، ذلك أن الشعر قوة . وهو يوجه كل قوته فى اتجاه يضاد تحقير سقراط لشخص أناجزاجوراس على خط مستقيم ، وكأنى به يمهد السبيل لباكون (Bacon) والحركة العلمية العصرية ويبشر بهما ، فى إدراكه لأهمية المعرفة المنظمة . فنصب نفسه للقيام بواجب جمع المعرفة وتدوينها فكان أول عالم بالتاريخ الطبيعى ، أجل إن رجالا آخرين من قبله طالما أمعنوا النظر فى طبيعة الأشياء ،على أنه هو وكل شاب استطاع ضمه إليه ، أخذوا أنفسهم بتصنيف الأشياء ومقارنتها . أجل إن أفلاطون يقول « فلنتناول الحياة ولنَصِفها وفق أنموذج جديد » فأما خليفته هذا الأثبت جنانا فيقول « علينا قبل كل شيء أن نزيد فى معرفتنا بالحياة وعلينا فى الوقت نفسه أن نخدم الملك وننتفع به » ، ولم يكن ذلك مناقضة منه لإستاذه قدر ما كان موافقة هائلة له .

وتمكن أرسطو بفضل العلاقة الخاصة بينه وبين الإسكندر الأكبر من الحصول على موارد مالية لعمله لم تكن بعد ذلك فى متناول أى باحث علمى مدى عصور طويلة ، إذ كان تحت تصرفه مئات من التالنتات الذهبية (والتالنت يقارب فى القيمة ٢٤٠ جنيها) — يستطيع أن ينفقها فى أغراضه الخاصة . وجاء زمان كان تحت تصرفه فيه ألف رجل متناثرين فى أرجاء آسيا وبلاد الإغريق يجمعون المواد لتاريخه الطبيعى . وبديهى أنهم كانوا ملاحظين للطبيعة جد غير مدربين ، بل كانوا جامعى أقاصيص أكثر منهم ملاحظين ، ولكن لم يحاول أحد على مدى الدهر شيئا من هذا القبيل ، بل لم يفكر فيه قبل زمانه أحد قط ، على قدر ما وصل إليه علمنا . وابتدأ علم السياسة كما ابتدأ علم الطبيعة . فإن طلاب الليسيوم كانوا يقومون بإرشاده بعمل تحليل لمئة وثمانية وخمسين دستورا سياسياً .

وكان هذا أول بارقة للبحث العلمى المنظم فى العالم . ولكن قضت وفاة الإسكندر المبكرة وتقسيم إمبراطوريته وهى بعد فى المهد ، على تلك الهبات ذات النطاق الضخم ، أمد ألفين من السنين . ولم يبق من بحث علمى مستمر إلا فى مصر فى متحف الإسكندرية ، ولم يستمر هذا إلا بضع أجيال قليلة وسنحدثك عن ذلك من فورنا . وتضاءلت الليسيوم بعد وفاة أرسطو بخمسين سنة فأصبحت غير ذات شأن .

٥ - الفلسفة تصبح غير دنيوية

لم تكن حركة انتقال الفكر العمومية فى السنين التى ختم بها القرن الرابع ق . م تساير أرسطو ، ولا هى كانت متجهة إلى التجميع الضرورى الدائب للمعرفة المنظمة . وربما كان أرسطو غير مستطيع أن يكون لنفسه غير شخصية ضئيلة فى التاريخ الذهنى لولا الهبات التى كان يتلقاها من الملك . فإنه استطاع بواسطتها أن يعطى ذكاءه الفاخر كفاءه من مادة وإنتاج . فالرجل العادى يفضل الطرق السهلة ، ما دام فى استطاعته سلوكها ، وهو بمحض إرادته لا يكاد يأبه هل هى تنتهى آخر الأمر إلى طريق مسدود أم سارب . ولما أن وجد عامة معلمى الفلسفة أن تيار الحوادث أقوى من أن يستطيعوا ضبطه على الفور ، انصرفوا فى تلك الأيام عن إعداد خطط المدن النموذجية وتخطيط المناهج الجديدة للحياة ، إلى إتقان أساليب التهرب الجميلة التى تبعث العزاء والسلوى إلى النفوس .

وربما كان فى هذا القول ضرب من وضع الأشياء وضعاً خشناً غير عادل . والأولى أن نترك المجال للأستاذ جلبرت مرى ليحدثنا عن هذا الوضوع : « لم يكن الكلبيون يعنون

إلا بالفضيلة وعلاقة الروح بالرب . وكان العالم وعلومه ومراتب الشرف فيه فى نظرهم خبثاً . وكان الرواقيون والأبيقوريون ، وإن تباعدت الشقة بينهما لأول نظرة ، متشابهين جد التشابه فى غايتهم القصوى ، وكان ما يعنيان به حقا هو علم الأخلاق — وكان سؤالهم العملى : كيف يجب على الإنسان أن ينظم حياته ؟ وكلاهما ، لا جرم ، قد انصرف إلى بعض العلم — فاتجه الأبيقوريون إلى الفوزيقا أو الفلسفة الطبيعية ، واتجه الرواقيون إلى المنطق وعلم البيان والبلاغة — ولكن بوصفها وسيلة توصل إلى غاية . وحاول الرواقيون أن يفوزوا بقلوب الناس ومعتقداتهم بمحض اللباقة فى الجدل المجرد والتسامى البراق المتألق بالفكر والعبارة . ووطد الأبيقوريون العزم على إخلاء السبيل الإنسانية لتشق طريقها دون الزلفى لآلهة متقلبة الأهواء ودون التضحية بالإرادة الحرة ويلخص أبيقور إنجيله فى مبادئ أربعة : «لا يجوز الخوف من الله . لا يمكن الشعور بالموت . يمكن الفوز بالخير . يمكن احتمال كل ما نخشاه والتغلب عليه» .

وفى نفس الوقت كان تيار الحوادث مستمر الفيض مبادلا الفلسفة عدم اهتمام بعدم اهتمام .

٦ — نوع الفكر الإغريقى وقيوده

إذا كان للدراسات الإغريقية القديمة أن يقرأها الناس فى العصر الحديث قراءة مجدية ، وجب أن تقرأ بوصفها من تصنيف رجال يماثلوننا ، وينبغى لنا أن نضع موضع الاعتبار تقاليدهم والفرص التى هيئت لهم والصعوبات التى حدت من جهودهم ذلك أن الفطرة الانسانية تنزع دوماً إلى المبالغة فى كل شعور بالإعجاب . ومعظم النصوص القديمة لدينا مهرأة تهرئة كبيرة جدا وكلها فى الأصل من عمل مخلوقات إنسانية اكتنفتها المصاعب وكانت تعيش فى زمان يحوطها فيه من ظلمات الأفق وضيق حدوده ما يجعل زماننا بالقياس زمنا وضيئا يكاد سنا ضيائه يخطف الأبصار . فكل ما ستفقده من احترامنا لهم فيما ستشهد وشيكا من معالجة خالية من الكلفة ، سنعوضه بالعطف على تلك المجموعة من العقول المضطربة القلقة العصرية الروح ، ذلك أن الكتاب الأثينيين كانوا ، لا جرم ، أول الرجال المصريين . فكانوا يتناقشون فى مسائل لا زلنا نتناقش فيها وشرعوا يجاهدون فى معالجة المشاكل الكبرى التى تواجهنا اليوم ، وما كتاباتهم إلا مطلع فجر نهارنا .

ويجيد جانج (Jung) فى كتابه «سيكولوجيا الفاقدى الوعى» (Psychology of the

Unconscious) خير إجادة ، حين يتكلم عن الفروق بين الفكر القديم (قبل الآثيني) والفكر الحديث وهو يسمى الأول باسم «التفكير غير الموجه» ويسمى الثاني باسم «التفكير الموجه» . وكان الأول تفكيرا بالأخيلة شبيها بالأحلام ، وكان الآخر تفكيرا بالكلمات . وما العلم إلا تنظيم للتفكير الموجه . فأما الروح العتيقة (أعنى قبل المفكرين الإغريق) فقد خلفت الميثولوجيا (أى علم الرطازات) لا العلم . وكان العالم الإنساني القديم عالم خيالات ذاتية يشبه عالم الأطفال والشبان غير المتعلمين في أيامنا هذه ، كما يشبه عالم المتوحشين ودنيا الأحلام . وأفكار الطفولة وأحلامها إنما هي ترديد لصدى طرق التفكير عند المتوحشين في عصر ما قبل التاريخ» ثم يقول جانج : « إن الرطازات هي كتلة الأحلام الحشدية عند الشعوب ، وإن الأحلام هي رطازات الأفراد .» ولقد وجهنا نظر القارئ من قبل إلى التشابه بين آلهة عصور الحضارة الأولى وبين أوهام الأطفال ونزواتهم . وإن عمل التفكير الشديد المنظم بواسطة الكلمات والجمل ، والمنبعث بعد تحليل وعناية ، والذى بدأ به المفكرون الإغريق ، وواصل العمل فيه الفلاسفة الذين اشتغلوا بالدرس والتحصيل في القرون الوسطى ، — كان تمهيدا ضروريا لتطور العلم الحديث .

وبدأ الفلاسفة الإغريق البحث ، ولم يصلوا إلى أى حلول . ولسنا بمستطيعين أن ندعى اليوم أننا وصلنا إلى حلول لمعظم المسائل التي أثاروها . فإن عقل العبرانيين ، كما أوضحنا آنفاً تنبه فجأة إلى التعاسات والاضطرابات اللانهائية التي تنغمس فيها الحياة ورأى أن تلك التعاسات والاضطرابات كانت في معظم أمرها نتيجة للأعمال غير المشروعة التي يأتيها البشر ، فاستنتجوا أن الخلاص لا يمكن أن يجيء عن غير طريق إخضاعنا أنفسنا لخدمة الرب الأحد الذى يحكم السموات والأرض . فأما الإغريقي فإنه وقد ارتفع إلى نفس المستوى الفكرى ووصل إلى نفس ذلك الإدراك — لم يكن مزوداً بنفس فكرة الألوهية الأبوية . لأنه كان يعيش في عالم لم يكن فيه إله واحد بل كان فيه الآلهة . فإن حدث أن أحس أن الآلهة أنفسهم كانوا محدودين ، فإنه فكر عند ذلك في القضاء والقدر من ورائهم ، جافاً مبهما لا يبذل المودة لأحد من الناس . ومن ثم فإنه وضع مشكلته في صورة بحث عن ماهية . العيش الحق ، دون أى ارتباط محدود بين الرجل الذى يعيش عيشة حقة وبين إرادة الإله .

وعندى وأنا أنظر إلى الأمر من زاوية تاريخية بحتة ، أن في الإمكان عرض هذه المشكلة العامة على صورة مزدوجة — خدمة للأغراض التاريخية — تكون شاملة للطريقتين اللتين صاغهما فيهما كل من العبرانيين والإغريق على السواء . فلقد رأينا جنسنا البشرى ينهض من

حالة عدم الوعى التى عليها الحيوانات إلى حالة مستمرة من شعور الإحساس بالذات ويدرك التعاسة التى تعود على البشرية بسبب تعدد أغراضها الأهوج ، ويعرف ما لا بد من حدوثه من مأساة بحث الفرد عن نفسه ، وهو يتحسس طريقه فى عماية ، نحو فكرةٍ ما يرتبط بها الناس ولها يخضعون : فكرة يأمل أن تنقذه من الآلام والحوادث الفردية المحضة — وأعنى بتلك الفكرة الآلهة ، والملك الرب ، وفكرة القبيلة ، وفكرة دولة المدينة . وهذه الفكرات طالبت لنفسها بإخلاص الرجال فترة من الزمان وحصلت عليه ، وهى فكرات خسروا من جرائها أنانيتهم الفردية شيئاما ، فأفلتوا منها وفروا إلى إدراك حياة أكثر استدامة واستقراراً ، ومع ذلك فكما يتبين من حروبنا وكوارثنا بأجلى برهان ، ما من واحدة من تلك الفكرات العظمى بلغت حتى اليوم حد العظم الذى يكفل للناس الوقاية . فإن الآلهة فشلت فى حمايتها لهم ؛ وأثبتت القبيلة على نفسها الدناءة والقساوة ؛ ونفت دولة المدينة خير أبنائها وأخلص أصدقائها نفيا سياسيا ؛ وجعل الملك الرب من نفسه وحشا .

ونحن فى قراءتنا للأدب التفكيرى أعنى الفلسفة لدى الإغريق فى هذا العصر العظيم نلمس ثلاث حواجز أقيمت من حول العقل الإغريقى ، ولم يكد ينجو منها إلا فى النادر ، وإن كنا لعلنا الآن موشكين على الخلاص منها .

فأول هذه القيود هو تشبع العقل الإغريقى بفكرة المدينة بوصفها الغاية القصوى للدولة حتى لقد سيطرت عليه هذه الفكرة فى عالم تعاقبت فيه إمبراطورية إثر إمبراطورية ، وكانت الواحدة منها أعظم من سابقتها ، وفى عالم كان الناس والفكرات يزدادون فيه تفكك عرى وحرية سراح يوما بعد يوم ، وفى عالم يجرى فيه التوحيد ظاهراً حتى فى ذلك الزمان السحيق

كان الإغريق بسبب ما يتكنفهم من ظروف طبيعية وسياسية خاصة لا يزالون يحلمون بذلك الحلم المستحيل الذى يأمل فى وجود «دولة مدينة[1]» متماسكة لا تتطرق إليها المؤثرات الخارجية ، وهى آمنة فى شجاعة من العالم أجمع . وتقدير أفلاطون لعدد المادنين الأحرار فى الدولة المثلى قد تراوح بين ألف فى كتابه « الجمهورية » وبين ٥٠٤٠ فى كتاب « القوانين » ويقول أرسطو فى كتابه « السياسة » : « إنه من أجل إقامة العدل إقامة صحيحة ومن أجل توزيع السلطة ، فإن من الضرورى أن يتعرف كل ممادن أخلاق أخيه ، بحيث أنه إذا لم يمكن تنفيذ هذا فى مكان ما ، نجم عنه الشىء الكثير من الضرر والشر فى ناحيتى مباشرة

(١) وتسمى أيضا فى بعض الكتب العربية باسم مدينة حكومية City State

السلطات وتوزيع العدالة . فليس من العدل أن نفصل فى الأمور بطريقة تعسفية ، كما لا بد أن يكون الحال مع وجود العدد الوفير من السكان » . فهذا النوع من الدولة المحصورة النطاق التى فصلنا معالمها على هذه الشاكلة كان دولة عليها أن تخوض الحرب وأن تحتفظ بكيانها من غائلة المدائن الأخرى ذوات الحجم نفسه . وكان هذا كله ولما يمض غير جيلين اثنين على اجتياز جموع إجزرسيس معبرة الهلسبونت .

وكأنى بهؤلاء الإغريق وقد زعموا أن أيام الإمبراطوريات العالمية ولت إلى الأبد ، على حين لم تكن تلك الإمبراطوريات بعد إلا مبتدئة . وأقصى ما وصلت إليه أذهانهم هو الأحلاف والعصبات ، ولا بد أن قد كان هناك رجال فى بلاط إجزرسيس يتجاوز تفكيرهم ذلك النطاق الضيق الذى انحصرت فيه أفكار هذه الجزيرة الصخرية التى خلقتها الطبيعة أخواراً حجرية ووديانا محوطة بالجبال

على أن الحاجة إلى الاتحاد ضد القوى العظمى التى كانت تعيش خارج نطاق العالم الناطق بالإغريقية ، قد تجاهلها العقل الإغريقى عمداً . فإن هؤلاء الأجانب كانوا فى نظرهم برابرة وهمجا ، لا يجوز التفكير فيهم تفكيراً ليس إليه من ضرورة . فأقيم بينهم وبين بلاد الإغريق حاجز أبدى لا يزول ، فكان الواحد منهم يقبل النقود الفارسية ، بل إن الجميع كانوا يقبلون تناول تلك النقود الفارسية . فماذا فى ذلك ؟ أوكان الواحد ينضوى ردحا من الزمان تحت لواء جيوشهم (كما فعل زينوفون) مؤملا أن يسعده الحظ باصطياد أسير غنى ، وتدخلت فى الشئون المصرية أثينا فناصرت مصر ، وأشبت نار حروب قليلة الأهمية ضد فارس ، ولكن لم تكن هناك فكرة تدعو إلى سياسة موحدة أو تهدف إلى مستقبل مشترك لبلاد الإغريق حتى أخذ صوت يصيح فى أثينا آخر الأمر قائلا : « مقدونيا » وأن يجلب إجلاب الكلاب قائلا : « مقدونيا » . وكان هذا صوت الخطيب والديماجوج ديموستنيس ، وهو يقذف بالتحذيرات والتهديدات ، وينهال بالتهم على فيليب ملك مقدونيا ، الذى تعلم سياسته لا من أفلاطون وأرسطو فحسب ، بل من إزوقراط وزينوفون كذلك ، ومن بابل وسوسا ، والذى كان يعد أهبته فى هدوء ومقدرة وثبات للسيطرة على كل بلاد الإغريق ، وليستطيع بوساطة الإغريق أن يغزو العالم المعروف .

وثمت أمر آخر ضيق الخناق على العقل الإغريقى وهو نظام الرق المنزلى . إذ كان الاسترقاق أمراً مسلما به متغلغلا فى الحياة الإغريقية .

فلم يكن الناس يستطيعون أن يفكروا فى الراحة أو فى الكرامة والمهابة من غير وجود الاسترقاق . على أن الرق يحجب عطف الإنسان ، لاعن طبقة من إخوانه فى الوطن وحسب ، بل يضع صاحب الرقيق فى طبقة وفى نظام يمادى كل أجنبى ، وذلك لشعور الفرد بأنه من قبيلة مختارة . فأما أفلاطون فإنه وقد حمله ذهنه الصافى وسلامة روحه النبيلة إلى ماوراء أمور حاضره ، فكان يرغب فى إلغاء الاسترقاق . وكان الشىء الكثير من شعور الرأى العام وألوان الكوميديا الجديدةمعاديا للرق ، وكان الرواقيون والأبيقوريون ، وجلهم من العبدان يتهمون الرق بأنه نظام غير طبيعى ، على أنهم لما أن وجدوه من القوة بحيث لا يستطيعون القضاء عليه ، قالوا إنه لا يؤثر فى الروح وأن فى الإمكان تجاهله ، وأن العاقل لا يفرق بين من هو مقيد ومن هو حر . فأما الواقعى أرسطو ومعظم الرجال العمليين فيما يرجح ، فكانوا يرون إلغاءه أمراً لا يمكن تصوره . ولذا صرحوا بأن من الناس من هو « عبد بالفطرة » .

وأخيراً كان يعوق الفكر الإغريقى افتقاره إلى المعرفة ، افتقاراً لا نكاد نتصوره اليوم . إذ لم يكن لديهم أية معرفة البتة بماضى الإنسانية وهم قوم كان كل ما لديهم فى أحسن أحوالهم بضع تخمينات تنم عن فكر صائب ولم تكن معرفتهم بالجغرافيا تتعدى دائرة حوض البحر المتوسط وحدود فارس . ونحن ندرى اليوم ما كان يجرى فى سوسا ، وپرسيبوليس ، وبابل ، وممفيس أيام بركليس أكثر بكثير مما كان يعرفه الإغريقى نفسه . وكانت فكراتهم الفلكية ما تزال فى حالة تأملات بدائية . ولقد كان أناجزاجوراس عظيم الجرأة حين زعم أن الشمس والقمر كرتان هائلتان ، يبلغ من ضخامتهما أن الشمس كانت فيما يرجح « قدر البيلوبونيز[1] بأجمعها حجما» وكانت فكراتهم فى الفوزيقا والكيمياء نتيجة للتأمل العميق. ومن عجب أنهم قد حزروا فعلا مسألة التركيب الذرّى .

ولا بدّ للإنسان أن يتذكر إعوازهم الشديد فى الأجهزة التجريبية . وقد لونوا الزجاج للزينة ، ولكنه ليس بالزجاج الصافى . وليس لديهم وسيلة دقيقة لقياس فترات الزمن الصغرى ، ولا أى ترقيم عددى يتسم بالكفاية الحقة ، ولا أى مقاييس شديدة الضبط ، ولا أى مبادىء أولية للتلسكوب أو الميكروسكوب . فلو دفع عالم عصرى إلى أثينا فى زمن بركليس لوجد أقصى الصعوبة فى شرح عناصر علمه ، مهما عمد إلى التبسيط على الرجال الذين

(١) البيلوبونيز : هى شبه الجزيرة اليونانية المكونة من عدة أشباه جزائر تتخللها الخلجان (والمسماة فى التاريخ الحديث باسم شبه جزيرة المورة) وتنسب إليها تلك الحرب الطاحنة التى نشبت ٤٣١ — ٤٠٤ ق م . بين إسبرطة وأثينا وانتهت بتدمير الأخيرة .

يلتقى بهم هناك . فيضطره الحال إذن أن يعد أبسط الأجهزة فى ظروف غير ملائمة تماماً ، على حين يتصدى سقراط لتبيان سخافة البحث عن « الحقيقة » بقطع من الخشب والخيط والمعدن أمثال تلك التى يستعملها الصغار فى صيد السمك . ويظهر الفيلسوف نحو الصانع ترفعاً أبعد الأول من أن تصل يده إلى أى جهاز . وما كان أى سيد إغريقى ليقبل أن يدقدق فى الزجاج أو المعدن . وأستاذ العلوم المصرى المذكور لا بد أيضاً أن يكون فى خطر مستمر من تقديمه إلى المحاكمة بتهمة الزندقة والإلحاد . فلم تكن ديموقراطية أثينا لتتسامح مع « دارون » إلا بالقدر الضئيل الذى تسامحت به معه ديموقراطية مقاطعة تنسى Tennessee (بالولايات المتحدة) .

ويستشرف العالم فى العصر الحديث على تجمعات هائلة نسبياً من المعرفة بالحقيقة . فأما فى أيام بركليس فلم يكد الحجر الأول من صرحنا العلمى الهائل نسبياً — ذلك الصرح المشيد من مواد مسجلة ومثبتة بالبرهان — لم يكد يوضع فى مكانه بعد . فإذا تأملنا هذا الفارق ، لم يعد عجيباً لدينا أن الإغريق مع كل ميلهم للنظر السياسى ، كانوا صماً وعمياناً عن تقلقل مدنيتهم وعدم أمنتها من الخارج والداخل ، وعن ضرورة توحيدها توحيداً فعالا ، وعن اندفاع الحوادث السريع الذى كان مقدراً له أن يأتى إبان عصور طويلة على هذه الحريات الأولى التى نعم بها العقل الإنسانى فترة قصيرة الأمد .

وليست قيمة هذه الجماعة من متحدثى الإغريق وكتابهم فى النتائج التى حصلوا عليها ، ولكن فى المحاولات التى قاموا بها . وليس فضلهم فى أنهم أجابوا عن الأسئلة ، بل فى أنهم اجترأوا على سؤالها . إذ لم يحدث قط من قبل ، أن تحدى الإنسان عالمه وأسلوب معيشته التى أوجده فيها مولده . ولم يحدث من قبل قط أنه قال إنه يستطيع أن يغير الظروف المحيطة به ، لأن التقاليد والضرورة كما تبدو له — ربطته بالحياة كما وجدها مترعرعة متمركزة فى قبيلته منذ أزمان سحيقة فى القدم . ولقد كان حتى ذلك الحين يتقبل العالم كما لا يزال الأطفال يتقبلون المنازل والعادات التى ينشأون عليها .

ومن ثم تبينت لنا بغاية الوضوح فى القرنين الخامس والرابع ق . م فى أرض اليهودية (جوديا) وفى أثينا — وإن لم يقتصر الأمر على هذين المركزين بأى حال — بدايات لعملية خلقية فى الجنس البشرى ، قوامها الالتجاء إلى البر والصلاح والالتجاء إلى الصدق والحق يصدران عن الشهوات والارتباكات وعن دوافع الظهور المباشر للوجود . وكأنى بذلك ضربا من بزوغ فجر الشعور بالمسئولية فى صدر أحد الشبان ، حين يكتشف فجأة أن الحياة لا هى باليسيرة

ولا هي بالخلو من الغايات . فالجنس البشري في تقدم مستمر . وظلت خيوط بقية التاريخ على مر عشرين وثلاثة من القرون تنتسج وتتصل بانتشار تلك الفكرات الأساسية القائدة ووضعها في القالب الأوضح بياناً والأشد تأثيراً . أخذ الناس على مهل يفهمون شيئاً فشيئاً حقيقة الأخوة الإنسانية ، وعدم لزوم الحرب والقساوات والاضطهادات ، ويفهمون ما يكمن وراء الهدف المشترك من احتمالات ، لكل جنسنا البشري المشترك . وإنك لتشهد في كل جيل جاء بعد ذلك ما يدل على وجود رجال يطلبون ذلك النظام الأفضل الذي يشعرون أنه لا بد لعالمنا من الوصول إليه .

على أنك لو تأملت الناس في كل مكان وحيثما تملكت الأفكار الإنشائية العظيمة زمام أي إنسان ، رأيت المطامع الحادة والحسد والريبة والشبهات والجزع التي تفيض بها طبيعة كل فرد منا — في نضال وكفاح ضد ما يجيش في صدورنا من السعي إلى تحقيق غايات وأهداف أكبر وأوسع مدى . وكأن القرون الثلاثة والعشرين الأخيرة من التاريخ ، مجهود فرد خالد متعجل يروم استباق الحوادث ويريد أن يفكر تفكيراً صافياً ويعيش عيشاً صالحا . ويعقب الزلل الزلل ، وتنتهي البدايات المبشرة بالخير ، بخيبات شوهاء تدعو إلى السخرية ، بينما ينابيع ماء الحياة يسممها السكوب الذي يحملها إلى شفاه الجنس البشري المتلهفة عطشاً . بيد أن أمل الرجال لا يلبث أن ينتعش ثانية آخر الأمر إثر كل كارثة ملمة .

٧ — أول أدب خالد عظيم

سبق أن نوهنا في هذه « المعالم » إلى أن تطور الأدب كان لا بد له من انتظار تطور طريقة للكتابة تبلغ من المرونة حداً يؤهلها لنقل أوضاع العبارات ومعانيها وجمال الأصوات . وما كان الأدب المكتوب ليستطيع قبل هذا الزمان أن ينقل غير المعاني . فإن الشعوب الآرية الأولى ، كان لها كما أسلفنا ، أدب شعري موزون محفوظ في الصدور قبل أن عرفت الكتابة . فكانت لهم أغنيات المنشدين والشعراء المتجولين وأقاصيصهم وتواريخهم ونواميسهم الأخلاقية ، تحفظها طبقة اجتماعية خاصة ، هي الشعراء ، ولم تصبح هذه المقتنيات التقليدية ثابتة حتى دونت في أثبات . ويبدو أن الملحمتين الإغريقيتين الرئيسيتين وهما « الإلياذة والأوذيسيا » دونتا في ثبت مكتوب حوالي سنة ٧٠٠ ق . م ، وكلتاهما مكتوبة باللغة الإغريقية ذات اللهجة الأيونية . ويقال إن « بيزستراتوس » هو الذي بدأ في جمع القصائد الهومرية . وكان لنصوص هذه الملاحم روايات متنوعة كثيرة ، ولم يستقر النص

وإطنابات « للإلياذة والأوذيسيا » . هذا إلى قصص مغامرات منفصلة ، كادت اليوم أن تبيد بيداً كاملا . وكان الإغريق عامة مجمعين على أن « الإلياذة والأوذيسيا » من عمل شاعر واحد هو « هوميروس » وهو رجل تقول الروايات إنه ولد فى سبع مدن مختلفة ، وفى تواريخ مختلفة تتراوح بين ١١٠٠ ، ٨٠٠ ق . م ولا يجمع التواتر إلا على حقيقة واحدة فقط ، وتلك هى أنه كان ضريراً . وكانت هاتان الملحمتان تنزلان من قلوب الإغريق منزلة الحب والاحترام إلى حد أنه لم يحدث حتى القرن الثانى ق . م ، أن واحداً من الإغريق لاحظ الحقيقة الظاهرة ، حتى فى الترجمة ، وهى أن هذين المؤلفين العظيمين مختلفان تماما فى الروح ، والأسلوب والكيف ، اختلاف صوت البوق عن صوت الناى . ولكن لما كان من المقبول لديهم عقلا أن يولد هوميروس على مثل هذا المجال المتباعد وعثل هذا المدى الزمنى المديد ، فليس فى امتلاكه لعقلين وصوتين فى وقت معا ما يزيد ماله من تفرد بالعجائب والمعجزات إلا قليلا . هذه مباحث تخص دارس الأدب القديم . ودارس الأدب القديم وحده هو الذى يستطيع أن يقدر هذه المؤلفات حق قدرها . وهو يؤكد لنا أن لها من الروعة والجمال والحكمة وحسن النغم والإيقاع مالا تستطيع أن تنقله إلينا أية ترجمة . وما من ترجمة تنقل شيئا يبرر نشوة العلماء وطربهم لهذه الدرر النفيسة البدائية فى الأدب الأوربى ، فإن ضربا معينا من الإملال يتسرب إلى عمل كل مترجم كما يتسلل إليه ضرب معين من الشعور بالروح الصبيانية . بل إن الألحان الإغريقية الرائعة البهجة لتبدو للأذن حين يرتلها عشاقها المتحمسون لها على غير المثقفين من المتشككين المرتابين سقيمة الجرس نابية النغم تذكرنا بتلك الأصوات الكريهة التى تصدر عن أجهزة للماء الساخن غير المحكمة التركيب . ومع كل هذا فإن هذه الملاحم تحوى الشىء الكثير من الجمال واللذة ، وهى مشوبة بشىء لذيذ من الروح الصبيانية ، وفيها لمحات بارقة بأشد المشاعر حدة ، وأشد اللاحظات نصوعا وإشراقا . ومن الأسف أن السرف المضحك الذى يلازم المعجبين من علماء القديم المأثور الذين يتحدثون عنها بأنها شىء سام لا يدانى وما إلى ذلك من قول ، قد جلب عليها إهمال القارىء العادى الذى أرهبه الفزع منها .

وإلى جوار اسم هوميروس يذكر التاريخ اسم هسيود . وكان هسيود على الأرجح شخصا حقيقياً . وتاريخ ميلاده معروف فى مدى قرنين هما القرن التاسع والسابع ق . م . وملحماته وهى « الأعمال والأيام والبحث فى منشأ الآلهة » تخلد واحدة منها الشىء الكثير من حياة وأعمال الفلاح البوءوشى (Boeotian) ، وتبقى لنا الأخرى ما تواتر بينهم من أخبار يتناقلونها عن أصول آلهة الإغريق وعلاقاتهم بعضهم ببعض .

وكان شعر الملاحم فى بلاد الإغريق أساس كل شعر آخر ، وانقضت قرون عدة لم يكن القوم يعنون إلا بهذا الشعر . فهو إذن الشعر الآرى الأصلى . ثم ظهرت نماذج أخرى بأعيانها . فكان هناك شعر المراثى وهو لطيف رقيق ، ويغنَّى إلى موسيقى الناى الليدى ، والشعر الغنائى وهو يغنى إلى اللير (القيثار ذى السبعة الأوتار) . ومن المستحيل التوسع فى هذه الأشكال والنماذج ها هنا . ومن العبث أيضاً أن نسرد لك أسماء الشعراء دون بعض الإشارة إلى طبيعة أشعارهم وكنهها . ولا يمكن أن يكون لاسمَىْ بندار (Pindar) وسيمونيدس (Simonides) معنى إلا عند أولئك الذين يستطيعون أن يخصصوا قدراً كافياً من وقتهم إلى ما يزال فى متناول الأيدى من مؤلفاتهما . وربما جاز لنا أن نذكر الآن أن من بين أعظم شعراء الحب الأولين ببلاد الإغريق امرأة هى سافو (Sappho) من أهل لسبوس (Lesbos).

وقد ابتدأت المسرحية المكتوبة مثلما ابتدأ الشعر المكتوب فى العالم الإغريقى . فنشأت المسرحية بوصفها جزءاً من الحفلة الدورية لديونسوس (Dionysus) إله الخمر . وكانت الحفلة فى الأصل أغنية حشدية ترتلها جوقة (Chores) تشيد بأعمال الإله . ثم يتقدم قائد الجوقة وهو (الكوريفيوس) (Corypheus) وينشد وحده وتجيبه الجوقة . ثم أدخل إيسكيلوس (Aeschylus المولود سنة ٥٢٥ ق . م) ممثلا ثانياً ، كان يتقدم عن الجماعة ويجيب الأول . وأخيراً جاء الممثل الثالث على يد سوفوكليس (Sophocles) (المولود فى ٤٩٥ ق . م) . وتطورت المحاورة والتمثيل وأصبحت الجوقة فى المحل الثانى من التمثيل الروائى (الدراما) . وكانت الدراما حتى ذلك الحين تمثل من فوق منصات خشبية . ولكن أخذت دور المسارح تبنى فى القرن السادس . وفى هذا القدر الكفاية فى « معالم تاريخية » كذلك يسجل التاريخ أنه لم يمض قرون من الزمان ، حتى جاءت أعظم أيام (الدراما) الإغريقية ، وأسماء إيسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس (Euripides) (المولود سنة ٤٨٠ ق . م) ، هى الأسماء التى بلغت الذروة بالمأساة الإغريقية ، ولكنها ليست إلا أسماء مجردة هنا ، لا يمكن أن يكون لها أى مغزى عند القارئ الذى لا يبحث عن مؤلفاتهم — إما فى الأصل أو فى الترجمات الشهيرة الموثوق بها — والذى لا يحاول أن يشهد تمثيل مسرحياتهم .

وكان يدارج تطور المأساة وهى الناحية الجدية فى عبادة ديونيسوس شكل للدراما أكثر سخراً وتسلية هو الملهاة (الكوميديا) .

وكانت الملهاة منذ البداية أكثر مرونة من المأساة . وكانت تمسخ المأساة وتهزأ بها فى بعض الأحايين ، ولكنها فى البعض الآخر ، كانت تتحول إلى صور (إسكتشات) صريحة

للأخلاق وللنواحي السلبية من مظاهر الحياة . وقد ابتدع أرسطو فانيس (Aristophanes) فى القرن الخامس ق م خليطاً بهيجاً من الخيال والتهكم السياسي . وكان ميناندر Menander بعد ذلك بمئة سنة ، الأستاذ المبرز فى الكوميديا الأخلاقية . وكانت المأساة الإغريقية شيئاً شكلياً موقوتاً ، وقد تطورت حتى وصلت إلى أقصى ما وصلت إليه فيما يتجاوز القرن بقليل ، على أن الكوميديا لازمة للجماعات البشرية ولا غنى لها عنها . وإنك لتجد التهكم والمحاكاة والكوميديا أنى اجتمع اثنان أو ثلاثة من بنى الإنسان ، منذ أن ابتدأت الجماعات الإنسانية . ولم يحدث أبداً أن وقف بالفعل تيار الكوميديا المكتوبة فى العالم ، منذ أن أمكن تدوين أول محاورة . ولم تبدأ القصة المكتوبة أن تنافس الكوميديا فى منزلتها من قلوب الناس ، إلا مع انتشار فن الكتابة . وكانت هناك فى بلاد الإغريق مجموعات من «القصص الصالحة» وما إليها . على أن تطور فن القصة والرواية (Fiction) بوصفها فناً عظيماً كان ينتظر جمهوراً واسع القراءة وينتظر تكاثر الكتب وانتشارها السريع . ومن سوء الطالع أن العدد الأكبر من كل من صنفى المأساة والكوميديا الإغريقية باد من العالم .

وابتدأ الأدب النثرى لأول عهده على صورة التاريخ والمناقشات الجدية . ولعلك تذكر ما أسلفناه عن هيرودوت وما اقتبسناه من مؤلفه فى أول هذا الكتاب . ولسوف يلحظ القارئ أن « أبا التاريخ » زار أثينا زمن بركليس ، وأنه عندما كان يكتب ، كانت المأساة الأثينية قد جاوزت من قبل أوج ذروتها . ثم تكلم توسيديدس (Thucydides) بعد ذلك التاريخ فروى قصة حرب البيلوپونيز . كذلك أشرنا إلى زينوفون وكتابه الأناباسيس (Anabasis) . وهناك جزء هام آخر من الأدب الإغريقى ما يزال باقياً لنا ، وهو الخطب التى دونت عن الخطباء المفوهين النابهين . وأخيراً يجب أن نلحظ البيانات النثرية الجدية والجدل النثرى الجدى الذى يتجلى فى الأدب العلمى ، كما دونه أرسطو ، وأن نلحظ تحوله إلى حوار مسرحى فنى فى محاورات أفلاطون .

على هذه الشاكلة نلحظ هاهنا باختصار ، أشكال أول أدب عظيم فى العالم . وهذا جل ما نستطيع أن نعمله لنسد به الفراغ الذى فى متناولنا . فمن رغب من قراء الإنجليزية فى المزيد فليطلبه ومعه قدر وفير من الاقتباسات الموصولة به وصلا يدل على المهارة فى كتاب (الإغريق والبرابرة) تأليف ج . ا . ك تومسون J.A.C. Thomson . على أن الطريقة الوحيدة للإحاطة الحقة بأى أدب ، إنما هى فى القراءة الدقيقة لكتب خاصة ومؤلفين معينين .

٨ — الفن الإغريقى

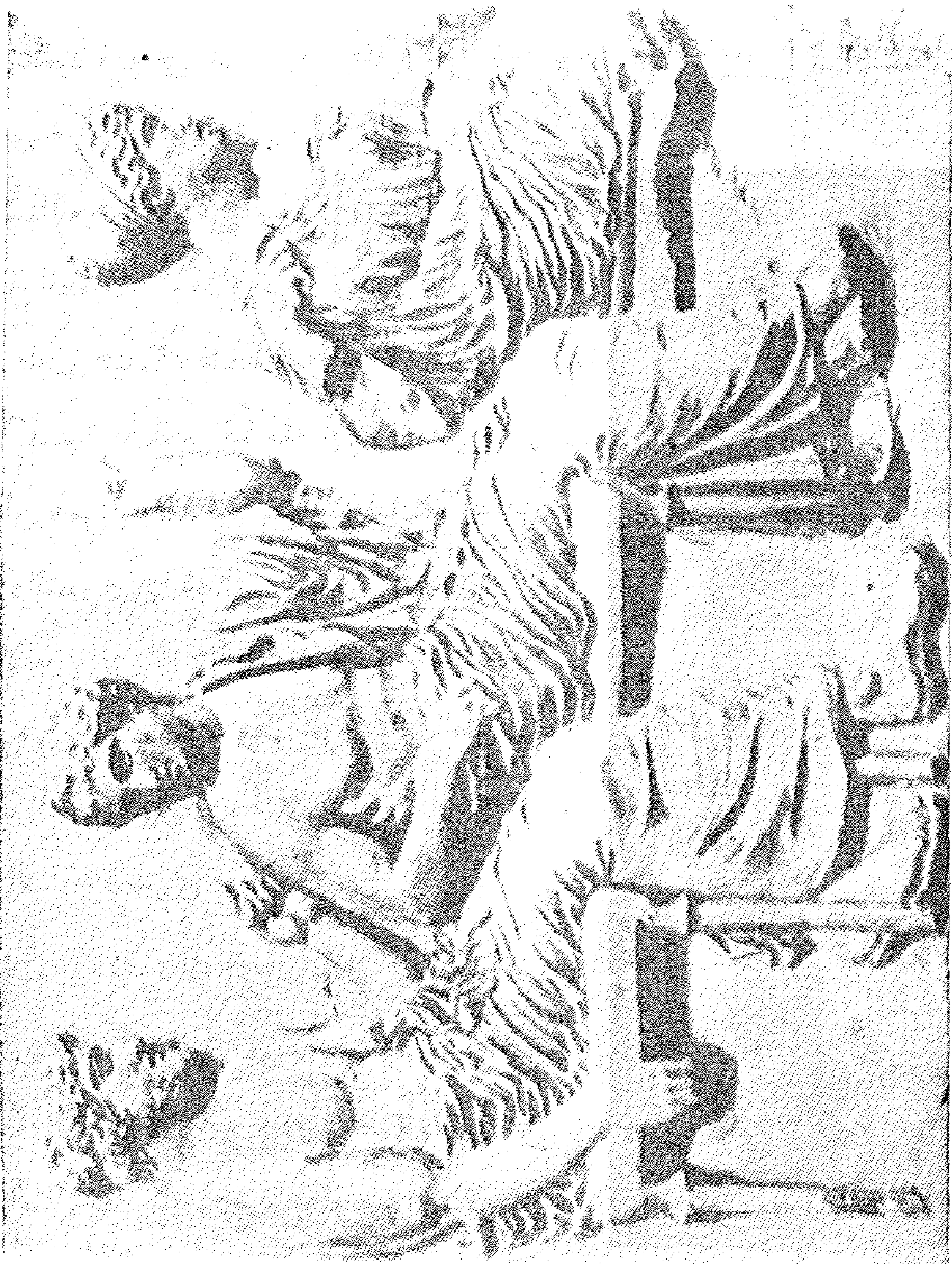
لبث العالم الحديث بين عصر النهضة ونهاية القرن التاسع عشر أى قبل اكتشاف فن الشعوب الإيجية السابق على الفن الإغريقى ، وقبل المعرفة بالإنتاج الفنى الهائل لدى الإمبراطوريات الأولى — يولى فن التشكيل[1] الإغريقى تقديراً لا يتناسب وما أنتجه ذلك الفن . فكان يرتسم وحده فى أخيلة الناس ، كأنما هو شيء قفز إلى الوجود من العدم ، وكأنما كان كل ما جاء قبله قبيحا مرذولا ، وكل شيء جاء بعده سوقيا وضيعا . ولكم ولّد ذلك الفن فى عقول المثقفين طربا ، علأنا اليوم بالعجب أكثر مما يشيع فى أنفسنا العطف .

وإنا لنعرف الآن أنه بينما تدل مبتكرات الإغريق الأدبية والفكرية على بداية مظهر جديد مميز من مظاهر الخبرة الإنسانية ، فإن فن النحت الإغريقى لا يخرج عن كونه حلقة فى تطور المدنيات التى مضت قبله . ذلك أن صوغ الذهب والجوهر والأختام والدمى الصغيرة والزهريات وما إليها مما صنعه الإغريق فى هذا العصر المجيد تضارع — وإن لم تتفوق على تلك التى صنعها السكان الإيجيون السابقون ، ولا على تلك الخاصة بالأسرة الثامنة عشرة فى مصر . وإن فى فهم المعارى لرشاقة وإتقاناً خاصين به . والظاهرة الغالبة فيه هى مجاميع الأعمدة (Colonade) فى شكلها الوقور النبيل بأكاليلها (Capital) الدُّورى الضخم (Doric) أو منظرها الرشيق بأكاليلها الأيونى (Ionic) أو هيئتها الزهرية بأكاليلها الكورنثى (corinthian) وأصبح العمود الكورنثى بشعبه وتفريعاته فى الأزمنة الرومانية وحدة عالمية فى فن العمارة وهى وحدة كانت ولا تزال تنبت فى ذلك الفن كالعشب الطفيلى حيثما وجدت فروع البنوك أو الفنادق الفاخرة .

ومهما يكن من شيء فإن فن النحت الإغريقى ينفرد بتمثيل كل ما يمتاز به ذلك العصر من إبداع . كان متقيدا يأخذ نفسه بالشكليات فى بادئ الأمر ، ثم وصل فيما بين عهدى بيزستراتوس وبركليس إلى حالة من الحرية والمطابقة للطبيعة لم يسبق لهما مثيل . وفى أيام إخناتون ، اتخذ النحت المصرى اتجاهاً فجائيا نحو اليسر والمطابقة للواقع ، ولكن الناس لم يبلغوا فى فن النحت قبل ذلك درجة يمكن أن تقارن بما بلغه الفن الإغريقى من حرية انطلق

---

(١) فن التشكيل Plastic Art فن صوغ الأشكال ، يطلق على النحت وما شابهه من فنون تمييزاً لها عن التصوير Painting وما إليه من فنون الرسم .



٧ — آلهة يونانية

فيها سراحه . ويحدثوننا أن معظم النحائت الإغريقية ، كانت مصبوغة بالأصباغ . فذلك الجمال الخاص الأبيض الجاف (الذى ملأته لمسة الموت والكمال نبلا ، والذى يتغلب الآن على حساسيتنا عندما يواجهنا خير ما تبقى من الإنتاج الإغريقى) لم يكن جزءاً من غاية الفنان . وكذلك المعبد فإنه على تخربه ذو سحر رائع يشبه سحر ضياء القمر ، كما أن له إبداعا سماويا غير أرضى ، كان ينقصه ولا ريب إبان شبابه الغض البهيج .



٧٨ — ڤينوس

ولسنا نعرف عن فن الرسم والتصوير الإغريقى إلا القليل الطفيف . وقد ورد ذكر دررهم اليتيمة ، بيد أنها فنيت جميعها . فلسنا نستطيع أن نقضى فيه برأى إلا بسبيل ما نلقاه باقياً منه أيام روما فى عصر الإمبراطورية من تيار للتقاليد الفنية متواصل الانحطاط. والرسم والتصوير فى مدينتى پمپاى (Pompeii) وهركولانيوم (Herculaneum) نقش بهيج ممتع تبدو فيه المهارة ، وهو أقرب إلى الطبيعة والوثوق بالنفس ، إلى درجة لا تسمح بمقارنته إلى أى من الإنتاج المصرى أو البابلى .

وكانت موسيقى ذلك الزمان عاملا ثانويا مساعداً للأغنية ، ولم يكن فيها أى تناسق وانسجام . ويتحدث السير و . ه . هادو (Hadow) عن « قبح أمثال تلك النماذج من الموسيقى الإغريقية التى حفظت وأمكن استجلاء كنهها » .

الفصل الثاني والعشرون

سيرة الإسكندر الأكبر

١ — فيليب المقدونى

ليس البطل الحقيقى فى قصة الإسكندر ، بالإسكندر نفسه قدر ما هو أبوه فيليب . فإن مؤلف التمثيلية لا يتألق فى ضياء المسرح تألق الممثل . ففيليب هو الذى دبر الشىء الكثير من العظمة التى بلغها ابنه ، فهو الذى وضع أسسها وصاغ وسائلها وأدواتها وهو الذى أعد فى الحق العدة للبدء فى الحملة الفارسية قبيل وفاته . ولا ريب فى أن فيليب كان واحداً من أعظم الملوك الذين رآهم العالم أبدا . وكان رجلا على أقصى غايات الذكاء والكفاية ، فأما مجال فكراته فيتجاوز دائرة زمانه تجاوزا بعيدا



٧٩ — فيليب المقدوني

فاتخذ من أرسطو صديقا له . ولا بد أنه تناقش وإياه فى تلك الخطط الرسومة لتنظيم المعرفة الحقة التى قدّر للفيلسوف أن يحققها فيما بعد بوساطة هبات الإسكندر . ويبدو أن فيليب على قدر ما نستطيع أن نجزم ، كان « أمير » أرسطو وسيده . وإليه كان يشخص أرسطو ببصره كما يرفع الرجال بصرهم إلى مقام أولئك الذين يعجبون بهم ويثقون . وإلى فيليب أيضا لجأ إيزوقراط بوصفه القائد العظيم الذى كان عليه أن يوحد الوطن الإغريقى وأن يسمو بالحياة العامة لدى الإغريق بعد إذ شملتها الفوضى .

وتذكر الكثير من الكتب أن فيليب كان رجلا اتصف بالاستخفاف إلى درجة لا يصدقها العقل ، وكان على شهوات لاضابط لها . حقا إنه فى الولائم شأنه شأن كل عصرييه من المقدونيين ، كان يكثر من الشراب ، وكان يغدو فى بعض الأحيان مخمورا ثملا إذ الراجح أن عدم الإكثار من الشراب فى الولائم كان يعد أمرا غير ودى . ولكن لم يقم دليل ثابت على المثالب الأخرى الموجهة إليه ، وليس بين أيدينا دليل عليها إلا قدح خصومه من أمثال دعوستنيس (Demosthenes) ، الديماجوج والخطيب الآثينى ، وهو رجل ذو بيان لا يأبه بالعواقب . وقد يساعدنا اقتباس فقرة أوما إليها على تبيان إلى أى حد كانت غضبة دعوستنيس الوطنية تحمله . فهو ينفس عن نفسه فى إحدى « فيليبياته » — كما تسمى مثالبه لفيليب — على هذا الأسلوب : «وفيليب ، ذلك الرجل الذى لا يقتصر أمره على أنه ليس إغريقيا ، ولا يمت بحال ما بصلة إلى الإغريق ، بل ليس هو حتى همجياً من قطر محترم — كلا ، وإنما هو شخص فاسد من مقدونيا ، ذلك القطر الذى لا نستطيع قط أن نحصل منه حتى على عبد لائق » . إلى غير ذلك من المثالب . ونحن نعرف على وجه الحقيقة الثابتة أن المقدونيين كانوا شعباً آرياً شديد القرابة للإغريق ، وأن فيليب كان فيما يرجح أوسع رجال زمانه علماً . ولكن كانت هذه هى الروح التى كتبت بها القصص المعادية لفيليب .

ولما آل إلى فيليب مُلك مقدونيا (٣٥٩ ق . م .) ، كانت بلاده قطراً صغيراً ليس فيه مرفأ على البحر ولا أية مدينة هامة . وكان سكانها جميعاً من الفلاحين ، وتكاد لغتهم أن تكون إغريقية ، هذا إلى أنهم على أتم استعداد لأن يكونوا إغريقاً فى عواطفهم وميولهم ، ولكنهم خلص فى دمهم النوردى أكثر من أى شعب يقع إلى الجنوب منهم . ولقد حوّل فيليب هذه الدويلة الهمجية الصغيرة إلى دولة عظيمة . وأنشأ أكفأ نظام عسكرى رآه العالم حتى ذلك الحين ، وتمكن قبيل وفاته أن يضم شمل غالب بلاد الإغريق فى عصبة واحدة بقيادته ، على أن قوة تفكيره التى سما بها عن مألوف أفكار زمانه وما اتسم به من صفات خارقة للعادة ، لا تتجلى فى تلك الأمور العظيمة ، قدر ما تتجلى فى العناية التى جعل المربين يدربون بها ولده حتى يواصل من بعده السياسة التى ابتدعها . فهو واحد من أولئك الملوك القليلين فى التاريخ الذين عنوا بخلفهم . وكان الإسكندر — على صورة لم يصل إليها غير عدد قليل من الملوك فى الدهر كله — ملكا قد ربى تربية خاصة تؤهله للإمبراطورية . ولم يكن أرسطو غير واحد من بين كثير من المربين الأكفاء الذين اختارهم أبوه له . وقد استودعه فيليب سياسته وولاه الإمرة والحكم عندما بلغ السادسة عشرة ، فقاد الفرسان فى موقعة كيرونيا

(Chaeronea) تحت بصر أبيه . فهو قد دُرِّب على السلطة تدريباً كريماً لا تشوبه شبهة أو ريبة .

ويتضح لكل من يقرأ تاريخ حياته بعناية ، أن الإسكندر تولى عمله مزودا بعدة من التدريب ومن الأفكار القيمة التى لم يسبق لها نظير . فلما أن تجاوز حكمة تربيته ، أخذ يقع فى الزلل ويظهر ألوانا من سوء السلوك — مع حماقة مروعة فى بعض الأحيان . وتبدت غلبة نقائصه الخلقية على تربيته قبل وفاته بزمن بعيد .

وكان فيليب ملكا من الطراز القديم ، أى ملكا قائداً ، وهو المقدم على نبلائه ذوى الطراز النوردى القديم . وكان الجيش الذى أوجده فى مقدونيا يأتلف من حشد عام من الجند المشاة ، وطبقة نبيلة من الفرسان تسمى « بالرفقاء » . وكان الشعب فلاحين وصيادين ، ألفوا بعض الشىء تناول الشراب ، على أنهم كانوا على استعداد لقبول النظام وتعلم استخدام وسائل القتال الحسنة . ولئن كان القوم على الفطرة وفيهم سذاجة ، فلقد عُرفت الحكومة بالفطنة واليقظة . وظلت لغة البلاط عدة أجيال هى الإغريقية ذات اللهجة الأتيكية (أى الأثينية) . وبلغ من حضارة البلاط أن يؤوى ويرحب بشخصيات عظيمة من أمثال يوريبيدس الذى مات هناك (٤٠٦ ق . م) ، وزيوكسيس (Zeuxis) الفنان . وفضلا عن ذلك فإن فيليب قبل ارتقائه العرش ، أقام بضع سنين رهينة فى بلاد الإغريق . وكان قد نال من التربية والتعليم خير ما يمكن أن تقدمه إليه بلاد الإغريق فى ذلك الزمان ، فكان لذلك ملما كل الإلمام بما نستطيع أن نسميه فكرة إيزوقراط — وهى فكرة إنشاء اتحاد عظيم للدول الإغريقية فى أوربا للتسلط على العالم الشرقى . وكان يعرف أيضا مبلغ عجز الديموقراطية الأثينية بسبب دستورها وتقاليدها ، عن انتهاز الفرصة الماثلة بين يديها . إذ أنها كانت فرصة لا بد من مشاركتهم فيها ، فإن مغزاها لدى الأثينيين أو الإسبرطيين هو السماح لعدد جم من الأجانب بالتمتع بمزايا المادنة (أعنى الحرية المدنية) . وإن فى هذا لتحقيراً لأنفسهم وإنزالهم إلى حد المساواة والزمالة مع المقدونيين — « وهم شعب لا تحصل منه حتى على عبد لائق » .

ولم تكن هناك أية وسيلة للحصول على إجماع الإغريق على ذلك المشروع الذى يزمع عمله ، إلا بوساطة بعض الأعمال السياسية الثورية . ولم يكن حب السلام هو الذى يمنع الإغريق عن مثل هذه المغامرة ، بل هو تفرقهم وانقسامهم السياسى . وكانت موارد الدول

العديدة مستنفدة فى سلسلة من الحروب الطاحنة فيما بينها ، وهى حروب طالما نشبت لأتفه الأسباب ، وزادت الخطب الرنانة فى تلهب أوارها . مثال ذلك أن حراثة الفوكيين Phocians لبعض الأرض المقدسة بالقرب من دِلْفِى ، كانت ذريعة انتحلت لإشباب نار حرب دموية مقدسة .

(٨٠)

وكرس فيليب سنى حكمه الأولى لتنظيم جيشه ، وكان قتال كتلة الجيش حتى ذلك الحين يقوم بمعظمه المشاة وهم منتظمون فى تشكيلاتهم . وإنا لنرى فى المعارك السومرية السحيقة القدم ، حاملى الرماح فى نظام متراص مكونين كتلة الجيش الرئيسى على نحو ما كان المشاة يعملون فى جيوش الزولو فى القرن التاسع عشر . وكانت الجيوش الإغريقية فى زمان فيليب ، لا تزال تحارب على نفس ذلك الأسلوب . وكان الفيلق الطيبى كتلة من المشاة حاملى الرماح تطعن الصفوف الخلفية منها العدو برماح أطول ، مرسلين إياها من بين رجال الصف

الأول ، وكانت مثـل هذه التشكيلة تستطيع أن تخترق كل ما يعترضها من جيش قد يكون أقل منها تنظيما . وكان الركبان من الناشبة (حاملى القسى) يستطيعون طبعا أن ينزلوا خسائر جسيمة بمثل هاته الـكتلة من الرجال ، فلما أن استخدم الحصان فى الحرب ظهر الراكبة على كلا الجانبين بوصفهم عاملا ثانويا مساعداً لهذا الجيش الرئيسى .

ويجدر بالقارئ أن يتذكر أن الحصان لم يستخدم بطريقة فعالة تماما فى الحرب الغربيـة حتى قيام الآشوريين ، ولم يتجاوز استخدامه فى مبدأ الأمر مسألة جر مركبة ليس غير ، وكانت المركبة تطمن بنفسها وبكل قوتها كتلة المشاة محاولة تحطيمها وكان التوفيق حليف المركبات ما لم يكن نظام كتلة المشاة قويا متينا . والقتال الذى يصفه شعر هوميروس قتال مركبات . ولا يبـدأ ظهور الفرسان كقوة متميزة عن جنود المركبات وقائمة بدور خاص فى خوض المعارك والحروب إلا فى ألف السنة السابقة على الميلاد . ويبدو أنهم كانوا يقاتلون فى مبدأ الأمر متناثرين ، إذ يبـلى كل رجل بمفرده أحسن ما يستطيع من بلاء . هكذا حارب الليديون قورش ، ولـكن فيليب هو الذى يلوح أنه كان أول من استحدث هجوم الفرسان فأمر (رفقاؤه) أن يدربوا فيلقه على الهجوم حاشـدين . كذلك قـوّى فيلقه بتزويد الرجال الخلفيين برماح أطول مما كان بأيديهم حتى آنذاك ، وبذلك زاد فى عدد صـفوف فيلقه ولم يكن الفيلق المقدونى إلا مجرد صـورة للفيلق الطيبى أقوى تماسكا وأشد ترادفا . وإن واحدة من تشكيلات المشاة المحشودة هذه ، لم تـكن مرنة مرونة تجعلها تصمد أمام هجـوم من الجناح أو الخلف ، فإن قوتها على المداورة طفيفة جـداً . ومن ثم كانت انتصارات فيليب وابنـه ثمرة اتباعهما خطة عامة من التعاون بين هذين السلاحين فى شىء من التغيير ، فيتقدم الفيلق فى الوسط ، ويشتبك مع جيش العدو الرئيسى .

وكانت هجمات الراكبة على أحد الجناحين أو الآخر تجرف أمامها راكبة الأعـداء ، فتنقض ثم تدور على جناح فيلق العـدو ومؤخرته ، بينما يـكون الفيلق المقدونى قد أنزل من قبل الضربات على مقدميه . وعند ذلك تتحطم قوى جنـد العدو الرئيسية وتعمل فيها السيوف عملها . ولمـا ازدادت خبرة الإسـكندر العسكرية ، أضاف كذلك استعمال المجانيق فى الميدان ، وهى أداة كبيرة تقذف بالأحجار لـكسر مشاة العدو . وكانت المجـانيق قبـل زمانه تستعمل فى الحصار ولـكنها لم تستعمل فى المعارك أبداً . وهو أول من استحدث عملية « التمهيد بالمدفعية » .

ولما أن تدرب جيش فيليب على القتال شرع فى استخدامه ، فاتجه بنظره بادى بدء إلى مقدونيا الشمالية . فأنفذ الحملات العسكرية إلى إلّيريا (Illyria) وإلى الدانوب ومدّ سلطانه أيضاً على طول الشاطئ حتى الهلسبونت وضمن امتلاكه لبناء أمفيبوليس Amphipolis ولبعض مناجم الذهب المجاورة لها . وبعد أن قام بحملات عديدة فى تراقيا ، أخذ يوجه اهتمامه الجدى نحو الجنوب . فانضم إلى الحلف (: الأمفكتيونى) الدلفى ضد أولئك الفوكيين الذين انتهكوا حرمة معبد دلفى وبذلك أصبح راعى الديانة الهللينية .

ويجدر بنا أن نتذكر أن فريقاً قوياً من الإغريق كان ينادى بالكتلة الهللينية التى تلم شمل الجميع ، مؤيداً زعامة فيليب للإغريق . وكان رأس كتاب هذه الحركة الداعية للكتلة الهللينية الشاملة هو إيزوقراطيس ، وكانت أثينا من الناحية الأخرى ، على رأس جبهة المعارضة لفيليب وشيعته ، وكانت تربطها بفارس صلات المودة الصريحة ، حتى لقد أرسلت البعوث إلى « الملك العظيم » تحذره الخطر المحدق به من اتحاد بلاد الإغريق . وليس لنا فى هذا المجال الضيق من سبيل إلى سرد قصة الغدوات والروحات التى دامت زهاء اثنتى عشرة سنة وفى ٣٣٨ ق م وصل النزاع بين دعاة الانقسام ودعاة الكتلة الهللينية إلى نتيجة حاسمة يوم أوقع فيليب بأثينا وحلفائها هزيمة منكرة بمعركة كيرونيا ثم عقد مع أثينا صلحاً منحها به شروطاً سخية سخاء يبعث على الدهشة . فأظهر نفسه بمظهر العازم عزماً أكيداً على إرضاء تلك المدينة التليدة . وفى ٣٣٨ ق م اعترف به مؤتمر من الدول الإغريقية ، قائداً عاماً فى الحرب ضد فارس .

وكان عند ذلك قد بلغ السابعة والأربعين . وكأنما كان العالم مطروحاً بين قدميه . إذ جعل مملكته الصغيرة الدولة المتزعمة فى اتحاد مقدونى إغريقى شامل وطيد وقدر لهذا التوحيد أن يكون مقدمة لتوحيد آخر أعظم منه ، هو توحيد العالم الغربى والإمبراطورية الفارسية فى دولة عالمية واحدة تضم كل الشعوب المعروفة . فمن ذا يستطيع أن يرتاب فى أن هذا الحلم كان يخالج فؤاده ؟ وكتابات إيزوقراطيس تفهمنا بأنه كان يملأ جوانب نفسه . ومن ذا يستطيع أن ينكر أنه ربما تمكن من تحقيقه ؟ وقد كان يخالجه أمل معقول فى أن تتاح له فسحة من الأجل لعلها تبلغ ربع قرن أخرى من الزمن المليء بالنشاط . وفى ٣٣٦ ق م عبرت جنوده الأمامية إلى آسيا .

على أنه لم يلحق بها لا هو ولا كتلة قواته الرئيسية . إذ أنه قتل غيلة .

٢ — مقتل الملك فيليب

من الضرورى الآن أن نذكر طرفاً من حياة الملك فيليب المنزلية . فإن حياة كل من فيليب وابنه ، كانت تخالطها شخصية امرأة شريرة قلقة لا يستقر لها قرار هى أوليمپياس Olympias ، أم الإسكندر .

كانت إبنة ملك إيپروس Epirus وهى قطر إلى الغرب من مقدونيا ، وهى كمقدونيا أرض شبه إغريقية . إلتقت بفيليب أو لعلها قذفت فى طريقه فى أحد الاجتماعات الدينية فى سامو تراقيا Samothrace . ويصرح بلوتارك بأن هذا الزواج كان يقوم على الحب المتبادل ويبدو أن هذه على الأقل إحدى المآخذ على فيليب ، وهى أنه شأن الكثيرين من الرجال ذوى النشاط الجم والخيال الرحب كان ميالا إلى هوائج الحب الجامح . تزوجها بعد أن اعتلى العرش ، وولد له الإسكندر بعد ذلك بثلاث سنوات .

ولم يمض طويل زمن حتى دب الخلاف بين فيليب وأوليمپياس عنيفاً مريراً . فإنها كانت تغار منه ، ولكن كان هناك مصدر ثان للمتاعب أشد خطورة من هذا ، يتجلى فى ميلها الشديد للأسرار الدينية ذات الطقوس الخفية . ولقد بينا من قبل أنه من دون ديانة الإغريق النوردية الممتازة ذات النطاق المحدود ، كانت البلاد غاصة بنحل وعبادات من نوع أقدم وأكثر قدماً ، وهى عقائد أصيلة فى البلاد لها أسرار ومراسم يلقنها من يمارسها ولها حفلات تهتكية خليعة وكثيراً ما تصحبها طقوس قاسية فاحشة . فعقائد الأشباح هذه ، وما كان يمارسه النساء والفلاحون والعبيد من أمور ، هى المصدر الذى تستقى منه بلاد الإغريق معتقداتها الأورفية[١] Orphic والديونيسية[٢] Dionysian والديمترية[٣] Demeter . وهى قد كنت

---

(١) أورفيوس : شخصية خرافية لشاعر قبل هوميروس عاش فى تراقيا وصحب الأرجونوتس وهم البحارة الأبطال الذين أبحروا للبحث عن الجزة الذهبية (راجع المجلد الأول) . وهبه أپولو قيثارة وعلمته آلهة الفن التاسوعية Muses كيف يلعب عليها وسحرت لسماعه الحيوانات والأشجار والصخور وكانت تتحرك من أماكنها لتستمع إلى قيثارته الذهبية .

(٢) ديونيسوس : إله شاب بهى الطلعة متخنث ، كان يعتبر إله الخمر ويسمى أيضاً باكوس وهو ابن زيوس . وينسب إلى هذا الإله أنه هو الذى علم الإنسان صناعة النبيذ ؛ والخمر هى رمز فتوته .

(٣) ديمتير : هى إحدى الربات العظيمة عند الإغريق وهى حامية الزراعة وما تخرجه الأرض من ثمار . ويقال إن مخترع المحراث ومن عرف القمح المبذور هو من أحب الناس إليها . وهى ابنة أخت زيوس .

فى ثنايا تقاليد أوربا حتى ما يدانى أزماننا هذه . وما تبدو أعمال السحر فى القرون الوسطى وما بها من لجوء إلى دم الأطفال وإلى أجزاء من أجسام المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام والرقى والدوائر السحرية إلا المظاهر المتخلفة عن تلك الاحتفالات الدينية لدى البيض الداكنين . وكانت أوليمبياس حاذقة فى هذه الأمور ، خبيرة بها ومتحمسة لها ، ويذكر بلوتارك أنها حازت شهرة واسعة باستخدام الثعابين المستأنسة فى هذه الممارسات الورعة ! ! ! وكانت الحيات تجتاح جناحها المنزلى ، ولم يوضح لنا التاريخ هل كان فيليب يجد فيها مادة تثير سخطه أو تبعث فيه الرهبة الدينية ؟!!!... ولا بد أن قد كانت أعمال زوجة فيليب هذه مصدر مضايقة خطيرة له ، لأن الشعب المقدونى ، كان لا يزال فى تلك المرحلة الحاسمة من مراحل التطور الاجتماعى التى لا يستحب فيها التحمس فى الورع والتدين ولا الزوجات العسيرات القياد .



(٨١)
مقاتل مقدونى فى عهد فيليب
(عن صورة محفورة من بلا)

وإن الدلائل على وجود عداوة مريرة بين الوالدة والوالد ، لتبدو لنا من خلال الكثير من الأشياء الصغيرة فى كتب التاريخ . وواضح أنها كانت تغار من فتوح فيليب . إذ كانت تكره له ذيوع الصيت . وهناك من الشواهد كثير على أن أوليمبياس كانت تبذل قصارى جهدها لتنفر ابنها من أبيه وتضمه إلى جانبها ضماً كاملا . وروى لنا كتاب (السير لبلوتارك) قصة يقول بأنه كلما وردت الأنباء بانتصار لفيليب ، مثل فتح مدينة أو الفوز فى بعض المعارك الكبيرة ، لم يكن يبدو على الإسكندر قط الفرح العظيم لسماعها ، بل كان على العكس يقول للداته وأترابه « سيحصل أبى على كل شىء مقدماً يا صبيان . ولن يترك أى عمل عظيم أشرككم معى فيه » .

وليس أمراً طبيعياً أن يحسد ولد أباه على هذه الشاكلة دون بعض الإيحاء . وكأنى بهذه العبارة ترن فى الأذن رنين الصدى المردد .

ولقد أوضحنا من قبل كيف كان تدبير فيليب مسألة تولية الإسكندر من بعده أمراً بيّناً جلياً للعيان ، وإلى أى حد كان توّاقا إلى جلب الشهرة والسلطان إلى يد الغلام . فكان الأب دائب التفكير فى البناء السياسى الذى يعمل على تشييده — ولكن الأم كانت تفكر فيما تصيبه تلك السيدة العجيبة أوليمبياس من مجد وكبرياء . ولكنها أخفت كرهها لزوجها

وأحاطته بستار من قلق الأم على مستقبل ابنها . ولما تزوج فيليب ٣٣٧ ق م ، على عادة الملوك فى تلك الأيام ، زوجة ثانية مقدونية الأصل إسمها كليوبتره «وكان يحبها حباً شديداً» أحدثت أوليمبياس الشيء الكثير من الشغب .

ويحدثنا بلوتارك عن منظر محزن حدث فى حفل زواج فيليب من كليوبتره . فلقد عاقر القوم الخمر فى الوليمة ما شاءوا ، وإذ كان أتالوس (Attalus) والد العروس قد ثمل من الشراب ، فإنه كشف النقاب عن تلك العداوة التى كان يكنها عامة الناس لأوليمبياس وإبيروس بقوله : « إنه يأمل أن ينتج ذلك الزواج طفلا ، يكون وارثاً للعرش من أصل مقدونى حق . وعندها صاح الإسكندر وكان متوثب النفس ثائر الأعصاب لمثل هذه الإهانة« فما أنا إذاً ؟ » ثم قذف أتالوس بكوبة . ووقف فيليب وقد ثارت ثائرته ، ويقول بلوتارك إنه جرد سيفه ولكنه عثر ووقع . وقام الإسكندر وقد أعماه الحنق والحسد فعير أباه وأهانه بقوله : « أيها المقدونيون ، أنظروا ها هنا إلى القائد الذى يريد أن يزحف من أوربا إلى آسيا ، كيف !! ؟ إنه لا يستطيع أن ينتقل من منضدة إلى أخرى ! » .

فكم لا يزال هذا المنظر حيا عالقا بالأذهان ، من ارتماء الملك على الأرض والوجوه المحمرة انفعالا وسكراً ، وصوت الغلام الغاضب ، وفى اليوم التالى رحل الاسكندر مع أمه — ولم يفعل فيليب شيئا لمنعها . وذهبت أوليمبياس إلى وطنها إبيروس — ورحل الاسكندر إلى إلليريا ومن هناك أقنعه فيليب بالعودة .

ثم لم يلبث أن نشب بينهما شغب جديد فقد كان للإسكندر أخ به ضعف فى قواه العقلية اسمه أريدايوس (Aridaeus[1]) رغب حاكم كاريا الفارسى فى أن يتخذه صهراً له . هنالك أخذ أصدقاء « الإسكندر وأمه يغرونه بأبيه ويبثونه الهواجس من جديد ، وإن لم يكن لها ظل من الحقيقة ، مدعين بأن فيليب بتدبيره مثل هاته الزيجة النبيلة ، ومايترتب عليها من المساعدة ، كان يرمى إلى إعطاء التاج إلى أريدايوس ، ومن ثم أرسل الإسكندر وقد أقلقته تلك الشبهات ، شخصا اسمه تسالوس Thessalus وهو — ممثل مسرحى — إلى كاريا ليطلب من عظيمها أن يعرض عن إريدايوس ، غير الشرعى المولد ، والناقص الإدراك ؛ وأن يتخذ وريث التاج الشرعى حليفاً له وصهراً . وبلغ سرور بكسوداروس Pixodarus بهذا المقترح أقصى غايته . ولكن لم يكد فيليب يسمع بالخبر ، حتى ذهب إلى جناح الإسكندر ، مصطحبا معه فيلوتاس Philotas ابن بارمنيون Parmenio وهو

---

(١) يسمى فى كتب التاريخ التى تتناول ذلك العصر فيليب أريدايوس **Philip Aridaeus**

من أشد أصدقائه ورفقائه إخلاصا ، وعنف الإسكندر بمحضر هذا الصديق على انحطاطه ودناءة روحه ، فى تفكيره أن يكون ختنا لرجل من كاريا ، هو أحد عبيد ملك همجى . وكتب فى الوقت نفسه إلى الكورنثيين ، مشدداً عليهم بإرسال ثسالوس إليه مكبلا بالقيود والأغلال . وعمد الملك إلى هاربالوس Harpalus ونيارخوس Niarchus وفريجيوس Phrygius وبطلميوس Ptolemy وهم بعض رفقاء الأمير ، فنفاهم . على أن الإسكندر استدعاهم فيما بعد ، وعاملهم معاملة ملؤها التقدير . »

وهناك شيء مؤثر جداً فى هذه القصة ، قصة الوالد وهو يحاج الولد الذى كان حبه الأبوى له ظاهراً ملحوظا ، وقد حيره نسيج ذلك المقترح الوضيع الذي نسج حول خيال الفتى .

أصيب فيليب بطعنة فى حفل زواج ابنته من خالها ملك إبيروس وشقيق أولمبياس إذ كان يسير فى موكب إلى أحد المسارح وهو أعزل من السلاح وعليه ثوب أبيض ، فطعنه أحد رجال حرسه ، وكان هناك حصان ينتظر القاتل الذى حاول أن يفر ، لولا أن اشتبك حافر حصانه فى كرمة برية ، فألقته عثرة الجواد من سرجه ، وقتله متعقبوه .

وهكذا أصبح الإسكندر ملكا على مقدونيا فى سن العشرين حين بلغ قلقه على تبوئه العرش أقصاه .

وعند ذلك عادت أولمبياس فظهرت فى مقدونيا ، وقد أثبتت مقدرتها وبرر موقفها تبرير المتكبرين ، ويقال إنها أصرت على أن تقدم لذكرى القاتل نفس مظاهر التكريم الجنازية التى أقيمت لذكرى فيليب .

وسرى فى بلاد الإغريق سرور عظيم بذلك الحادث السعيد ، فأما دعوستنيز فإنه لما أتاه هذا النبأ العظيم ، خرج إلى الجمعية العمومية بأثينا فى ثياب بهيجة وعلى رأسه إكليل من الزهر ، ولما يمض على وفاة ابنته ما يجاوز السبعة الأيام .

ومهما يكن أمر ما فعلت أولمبياس بشأن قاتل زوجها ، فما تحيط أية شكوك تاريخية بتفاصيل معاملتها لضرتها كليوبتره . إذ لم يكد الإسكندر يغادر مقدونيا « حين شغلته على الفور ثورة رجال التلال فى الشمال » — حتى قتل ابن كليوبتره الحديث الولادة ، بين ذراعى أمه ، ثم خنقت كليوبتره بعد أن وجهت إليها عبارات السباب والتقريع ولا ريب . ويقال إن هذا الغلو فى المشاعر النسوية ، هال الاسكندر ولكنه لم يمنعه من بسط يدى أمه بسلطان عظيم فى مقدونيا . وقد كتبت إليه رسائل فى موضوعات دينية وسياسية

وأظهر لها ابنها من الوفاء والبر ما جعله يرسل إليها على الدوام نصيبا كبيراً من الأسلاب التي كان يغنمها .

٣ — أول فتوح الإسكندر

اضطررنا إلى سرد هذه الأقاصيص اضطراراً إذ لا يستطاع فهم التاريخ من دونها . وها هو ذا عالم واسع الأرجاء يعج بالرجال ، ممتد بين الهند والبحر الأدرياتي وهو مستعد للوحدة ، متأهب إلى حد لم يسبق له مثيل لتقبل حكم من يلم شمله . وها هي ذي الدولة العظيمة — دولة الإمبراطورية الفارسية بطرقاتها ونظام بريدها وسلمها المخيم على أرجائها وشامل رخائها ، — ناضجة دانية القطوف حيال ذلك التأثير المخصب الذي يشعه العقل الإغريقي . وهذه هي القصص التي تصور طبيعة المخلوقات البشرية ، التي أتيحت لها تلك الفرص العظيمة . فها هو ذا فيليب ، ذلك الرجل العظيم البالغ النبل ، ومع ذلك فهو سكير مدمن ، وهو لا يستطيع أن يضبط نظام داره . وها كم الإسكندر وهو إنسان موهوب من كثير من النواحي ، مواهب أعلى مما لدى أي رجل في زمانه ، ولكنه مغرور ، متشكك في الناس ، نزق حاد العواطف ، وله ذهن أحدثت أمه به انحرافا وزيغا .

ونحن الآن بسبيل فهم شيء مما عسى أن كان يؤول إليه العالم ، وشيء مما عسى أن كان يصير إليه جنسنا ، لولا طبيعتنا البشرية التي ما تزال فجة غريرة . ولم يكد يتجاوز ما مضى بين عصرنا وبين الإسكندر ما يزيد على سبعين جيلا ، كما لا يكاد يفصل بيننا وبين أجدادنا الصائدين المتوحشين الذين كانوا يشيطون ظاهر طعامهم على الجمر أو يأكلونه نيئا ، — ما يتجاوز الأربعمئة أو الخمسمئة جيل . ولن يتهيأ مجال كبير لدخول التعديل على نوع من الأنواع الحية في مدى أربعمئة أو خمسمئة جيل . وما عليك إلا أن تثير فيمن حولك من الرجال والنساء مشاعر الغيرة أو الخوف أو السكر أو الغضب إلى درجة كافية حتى تبدو لك فيهم عيون رجال الكهوف الحمراء محملقة إليك اليوم . وقد تهيأت لدينا الآن المعرفة بالكتابة وتوفر التعليم والعلوم وتسخير القوى . وقد روضنا الوحوش وسخرنا البرق . ولكننا ما نزال في دور (الدلوف) نحو النور ليس غير . أجل روضنا الوحوش وربيناها . ولكن بقي علينا أن نروض أنفسنا ونربيها .



(٨٢) الإسكندر الأكبر

أظهرت أعمال الإسكندر منذ أول بدايات حكمه ، إلى أى حد كبير تمثَّل خطط أبيه وسار على نهجها ، وإلى أى حد كانت كفاياته عظيمة . وإن خريطة للعالم المعروف لمن ألزم الأمور لتبيين مجرى حياته . ففى أول الأمر بعد أن حصل على التأكيدات من بلاد الإغريق ، بأنه سيكون القائد العام للجيوش الإغريقية ، سار مخترقاً تراقيا إلى نهر الدانوب ، وعبر النهر وأحرق إحدى القرى ، وبذا أصبح الملك العظيم الثانى الذى أغار على البلاد الإسكيذية فيما وراء الدانوب ، ثم عاد فعبره واتجه غرباً وبذا قفل بطريق إلليريا . وفى ذلك الوقت كانت مدينة طيبة قد أعلنت العصيان عليه ، فكانت ضربته التالية فى بلاد الإغريق . فإن طيبة — ولم تساعدها أثينا بالطبع قهرت ونهبت وعوملت معاملة عنف مسرف . إذ هُدّت كل مبانيها اللهم إلا المعبد ومنزل الشاعر بندار Pindar وبيع ثلاثون ألف نسمة من سكانها رقيقاً فى أسواق النخاسة . فصعقت بلاد الإغريق . وأصبح فى ميسور الإسكندر بذلك أن ينطلق حراً للقيام بالحملة الفارسية .

وكشف تدمير طيبة على هذا النحو عن مسحة من القسوة والعنف فى سيد الأقدار البشرية الجديد . إذ كانت تلك ضربة أثقل من أن يقدم عليها إنسان بل كان إتيانها عملا وحشياً غشوماً . فلئن قضى بها على روح العصيان ، فقد قضى كذلك على روح العون . فإن الولايات الإغريقية ، ظلت جامدة منذ ذلك الحين ، فلا هى تشغب عليه ولا هى تعينه . وأبت تلك المدن تقديم المساعدة للإسكندر بسفائنها ، وهو أمر كانت نتيجته مضايقة خطيرة له .

وهناك قصة يرويها بلوتارك عن هذه المذبحة الطيبية ، بوصفها أمراً يشرِّف الإسكندر ، لكنها لعمرى تبين كيف أن جوانبه السليمة التى تنم عن التعقل وجوانبه الأخرى التى بها مس من الجنون كانت فى صراع . وهى تحدثنا عن ضابط مقدونى وسيدة من طيبة . كان



(٨٣)

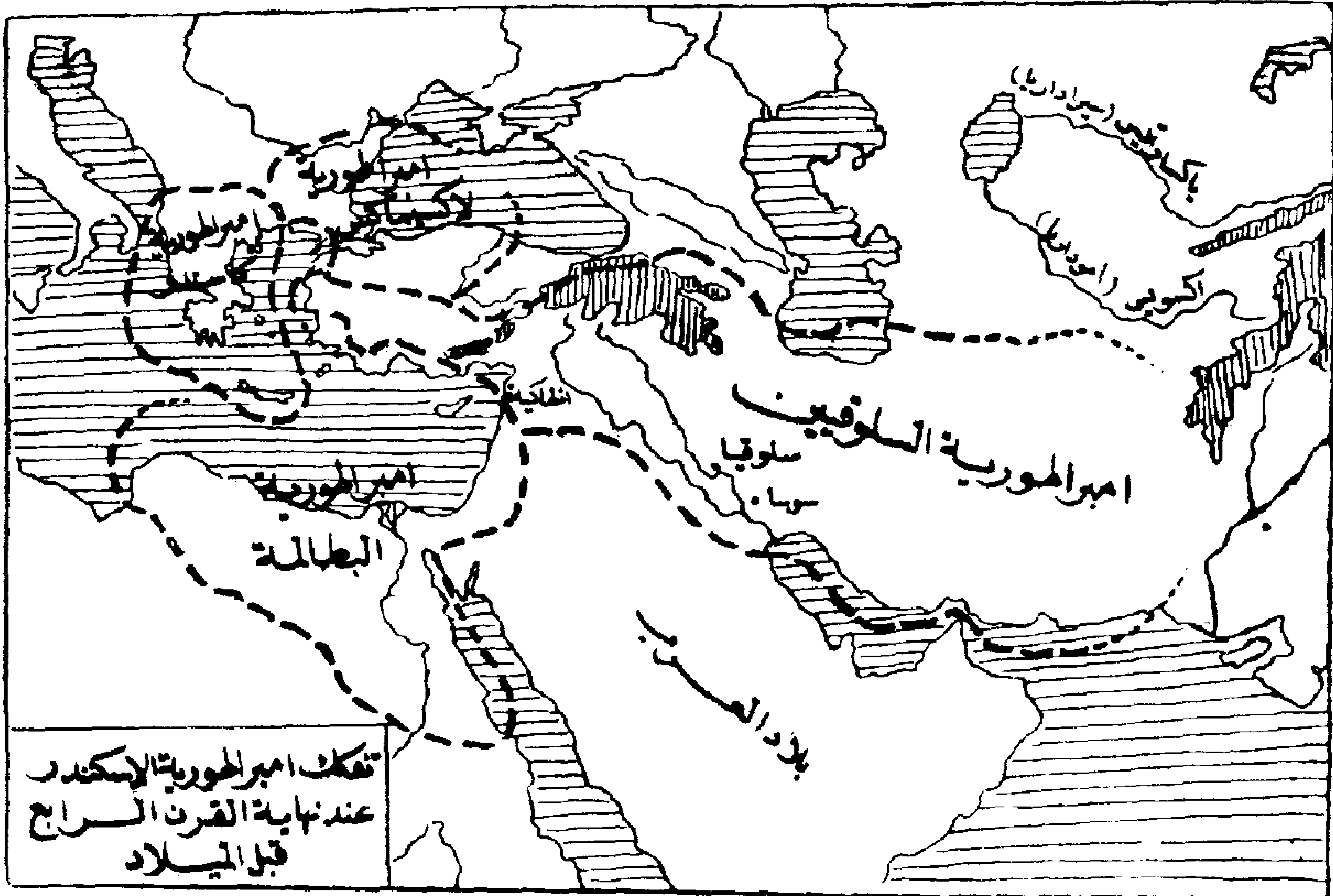
هـذا الضابط ينهب مع الناهبين ، فدخل إلى منزل هاته المرأة ، وأوقع بها من الإهانات والأضرار مالا يمكن التعبير عنـه ، ثم سألها آخر الأمر عما قد يكون لديها مخبأ من كنوز الذهب أو الفضـة . فأخبرته بأن كل كنوزها مخبوءة فى البئر وقادته إليه ، وبينما هو واقف يتأمل قاعه ، قذفته فيه على الفجاءة ثم قتلته بالقاء الأحجار الضخمة عليه . ووصـل إلى المـكان بعض الجنود الموالين ، وأخذوها إلى الإسكندر ليقضى فيها برأى .

فتحدته . وكان دافع الغلو والتطرف الذى حدا به إلى القيام بالمذبحة قد أخذ فى التناقص والتضاؤل فلم يكتف الإسكندر بالعفو عنها ، بل أمر برد عائلتها وممتلكاتها وحريتها إليها . ويفسر بلوتارك هـذا بأنه كرم خلق وسماحة نفس ولـكن المسألة أعقد من ذلك . إذ أن الإسكندر هو الذى كان ينهب ويستعبد وينتهك حرمات طيـبة بأكلها . فذلك الوحش المقدونى المسكين المتردى فى البئر ، ما كان يفعل إلا ما قيل له أن له ملء الحرية أن يفعله . فهل يجوز لقائد أن يصدر فى مبدأ الأمر أوامر قاسية ، ثم يعود فيعفو عمن يقتلون أعوانه بل ويكافئهم ؟ فهذه البارقة من وخز الضمير فى حالة امرأة واحدة ربما لم يكن يعوزها مظهر الـكرامة الحزينة والجمال الأسيف ، إنما هى مقابل زهيد لإعدام مدينة عظيمة .

وكان يخالط جنون أوليمبياس الذى ورثه الإسكندر ، ما أخذه عن أبيه من رجاحة عقل وما تلقاه عن أرسطو من تعاليم . ولا مراء أن هذه المسألة الطيبية أزعجت خاطر الإسكندر . فهو أنى لقى الطيبيين فيما بعـد ، كان يحاول أن يظهر لهم عطفاً خاصاً . ذلك أن ما جنته يداه فى حق طيبة كان دائم الملاحقة له .

ومع ذلك فإن ذكرى طيبة لم تنقـذ ثلاث مدن أخرى عظيمة من مثل تلك العاصفة العقلية الهوجاء . فإنه دمر صور Tyre وغزة ومدينة ببلاد الهند ، سقط أثناء فتحه إياها عنوة وجرح فى قتال عادل ولم ينج من هذه المدينة الأخيرة نفس واحدة ، حتى الأطفال ؛ فلا بد أن ما استولى عليه من الذعر كان شديداً حتى اجترح مثل هذا الانتقام الذريع .

وعند ابتداء الحرب كان للفرس عليه ميزة فائقة . إذ كانوا فى واقع الأمر سادة البحر . لأن سفن الأثينيين وحلفائهم كانت معرضة غاضبة لا تعين الإسكندر . ولـكى ينتقل الإسكندر إلى آسيا ، اضطر أن يطوف معرجاً حتى عـبر عند الهلسبونت . فلو أنه تقدم متوغلا فى الإمبراطورية الفارسية ، لتعرض لخطر قطع مواصلاته تماما بقاعـدته وعلى ذلك كان أول واجب عليه أن يقصم العدو فى البحر ، ولم يكن هـذا فى مستطاعه إلا بالمسير على محاذاة ساحل آسيا الصغرى والاستيلاء على الميناء تلو الميناء ، حتى تدمر كل القواعد البحرية



(٨٤)

الفارسية . فلو أن الفرس تجنبوا الالتحام معه فى المعارك وانصرفوا إلى غشيان خط مواصلاته الطويل ، لقضوا عليه فيما يرجح ولـكنهم لم يفعلوا ذلك . فإن جيشاً فارسياً لا يزيد عن جيشه كثيراً ، اشتبك معه فى معركة على ضفاف نهر جرانيكوس Granicus (٣٣٤ ق . م .) فباء بالتدمير . وبذلك أصبح الإسكندر مطلق اليد فى الاستيلاء على ساردیس وإفيسوس وميليتوس ثم على هاليكارناسوس بعد قتال عنيف وفى الوقت نفسه كان الأسطول الفارسى عن يمينه يفصل بينه وبين بلاد الإغريق ، وهو يهدده أكثر التهديد ولـكنه لا يأتى شيئاً .

وفى (٣٣٣ ق . م) وحين كان يتابع هجومه هذا على القواعد البحرية ، سار بمحاذاة الشاطئ حتى رأس الخليج المسمى اليوم « خليج إسكندرونة » . وكان هناك جيش فارسى جرار تحت قيادة الملك العظيم دارا الثالث ، يسير فى داخليـة البلاد إلى جوار خط سيره ، تفصله عن الشاطئ الجبال ، وتقدم الإسـكندر عن هذه القوة المعادية قبل أن يدرك هو أو يدرك الفرس ما بينهما من تدان ، إذ كانت أعمال الاستطلاع — كما هو واضح — سيئة جداً لدى الإغريق والفرس على السواء . وكان الجيش الفارسى جمعا هائلا سيئ النظام ، من الجنود والدواب ووسائل النقل ومنتجعى المسكرات ومن إليهم .

ونذكر على سبيل المثال ، أن دارا كان مصحوبا بحريمه ، وكان هناك عدد حاشد من إماء الحريم والموسيقيين والراقصين والطباخين . وكان الكثيرون من كبار الضباط قد أحضروا عائلاتهم ليشهدوا مصرع الغزاة المقدونيين . وقد جمعت الجيوش من كل ولاية فى الإمبراطورية ، ولم تكن لديهم تقاليد متعارف عليها أو مبدأ يجمعهم ويؤلف بينهم فى عمل موحد .

تملكت « دارا » فكرة قطع سبيل الإسكندر إلى بلاد الإغريق فحرك هذا الجمع الحاشد من فوق الجبال حتى البحر ، ومن يُمن طالعه أن اجتاز الممرات دون أن يعترض سبيله معترض ، ثم عسكر فى سهل إسوس (Issus) بين الجبال والساحل . وهناك هزمه الإسكندر وكان قد عاد لقتاله إذ كرّ الفرسان؛ وحطم الفيلق هذا الجيش العظيم الهش كما يُهشم الحجر الزجاجة ، فتفرق بدداً ، وفر « دارا » من مركبته الحربية — تلك الآلة العتيقة الطراز — ممتطيا صهوة جواده ، تاركا كل شىء حتى حريمه فى أيدى الإسكندر .

وكل الأقاصيص عن الإسكندر بعد هذه المعركة تصوره على خير ما يكون الخلق الكريم فتظهره متحرزا سمحا ، فعامل الأميرات الفارسيات بأقصى ما يكون من الأدب ، وتملك ناصية رشده ، واستمسك استمساكا وثيقا بخطته ، وترك دارا يهرب إلى سوريا ولم يتعقبه ، ثم واصل مسيره على قواعد الفرس البحرية — أى على ميناءى صور وصيدا الفينيقيتين فسلمت صيدا ، وقاومته صور .

فلئن أتيح لنا أن نجد فى مكان ما دليلا على مقدرة الإسكندر الحربية الفائقة ، فهاهنا موضعها ومجلاها . كان جيشه من صنع أبيه ، ولكن فيليب لم يظهر فى حصار المدن نبوغا أبدا . ولما كان الإسكندر غلاما فى السادسة عشرة ، رأى أباه تصده مدينة بيزنطة الحصينة على البسفور ، وها هو ذا يواجه مدينة منيعة صمدت لحصار بعد حصار ، وقاومت نبوخذ ناصر العظيم أربعة عشر عاما ، إذ أن الشعوب السامية صاحبة قصب السبق فى احتمال الحصارات .

وكانت صور عندئذ ذلك جزيرة تبعد عن الشاطىء نصف ميل ، وما زال أسطولها سليما لم يصب بسوء ، وكان الإسكندر من الناحية الأخرى ، قد سبق فتعلم الشىء الكثير أثناء حصاره قلعة هاليكارناسوس ، وضم إليه هيئة من المهندسين من قبرص وفينيقيا ، وكان أسطول صيدا معه ، وما لبث ملك قبرص أن انضم إليه بمئة وعشرين سفينة جعلت سيادة البحر فى يده . وفضلا عن ذلك فإن قرطاجنة الكبيرة لم ترسل أى عون — إما اعتمادا منها

على قوة المدينة الأم أو خروجا منها عن الولاء لها — فضلا عن أنها كانت مشتبكة فى حرب فى صقلية .

وكان أول ما اتخذه الإسكندر من تدابير أن بنى جسرا من أرض القارة إلى الجزيرة ، وما يزال هذا السد باقيا إلى يومنا هذا . وأقام الإسكندر على طرف هذا الجسر عند اقترابه من أسوار صور أبراجه ومجانيقه وأكباشه[1] . ثم شد كذلك إلى الأسوار سفنا ، أقيمت عليها الأبراج والمجانيق واستعمل أهل صور الحراقات (سفن النيران) ضد هذ الأسطول الصغير ، وأخذوا يلاحقونه بالخروج الباغت من مينائيهم ، وحدث فى إحدى غاراتهم الفاجئة على السفن القبرصية أن أمسك بهم المغيرون وأوقعوا بهم أضرار جسيمة ، وأصيب الكثير من سفنهم بقذائف المجانيق ، ووقعت فى أيدى قوات الإسكندر سفينة كبيرة مخماسة ، أى ذات خمس جوانب من المجاديف ، وأخرى ذات أربع جوانب — ثم فُتِحَت آخر الأمر ثغرة فى الأسوار — وبعد أن تسلق المقدونيون الأنقاض من سفنهم فتحوا المدينة عنوة .

استمر هذا الحصار سبعة أشهر ، وقاومته غزة شهرين . وحدثت فى كلتا الحالتين مذبحة كما حدث أن نهبت المدينة وبيع الأحياء من أهلها بيع الرقيق . ثم دخل الإسكندر مصر قرب نهاية (٣٣٢ ق . م) وثبتت له سيادة البحر . فأما بلاد الإغريق — وكانت طيلة ذلك الزمان تتأرجح فى سياستها — فإنها انتهت آنذاك إلى التصميم على الانحياز إلى جانب الإسكندر وصوت مجلس الولايات الإغريقية المنعقد فى كورنثة على إهداء تاج نصر من الذهب « لقائده العام » . ومنذ ذلك الحين انحاز الإغريق إلى المقدونيين .

وكان المصريون أيضا فى صف المقدونيين ، على أنهم كانوا فى صف الإسكندر منذ البداية ، ولقد أظلهم الحكم الفارسى قرابة مئتى سنة ، ولم يكن لمجىء الإسكندر من معنى عندهم سوى ذهاب سيد وقدوم آخر ؛ على أنه فى جملة الأمر تغيير إلى الأفضل ، فسلمت البلاد من غير قتال . وأظهر الإسكندر الاحترام البالغ نحو شعورها الدينى ، فلم يكشف اللفائف عن أى مومياء كما فعل قمبيز ، ولم يعتد على حرمة آبيس عجل ممفيس المقدس .

وفى تلك البلاد لمس الإسكندر فى نفسه فى ظلال المعابد العظيمة كثيراً من الشواهد والأدلة

---

(١) الكبش : (المنطاح Battering ram) آلة كانت تستعمل قديما فى هدم أسوار الأماكن المحصورة ، تتكون من عرق عظيم من الخشب برأس من حديد قريبة الشبه برأس الكبش ، ومنه اتخذ اسمها .

على وجود ميل إلى تدين خفى غير منطقى يذكره بأسرار وخفايا طالما اعتنقتها والدته وأثرت فى طفوليته أيما تأثير . وظل أربعة أشهر فى مصر ، يداعب العواطف الدينية وتداعبه .

ولا بد لنا أن نتذكر أنه كان لا يزال شابا يافعاً ، مقسما على نفسه . أجل إن سلامة العقل القوية التى ورثها عن أبيه جعلت منه جنديا عظيما . وحببته تعاليم أرسطو بشىء من النظرة العلمية إلى العالم . ولقد دمر صور . وأنشأ فى مصر عند أحد مصبات النيل مدينة جديدة هى الإسكندرية ، لتحل محل ذلك المركز التجارى القديم . وأنشأ إلى الشمال من صور وبالقرب من إيسوس مرفأ ثانيا هو الإسكندرونة . وما تزال كلتا هاتين المدينتين زاهرة إلى يومنا هذا . وانقضى على الإسكندرية دهر ربما كانت فيه أكبر مدينة فى العالم . فلا بد إذن أن قد اختيرت مواقعهما اختياراً حكيما . على أن الإسكندر كانت لديه كذلك روح التخيل العاطفية الهوجاء التى كانت لأمه ، فإنه إلى جانب هذا العمل الإنشائى كان مستغرقا فى مغامرات دينية إذ استحوذت آلهة مصر على لبه . ومن ثم نراه يسافر أربعمئة ميل إلى واحة قصية لزيارة وحى آمون . ذلك بأنه كان يريد أن يبت فى شكوك معينة كانت تساوره عن حقيقة نسبه ومولده . فإن أمه طالما ألهبت ذهنه بالتلميح والإشارة ، والألفاظ المبهمة عن سر عميق يكتنف حقيقة أبوته . فهل كان إنسان عادى مثل فيليب المقدونى أباه حقا ؟ .

وقد لبثت مصر قرابة أربعمئة سنة وهى قطر لا يعتد به من الوجهة السياسية ، يغزوها الإثيوبيون آونة ويغزوها الآشوريون أخرى والبابليون تارة والفرس طوراً . ولما أن أصبح تفكير المصريين فى المهانة والاتضاع الحاضر أمراً بغيضا ، أصبح الماضى والعالم الآخر أكثر روعة فى نظرهم . وإنما تنشأ الدعاية الدينية المتبجحة بالمفاخرة والإغترار بالماضى عن طول شعور الشعوب بالمذلة المزمنة الأليمة . فإن المقهور يستطيع أن يقول للظافر « ليس هذا الظفر بشىء ذى بال فى نظر الآلهة الحقة » وهكذا اضطر ابن فيليب المقدونى وسيد بلاد الإغريق العام ، إلى أن يحس صغاره وضآلة قدره بين المعابد الضخمة المشمخرة . وكان للإسكندر نصيب غير عادى من مألوف طموح الشباب إلى التأثير فى كل من يحيط بهم من الناس . فكم كان مريحا ومطمئنا لنفسه إذن أن يكتشف لتوه أنه ليس مجرد مخلوق موفق ، وليس واحداً من أولئك السوقة من القوم الإغريقيين المصريين ، وإنما هو قديم أزلى وقدسى وابن إلٰه ، وهو الإلٰه فرعون بن آمون رع !!! .

ولقد سبق لنا أن أعطيناك فى فصل سابق وصفا لتلك المقابلة فى معبد الصحراء .

ولم يقتنع الشاب تمام الاقتناع . نعم أطافت به فى بعض الأحايين لحظات الاقتناع .

وكانت تنتابه مظاهر سلامة العقل ، عند ما يكاد الأمر أن يتحول إلى مزاح . فأبدي فى حضرة المقدونيين والإغريق الشك فى أنه إلـه حقا . فلما انطلق دوى الرعد القاصف ، سأله السفيه أريستارخوس (Aristarchus) « ألا تنوى أن تفعل شيئا من هذا القبيل يا ابن زيوس ؟ » ولـكن الفـكرة الجنونيـة جعلت مع ذلك تطيف بذهنه منذ ذلك الحين وهى مستعدة لأن يلهب أوارها النبيذ أو الملق .

وفى الربيع التالى (٣٣١ ق . م) عاد إلى صـور ، وسار من هناك نحو مملـكة آشور جاعلا الصحراء السورية عن يمينه ، فوجد فى انتظاره عند خرائب نينوى المنسية جيشا فارسيا عظيما ، طفق دارا يجمعه منذ معركة إيسوس . وكان خليطا هائلا آخر من فرق الجنـد ، ويعتمد فى قوته الرئيسية على ذلك السلاح البالى العتيق حتى فى ذلك الوقت : وهو المركبة الحربية . وكان لدارا من هذه قوة عدتها مئتان ، وقد ربطت بعجـلات كل مركبة وإلى عريشها وجسمها مناجل . ويبدو أنه كان بكل مركبة أربعـة خيول ، فإذا جرح أحد هذه الخيول بنبل أو سهم ، تعطلت تلك المركبة . وكانت الخيول الخارجية تعمل أكثر ما تعمل كوقاية لخيول العجلة الداخلية . ولذا كانت تشبك إلى المركبة بسير خارجي مفرد يسهل قطعه ولـكن إصابة أحد خيول العجلة (أى الخيل الداخلية) كان يفضي إلى تعطيل العربة بأسرها . ولمثل هذه العربة أثر ساحق عظيم إذا هى استعملت ضـد جيش مفـكك من المشاة أو جمهور من المحاربين الفرادى . ولـكن دارا ابتـدأ المعركة بقذفها على الخيالة وعلى المشاة الخفاف ، فبلغ القليـل منها هدفه وسرعان ما قضى على هذه أيضا . وحدثت بعض المداورة طلبا لفسحة من الأرض ، وانطلق المقدونيون المدربون أحسن تدريب يسيرون فى خط منحرف عبر الجبهة الفارسية ، وهم يحافظون على نظام حسن . فأما الفرس فإنهم فى تتبعهم لهـذه الحركة على جناحهم ، قد فتحوا فى صفوفهم ثغرات . وعلى حين بغتة كر الفرسان المقدونيون المنظمون فى أحد هاته الصدوع وصـدموا قلب الجيش الفارسي وعلى أثر كرتهم مباشرة تقدم المشاة يتبعونهم ، فتهشم قلب الفرس وميسرتهم ، وقد تقدمت الراكبة الخفيفة فى الميمنة الفارسـية فترة من الزمان فاكتسبت من ميسرة الإسـكندر أرضا ، وكأنها لم تفعل ذلك إلا لـكى تمزقها فرسان تساليا إربا ، وكانت فى ذلك الوقت قد أصبحت تقارب فى حسن دربتها نموذجها المقدونى المحتذى ، ولم تعد القوات الفارسية تشبه الجيش بالمعنى المعروف . فإنها انحلت إلى جمع غفير من الفارين تنساب ثلله تحت غمامات عظيمة من القتام . وليس بينها سبب واحد يلم شعثها وهى تسير عبر السهل الحـار نحو أربيلا

(Arbela) . وانطلق المنتصرون بخيلهم خلال الغبار والجمهور الهارب وهم يُقَـتَّلون ويُذَبَّحُون حتى خيم الظلام ووضع للمذبحة حدا . وقاد دارا المتقهقرين .

تلك هى معركة أربيلا التى حدثت فى اليوم الأول من أكتوبر (٣٣١ ق . م) وإنا لنعرف تاريخها بمثل هذا الضبط الشديد ، لأنه مسجل . إذ اتفق قبل حدوثها بأحد عشر يوماً ، أن كان المنجمون على كلا الجانبين فى شغل شاغل بخسوف للقمر .

وفر دارا شمالا إلى بلاد الميديين ، وتقدم الإسكندر إلى بابل .

وكانت المدينة القديمة ، مدينة حامورابى (الذى حكم قبل ذلك بسبع عشرة مئة من السنين) ومدينة نبوخذ نصر العظيم ، ونابونيداس لا تزال على العكس من نينوى مركزاً هاما ناجحا . والبابليون شأنهم فى ذلك شأن المصريين ، لم يكن ليعنيهم كثيراً أمر انتقال الحكم من الفرس إلى المقدونيين . وكان معبد بعل مردوك قد أصبح حطاما وخرائب ومحجراً تؤخذ منه مواد البناء ، بيد أن تقاليد الكهنة الكلدان كانت ما تزال باقية ، وقد وعد الإسكندر بإعادة بناء المعبد .

ومن ثم سار إلى سوسا ، التى كانت يوماً ما مدينة العيلاميين البائدين المنسيين ، والتى أصبحت العاصمة الفارسية .

فسار إلى برسيبوليس حيث أمر — وهو فى معمعان وليمة فاخرة — بإحراق بيت ملك الملوك . ثم أعلن فيما بعد أن هذا هو انتقام بلاد الإغريق لإحراق إجزرسيس أثينا .

٤ — تجولات الإسكندر

والآن يبدأ دور جديد من أدوار قصة الإسكندر ، فإنه ظل السنوات السبع التالية يتجول بجيش مكوّن فى معظمه من المقدونيين ، فى شمال وشرق الجزء الذى كان عند ذلك يُعد العالم المعروف . ابتدأ الأمر أوّلا بالسير فى أعقاب دارا ، ثم لا ندرى بعد ذلك ما ذا أصبح . فهل كان الأمر أمر مسح منظم لعالم كان ينوى أن يوحد أجزاءه ويؤلف منها دولة كبرى ، أم هو مجرد سير على غير هدى كطراد أوزة برية ؟ لقد كان جنوده أنفسهم بل خاصةُ أصدقائه يعتقدون فى الرأى الأخير ، وأخيراً أوقفوا مدرجه وراء السند . والواقع أن عمله هذا يبدو على الخريطة أشبه الأشياء بطراد أوزة برية ، وكأنى بهذا الطراد لا يقصد إلى شىء بوجه خاص ولا يرى إلى الوصول إلى مكان ما .

وسرعان ما انتهى به تعقبه دارا الثالث إلى مسرح خاتمته المحزنة ، إذ يلوح أن قواد الملك العظيم أنفسهم ثاروا عليه بعد معركة أربلا ، ناقمين منه ضعفه وعدم كفايته . فسجنوه وأخذوه معهم على الرغم من رغبته فى أن يلقى بنفسه بين يدى سماحة قاهره ، واتخذوا من بيسوس حاكم باكتيريا زعيما لهم .

وانتهى الأمر بالإسكندر إلى طراد جندى حامى الوطيس يتعقب آثار القافلة الهاربة التى كانت تحمل ملك الملوك الأسير . وعند الفجر ، وبعد مطاردة دامت الليل كله ، لاحت القافلة فى الأفق البعيد ، وأصبح الفرار جموحا جنونيا ، فإن بيسوس وقواده تركوا المتاع والنساء وكل شىء آخر ، كما تركوا من خلفهم أيضا عائقا آخر . فإلى جوار بركة ماء منعزلة عن الطريق العام ، مالبث جندى مقدونى أن وجد عربة متروكة ما تزال بغالها مشدودة إليها . فى تلك العربة رقد دارا صريعا ، وهو مطعون فى عشرات الأماكن من جسمه والدم يتدفق منه حتى الموت ، ذلك أنه رفض أن يواصل المسير مع بيسوس ، وأبى أن يمتطى الجواد الذى قدم إليه . ولذا طعنه قواده بحرابهم ثم تركوه ، فسأل آسريه بعض الماء .

ولسنا ندرى إن كان قد قال شيئا آخر غير هذا ، على أن المؤرخين رأوا من اللائق أن يلفقوا عليه حديث النزع الأخير ، وهو ما لا يقبله العقل ، ولعله لم يقل إلا الشىء القليل الطفيف .

ولما أن وافى الإسكندر بعد شروق الشمس بقليل كان دارا قد قضى نحبه . . .

وبجولات الإسكندر تلقى بين يدى مؤرخ العالم مادة ذات أهمية خاصة بها منفصلة تماما عن الضوء الذى تلقيه على أخلاقه . فكما أن حملة دارا الأول رفعت الستار من خلف بلاد الإغريق ومقدونيا ، وأظهرتنا على شىء مما يقع خلف الأستار الشمالية الصامتة من وراء تاريخ المدنيات الأولى الذى تنقله إلينا السجلات ، فإن حملات الإسكندر تحملنا كذلك إلى أقاليم لم يكن قد دُوِّن عنها حتى ذلك الوقت أى شىء جدير بالثقة .

ذلك أننا نكتشف أنها لم تكن مناطق صحراوية ، بل كانت زاخرة بحياة جماعات ذات طابع خاص .

سار الإسكندر إلى شواطىء بحر قزوين ، ومن ثم اتجه شرقا عبر ما يسمى الآن باسم « التركستان الغربية » ، وأسس مدينة تسمى الآن هيرات (Herat) ، ومنها سار شمالا بطريق كابول وما يسمى الآن باسم سمرقند ، حتى وصل إلى جبال التركستان الوسطى ، ثم

عاد أدراجه جنوبا وانحدر إلى الهند مخترقا ممر خيبر ، والتحم فى معركة عظيمة على السند الأعلى مع ملك شجاع مديد القامة ، هو الملك پوروس (Porus) وفيها التقت المشاة القدونية بجيش من الأفيال وهزمته . ولعله كان يرغب فى مواصلة السير شرقا عبر الصحراوات إلى وادى الكنج ، بيد أن جنوده أبت مواصلة السير ، ويحتمل أنهم لو لم يفعلوا ذلك ، فى تلك الآونة أو بعدها ، لواصل السير حتى يبيد من التاريخ شرقا ، ولكنه اضطر أن يحول وجهته ، فبنى أسطولا انحدر به إلى مصب السند . وهناك قسم قواته ، فأخذ الجيش الرئيسى وسار على امتداد الشاطىء القاحل قافلا به إلى الخليج الفارسى ، وقاسى الجيش فى الطريق متاعب وأهوالا جمة ، ومات منه الكثير من الرجال عطشا ، وتبعه الأسطول بحراً ، ولحق به عند مدخل الخليج الفارسى . وكان فى خلال رحلة هذه السنوات الست يشتبك فى معارك ، ويتلقى خضوع كثير من الشعوب العجيبة ، وينشىء المدن . ولقد رأى جثة دارا فى يونية (٣٣٠ ق . م) وعاد إلى سوسا (٣٢٤ ق م) فوجد الإمبراطورية فى اختلال ، ووجد ولاة الأقاليم (ساتراب) ينشئون لأنفسهم جيوشا خاصة بهم ، وألفى باكتيريا وميديا فى ثورة ، ووجد أوليمبياس قد جعلت مهمة الحكومة فى مقدونيا أمرا مستحيلا ، فإن هارپالوس خازن الملك ، فر بكل ماخف حمله من الخزانة الملكية ، وأخذ يشق طريقه إلى بلاد الإغريق وهو يرشو الناس فى رحيله . ويقال إن بعض أموال هارپالوس وصل إلى جيب ديموستنيز .

على أننا قبل أن نعالج الفصل الختامى لقصة الإسكندر ، نرى أن نقول كلمة عن تلك الأقاليم الشمالية التى تجول فيها . وواضح أنه من إقليم الطونة ، وعبر روسيا الجنوبية قدما ، وعبر القطر الواقع إلى شمال بحر قزوين قدما ، والقطر الواقع إلى شرقى بحر قزوين فما تلاه حتى الكتل الجبلية فى هضبة البامير ، ثم شرقا إلى حوض نهر تاريم بالتركستان الشرقية ، — كانت تنتشر آنذاك سلسلة من قبائل وشعوب همجية (متبربرة) متشابهة كلها وهى جميعاً على مرحلة واحدة من الثقافة تقريبا ، وهى فى معظم أمرها آرية فى لغتها ، ولعلها نوردية فى جنسها . وكانت مدنهم قليلة العدد إذ هم فى الكثير الغالب من المترحلين ، وقد يستقرون بعض الأحيان استقرارا موقوتا رغبة فى ازدراع الأرض ، ولا ريب أنهم كانوا قبل ذلك يختلطون فى آسيا الصغرى بالقبائل المغولية ، بيد أن تلك القبائل المغولية لم تكن آنذاك منتشرة هناك .

وقد تعرضت تلك الأجزاء من العالم لعملية هائلة مستمرة من جفاف الجو وارتفاع السطح دامت طيلة العشرة آلاف السنة الأخيرة . فمنذ عشرة آلاف سنة كان هناك — فيما يرجح —

حاجز مياه متصل الحلقات يمتد بين حوض نهر الأوبى (Obi) وبين بحر آرال القزوينى . وإذ أن هذا البحر قد جف ، وأصبحت أراضى المستنقعات قطراً شبه سهوبى ، فإن المترحلين النورديين من الغرب والمترحلين المغول من الشرق التقوا واختلطوا وعاد حصان الركوب إلى العالم الغربى .

وواضح أن هذا القطر المتسع العظيم ، أخذ يصبح مركزا تتجمع فيه هذه الشعوب البربرية ، وكان ارتباطهم بالأرض التى يحتلونها ارتباطا مفكك الأوصال ، فكانوا يعيشون فى خيام وعربات أكثر منهم فى منازل وكانت دورة وجيزة من سنىّ الوفرة وانتشار الصحة أو انقطاع الحروب بين القبائل بسبب ظهور بعض الحكام الأقوياء ، تؤدى إلى زيادة جسيمة فى عدد السكان . فإذا أتت سنتان أو ثلاث من المسيرات العجاف فإنها تكفى لعودة القبائل إلى تجوالها من جديد التماسا للغذاء .

ومن قبل بزوغ فجر التاريخ المسجل وتدوين الحوادث ، كان إقليم التجمع البشرى هذا بين الدانوب والصين ، يلقى على التناوب شآبيب متداركة من القبائل جنوبا ونحو الغرب ، فكانت تلك المنطقة من خلف المناطق المأهولة بالسكان أشبه شىء بسحب الغمام ، فيتجمع فيها الغزاة ثم ينقذفون كالسيل الطامى .

ولقد لاحظنا كيف هبطت الشعوب الكلتية غرباً كطلٍّ خفيف ، وكيف أن الإيطاليين والإغريق وذوى قرباهم من سكان إبيروس والمقدونيين والفريجيين انحدروا جنوبا . ولاحظنا كذلك الحركة السمّرية (Cimmerian) من الشرق وهى تندفع عبر آسيا الصغرى كشؤبوب فجائى من البرابرة ؛ وانحدار الإسكيذيين والميديين والفرس جنوبا وهبوط الآريين إلى الهند . وحدثت قبل عهد الإسكندر بما يدانى القرن غزوة آرية جديدة لإيطاليا على يد شعب كلتى ، هو الغال الذين سكنوا وادى نهر البو (Po) فهؤلاء الشعوب ، على اختلاف أجناسهم ، هبطوا من غمرات الحجب الشمالية إلى ضياء التاريخ . وفى الوقت ذاته كان المستودع ، أعنى إقليم التجمع ، خلف ذلك الضياء لا يفتر عن تجميع الشعوب استعدادا لفيضانات جديدة . فسير الإسكندر فى آسيا الوسطى يدخل الآن فى تاريخنا أسماء جديدة على أسماعنا ، هى أسماء البارثيين (Parthians) وهم شعب من أصحاب القسى الراكبين ، كتب لهم أن يمثلوا دوراً هاما فى التاريخ بعد ذلك بقرن تقريباً . والبكتيريين ، الذين كانوا يعيشون فى موطن الجمل الرملى . ويلوح أنه حينما طاف الإسكندر لقى شعوبا تنطق بالآرية ، وكان

المغول الهمج فى الناحية الشمالية الشرقية لايزالون مجهولين ، ولا إخال أنه كان يتصور أن هناك أيضا مستودعا آخر عظيما من السكان فيما وراء الإسكيذيين وأقربائهم مقره شمالى الصين ، وهو التجمع الذى قدر له أن ينساب هو أيضا من توه متدفقا تدفقا جديدا نحو الغرب والجنوب ، ويختلط أثناء مجيئها بالإسكيذيين النورديين وبكل من يلتقى بها من شعوب أخرى ذات عادات مماثلة لعاداتها . وحتى ذلك الحين لم يكن أحد غير أهل الصين يعرف شيئا عن الهون ، ولم يكن هناك أتراك فى التركستان الغربيـة أو فى أى مكان آخر آنذاك . ولم يكن ثمة أى تتار فى العالم .

فهذه اللمحة عن الأحوال السائدة فى التركستان فى القرن الرابع ق . م من أمتع مظاهر تجولات الإسكندر ، وهناك أخرى ، هى غارته على أرض البنجاب ، فإن مما يستثير غضب قصاص القصة الإنسانية ، أنه لم يواصل مسيره حتى إقليم الـكنج ، وأننا لم نحصل نتيجة لذلك على أوصاف وتفاصيل قائمة بذاتها دبجها كتّاب الإغريق عن الحياة فى البنغال القديمة . على أن هناك أدباً ضخما فى لغات هندية متنوعة ، يعالج تاريخ الهند وحياتها الاجتماعية ، وهو لايزال فى حاجة إلى من ينفض عنه الغبار ، ويقدمه إلى القراء الأوربيين .

٥ — هل كان الإسكندر عظيما حقا ؟

ظل الإسكندر ست سنوات يمتلك الإمبراطورية الفارسية غير منازع ، وكان عند ذاك قد بلغ الحادية والثلاثين ، ولم يستحدث فى هذه السنوات الست شيئا يذكر ، فاستبقى معظم نظم التقاطعات الفارسية ، وعين حكاماً [1] جدداً أو استبقى السابقين منهم ، وكانت الطرق والموانى ونظم الإمبراطورية ، لا تزال على ما تركها سلفه الأعظم قورش . واكتفى فى مصر باستبدال حكام الأقاليم القدماء بحكام جدد ، وقهر فى الهند پوروس ملـكها ثم تركه على قدر من القوة لا يقل عما وجده عليه ؛ اللهم إلا أن پوروس أصبح يسميه الإغريق ساتراب . وخطّط الإسكندر عددا من المدن ، قدر لبعضها أن تنمو وتزدهر فتصبح مدنا عظيمة ، فإنه أسس ما يبلغ فى مجموعه سبعة عشر إسكندرية تعاورت على أسمائها تغيرات شتى ، مثال ذلك قندهار (اسكندر) وسيكندر أباد . على أنه دمر صور ، ودمر مع صور كل طمأنينة تستظل بها الطرق البحرية التى كانت حتى ذلك الحين المنفذ الرئيسى لبلاد ما بين النهرين نحو

---

(١) كان الواحد منهم يسمى بالساتراب .

الغرب . ويقول المؤرخون إنه (هلّن) الشرق ، أي صبغه بالصبغة الهللينية ، على أن مملكة بابل ومصر كانتا تعجان بالإغريق قبل زمانه . فهو إذن لم يكن السبب فى الاتجاه إلى الناحية الهلينية بل كان أحد عوامله ، وبفضله ظل العالم بأسره ردحاً من الزمان ، من البحر الأدرياتى إلى نهر السند ، تحت لواء حاكم واحد ، وبذا يكون قد حقق أحلام إيزوقراط وآمال فيليب أبيه . ولكن إلى أى حد كان يسعى إلى جعل هذا الاتحاد وطيد الأركان مستديم البنيان ؟ وإلى أى مدى يمكن أن تتجاوز هذه الإمبراطورية ازدهارا خاطف الضياء — ولكنه مؤقت — لشخصه العظيم الباهر ؟ .

لم يعمد إلى إنشاء طرق عظيمة ، ولا إقامة مواصلات بحرية آمنة مضمونة . ومن السخف أن نتهمه بأنه أهمل التعليم ، لأن الفكرة القائلة بأن الإمبراطوريات يجب أن يربط التعليم أجزاءها ، كانت لا تزال غريبة عن الفكر البشرى ، بيد أنه لم يحط نفسه بأية طائفة من الساسة ، ولا كان يفكر فى أى خلف له ، ولم يخلق أى تقاليد ، بل لا يعدو ما أنشأه أن يكون أسطورة شخصية ؛ ويلوح أنه لم يكن يستطيع أن يتصور أن الفلك سوف يدور من بعده ، وأن العالم سوف تشغله أمور أخرى عدا التحدث بفخامته وروعته — فتلك فكرة تجاوزت مجال عقله ولم تجل بخاطره قط . كان لا يزال صغير السن لاجرم ، ولكن ألا ترى أن فيليب قبل أن يصل إلى الحادية والثلاثين من عمره بزمن بعيد كان يفكر فى تعليم الإسكندر ؟

وهل كان الإسكندر من أرباب السياسة على الإطلاق ؟

فبعض دارسى تاريخ حياته يؤكدون أنه كان من أرباب السياسة ، وأنه يوم كان فى سوسا ، شغل بوضع الخطط لإقامة إمبراطورية عالية ، وكان لا يرى فيما يعمل مجرد غزو مقدونى للعالم ، وإنما يراه صهراً وخلطا لتقاليد الأجناس البشرية بعضها ببعض . ومهما يكن من شىء فإنه فعل شيئا واحداً ، يُلمح إلى هذه الفكرة تلميحاً خفيا ، إذ أقام وليمة عرس كبرى ، تزوج فيها هو وتسعون من قواده وأصدقائه من عرائس فارسيات . فأما هو فقد تزوج بنت دارا ، وإن كانت لديه من قبل زوجة آسيوية هى روكسانا (Roxana) ابنة ملك سمرقند . وأقام لهذا الزواج الجمعى ، حفلا رائعا جدا ، وفى نفس الوقت ، قدم هدايا العرس للجنود المقدونيين الذين تزوجوا من عرائس آسيويات ، والذين كان يبلغ عددهم عدة آلاف . وقد سمى هذا زواج أوربا وآسيا . إذ كان لا بد للقارتين من الارتباط على حد

قول بلوتارك « برباط زواج شرعى وبواسطة الاشتراك فى الذرية والنسل » .

ثم أخذ بعد ذلك يدرب المجندين من فارس ومن الشمال ، أى من الفرس والبكتيريين ومن على شاكلتهم ، على فنون الحرب ، فى حدود الأنظمة الخاصة بالفيلق والفرسان . فهل كان ذلك أيضا لكى يتم مزج آسيا وأوربا ؟ أم كان يرى من وراء ذلك إلى الاستقلال بنفسه عن رجاله المقدونيين ؟ لقد اشتموا منه رائحة الفكرة الثانيــة على كل حال ، فتمردوا عليه ، واستطاع فى شىء من الصعوبة أن يرجعهم فى حال من الضراعة والنــدم ، واستمالهم إلى الإشتراك فى وليمة عامة جمعت بينهم وبين الفرس . ولقد صاغ له المؤرخون حديثا بليغا مستفيضا لهذه المناسبة . . .

وقصارى القول ، أنه أمر رجاله المقدونيين أن يرحلوا ، ولم يذكر لنا أحد أية إشارة عن الـكيفية التى اقترح بها عليهم أن ينزحوا من آسيا إلى وطنهم ، فبعد أن قضوا ثلاثة أيام فى هلع ، خضعوا له والتمسوا منه الصفح والغفران .

وقد جرى فى هذا الموضوع نقاش ظريف جدا . فهل كان الإسكندر حقا ينوى إدماج الأجناس ومزجها ، أم إن كل ما فى الأمر أن قلبه تعلق بحب ما يستمتع به الملك الشرقى من عظمة وقدسية ؟ وكان لذلك يريد أن يتخلص من هؤلاء الأوربيين الذين لم يكن فى أعينهم إلا ملكا قائداً ؟ على أن كتّــاب عصر الإسكندر ، والـكتّــاب الذين عاشوا فى زمن قريب من عصره ، أميل إلى الأخذ بالفكرة الثانية ، وهم يؤكدون لنا ما فطر عليــه من غرور لا حد له ، ويقصون كيف أنه أخذ يرتدى أثواب ملوك الفرس وتاجهم ، يرتديهما أولا أمام البرابرة وعلى انفراد وبين خاصته ، ولـكنه ما لبث حتى أخذ يرتديهما على الملأ عند جلوسه لتصريف الأمور . وسرعان ماطلب من أصدقائه مظاهر الخضوع والخشوع على الطريقة الشرقية .

ولعل هنالك شيئا واحدا يقوى الظن بوجود غرور شخصى عظيم فى الإسكندر ، فإن صورته نقشت ونحتت مرارا كثيرة ، وهو فيها على الدوام فى صورة الشاب الجميل ذى الذوائب المدهشة التى تتدلى إلى الخلف كاشفة عن جبين عريض . وكان معظم الرجال فى سالف الزمان يرخون لحاهم ، ولـكن الإسكندر الشديد التعلق بجماله وغضارة شبابه ونضرة صباه يأبى أن يفارقه ، فظل غلاما زائفا فى سن الثانية والثلاثين فـكان يحتلق وبذلك استن للإغريق وإيطاليا سُنّــة دامت قرونا كثيرة .

وقصص العنف والغرور فى سنيه الأخيرة ، تتجمع متكاتفة عالقة بذكراه ، فإنه أصغى

ذات مرة إلى هذر نمام وشى له بفيلوتاس بن بارمينيون ، أحد أشد قواده إخلاصا وأوكدهم ثقة . إذ قيل أن فيلوتاس ، قال متفاخراً بنفسه أمام امرأة كان يغازلها : «إن الإسكندر إنما هو مجرد غلام وأنه لولا رجال من أمثال أبيه وأمثاله لما تم له غزو فارس وأشباهها من البلدان » .

ومثل هـذه الروايات تنطوى على عنصر معين من الصدق . ومثلت المرأة بين يدى الإسكندر ، فأصغى إلى خيانتها . واتهم فيلوتاس للساعة بالتآمر عليـه ، ثم أمر به فعذب وأعدم بناء على أدلة بتراء ناقصة ، ثم فكر الإسكندر فى بارمينيون ، الذى مات ولداه الآخران من أجله (أى الإسكندر) فى ميدان القتال . فأرسل رسلا سراعا ليقتلوا الشيخ المسن قبل أن يبلغه مقتل ولده . وبارمينيون هو القائد الذى قاد الجيوش المقدونية إلى آسيا قبل مقتل فيليب . وليس هناك أقل شك فى صحة جوهر هذه القصة وصدق ما تروى ، ولا فى إعدام كاليسثنيز ابن أخت أرسطو ، الذى رفض أن يقدم للإسكندر مراسم التقديس ، ثم « أخذ يسير فى كبرياء واختيال كمن دك طغيانا ، على حين كان الشبان يتبعونه بوصفه الرجل الحر الأبى الوحيد بين آلاف الرجال » ويختلط بأمثال هذه الحوادث تلك القصة التى لها دلالتها — قصة الشجار الذى قتل فيه كليتوس وهو مخمور ، ذلك أن الملك ورفاقه أكثروا ذات ليلة من الشراب . فأطلق الشراب الألسنة وجعل الحديث عالياً حراً وانطلقت ألسن بالملق الكثير « للإلـه الصغير » مع الإسراف فى الحط من قدر فيليب ، وابتسم الإسكندر لذلك ابتسامة الرضا . وكان ذلك السرور النفسى المخمور فوق ما يطيقه المقدونيون ، فثارت له ثائرة كليتوس — وهو أخوه فى الرضاع — ثورة جنونية . فلام كليتوس الإسكندر على ارتدائه الثياب الميدية وأثنى على فيليب . وعقب هذا شجار صاخب ، ودفع أصدقاء كليتوس به إلى خارج الحجرة لوضع حد لهذا الشجار . على أنه كان مع ذلك فى حالة السكر التى تبعث العناد فعاد من مدخل آخر وسمع فى الخارج وهو ينشد من شعر يوربيدس مقتبساً هـذه الأبيات فى نبرة جريئة مليئة بالازدراء « أهذه عاداتكم ؟ أهكذا يكون موقف بلاد الإغريق إزاء محاربيها وبذل العطاء لهم؟ وهل يدعى رجل واحد لنفسه الحق فى الغنائم التى غنمها الآلاف ؟ » .

وعند ذلك اختطف الإسكندر حربة من أحد حراسه واخترق بها جسم كليتوس وهو يرفع الستار ليدخل . . .

والإنسان مضطر إلى الاعتقاد بأن هـذا هو الجو الحقيقى لحياة الغازى الشاب . كذلك من الصعب اعتبار قصة مظاهر حزنه على هيفايستيون (Hephaestion) حزناً جنونياً قاسيا — من نسج الخيال تماما ، فلئن صحت كلها ، أو كانت صحيحة فى بعض أجزائها ، فإنها

تكشف عن ذهن مضطرب لا يعرف الاتزان ، وملفف تماما فى صغائر الأمور الشخصية ، ذهن لم تكن الإمبراطورية لديه إلا مجالا للمظهر الأنانى ، ولاموا رد العالم بأسرها ، إلا مادة لنوبات من ذلك النوع من السماحة والكرم ، الذى يسرق ألف رجل لكى ينتزع إعجاب فرد واحد مهوس .

فإن هيفايستيون وكان مريضاً قد قصر على تغذية دقيقة — عمد أثناء غياب طبيبه فى المسرح إلى دجاجة محمرة فتناولها ، واحتسى قنينة من النبيذ المثلوج فمات على الأثر ، وعند ذلك وطن الإسكندر نفسه على إقامة مظاهر الأسى والأحزان ، وكان حزنه هذا حزن مجنون معتوه . فأمر بالطبيب فصلب ! وأمر بقص شعر كل حصان وبغل فى بلاد فارس وهدم جميع حصون وطوابى المدن المجاورة ، ومنع الموسيقى بتاتاً فى معسكره مدة طويلة ، ولما أن استولى على قرى معينة من قرى (القوزيان) Cusaeans أمر بكل البالغين فيها فذبحوا قرباناً لشبح هيفايستيون وروحه ، ثم خصص ما لا يقل عن عشرة آلاف تالنتوم (Talentum) لإقامة قبر له . وكان هذا بالنسبة لتلك الأيام مبلغاً هائلا من المال . وليس فى أحد هذه الأمور ما ينم عن تكريم هيفايسيتون تكريما حقيقيا ، بيد أنها أفادت العالم المأخوذ فرقا ورعبا إذ أظهرت هول حزن الإسكندر ! !

وقد تكون هذه القصة الأخيرة والكثير من أمثالها ترهات وأكاذيب أو تشويهات أو مبالغات ، بيد أن بينها سببا يجمعها . وبعد حفل صاخب فى بابل اشتد فيه الشراب ، ألمت بالإسكندر حمى مباغتة (٣٢٣ ق . م) فاعتل ومات وهو بعد فى الثالثة والثلاثين لم يتجاوزها ومنذ ذلك الحين تجد الإمبراطورية العالمية التى كان اختطفها واحتضنها بين يديه ، كما يخطف الطفل زهرية ثمينة ويمسك بها بين يديه ، قد سقطت إلى الأرض وتحطمت إربا .

فاختفى بموته كل ما لاحت بوارقه فى مخيلة الرجال من تنظيمات شاملة للعالم ؛ ووقعت البلاد من بعده بين براثن أوتوقراطية همجية يغشاها الاضطراب . وأخذ كل حاكم من حكام الأقاليم يشيد لنفسه . ولم تمض أعوام قليلة حتى أبيدت كل عائلة الإسكندر بأسرها ، فقد سارعت روكسانا زوجته الهمجية إلى قتل ضرتها ومنافستها ابنة دارا ، ثم وضعت — للوقت — ابنا للإسكندر ولد بعد وفاته ، وكان يسمى هو أيضا الإسكندر . ثم مالبث أن قتل معها بعد ذلك ببضع سنين (٣١١ ق . م) . وقتل أيضا هرقل (Hercules) الإبن الآخر الباقى للإسكندر ؛ وكذلك قتل أيضا أريدايوس أخو الإسكندر غير الشقيق الضعيف العقل . ولم يفت بلوتارك أن يلقى لمحة أخيرة إلى أوليمبياس فى أثناء فترة وجيزة استمتعت فيها بالقوة

والسلطان فى مقدونيا ، وقد أخذت تتهم هـذا الشخص أولا ثم ذاك ، بتهمة دس السم لولدها الرائع ، فقتلت الكثيرين فى ثورة حنقها ، وأمرت بجثث بعض خاصته وأفراد حلقته الذين ماتوا بعد وفاته ، فاستخرجت ؛ ولسنا ندرى هل ألقى أى ضياء جديد على وفاة الإسكندر بهذا النبش لجثث الموتى . وأخيراً قتلت أوليمبياس فى مقدونيا ، إذ اغتالها أصدقاء أولئك الذين قتلتهم .

٦ — خلفاء الإسكندر

وسرعان ما برزت من حماة الجرائم هذه شخصيات رئيسية ثلاث ، فإن شطرا كبيرا من الإمبراطورية الفارسية القديمة يمتد حتى السند شرقا ، وحتى ما يكاد يدانى ليديا غربا ، تملكه قائد واحد اسمه سيلوكوس (Seleucus) الذى أسس أسرة مالكة هى الأسرة السلوقية ، وانتقلت مقدونيا إلى يد قائد مقدونى آخر هو أنتيجونوس (Antigonus) واستحوذ على مصر مقدونى ثالث هو بطلميوس) (Ptolemy) ، وهو إذ جعل من الإسكندرية قصبة لبلاده ، قد أسس قوة بحرية تكفى لحفظ قبرص ومعظم ساحل فينيقيا وآسيا الصغرى فى حوزة يده ، واستدامت إمبراطوريتا بطلميوس وسيلوكوس زمانا طويلا . على أن أوضاع الحكم فى آسيا الصغرى والبلقان كانت أقل استقرارا .



٨٥ — سيلوقوس الأول

وإنا لموردون للقارىء خريطتــين ، تعينان الناظر إليهما على تفهم ما كان يطرأ على الحـدود السياسية فى القرن الثالث ق م من كثير التقلبات . وهزم أنتيجونوس وقتل فى معركة إبسوس (Ipsus) (٣٠١ ق . م .) تاركا ليسماكوس (Lysimachus) والى تراقيـا ، وكساندر (Cassander) والى مقدونيا والإغريق ، خلفين وقتيين على السـواء . واقتطع الولاة الأصغرون لأنفسهم ولايات صغرى ، وفى نفس الوقت كان البرابرة يتدفقون من الغرب



٨٦ — بطلميوس سوتر

والشرق إلى عالم المدنية المفكك الأوصال الواهن القوى . وجاء الغال من الغرب ، وهم شعب وثيق القرابة بالكلت ، فأغاروا مجتاحين مقدونيا وبلاد الإغريق ، حتى دلفى (٢٧٩ ق . م) ؛ وعبر فرعان منهم البسفور إلى آسيا الصغرى ، إذ أنهم كانوا فى مبدأ الأمر يُستخدمون جنودا مرتزقة ، ثم أخذوا يعملون لحسابهم الخاص ناهبين مستقلين . وبعد أن مضوا فى غاراتهم حتى جبال طوروس تقريبا ، استقروا فى أرض الفريجيين (Phrygians) القديمة ملزمين من حولهم من الناس بدفع الجزية . « وقد أصبح غال فريجيا هؤلاء هم الغلاطيين (Galations) المذكورين برسالة القديس بولس » وأصبحت أرمينيا والسواحل الجنوبية للبحر الأسود منطقة مضطربة بمن يتقلب عليها من حكام . وظهر فى كبادوسيا (Cappadocia) وفى بلاد بونتس (Pontus وهى الساحل الجنوبى للبحر الأسود) وفى بيثينيا Bithynia ، وفى برجاموم ملوك شبوا متشبعين بالأفكار الهلينية . ومن الناحية الشرقية تقدم كذلك نحو الجنوب الإسكيذيون والپارثيون Parthians والبكتيريون واستدامت هناك دول بكتيرية يحكمها الإغريق لم تفتر تتحول تدريجياً إلى الفكرة الشرقية . وفى القرن الثانى ق . م ؛ أغار بعض مغامرى الإغريق من بكتيريا منحدرين حتى شمال الهند ، وأسسوا هناك ممالك قصيرة الأجل ، وهى آخر موجة للإغريق نحو الشرق ، ثم أخذت البربرية تتدلى تدريجيا تدلّىَ الستار ، وتحجب الهند عن المدنيات الغربية .

٧ — برجاموم ملاذاً للثقافة

هناك دويلة صغيرة تنهض بارزة بين أشلاء هذه الإمبراطورية الهلينية المحطمة وتطالبنا بأن نفرد لها قسماً وجيزاً على الأقل — تلك هى مملكة برجاموم . وإنا لنسمع عن هذا القطر لأول مرة بوصفه مركزاً مستقلا ، إبان الكفاح الذى انتهى بمعركة إبسوس . وبينما كان سيل الغزو الغالى يطغى ويزبد ويدور جيئة وذهابا فى آسيا الصغرى بين سنتى ٢٧٧ و ٢٤١ ق م ، دفعت برجاموم الجزية للغال حينا من الزمان ، على أنها احتفظت باستقلالها العام ، وانتهى الأمر بهـا إلى أن امتنعت تحت إمرة أتالوس الأول عن دفع جزيتها وهزمتهم فى موقعتين فاصلتين . وظلت برجاموم حرة طليقة مدة تزيد على قرن من الزمان (أى حتى ١٣٣ ق . م) ، ولعلها كانت خلال تلك المدة ، أسمى دول العالم مدنية ، وقد أقيمت على تل الأكروبوليس مجموعة ثمينة من المبانى والقصور والمعابد ، كما أقيم متحف ومكتبة ، وهما ينافسان متحف ومكتبة الإسكندرية ، اللذين سنتكلم عنهما من فورنا ، ويكادان يكونان أول ما ظهر

من نوعهما فى العالم . وإن فيما صنع هناك من النقوش البارزة بمذبح معبد زيوس ، ومن تماثيل « الغال المتقاتلين » ، وتماثيل الذين فى النزع الأخير لجزءاً خالداً من ذخر الإنسانية الفنى . ولم يمض طويل زمن كما سنبين ذلك فيما بعد ، حتى أخذ الناس يشعرون فى شرقى البحر المتوسط بسلطان قوة جديدة ، هى الجمهورية الرومانيــة ، التى كانت ترتبط ببلاد الإغريق وبالمدنية الإغريقية بشعور المودة . ووجدت الجاليات الهيلينية فى برجاموم ورودس ، — فى تلك الجمهورية الرومانية — ، حليفاً طبيعياً نافعاً ومعيناً ضد الغلاطيين وضد الإمبراطورية السلوقية المصطبغة بصبغة شرقية . وسوف نقص عليك كيف انتهى الأمر بأن امتــد نفوذ الدولة الرومانية إلى آسـيا ، وكيف أنهـا هزمت الإمبراطورية السلوقية فى معركة ماجنيزيا (١٩٠ ق . م) وطردتها من آسيا الصغرى فيما وراء جبال طوروس ، وكيف انتهى الأمر (١٣٣ ق م) بأن خضع أتالوس الثالث آخر ملوك برجاموم ، لشعوره بالمصـير المحتوم ، فجعل الجمهورية الرومانية وارثة مملـكته ، التى أصبحت عند ذلك ولاية « آسيا » الرومانية .

٨ — الإسكندر كبشير وداعية للوحدة العالمية

يكاد كل المؤرخين تقريباً ينزعون إلى اعتبار حياة الإسكندر الأكبر ، مؤذنا بعصر جديد فى الشئون الإنسانية . فإنها ضمت شتات العـالم المعروف ، باستثناء الجزء الغربى من البحر المتوسط فجعلت منه قصة مسرحية واحدة . على أن الآراء التى كونها الناس عن الإسكندر ذاته ، تتفاوت تفاوتا بعيدا . فإنهم ينقسمون فى غالبيتهم إلى مدرستين رئيسيتين . ففريق من العلماء يسحره شباب ذلك الفتى وبهاؤه وجلاله . ويبدو أن هؤلاء القوم من عبّاد الإسكندر ميالون لقبوله على أساس التقـدير الذى يقدره هو لنفسه ، متسامحين فى كل جريمة وكل طيش ونزق بدر منه ، إما بعدّها مجرد ثوران لطبيعة خصبة أو باعتبارها الضرورة المريرة التى اقتضتها إحدى الخطط الهائلة ، واعتبار حياته مصوغة فى خطة مرسومة ، وتدبير يسوس بمقتضاه شئون دولة . وهى أمور لا تـكاد معرفتنا الواسعة وأفـكارنا الفسيحة الآفاق فى هذه الأيام الحديثة تـكفى لإدخال مثلها فى روعنا ومجال فهمنا . وهناك من الجانب الآخر ، من يرون فيه مجرد محطم لما كان يستحصد من احتمالات عالم حر هادئ مهلنّ (مصطبغ بصبغة هللينية) .

ويحسن بنا قبل أن ننسب إلى الإسكندر أو إلى أبيه فيليب وضع خطط سياسة للعالم مثل تلك التى قد يستحسنها المؤرخ الفيلسوف فى القرن العشرين ، أن نتأمل بغاية العناية

أقصى ما كان فى إمكان المعرفة والفكر أن يبلغاه فى تلك الأيام . فإن عالم أفلاطون وإيزوقراطيس وأرسطو ، لم يكن لديه بالفعل أي معين من المرئيات التاريخية إصالة . فإلى ما قبل العصر الحديث بقرنين ، لم يكن لدى العالم ذلك الشيء المسمى بالتاريخ ، وأعنى به التاريخ مميزاً عن مجرد المدونات التاريخية الكهنوتية . ولم يتهيأ لأوسع الناس علما ومعرفة إلا أضيق الفكرات عن الجغرافيا والبلدان الأجنبية . إذ كان العالم ما يزال فى نظر معظم الرجال مسطحا ، لا تُعرف له نهاية .

وكانت الفلسفة السياسية المنظمة الوحيدة مبنية على تجارب دويلات مدن ضئيلة ، فلم توجه تفكيرها للإمبراطوريات بأى حال ، ولم يكن أحد ليعرف شيئا عن أصول المدنية ، ولم يسبق لأحد قط أن نظر فى الاقتصاديات قبل ذلك الزمان . ولم ير أحد نتيجة تفاعل إحدى الطبقات الاجتماعية فى الأخرى ، وربما كنا أكثر عرضة لأن نعد حياة الإسكندر وأعماله تاجا على مفرق بعض عمليات ، كانت قائمة على قدم منذ زمان بعيد ، وأن نعتبرها أوجا انتهى به تقدم وصعود ، ولا شك أنه كان كذلك من ناحية ما . بيد أننا نكون أقرب إلى الصدق بكثير ، حين نقرر أنها لم تكن نهاية قدر ما كانت بداية ، فكانت أول كشف من الخيال الإنسانى عن وحدة الأمور الإنسانية ، وكان أقصى ما بلغه فكر بلاد الإغريق قبل زمانه ، هو النظر فى فكرة صبغ الإمبراطورية الفارسية بصبغة هيلينية ، وفى بسط سيادة المقدونيين والإغريق على العالم . ولكن قبل أن يقضى الإسكندر نحبه ، بل وبعد أن مات وتهيأ للناس الزمن اللازم لإعادة التفكير فيه ، كانت فكرة إيجاد قانون ونظام للعالم ، قد أصبحت فكرة عملية استطاعت أن تتمثلها عقول الناس .

وظل الإسكندر الأكبر بضعة أجيال وهو فى عين العالم رمز النظام والسلطان العالمى وعنوانهما الماثل ، فأصبح كائنا خرافيا ، وإن رأسه المزدانة بالرموز المقدسة لهرقل نصف الإله أو للإله أمون رع ، لتبدو على عُملة كل من استطاع من خلائفه أن يدعى لنفسه أنه وارثه . ثم حمل لواء فكرة السيادة العالمية ، شعب آخر عظيم هو الرومان ، وهو شعب أظهر طوال عدة قرون نبوغا سياسيا يعتد به ، وقد حجب شخص مغامر بارز آخر هو قيصر ، ضياء الإسكندر فى أنظار النصف الغربى من العالم القديم .

وعلى هذا فإنا عند مستهل القرن الثالث ق . م ، نجد ثلاثا من الفكرات الإنشائية العظيمة التى تتسلط على عقل الجنس البشرى المعاصر ، قد أخذت تترعرع من قبل فى المدنية الغربية للعالم القديم . ولقد تتبعنا فيما سلف تحرر الكتابة والمعرفة وتخلصهما من الأسرار

المرحلة التالية
في
تفكك امبراطورية الإسكندر
في النصف الأول من القرن الثالث
قبل الميلاد

(٨٧)

والخفايا والمبادهات التي كان يبثها كهانات العالم القديم ، وتطور فكرة العرفان العام ، وفكرة التاريخ والفلسفة التي يمكن فهمها ونقلها بين جميع الناس عامة . واتخذنا من شخصى هيرودوت وأرسطو شاهدين نموذجيين على هذه الفكرة العظيمة الأولى ، فكرة العلم ، مع استعمال كلمة العلم بأوسع معانيها وأصحها لتشمل التاريخ وتدل على صورة واضحة للإنسان فى علاقته بالأشياء المحيطة به . وقفونا أيضا تعميم الديانة عند البابليين واليهود وغيرهما من الشعوب السامية ؛ منتقلة من العبادة الخفية فى المعابد والأماكن المقدسة لبعض الأرباب المحليين أو القبيليين ، إلى عبادة علنية (لإله واحد عام للصلاح والتقوى) مَعبده العالم بأسره . وتتبعنا أيضا منذ هنيهة ظهور أول جرثومة لفكرة (سياسة عالمية) ، أما باقى تاريخ الجنس البشرى فهو فى معظمه تاريخ لهاته الفكرات الثلاث ، وهى فكرة العالم ، والصلاح العام ، والخير العام للجنس البشرى فى أثناء ذيوعها وانتشارها من أذهان النادرين الأفذاذ من الأفراد والشعوب التى نبتت فيها لأول مرة ، إلى أن تصير جزءاً من الوعى العام للجنس البشرى ، وحين تسبغ عليه فى مبدأ الأمر لوناً جديداً ، ثم تعيره روحا جديدة ، ثم توجهه توجيها جديداً فى الشئون الإنسانية .

الفصل الثالث والعشرون

العلم والدين فى الإسكندرية

١ — علم الإسكندرية . ٢ — فلسفة الإسكندرية .
٣ — الإسكندرية مصنعا للديانات . ٤ — الإسكندرية والهند .

---

١ — علم الإسكندرية

كانت مصر من أشد أجزاء إمبراطورية الإسكندر الأكبر العالمية الوجيزة الأمد ، نجاحا ورفاهة . وكانت من نصيب بطلميوس الذى عرفنا فيه من قبل صديقا من أصدقاء الإسكندر الذين نفاهم الملك فيليب .

وكان القطر على مبعدة تجعله فى حرز حريز من الغال السالبة وبارثيا الناهبة . وكان تدمير صور والقضاء على البحرية الفينيقية وإنشاء الإسكندرية ، قد أتاحا لمصر سلطانا ورفعة بحرية موقوتة فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، فنمت الإسكندرية نموا هيأ لها أن تنافس قرطاجنة وأصبح لها فى الناحية الشرقية تجارة خارجية عن طريق البحر الأحمر مع بلاد العرب والهند . ونافست تجارتها فى الناحية الغربية التجارة القرطاجية . وكتب لأهميتها التجارية أن تعمر قرونا عديدة كما قدر لها كذلك أن تبلغ بالفعل أقصى مدى لها فى ظل أباطرة الرومان .

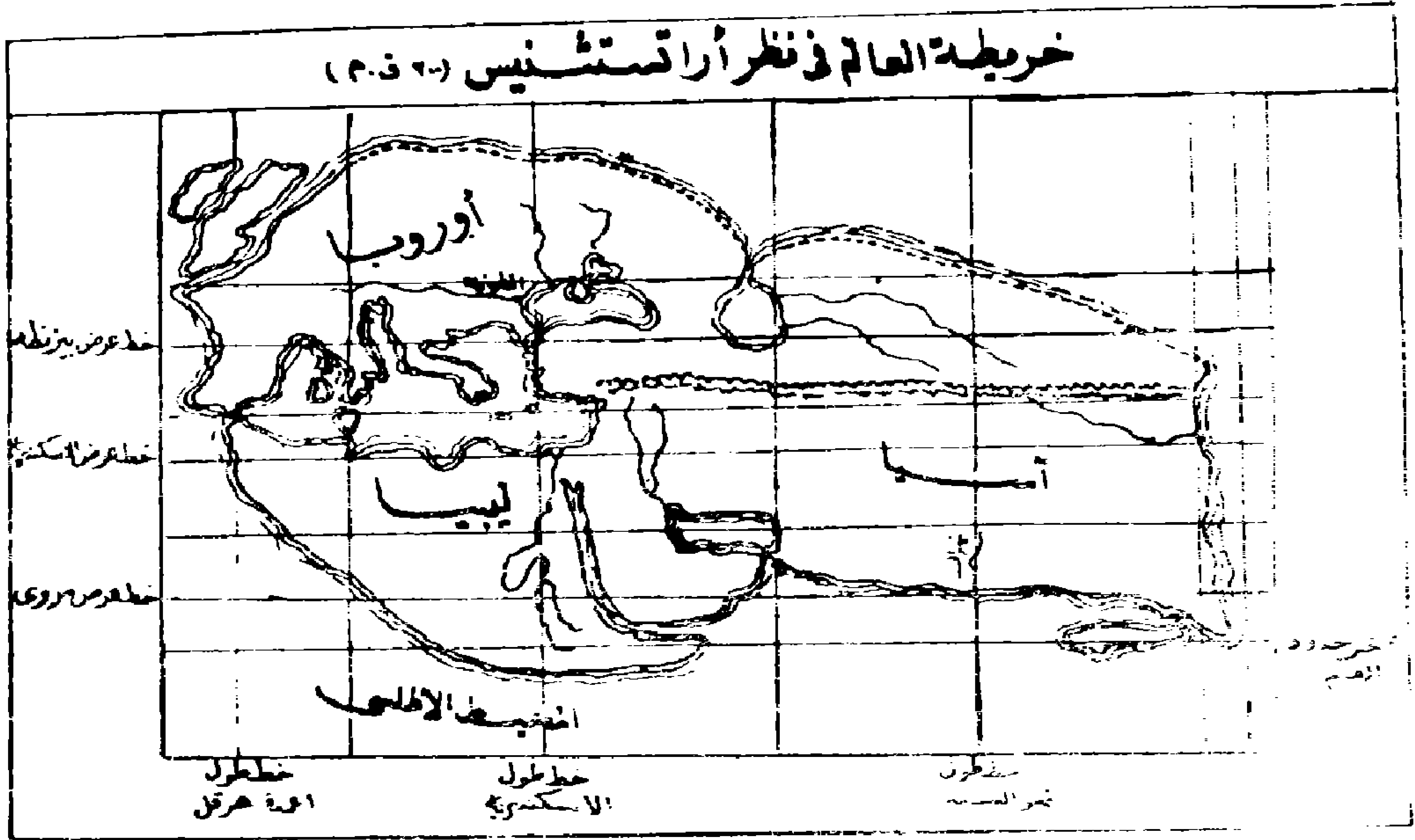
ووجد المصريون فى حكام البطالمة من مقدونيين وإغريق حكومة أشد عطفا وأكثر تسامحا من أى حكومة عرفوها — الدهر — منذ أن انتهى عهدهم بحكومتهم الإمبراطورية المستقلة . وفى الحق أن مصر هى التى غزت البطالمة سياسيا وضمتهم إليها أكثر من أن المقدونيين هم الذين سادوا مصر .

كان هناك تحول نحو الأفكار السياسية المصرية يفوق بأجلى مظهر كل محاولة بذلت لصبغ حكومة البلاد بصبغة هيلينية . وأصبح بطلميوس هو الفرعون ، والملك الإله ، وواصل بنظامه الإدارى التقاليد القديمة من عهد بيبى ، وتحتمس ، ورمسيس ، ونخاو . وكان للإسكندرية مع ذلك ، دستور من طراز دساتير المدن الإغريقية يصرف الشئون الداخلية للمدينة ، ويخضع لسيادة فرعون الإلهية . وكانت لغة البلاط والحكومة هى اللغة الإغريقية

الأتيكية . وأصبحت الإغريقية اللغة الشائعة بين طبقة المتعلمين فى مصر إلى حد أن الجالية اليهودية هناك ، وجدت لزاما عليها أن تترجم التوراة إلى اللغة الإغريقية ، إذ لم يعد كثير من بنى جنسهم قادرين على فهم العبرانية . ولبثت الإغريقية الأتيكية قبل المسيح وبعده ببضعة قرون لغة جميع المتعلمين من البحر الأدرياتى إلى الخليج الفارسى .

ويبدو أن بطلميوس وهو أحد الشبان الذين أحاطوا بالإسكندر ، قد انفرد وحده ببذل أقصى جهده فى تحقيق الأفكار المنطوية على تنظيم المعرفة تنظيما دقيقا كما أوحاها وبثها أرسطو فى بلاط فيليب المقدونى . وكان بطلميوس رجلا مواهبه الذهنية من الخوارق يجمع بين قوة الابتكار والتواضع ويخامر نفســه استخفاف — لا يغيب عنا سببه — بالأثر الوراثى الذى خلفته أوليمبياس فى عقل الإسكندر . وكان التاريخ المعاصر له عن حملات الإسكندر قد فنى وباد . ولـكنه كان منهلا استقت منه جميع الروايات الباقية وكانت له مدينة بأعظم الفضل .

وكان المتحف الذى أقامه فى الإسكندرية أول جامعة فى العالم لا جرم ، وكان المتحف كما يدل عليــه اسمه باللغات الأجنبية ، موجها لخدمة التاسوع الإلهى (Muses أى عرائس الشعر والأدب وسائر الفنون) ، وكذلك كان شأن مدرسة المشائين فى أثينا ، ولـكنه كان هيئة دينية ، من الناحية الشكلية فقط ، وذلك بسبب الرغبة فى التغلب على الصعوبات القانونية الخاصة بالهبات المالية فى عالم لم يسبق له أن توقع شيئا من طراز هذه الحركة الفكرية العلمانية ، وكان بالضرورة كلية مكونة من علماء يعنون بصفة خاصة بالبحث العلمى والتدوين على أنهم يشتغلون أيضا إلى حد ما بالتعليم ، وأنتج المتحف الإسكندرى بادئ ذى بدء ، وفى مدى جيلين أو ثلاثة ، نخبة من العلماء لم تستطع أية مدينة أن تضارعها حتى أثينا فى أزهى عصورها . وكان الإنتاج الرياضى والجغرافى بالغ الصحة والدقة بوجه خاص . وإن أسماء إقليدس Euclid المعروف لـكل تلميـذ ، وإراتوسثنيز Eratosthenes الذى قام بقياس حجم الأرض ووصل إلى ما يدانى القطر الحقيق بخمسين ميلا ، وأبولونيوس الذى كتب عن القطاعات المخروطية ، لتبرز ظاهرة بين أسماء العلماء . وقام هيبارخوس (Hipparchus) بأول محاولة لعمل سجل للنجوم وإثباتها على خريطة بغية تسجيل ما عساه أن يحدث فى السماء من تغيرات يمكن الرجوع إليها ، واستحدث هيرون Hero أول آلة بخارية . وجاء أرشميدس Archimedes إلى الإسكندرية يطلب العلم ، وظل يراسل المتحف بين الآونة والأخرى . ولا تقل مدرسة الطب بالإسكندرية عن المتحف شهرة . ولأول مرة فى تاريخ العالم وضع بها مستوى علمى لمحترفى مهنة الطب . ويقال إن هيروفيلوس Herophilus أعظم رجال



(٨٨)

التشريح الإسكندريين ، قام بعملية تشريح مجرمين المحكوم عليهم بالإعدام وهم أحياء ، ولكن بعض المعلمين الآخرين طعنوا على دراسة التشريح معارضة منهم لهيروفيلوس حقدا عليه ، وساهموا فى تطور علم العقاقير .

على أن هذه الشعلة العلمية فى الإسكندرية لم تستمر أكثر من قرن . إذ أن تنظيم المتحف لم يكن مرعيا فيه أن يضمن الاستمرار فى الإنتاج الفكرى ، لأنه كلية (ملكية) ولأن الأساتذة والزملاء فيه (كما يجوز لنا أن نسميهم) كانوا يعينون من قِبل الفرعون ويتناولون منه مرتباتهم . ويقول (ماهاف) « إن الطابع الجمهورى الذى اتسمت به الهيئات الخاصة التى تسمى بالمدارس والأكاديميات فى آثينا كان أكثر ثباتا وأشد استقلالا بكثير » ، إذ كانت الرعاية الملكية شيئا مقبولا مستساغا ما دام الفرعون هو بطلميوس الأول أو الثانى ، على أن النسل انحط ، وسرعان ما طغت تقاليد الكهانة القديمة العهد بمصر على البطالمة وابتلعتهم ابتلاعا وقضت على عقلية المتحف الأرسطوية قضاءاً تاما . ولم يكد يمضى على المتحف مئة سنة حتى خبا نشاطه العلمى .

وإلى جوار المتحف وبالإضافة إليه ، أنشأ بطلميوس الأول لنفسه أثرا أشد خلودا هو المكتبة العظيمة . وكانت تجمع بين مكتبة الدولة ، ودار نشر الدولة حيث يجرى العمل على معدل لم يسمع بمثله الناس حتى ذلك الحين . وأتاحت لها المقادير أن تتجه اتجاها تاما إلى الناحية الموسوعية . فلو أحضر أى شخص غريب إلى مصر كتابا غير معروف ، كان لزاما

عليه أن يقدمه لينسخ ويضاف للمجموعة ، وكانت طائفة كبيرة من الناسخين تستخدم على الدوام فى عمل نسخ من جميع التواليف ذات الشهرة والأهمية الواسعة . وكان للمكتبة شأن مطبعة الجامعة ، تجارة مع الخارج . فكانت مهمتها بيع الكتب ، وكان تنظيم ما يتجمع من الكتب وترتيبها وكتابة الفهارس لها ، عملا يتم بغاية الضبط والنظام ، تحت إشراف كاليماخوس ، رئيس المكتبة أيام حكم بطلميوس الثانى والثالث .

ولا بد لنا أن نتذكر أن الكتب لم تكن فى تلك الأيام تأتلف من صفحات ، بل كانت ملفوفة ، كاللفائف الموسيقية عند لاعبى البيانو العصريين ، وكان لزاما على القارئ الذى يبغى أن يرجع إلى أية فقرة بعينها أن يلف الكتاب خلفا أو يلفه أماما لفا متعبا ، وهى عملية كانت تبلى الكتب وتبعث الملال فى القراء على السواء . ولقد يفكر المرء من فوره فى آلة صغيرة بسيطة قريبة إلى الذهن يمكن أن تلف بها مثل تلك اللفة جيئة وذهابا حين تعن الرغبة فى الرجوع إلى الكتب ، ولكن لم نسمع أن قد استعمل شىء من ذلك القبيل . ففى كل مرة يقرأ فيها الكتاب تتناوله يدان تسحان عرقا . وقد عنى كاليماخوس بتقليل مضيعة الوقت والتعب حين قسم المؤلفات الطويلة ، أمثال تاريخ هيرودوت ، إلى (أسفار) أوأجزاء ، كما قد نسميها ، وجعل كل سفر لفة منفصلة واجتذبت مكتبة الإسكندرية إليها من الطلاب عدداً يفوق كثيرا جدا عدد من استهواهم معلمو المتحف . وكان إسكان هؤلاء الزوار الآتين من كافة أصقاع المعمورة وتموينهم عملا تجاريا يعود بجزيل الخير على سكان الإسكندرية .

ومن عجب أن يلحظ المرء مبلغ التقدم والتحسن فى التركيب الآلى لوسائل الحياة العقلية وما على القارئ إلا أن يفاضل بين مايلقاه من تسهيلات فى المكتبة العادية بمنزل إنجليزى من طبقة متوسطة ، مثل التى يشتغل فيها الآن كاتب هذه السطور ، وبين المتاعب ونقص المعدات اللذين كان يكابدهما كاتب إسكندرى ، يتبين له عظم مضيعة الزمن ، والجهد الجسمانى ، وفرط العناية والانتباه التى ظلت تنفق خلال كل القرون التى ازدهرت فيها تلك المكتبة . وبين يدي الكاتب الآن ستة كتب ، لثلاثة منها فهارس جيدة ، فهو يستطيع أن يتناول أيا من هذه الكتب شاء ، وأن يرجع فى سرعة إلى خبر من أخبارها ، ويحقق اقتباساً يقتبسه ، ثم يتابع كتابته . وما عليك إلا أن توازن بين هذه الخفة فى العمل وبين الملل المسئم من فك لفات المخطوطات الملففة .

وفى متناول يدى الآن موسوعتان وقاموس وأطلس للعالم ، وقاموس تراجم حياة الشخصيات ، وغيرها من كتب المراجع ؛ وليس بها والحق يقال فهارس هامشية ، ولكن



(٨٩)

لعل فى هذا طلبا لأكثر مما يلزم فى الوقت الحاضر . ولم تكن أمثال تلك المراجع توجد فى العالم فى ٣٠٠ ق . م . وكان لا يزال منوطا بالإسكندرية أن تنتج أول أجرومية وأول قاموس .

وكتابى هذا الماثل بين يدى مكتوب باليد فى مخطوط ، ثم يأخذه من يكتبه على الآلة الكاتبة بأعظم الدقة ، ويمكن عند ذاك أن يقرأ وأن يراجع ، بأقصى غاية الراحة ، وأن يصحح تصحيحاً وافياً ، ويعاد تصحيحه ، فأما المؤلف الإسكندرى فكان عليه أن يملى أو ينسخ كل كلمة كتبها ، وقبل أن يرجع إلى ما قد كتب آنفا ، كان عليه أن ينشف آخر كلماته بتلويحها فى الهواء أو صب الرمل عليها ، فلم يكن لديه حتى ورق النشاف . فكل ما يكتبه المؤلف كان لا بد من نسخه مراراً وتكراراً قبل أن يصل إلى أية دائرة واسعة من القراء ، وكان كل ناسخ يدخل فى الكتاب بضع غلطات جديدة ، وكانت الكتب الجديدة تملى على حجرة مملوءة بالنساخين ، وبذلك تصدر فى طبعة أولى ذات بضع مئات على الأقل . ويلوح أن مؤلفات

هوراس (Horace) وفرجيل (Virgil) كانت تصدر فى روما فى طبعات كبيرة جداً ، فإذا احتاج الأمر إلى الخرائط والرسوم البيانية ، قامت صعوبات أخرى جديدة . وإن عِلماً كعلم التشريح مثلا ، فى اعتماده المعروف على الرسم الدقيق ، كان يعاق لامحالة عوقا هائلا بسبب مقدرة النساخين الطبيعية المحدودة . ولا بد أن انتقال الحقائق الجغرافية كذلك ، كان أمراً شاقا إلى حد لا يكاد يتصوره عقل . ولا ريب أنه سوف يأتى يوم تبدو فيه مكتبة خصوصية ومكتب من طراز سنة ١٩٢٥ ب . م ، سمجين متأخرين إلى حد عجيب . بيد أنهما إذا قيسا بمعايير الإسكندرية اتضحت فيهما السرعة والوفاء بالغرض ، والاقتصاد فى الطاقة العصبية والعقلية إلى درجة مدهشة .

وليس يبدو أن أحداً فى الإسكندرية حاول البتة أن يطبع ، وربما خطر هذا الأمر فى بال الإنسان بوصفه حقيقة عجيبة جدا . وكانت صيحة العالم فى طلب الكتب تملأ الآفاق ، ولم تكن صيحته لمجرد الكتب وحدها ، إذ كان بالناس عامة ، حاجة ماسة إلى البيانات والإعلانات والتصريحات والإشهارات ، وما إليها . ومع هذا فلم ينجم فى تاريخ المدنيات الغربية شىء يستطيع الإنسان أن يسميه طباعة حتى القرن الخامس عشر ب . م . وليس الأمر أن الطباعة كانت فنا مستعصيا أو متوقفا على ظهور مستكشفات سابقة وأولية ، وإنما الطباعة من أشد الحيل وضوحا ، وكانت فكرتها معروفة على الدوام . وكما سبق أن ذكرنا آنفا ، فإن هناك دلائل تحملنا على الاعتقاد بأن رجال الفترة المجدلينية فى العصر الباليوليثى ، ربما كانوا يطبعون أشكالا على أثوابهم الجلدية . وهل كانت أختام « سومر » القديمة إلا ضرباً من وسائل الطباعة ؟ وما العملة إلا معادن مطبوعة . كما أن الأميين فى كل عصر يستعملون أختاما من الخشب أو المعادن فى توقيعاتهم . ويروى التاريخ أن وليم الأول فاتح إنجلترا النورماندى ، مثلا ، كان يستعمل مثل هذا الخاتم مع الحبر فى توقيع الوثائق . وكانت الآداب القديمة فى الصين تطبع إبان القرن الثانى ق . م . ومع ذلك فإن الطباعة لم تستعمل قط ، بل لم تستعمل حتى فى الإنتاج المضبوط الخاص بالصور ، وذلك إما لسبب يرجع إلى مجموعة من الصعوبات الصغيرة حول الحبر أو ورق البردى أو حول شكل الكتب ، أو بسبب المقاومة التى قد يبديها أصحاب العبيد النساخين وقاية منهم لمصالحهم ، أو لأن النسخ كان من السرعة والسهولة بحيث لا يحفز الناس إلى التفكير فى طريقة للكتابة تفوقه سهولة ، كما كانت الكتابة الصينية والحروف القوطية تحفز الناس على

التفكير ، أو بسبب وجود ثغرة فى النظام الاجتماعى تباعد بين رجال الفكر والمعرفة من ناحية وبين رجال المقدرة الفنية من ناحية أخرى .

وينحصر السبب الرئيسى فى هذا النكوص عن تطوير الطباعة بطريقة منظمة ، ولا مراء ، فى عدم وجود كمية كبيرة من المادة القابلة للطبع ذات النسيج المتسق والقطع المربع . وكان مقدار الناتج من ورق البردى محدودا أضيق تحديد . إذ كان لا بد من شبك السلخة إلى السلخة ، ولم يكن هناك حجم معيارى لفرخ الورق ، فكان لا يزال على الورق العادى أن يأتى من بلاد الصين ليطلق ذهن أوربا من عقاله . فلو كانت هناك مطابع لاضطرت أن تنتظر فى خمول وركود حتى تصنع لفات البردى على عادتها من البطء والمهل . على أن هذا التفسير لا يبين أسباب النكوص عن استعمال الطبع بالكتل فى حالة الصور والرسوم البيانية .

وهذه التحديدات والقيود تعيننا على أن نفهم لماذا حدث أن استطاعت الإسكندرية على الفور الحصول على أشد الانتصارات الذهنية خرقا للمعتاد . ذلك لأن عملا عظيما كعمل إراتوستنيز مثلا ، إذا راعينا افتقاره إلى الأجهزة ، كان يكفى لرفعه إلى مصاف نيوتن وباستير — وليس له مع ذلك إلا مالا يكاد يذكر من الأثر على مجرى السياسة أو على حياة وأفكار الناس من حولها . وكان متحفها ومكتبتها مركزاً للنور ، بيد أنه كان نورا فى فانوس معتم مخبأ عن العالم جميعا . ولم تكن هناك وسيلة لإبلاغ نتائج أبحاثه إلى الناس عامة حتى أشدهم عطفا عليه ، إلا بطريقة مملة هى كتابة الرسائل .

ولم يكن فى الإمكان نقل ما كان معروفا هناك من العلم إلى جموع الناس عامة . وكان لزاماً على الطلاب أن يحضروا متكبدين باهظ النفقات إلى هذا المركز المزدحم ، إذ لم يكن ثمة أى وسيلة أخرى للتحصيل مهما صغر قدره . وكان فى أثينا والإسكندرية مكاتب وراقين يمكن أن تشترى منها دفاتر المذكرات المخطوطة من مختلف الأصناف بسعر معقول ، على أن أى توسع فى التعليم يدفع به إلى طبقات أوفر عدداً ويحمله إلى مراكز أخرى كان ينتج على الفور نقصا فى ورق البردى يضيّق على تلك التوسعة ويحددها . وإذن فلم يصل التعليم البتة إلى الجماهير ، وكان لزاماً على المرء إن شاء أن يكون تعليمه عميقا غير سطحى ، أن يعتزل حياة دنياه العادية ، وأن ينتقل إلى الإسكندرية ليعيش فيها عيش الحائم فى جيرة حكماء مزودين أسوأ تزويد ومرهقين بالأعمال أيما إرهاق . ولم يكن التعليم فى الحقيقة ، انسحابا تاما من الحياة العادية على نحو ما كان الدخول فى الكهانة ، بيد أنه كان مع هذا شيئا من هذا القبيل .

وما أسرع ما ذوى من الإسكندرية ذلك الشعور بالحرية ، وتلك الصراحة والاستقامة فى الإدلاء بالعلم التى هى الجو الحيوى للحياة الذهنية الحقة ، وأحيطت المناقشات السياسية منذ البداية بجو من التضييق. وقد ترتب على الرعاية الملكية حتى تلك التى يوليها بطلميوس الأول نفسه ، أن قامت الحدود تضيق على كل مناقشة سياسية .

وسرعان ما أدت الشحناء بين المدارس إلى إدخال خرافات سوقة المدينة وسوء تحاملهم وتحزباتهم إلى الأمور العلمية فى هذا المحيط الأكاديمى ، وزالت الحكمة من الإسكندرية وتركت من خلفها الحذلقة ، واستعيض عن استعمال الكتب بعبادة الكتب . وسرعان ما أصبح العلماء طبقة تخصص عجيبة ذات خصائص مميزة كريهة .

ولم ينقض على المتحف ستة أجيال حتى عرفت الإسكندرية طرازا جديدا من المخلوقات البشرية : رأت فيه مخلوقا خجولا ، شاذ الطباع ، غير عملى ، لا يقدر على ضرورات الحياة ، شرساً أعجب الشراسة على التوافه المتعلقة بالتفاصيل الأدبية ، يغار من زميله فى الداخل مرير غيرته من الجاهل فى الخارج — ذلك هو الرجل اللوذعى العلامة ! ! كان والكاهن فرسَىْ رهان فى التعصب وعدم التسمح ، وإن لم يكن صاحب مذبح . يميل إلى الغموض والإبهام ميل السحرة ، وإن لم يكن له كهف يكتهفه ، ولم تكن أية وسيلة من وسائل النسخ مهما صعبت شاقة عليه . ولا كان أى كتاب مهما ندر بعيد المنال على يده ، وكأنى به فى عقمه وفسولته ضرباً من الإنتاج الطفيلى النامى على هامش الحياة فى التطور الفكرى . وقد كتب لشعلة الذكاء البشرى الحديثة الاشتعال أن تحد حدا كبيراً بقيود خطرة بسبب هذا الإنتاج الطفيلى طوال أجيال كثيرة نفيسة .

٢ — الفلسفة فى الإسكندرية

كانت عمليات النشاط العقلى الإسكندرى (تتمركز) فى المتحف فى بداية الأمر ، وهى فى معظمها علمية ، والفلسفة التى كانت فى عصر سابق ، يفوق هذا العصر حيوية وقوة ، تقوم على مبادئ القوة على النفس والعالم المادى ، قد أصبحت فى الحقيقة مبدأ من مبادئ السلوى الخفية ، وإن لم تتنكر لالتزاماتها ومرعياتها . وتحول الحافز إلى مسكِّن . فإن الفيلسوف ترك العالم وشأنه (ينعى من بناه) كما يقول السوقة ، وهو العالم الذى كان الفيلسوف جزءاً منه ، ثم أخذ يعزى نفسه بأن يحدثها فى صيغ جذابة ومنمقة جدا أن العالم

وهمٌ باطل ، وأن به هو شيئا من السموّ وخلاصة الحكمة يخرج به عن العالم ويرفعه عنه . وكانت أثينا أنسب المراكز لمثل هذا النوع من التعاليم الفلسفية بعد إذ أصبحت من الناحية السياسية غير ذات وزن ، وإن ظلت سوقا عظيما مكتظا فى طول القرن الرابع ، وبعد إذ داخلها الانحلال وإن لم يكن يدرك ذلك أحد ، ما بقيت للمدينة المظاهر الخارجية القديمة . وبعد أن أخذت تعامل باحترام عجيب مشوب بشىء من الاحتقار من جميع القوات المتحاربة ومن مغامرى العالم كافة . ومضى قرنان برمتهما قبل أن أصبحت لمدارس الإسكندرية نفس الدرجة من الأهمية فى المناقشات الفلسفية .

٣ — الإسكندرية مصنعاً للديانات

ولئن تأخرت الإسكندرية فى تطوير فلسفة تتميز بها ، فإنها بكرت فبرزت بوصفها مصنعا عظيما ، وسوقا كبيرا ، لتبادل الفكرات الدينية .

فإن المتحف والمكتبة كانا يمثلان ناحية واحدة من النواحى الثلاث لمدينة الإسكندرية الثلاثة المناحى ، فإنهما كانا يمثلان العنصر الأرسطوى ، والهلليني ، والمقدونى . على أن بطلميوس الأول كان قد جمع بين عاملين آخرين إلى هذا المركز الغريب ، فقد كان هناك أولا عدد عظيم من اليهود ، جلبوا من فلسطين من ناحية ، ولكن الكثير الغالب منهم أتوا من تلك المستقرات والمهاجر اليهودية فى مصر التى لم يعد أهلها قط إلى بيت المقدس . وكان هؤلاء الأخيرون هم اليهود المشردون فى أرجاء الأرض (Diaspora) وهم سلالة اليهود الذين لم يشتركوا فى الأسر البابلى ؛ وإن كانوا مع ذلك يحتفظون بالتوراة ويراعون أحكامها ويراسلون إخوانهم فى الدين مراسلة وثيقة فى كافة أقطار العالم .

وكان هؤلاء اليهود يسكنون فى حى من الإسكندرية بلغ من عظمه أن أصبحت المدينة أكبر المدن اليهودية فى العالم ، وبها من اليهود عدد يفوق عدتهم فى أورشليم . ولقد ذكرنا من قبل أنهم وجدوا من الضرورى أن يترجموا كتبهم المقدسة إلى اللغة الإغريقية .

وكان هناك أيضا عدد عظيم من المصريين الأهالى يتكلمون فى غالبيتهم الإغريقية ، ومعهم تقاليد أربعين قرنا من ديانة المعبد وقرابين المعبد مستقرة فى مؤخر أذهانهم . بذلك التقت فى الإسكندرية ثلاثة أنماط من العقل والروح ، هى الأنماط الرئيسية الثلاثة للجنس الأبيض . وهى تضم نقد الإغريقى الآرى الصافى الذهن ، والحماسة الأخلاقية ، والتوحيد

اليهودى السامى ، وتقاليد الخفايا والقرابين القديمة التى رأيناها من قبل تعمل فى النحل السرية والممارسات المكتومة فى بلاد الإغريق ، وهى فكرات كانت تتسلط مختالة صراحا وجهاراً فى المعابد العظيمة فى مصر الحاميّة .

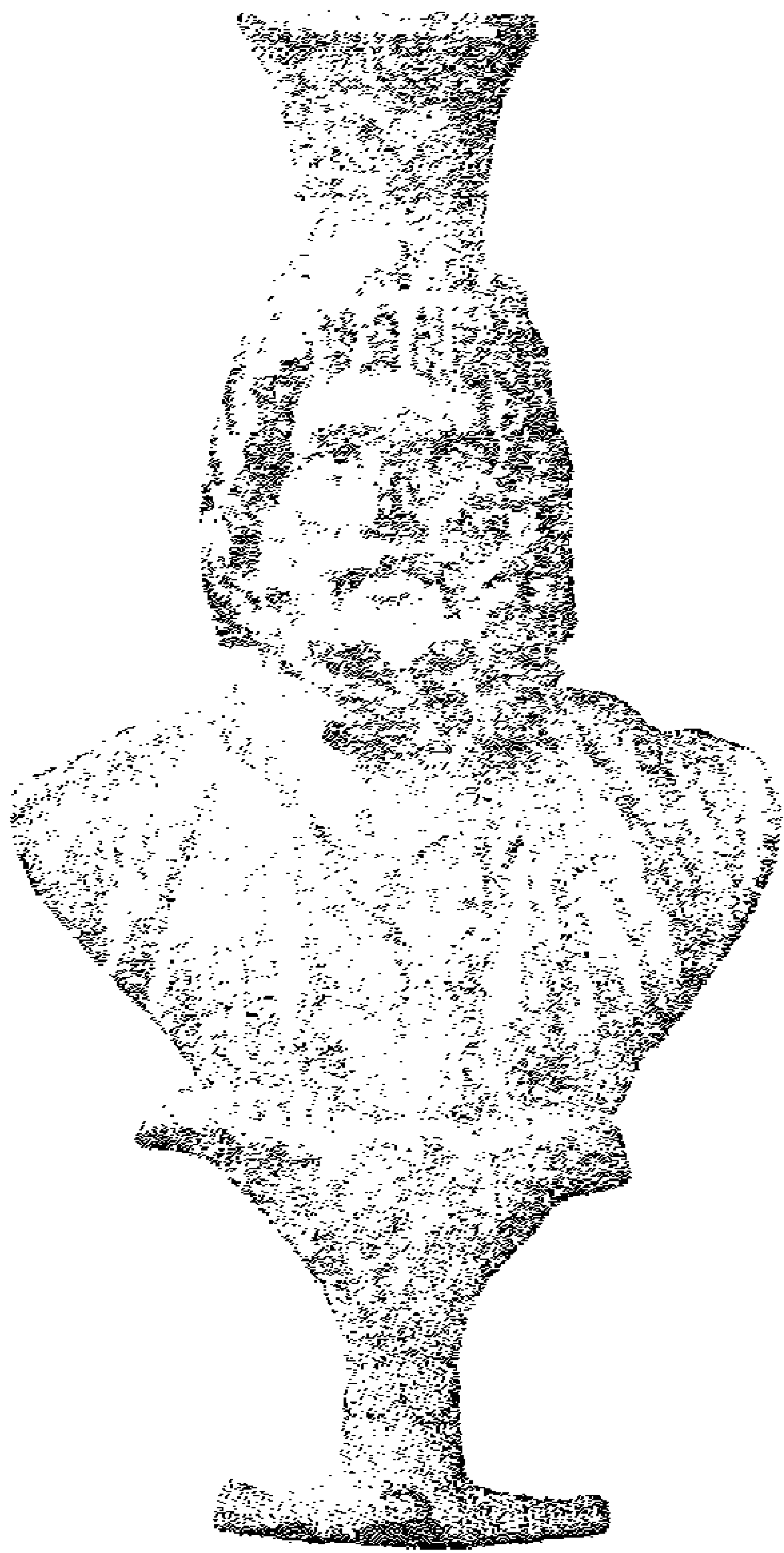
تلك هى العناصر الثلاثة الدائمة فى الخليط الإسكندرى ، ولكن المرافئ والأسواق أماكن يختلط فيها رجال من كل جنس معروف ، حيث يوازنون بين فكراتهم وعاداتهم الدينية . بل إنه يروى أنه حدث فى القرن الثالث قبل الميلاد أن حضر مبعوثون بوذيون من بلاط الملك أسوكا ببلاد الهند ، وكان هناك فيما بعد ، على التحقيق ، جالية من تجار الهنود فى المدينة .

ويلاحظ أرسطو فى كتابه « السياسة » أن معتقدات الرجال الدينية عرضة لأن تستعير صيغتها من النظم السياسية ، « فالرجال لا يقل تمثلهم لحياة الأرباب وضمها إلى حياتهم عن تمثلهم لأشكالها الجثمانية » ؛ وهذا العصر عصر الإمبراطوريات العظيمة الناطقة بالإغريقية وفى ظل ملوك أوتوقراطيين لا يتواءم وهؤلاء المشاهير المحليين ، الذين هم آلهة القبيلة والمدينة القدماء ، إذ كان الرجال يبتغون آلهة تبلغ من رحابة الأفق مبلغ اتساع الإمبراطوريات على الأقل ، وفيما عدا الأماكن التى تقف فيها مصالح الكهانات القوية حائلا يعترض الطريق ، فإن عملية عجيبة من التمثل كانت دائمة الحدوث بين الآلهة ، إذ وجد الرجال أنه وإن كثر عدد الآلهة ، فالتشابه بينها جميعا شديد جدا . وحيثما وجدت آلهة كثيرة ، أخذ الناس يظنون أنه لا بد أن يكون هناك فى الحقيقة إلٰه واحد فقط له أسماء متعددة ، وأنه يتسمى فى كل مكان باسم جديد فإن المشترى (Jupiter) الرومانى ، وزيوس Zeus الإغريقى ، وبعل ماردوك البابلى ، وآمون المصرى — وهو نفسه — آمون أبو الإسكندر المنتحل والخصم القديم لأمينوفيس الرابع — متشابهة كلها تشابها يكفى لكى تدل جميعها على ذاتية واحدة .

« أبو الجميع ، فى كل عصر
المعبود فى كل قُطر
يعبده القديس ، والمتوحش والحكيم
ياهوه ، جوبيتر أو الرب »

وحيثما وجدت فروق مميزة تغلبوا على الصعوبة بقولهم بأن تلك إنما هى أقانيم مختلفة لإلٰـه

واحد . وكان بعل ماردوك ، مع ذلك ، قد صبح آنذاك إلـها مضمحلا جداً بالفعل ، لا يكاد يعيش ولو بوصفه اسما مستعارا . فأما آشور ، وداجون ، ومن إليهما — وهى آلهة مسكينة قديمة تقادم عليها العهد لشعوب مقهورة — فإنها ذوت من الذاكرة منذ زمان بعيد ، فلم يكن لها محل فى ذلك المزج . فأما أوزيريس وهو رب محبوب لدى عامة المصريين ، سبق فعرف بأنه « أبيس » وهو العجل المقدس فى معبد « ممفيس » — فيخلط الناس بعض الشىء بينه وبين آمون . وهو تحت اسم سيرابيس — قد أصبح الرب العظيم للإسكندرية الهلينية .


٩٠ — سيرابيس

وكان هو « جوبيتر سيرابيس » . وكانت البقرة الربة المصرية ، هاتور أو إيزيس ، تمثل أيضا فى صورة إنسانية كزوجة لأوزيريس ، ولدت له الطفل حوريس الذى نما فأصبح أوزيريس ثانية . فهذه الحقائق المجردة لها رنة عجيبة ولا مراء فى العقل الحديث ، بيد أن مطابقة هذه الشخصيات بعضها مع بعض وهذا الخلط بين رب وآخر يوضح جيداً ذلك الكفاح الذى كانت تقوم به الفطنة الإنسانية الناهضة لكى تزيد فى تعلقها بالديانة وروابطها وزمالتها الوجدانية ، على حين كانت تجعل آلهتها أقرب إلى العقل وأكثر عموماً — فهذا الخلط بين رب وآخر يسمى باسم الثيوقراطية (Theocrasia) أى المزج اللاهوتى . ولم يحدث فى أى مكان أن سار الخلط بقوة تفوق قوة سيره فى الإسكندرية ، ولم يقاومه فى تلك الفترة إلا شعبان هما اليهود ، الذين كانت لهم من قبل عقيدتهم فى إلـه واحد هو ياهوه ، رب السموات والأرض ، والفرس ، الذين كانوا يدينون بعبادة إلـه الشمس الواحد .

وبطلميوس الأول هو الذى أقام — لا متحف الإسكندرية وحده — بل السيرابيوم (Serapeum) ، المكرّس لعبادة ثالوث من الآلهة كان يمثل نتيجة إحدى عمليات المزج اللاهوتى ، أعنى الثيوقراطية ، مطبقة على الأخص على آلهة بلاد الإغريق ومصر .

وكان هذا الثالوث يتكون من الرب « سيرابيس » (= أوزيريس + أبيس) والربة


٩١ — إيزيس وحوريس

إيزيس (= هاتور ، الربة البقرة ، القمر) ، والرب الطفل حوريس . وقد أوشك الأمر أن يبلغ حالة يكون فيها كل رب من الأرباب الأخرى تقريبا معبوداً ، يمكن أن تطبق شخصيته بطريقة ما أو بأخرى ، على هيئة أو أخري من تلك الهيئات الثـلاث للرب الواحد ، لايستثنى من ذلك حتى إلـه الشمس متراس (Mithras) عنـد الفرس . وكان كل واحد منها هو الآخر ، كانت ثلاثة آلهة ، بيد أنها إلـه واحد ، وكانت تعبد بحمية عظيمة ، وكانت جلجلة آلة خاصـة هى الصـلاصل (السـستروم sistrum ، وهى إطار علقت به مجموعة من الأجراس ويستعمل على نسق يقارب طريقـة استعمال الدف فى فى حفـلات « جيش الخـلاص العصرى ») ، لازمة مميزة للاحتفالات الدينية .

وإنا لنجد الآن لأول مرة فـكرة الخلود — وقد أصبحت فـكرة الدين الرئيسية — تمتد خارج مصر ؛ وليس يبدو على الآريين الأول ، ولا على الساميين الأول ، أنهم اهتموا كثيرا بأمر الخلود ، وكذلك كان أثر هذه الفكرة فى العقل المغولى طفيفا جدا ، على أن استمرار حياة الفرد بعد الموت كان منذ أقدم العهود ، شغلا شاغلا عنيفا للمصريين . فكان يمثل حينذاك دورا كبيرا فى عبادة سيرابيس ؛ وفى أدب العبادة فى نحلته كان يوصف بأنه « مخلّص الأرواح ومرشدها ، الذى يقود الأرواح إلى النور ثم يتلقاها من جديد » ؛ ويذكرون عنه أنه « يبعث الموتى ويعرض نور الشمس الذى يتلهف الناس شوقا إليه على الذين يبصرون ، وهم من تحتوى قبورهم الطاهرة على أحشاد من الكتب المقدسة » ، وكذلك « لسنا بمستطيعين أن نهرب منه أبد الدهر ، فإنه سوف يخلصنا ، ونحن لن نبرح بعد الموت موضع عنايته ورعايته » ، وكان إحراق الشمع فى الطقوس وتقديم النذور — وأعنى به تقديم نماذج مصغرة من أجزاء الجسم الإنسانى ، تكون فى حاجة إلى الإسعاف والعون — جزءا من العبادات فى السيرابيوم .

واجتذبت إيزيس إليها كثيرا من العباد المتبتلين ، الذين وهبوها حياتهم ؛ وكانت تقوم تماثيلها فى المعبد وهى متوجة بوصفها ملـكة السموات وهى تحمل طفلها حوريس بين ذراعيها والشموع تخفق وتذوب أمامها ، وتماثيل أجزاء الجسم الشمعية تتدلى حول المقصورة . وكان

الراهب المستجد يدخل فى مرحلة إعداد طويلة محكمة ، ويقسم الأيمان على العزوبة ، وعند ما يلقن مبادئ الأسرار ويقبل ، يحلق رأسه ويلبس ثوبا من الكتان . . .

وكان حوريس بن أوزيريس (سيرابيس) الوحيد المحبوب ، وهو أيضا إله الشمس ، وكانت الجعارين ذات الأجنحة المنشورة رمزاً له . وعند حدوث الكسوف ، عند ما تظهر الهالة الشمسية ، يكون لها شبه قوى بجناحى الجُعل (الجعران) المنتشرين . وكان حوروس « شمس الصلاح والبر وفى جناحيه البرء » وأخيراً «صعد إلى الرب» وأصبح والأب واحداً . وكان فى الديانة المصرية القدمى شفيع الخاطئين عند الأب ، وهو يصور فى « كتاب الموتى » الذى كان يدفن مع كل إنسان يستطيع دفع ثمن نسخة منه ، مدافعاً عن الموتى ، وكثيراً من التراتيل التى تنشد لحوريس ، تشبه بشكل فذ التراتيل المسيحية فى روحها وعبارتها ، فتلك الترنيمة الجميلة التى مطلعها « يا شمس حياتى ، يا أيها المخلص العزيز » ، كانت تغنى لحوريس يوما ما فى مصر .

فى هذه العبادة لسيرابيس (Serapis) التى انتشرت انتشارا عظيما فى جميع أقطار العالم المتمدن فى القرنين الثالث والثانى ق . م ، نرى أعجب البشائر المبشرة بعادات وطرق العبادة التى قدر لها أن تتسلط على العالم الأوربى طوال الحقبة المسيحية . والفكرة الجوهرية ، وهى الروح الحى فى المسيحية ، كانت — كما سنبين من فورنا — شيئا جديدا فى تاريخ عقل الإنسان وإرادته ، على أن ثياب الطقوس والرمز وقانون الإيمان Formula التى اتخذتها المسيحية ، والتى ما برحت ترتديها إلى يومنا هـذا فى كثير من الأقطار ، قد نسجت ، ولا مراء ، فى محلة ومعابد جوبيتر سيرابيس وإيزيس التى انتشرت عند ذلك من الإسكندرية إلى كافة أصقاع العالم المتمدن فى عصر الثيوقراطية (أعنى المزج اللاهوتى) فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد .

٤ — الإسكندرية والهند

استمرت أهميـة الإسكندرية التجارية قرونا طويلة ، ونحن إذ نتسلف الحوادث والبيان الذى سندلى إليك به من فورنا عن قيام الدولة الرومانية ، نستطيع أن نخبرك هاهنا أنه حدث فى ظلال الإمبراطورية ، أن أصبحت الإسكندرية أعظم مركز للتجارة فى العالم . وكان للتجار

الرومان الإسكندريين مستقرات ومهاجر عديدة فى جنوب الهند . إذ كان هناك فى كرانجانور (Cranganore) على ساحل مالابار معبد مكرس لاوغسطوس وكان يدافع عن المستقر فصيلتان رومانيتان . وقد أرسلت البعوث من لدن الإمبراطور إلى مختلف الملوك والأمراء فى جنوب الهند . زد على ذلك أن كلمنت (Clement) وكريسوستوم (Chrysostom) ، وآخرون من الكتاب المسيحيين الأول ، أشاروا إلى الهنود فى الإسكندرية وتحدثوا عن نحلهم .

الفصل الرابع والعشرون

قيام البوذية وانتشارها

---

١ — قصة جوتاما

من الشائق أن ينتقل الإنسان من أوجه النشاط العقلية والأخلاقية فى أثينا والإسكندرية ونمو الفكرات الإنسانية فى عالم البحر المتوسط ، إلى حياة الهند الذهنية التى تكاد تكون منفصلة انفصالا تاماً . فنى تلك البلاد مدنية تلوح كأنما نمت من أول أمرها على أسسها الخاصة بها وعلى صفات مميزة خاصة بها أيضاً ، مدنية كانت منقطعة الصلة عن المدنيات فى الشرق والغرب بفواصل جبلية هائلة وبأقاليم صحراوية فسيحة . ولم تلبث القبائل الآرية التى هبطت شبه الجزيرة أن فقدت بسرعة ، الاتصال بذوى قرباها فى الغرب والشمال وتطورت فى اتجاهات خاصة بها ، وكان هذا أكثر وضوحاً فيمن توغلوا حتى أرض الكنج وما وراءها ، إذ وجدوا مدنية منتشرة من قبل فى بلاد الهند هى المدنية الدرافيدية . نشأت هذه مستقلة مثلما يبدو أن قد نشأت المدنيات السومرية والكريتية والمصرية ، ناجمة عن ذلك التطور الفسيح المدى الذى ألم بالثقافة النيوليثية التى وصفنا خصائصها من قبل ، فبعثوا وغيروا هذه المدنية الدرافيدية مثلما بعث الإغريق المدنية الإيجية ، أو الساميون الحضارة السومرية .

وكان هؤلاء الآريون الهنود يعيشون فى ظروف مختلفة عما كان سائداً فى الشمال الغربى من ظروف ، فكانوا يعيشون فى مناخ أكثر دفئاً وحرارة ، يجعل الطعام المكون من لحم البقر والشراب المخمر ضاراً فتاكا ، فاضطروا لذلك أن يلتزموا تغذية نباتية محضة ، ووهبتهم تربة الأرض الخصبة من تلقاء نفسها — كل ما يحتاجون إليه تقريباً من طعام ، فلم يكن لديهم بعد ذلك ما يحدوهم على التجوال ، إذ المحاصيل والفصول مما يبعث على الطمأنينة ، وإذ حاجتهم إلى الكساء والمأوى طفيفة ، واحتياجاتهم قليلة إلى حد لم يساعد على ارتقاء التجارة .

وكان لا يزال هناك متسع من الأرض لكل إنسان يريد أن يزرع ، وكان كل امرئ يجد فى المساحة الصغيرة كفايته وفوق كفايته . أما حياتهم السياسية فكانت بسيطة مصونة نسبياً . فلم تنشأ فى الهند حتى ذلك الوقت أى قوى غازية عظيمة ، على حين كانت حدودها الطبيعية قمينة بالحد من أطماع الإمبراطوريات الاستعمارية الأولى فى غربها وشرقها . وانتشرت فى أنحاء البلاد آلاف من الجمهوريات القروية والرياسات الهادئة نسبياً ، ولم تقم فيها حياة بحرية ولا أغار عليها مغيرون من القراصنة ولا تجار غرباء . ولقد يستطيع المرء أن يسطر تاريخاً للهند يصل إلى ما قبل يومنا هذا بأربعمئة عام ولا يكاد يذكر شيئاً عن البحر .

لبث تاريخ الهند قروناً عديدة أسعد حالا وأقل اضطرابا وأقرب إلى عالم الأحلام من أى تاريخ آخر . فكان النبلاء أى الرجاوات يمضون أوقاتهم فى الصيد . وكانت الحياة فى غالب أمرها تقوم على أقاصيص غرام ، وقد ينهض هنا وهناك (مهراجا) بين الراجاوات ويبنى مدينة ويصيد كثيراً من الفيلة ويستأنسها ويقتل كثيراً من النمور ويترك عن أبهته وأعماله المدهشة ومواكبه الفخمة روايات رائعة .

ومع ذلك فقد كان هناك بين الآريين المستشرقين حركة فكرية على أشد ما تكون من النشاط ، فألفت ملاحم عظيمة تناقلها الخلف عن السلف بطريق التواتر الشفوى ، إذ لم تكن هناك أية كتابة حتى ذلك الحين . وكان لديهم كذلك الشىء الكثير من التأمل الفلسفى العميق الذى لا يزال بحاجة إلى أن توضح علاقته بأنظمة الغرب الفلسفية .

وقد حدث فى وقت ما بين سنتى ٦٠٠ و ٥٠٠ ق م عند ما كان حكم قارون (كرويسوس) زاهراً فى ليديا ، وبينما قورش يعد العدة لاغتصاب بابل من نابونيداس أن ولد مؤسس البوذية فى الهند .

ولد فى مجتمع قبيلة جمهورى صغير فى شمالى البنغال تحت سفح الهملايا فى ماهو الآن أرض أجمات كثيفة على حدود نيبال . وكانت تحكم الدويلة عائلة هى عشيرة ساكيا التى كان سيذاتا جوتاما أحد أفرادها . وكان سيذاتا هو اسمه الشخصى وجوتاما هو لقبه أو اسم عائلته وساكيا اسم عشيرته ، ولم يكن نظام الطوائف قد استقر بعد فى الهند تماما ولم يكن البراهمة — وإن كانوا ذوى امتيازات ونفوذ — قد كافحوا بعد حتى تبوأوا رياسة هذا النظام ، ولكن كانت هناك من قبل فوارق بين الطبقات شديدة ملحوظة كما كان هناك فاصل يمنع منعا باتاً تسرب طبقة الآريين النبلاء وطبقة العامة الأقتم لوناً ،

إحداها إلى الأخرى . وكان جوتاما ينتسب إلى الجنس الأول وربما استلفت أنظارنا أن تعاليمه كانت تسمى « الطريق الآرى أو الحقيقة الآرية » .

ولم يلم العالم إلماما صحيحا بحياة جوتاما وآرائه الحقيقية إلا فى نصف القرن الأخير وذلك نتيجة لازدياد الاهتمام بدراسة اللغة البالية (Pali) التى دونت فيها معظم المراجع الأصلية عنه ، وكان يكتنف قصته قبل ذلك أكداس هائلة من الأساطير . ولقد أساء الناس فهم تعاليمه أيما إساءة . على أن لدينا عنه الآن بياناً يصوره إنساناً معقولا .

كان جوتاما رجلا وسيم الطلعة قديراً ميسر الحال ، وقد ظل حتى بلغ سن التاسعة والعشرين يعيش عيشة زمانه الأرستقراطية العادية . ولم تكن هذه الحياة من الناحية الذهنية مما يبعث على تمام الرضا ، ولم يكن هنالك أدب اللهم إلا روايات شفوية للملاحم الفيدانتية (Vedantic Epics) وهذه ، كان البراهمة يحتكرونها بنوع خاص ، بل كان مقدار المعرفة أدنى من تلك ، وكان العالم فى نظرمن حوله من الناس تحده الهملايا المكسوة بالثليج شمالا ، ثم هو يمتد نحو الجنوب امتداداً لا آخر له . كما كانت مدينة بنارس التى يحكمها مَلكٌ تبعد عن مستقر عشيرته نحو مئة ميل . وكانت أهم وسائل التسلية القنص والغزل . واستمتع جوتاما بكل ما حفلت به الحياة من طيبات ، فتزوج فى سن التاسعة عشرة من ابنة عم له جميلة فظلا بضع سنين بلا أطفال ليث أثناءها يتصيد ويلهو وينتقل فى ربوع عالم بهيج يحظى ببساتينه ومروجه ويروى حقول أرزه . وبينما هوينعم بهذه الحياة وبهجتها حل به على الفجاءة سخط عظيم ، وما ذلك إلا شقاء ألم بذهن ممتاز متوقد يطلب العمل . كان جوتاما يتقلب بين ألوان من الوفرة وخفض العيش والجمال ، وينتقل من إشباع شهوة إلى إشباع أخرى ولم تكن روحه لتقنع أو ترضى ، وكأنما كانت مقدرات الجنس البشرى تهيب به، وكان يشعر أن الحياة التى يحياها ليست هى حقيقة الحياة وإنما هى عطلة — طال أمدها أكثر مما ينبغى .

وإنه لعلى تلك الحال إذا به يرى أشياء أربعة أدت إلى توجيه أفكاره وجهة جديدة ، فبينما هو يقود عربة فى إحدى رحلاته طلباً للذة والسرور ، إذ صادف رجلا قد أدنفته السن إدنافا ذريعا ، وقد اجتذب ذلك المخلوق المسكين المقوس القناة الواهن القوى انتباهه وحرك خياله ، وقال شانا (Channa) سائق عربته « هكذا نهج الحياة ولا بد لنا من أن نصل إلى هذا » وبينما كانت هذه الصورة ما تزال ماثلة فى ذهنه ، صادف رجلا يعانى آلاما مبرحة من مرض وبيل ، فقال شانا «هكذا نهج الحياة» وكان ثالث ما رآه جثة لم توارالتراب وقد انتفخت

وفقئت عيناها وخرقها الطير والوحش المار بها وهى فى جملتها فظيعة كل الفظاعة فقال شانا « هكذا نهج الحياة » .

(شكل ٩٢)

فالشمور بالمرض والفناء وتعرض كل سعادة للزوال وامتناع كل إرضاء للنفس فيها قد رانت على ذهن جو تاما . ثم رأى هو وشانا واحداً من أولئك الزهاد المتجولين الذين كثيراً ما كانوا يوجدون فى ذلك الزمان ومن قبله فى أعداد كبيرة بالهند . وكان هؤلاء الرجال يعيشون على قواعد قاسية يقضون الزمن الطويل فى التأمل والنقاش الدينى . وذلك أن رجالا كثيرين

ممن عاشوا قبل جو تاما فى تلك الأرض الوادعة أرض الشمس الساطعة الوهاجة ، وجدوا الحياة محزنة خفية . وكان الظن السائد أن هؤلاء الزهاد بأجمعهم إنما يطلبون حقيقة من حقائق الحياة أشد عمقا وأبعد غوراً . فتملكت جو تاما رغبة عنيفة أن ينحو نحوهم .

وتقول القصة إنه كان يفكر فى المشروع عند ما بلغه أن زوجته وضعت له بكر أبنائه ، فقال جو تاما « وهذه رابطة أخرى علينا أن نفصمها » .

عاد إلى القرية يحف به استبشار رجال عشيرته واغتباطهم وأقيمت وليمة عظيمة ورقصت الراقصات احتفالا بمولد هذه الرابطة الجديدة . وتيقظ جو تاما فى الليل وهو فى آلام روحانية كأنما هو إنسان ريع بالتهام النار منزله . وكانت الراقصات راقدات فى الردهة وقد علتهن خطوط متعاقبة من الظلمة وضوء القمر ، فنادى شانا وأمره أن يعد حصانه ثم انسل إلى عتبة غرفة زوجته ، ورآها فى نور سراج زيتى صغير تنام نوما هادئا يحيط بها الأزهار وبين ذراعيها ابنه الرضيع فأحس فى نفسه حنيناً شديداً إلى تناول الطفل فى عناق وحيد يكون الأول والأخير قبل رحيله ، بيد أن خشيته إيقاظ زوجته منعته . وأخيراً انطلق إلى ضياء القمر الهندى المتلألئ وكان شانا ينتظره بالخيل فامتطى جواده وانطلق به يخبط على غير هدى .

وبينا هو يسير تحت جنح الليل مع شانا ، خيل إليه أن الشيطان « مارا » (مغرى الجنس البشرى) يملأ عليه فجاج السماء ويدافعه ويصارعه . « كان مارا يهيب به أن عد حيث كنت أجعلك ملكا ولسوف تكون أعظم الملوك ، أو سر فى طريقك تفشل لا محالة فإنى لن أكف الدهر عن ملاحقة قدميك وليكشفنك آخر الأمر الطمع أو الحقد أو الغضب فى بعض فلتات خطئك ولتصبحن ملك يمينى إن عاجلا وإن آجلا . »

وقطعا فى تلك الليلة مسافة شاسعة ، فلما أن أشرق الصباح وكان قد اجتاز أرض عشيرته ، ترجل إلى جوار نهر رملى الشاطئين ، وهناك قطع بسيفه ذوائبه المهدلة وأماط عنه كل حلية وردها مع جواده وسيفه إلى منزله بصحبة « شانا » . حتى إذا واصل مسيره التقى من فوره برجل فى أسمال بالية فتبادل وإياه الثياب بعد أن أماط عن نفسه كل العوائق الدنيوية ، وبذلك أصبح حراً فى أن يتابع بحثه عن الحكمة فاتخذ طريقا جنوبيا إلى مأوى للنساك والمعلمين فى طنف[1] يؤدى إلى البنغال فى شمال جبال الفنديا بالقرب من مدينة رادجير . وهناك كان يعيش عدد من الحكماء فى أرض للصيد ذات كهوف يترددون على المدينة لقضاء مطالبهم وينشرون المعرفة بين من يعنون بالاختلاف إليهم .

(١) الطنف : ما نتأ فى الجبل .

ولا بد أن هذا التعليم كان ، إلى حد كبير ، على نسق المحاورات السقراطية التى كانت تتجاذب فى أثينا بعد ذلك بقرنين من الزمان . وألم جوتاما بكل غيبيات (متافيزيقا[1]) عصره على أن فطنته المرهفة لم تكن لتقنع بالحلول التى قدمت إليه .

ولقد كان العقل الهندى نزاعا على الدوام إلى الاعتقاد أن القوة والمعرفة يمكن أن يجتلبا بالزهادة المتطرفة والصيام البالغ والامتناع عن النوم وتعذيب النفس ؛ فأخذ جوتاما يضع تلك الفكرات فى بوتقة الاختبار ، فانطلق ومعه خمسة من رفقائه المتلمذين له إلى الأجمة الموجودة فى أحد خوانق جبال الفنديا ، وهناك استسلم للصيام والكفارات المريرة ، فدوى اسمه فى الأفاق « دوى ناقوس عظيم يتدلى من قبة السماء » . بيد أن التقشف لم يجلب إليه أى شعور بالوصول للحقيقة ؛ وبينا هو يسير فى أحد الأيام جيئة وذهاباً محاولا أن يفكر بالرغم مما حل به من ضعف وضنى ، إذا به يترنح فجأة ويسقط على الأرض مغشيا عليه ، فلما أن أفاق اتضحت له سخافة تلك الطرق شبه السحرية فى سبيل الوصول إلى الحكمة .

وذهل منه تلاميذه الخمسة وشملهم الفزع عندما طلب الطعام العادى ورفض أن يواصل قتل شهوات نفسه ؛ ذلك بأنه أدرك أنه مهما يكن مقدار مايبلغه أى إنسان من الحقيقة فإن خير مايوصله إليه عقل يتغذى فى جسم سليم . وكانت مثل هذه الفكرة غريبة غرابة مطلقة عن فكرات البلاد والعصر ، فاعتزله تلاميذه وانصرفوا إلى بنارس فى حزن وأسى . وكف طنين الجرس العظيم وهوى جوتاما الرائع .

ثم طفق يتجول وحيداً ردحاً من الزمان مناضلا يبتغى النور وهو أشد شخص فى التاريخ وحشة .

والذهن عندما يصطرع مع مسألة جليلة معقدة يخطو خطواته ويتثبت من مواطىء قدميه خطوة فخطوة ، وهو لايدرك المغانم التى غنمها إلا إدراكا يسيرا ، حتى يفوز بالنصر بغتة مع شىء من أثر الإلهام غير المنتظر . وهذا كما يخيل إلينا هو ماحدث لجوتاما ، فإنه كان قد جلس يتناول طعامه تحت دوحة عظيمة إلى جوار نهر عندما جاءه ذلك الشعور بالرؤية الصافية لاح له أنه يرى الحياة صافية شفيفة ؛ ويقال إنه جلس طيلة ليله ونهاره مستغرقاً فى فكر عميق ، ثم نهض يذيع على العالم رؤياه .

---

(١) المتافيزيقا : العلم الذى يبحث فى الأساس الأقصى للوجود .

٢ — التعاليم والأساطير فى نزاع

تلك هى قصة جوتاما البسيطة كما جمعناها مما عقدناه من مقارنة بين مختلف الكتابات القديمة ، ولكن لا بد للرجال العاديين من أن ينسجوا ما يروق لهم من معجزات وأعاجيب رخيصة .

فليس يعنيهم أأنتج هذا الكوكب الصغير رجلا يفكر فى الماضى والمستقبل وفى طبيعة الوجود الحقة أم لم ينتج . ومن ثم وجب علينا أن نحصل على هذا الضرب من الأشياء عند كاتب « پالى » موقر . . . استغل فى ذلك أقصى ما يمليه عليه خياله ، كما يتضح مما يلى :

« عندما ابتدأ النزاع بين مخلص العالم وبين أمير الشر سقط ألف من الشهب المخيفة ، وتراجعت الأنهار ، تجرى مياهها نحو منابعها ، فأما القنن والجبال المرتفعة حيث كانت تنمو أشجار لا حصر لها مدى عصور كثيرة فقد خرت إلى الأرض هدا . . . وكست الشمس نفسها بظلمة مرعبة وامتلأ الجو بجيش من الأرواح غير ذات الرؤوس » .



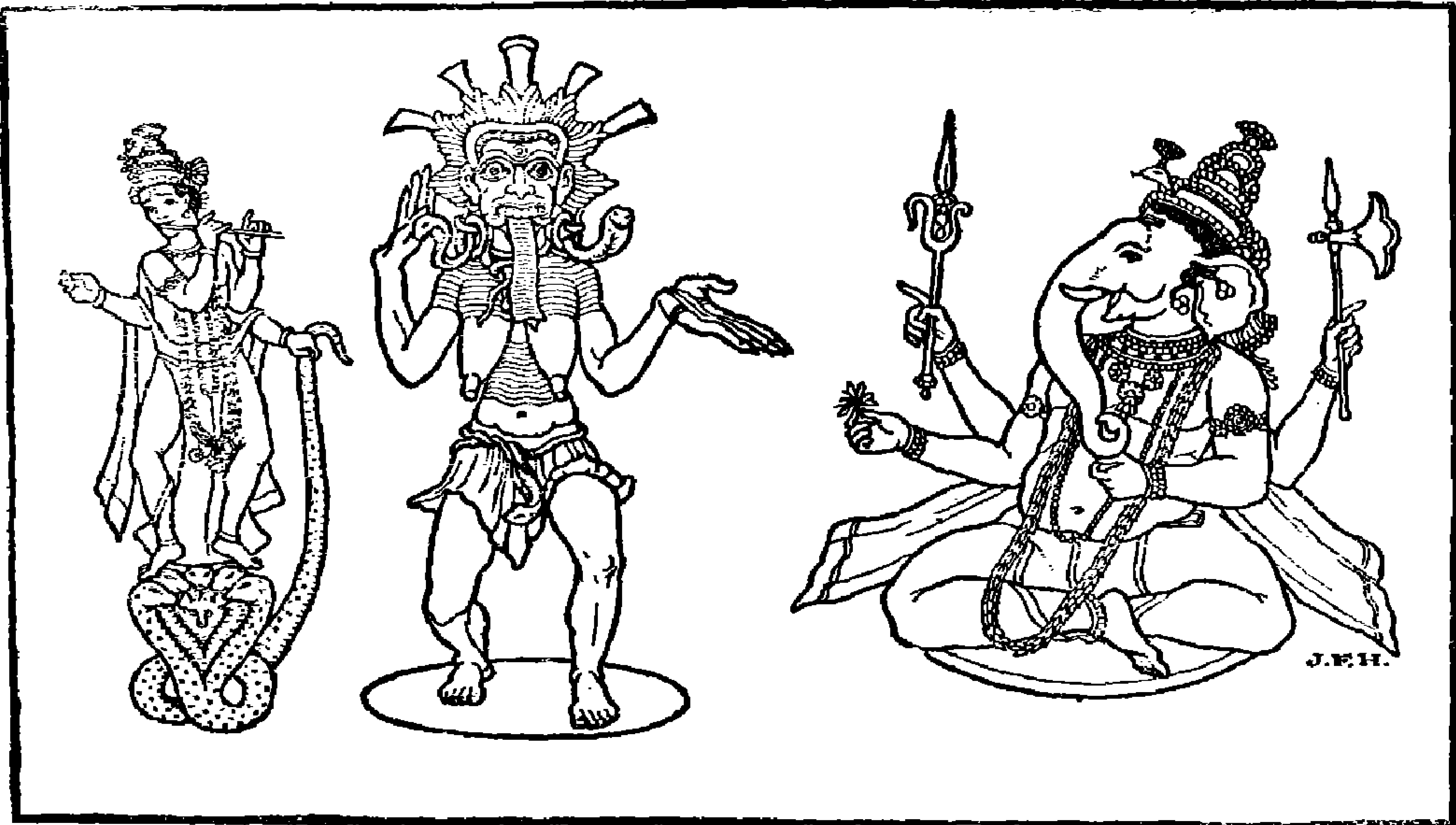
٩٣ — آلهة هندية : فيشنو — براهما — سيفا

وهذه مظاهر لم يترك لنا التاريخ عنها دليلا واحداً يؤيد صحتها ، وإنما نجد بدلا من ذلك صورة رجل يسير وحيداً نحو بنارس .

وقد اهتم الناس اهتماماً فائقا بالشجرة التى جلس من تحتها جوتاما ساعة أن أطاف به ذلك المنظر ، منظر الصفاء الذهنى . وكانت هذه الشجرة من فصيلة أشجار التين . وكان

لها منذ أول الأمر فى قلوب الناس احترام خاص وهم يعرفونها باسم شجرة البو (Bo Tree)

ولقد بادت هــذه الشجرة من زمن طويل ، ولـكن تقوم إلى جوارها دوحة أخرى ربما كانت سليلتها . وتنمو فى سيلان حتى هذا اليوم شجرة هى أقدم شجرة تاريخيـة فى العالم ، نعرف عنها على وجه التحقيق أنها زرعت من فرع من شجرة البو سـنة ٢٤٥ ق . م ، وظلت منــذ ذلك الزمان إلى وقتنا هذا توالى ألوان الرعاية وتسق بعناية وتسند الأعمدة الضخمة فروعها العظيمة ، وجعلت الأرض حولهـا فى مدرجات حتى استطاعت أن تلق على الدوام جذوراً جديدة . ومما يساعدنا على إدراك قصر التاريخ الإنسانى بأجمعه أن نرى مثل هذا العدد الـكبير من الأجيال الإنسانية يوصل بين مبتداه ومنتهاه امتداد أجل شجرة واحدة . ومن سوء الحظ أن تلاميذ جوتاما عنوا بحفظ شجرته أكثر من عنايتهم بالحفاظ على أفكاره التى أساءوا منذ البداية فهمها وشوهوها ومسخوها .



٩٤ — آلهة هنديه : كريشنا — كالى — جانيسا

وبحث جوتاما فى بنارس عن تلاميــذه الخمسة حتى وجدهم ، وكانوا مازالون يعيشون عيش الزهادة . وهناك قصة تذكر ترددهم فى استقباله عندما رأوه يقترب منهم ، ذلك أنه كان مارقاً مرتدا عن دينـه . على أنه كان على شىء من قوة الشخصية تغلب به على فتورهم ثم استطاع أن يحملهم على الإصـغاء إلى معتقداته الجديدة . واستمرت المناقشة خمسة أيام حتى إذا أقنعهم آخر الأمر بأنه استنار حقا حيوه وهتفوا به البوذا .

وكان يسود الهند فى تلك الأيام اعتقاد بأن (الحكمة) سوف ترجع إلى الأرض على فترات متباعدات ، وأنها سوف يكشفها للبشرية شخص مختار يسمى البوذا . وبناء على هذا الاعتقاد الهندى ظهر كثيرون من أمثال هذا البوذا . فجوتاما بوذا إنما هو آخر فرد فى سلسلة من البوذوات . على أنه من المشكوك فيه أنه هو نفسه قبل ذلك اللقب أو اعترف بتلك النظرية ، فإنه فى أحاديثه لم يسم نفسه قط باسم البوذا .

ثم أسس هو وتلاميذه العائذون إليه ضربا من الأكاديمية فى حديقة الغزلان ببنارس فأنشأوا لأنفسهم خِصاصاً وجمعوا من حولهم أتباعا آخرين ، تزايدوا حتى بلغ عددهم ستين أو يزيدون ، وكانوا يقيمون على الحديث فى مستقرهم هذا إبان موسم المطر ويتفرقون فى أنحاء البلاد أثناء موسم الجفاف فيدلى كل منهم بما عنده من تفسير للتعاليم الجديدة . وكان كل تعليمهم يتم ، كما يلوح بطريق المشافهة .

ولم يكن هناك على الراجح أية كتابة فى الهند على الإطلاق ، بل إنا لنرتاب فى أن تكون الإلياذة نفسها دونت إبان زمان بوذا ، والراجح أن أبجدية البحر المتوسط — وهى أساس معظم الخطوط الهندية — لم تكن وصلت بعد إلى الهند . فكان المعلم ينتج ويؤلف قصائد وحكما مأثورة ، وقوائم بالنقط الهامة قصيرة كثيرة اللباب فيوسعها تلاميذه فى أحاديثهم . وساعدهم استعمال الأرقام على استيعاب هذه القصائد والحكم المأثورة مساعدة جليلة . وقد يضيق الذهن العصرى ذرعا بنزوع الفكر الهندى إلى بيان أخبار الأشياء بطريقة عددية أمثال «الطريق المثمن النواحى والحقائق الأربعة وهلم جرا» . بيد أن هذا العد كان ضرورة مساعدة للذاكرة فى عالم لا وثائق لديه ولا كتابة .

٣ — إنجيل جوتاما بوذا

إن تعاليم جوتاما الأساسية ، كما تبينها لنا اليوم دراساتنا للمصادر الأصلية ، هى تعاليم واضحة بسيطة منسجمة انسجاما وثيقا مع الآراء الحديثة ، وهى بلا أقل مشاحة ثمرة تحصيل فطنة من أشد ما عرف العالم نفاذ بصيرة .

ولدينا الآن النقط الرئيسية الصحيحة لأحاديثه إلى تلاميذه الخمسة ، وهى تحتوى على جوهر عقيدته ، فهو ينسب كل ما فى الحياة من شقاء وتذمر إلى الأنانية التى لا تشبع . ويقول أن الآلام ترجع إلى الذاتية الجشعة المتلهفة وإلى العذاب الناشىء عن الرغبة النهمة .

وإلى أن يستطيع المرء أن يكبح كل ضرب من أضرب التلهف الشخصى ، فإن حياته تصير عناءا واضطراباً ويصبح ختامه أسى وعذاباً .

وهناك ثلاثة أشكال يتخذها التلهف على الحياة وهى كلها شر : أولها الرغبة فى إشباع الحواس وهى الرغبة الشهوانية ؛ وثانيها هو الرغبة فى الخلود الشخصى ؛ وثالثها هو الرغبة فى النجاح والثراء والاهتمام بأمور الدنيا . ولا بد من التغلب على هـذه كلها ، أعنى أن الرجل يجب أن يكف عن أن يعيش من أجل نفسه ، وذلك كى تصبح الحياة صافية .

ولـكن عندما تقهر هذه الرغبات بالفعل ولا تعود تسيطر على حياة الفرد ، وعندما يغيب ضمير المتكلم « أنا » عن أفكاره الخاصة ، فإنه يكون عند ذاك قد وصـل إلى الحـكمة العليا — النرڤانا (Nirvana) التى هى صفو الروح . ذلك أن النرڤانا ليس معناها الفناء كما يعتقد الـكثيرون من الناس خطأ ، وإنما معناها فناء الأغراض الشخصية الباطلة التى تجعل الحياة بحكم الضرورة دنيئة أو ذليلة أومروعة .

والآن فإن لدينا ، ولا مراء ، أتم تحليـل لمسألة هدوء الروح . فـكل دين قمين بذلك الاسم يهيب بنا ، وكل فلسفة تنادينا أن انسوا أنفسكم فى شىء أجلّ من أنفسكم « فـكل من شاء منا أن ينقذ حياته لا بد أن يفقدها » وإنك لتعثر هنا على مثل هذا الدرس بالضبط .

وتعاليم التاريخ ، كما نكشفها لك فى كتابنا هذا ، متسقة أدق اتساق مع تعاليم بوذا . فليس هناك — كما نشاهد بأنفسنا — أى نظام اجتماعى ولا أمان ولا سلام ولا سعادة ولا زعامة رشيدة أو ملـكية صالحة حتى يفنى الناس أنفسهم فى شىء أجلّ من أنفسهم . كذلك تكشف لنا دراسة التقدم البيولوچى الحجب عن نفس العملية بالضبط ، أعنى عملية فناء الفرد فى كائن أ كبر منه . وإن نسيان الذات فى مصالح أعظم منها ، من أجل أغراض أسمى ، إنما هو فرار من سجن مطبق .

ويجب أن يكون إنكار الذات كاملا ، فإن ذلك الفزع من الموت وذلك النهم فى طلب استمرار لا نهائى لحياة الفرد الدنيّـة الصغيرة وهو الذى دفع بالمصرى ومن تعلم منه أن يدخل إلى المعابد حاملا التعاويذ والاستغفار . كل ذلك كان فى نظر جوتاما شيئا يعادل فى فنائه وفى قبحه وشرهه ، الشهوة أوالشح أوالحقد . وديانة جوتاما تتنافى تماماً وديانات (الخلود) . وتعاليمه تنهض كالحجر الصـلد ضد التقشف والزهادة بوصفها مجرد محاولة للفوز بالقوة الشخصية عن طريق الآلام الشخصية .

أما عن قاعدة الحياة (النهج الآرى) الذى قد نستطيع به أن نهرب من التلهف الوضيع المثلث الأشكال الذى يصم الحياة الإنسانية بوصمة العار ، فإن التعاليم ليست على قدر كبير من الوضوح ، وذلك لسبب بيّن جداً ، فلم يكن لجوتاما أى علم ولا بصيرة بالتاريخ ، ولم يكن لديه شعور واضح عن مغامرة الحياة الفسيحة الكثيرة الجوانب وهى مبسوطة فى الزمان والمكان . كان ذهنه محصورا فى دائرة فكرات عصره وقومه ، وكانت عقولهم متشعبة بفكرات التكرار الدائم الذى لا ينقطع ، والعالم الذى يتلو عالما سبقه ، والاعتقاد بظهور بوذا فى إثر بوذا ، وهذا دوران راكد للكون .

أما الفكرة التى تجعل من الجنس البشرى مجموعة أخوية كبيرة تتّبع مصيراً لا نهاية له تحت رعاية إلـه البر والصلاح ، وهى الفكرة التى كان فجرها قد أنشأ من قبل يطلع فى أذهان الساميين فى بابل فى ذلك الزمان ، فلم تكن موجودة فى عالمه . ومع ذلك فإن حديثه عن — الطريق المثمن الجوانب — إنما يضم رغم هذا وفى هذه الحدود جانباً عظيما من الحكمة والصواب .

ولنلخص فى إيجاز العناصر الثمانية للطريق الآرى :

فأولها « وجهات النظر الحقة » — فقد جعل جوتاما مسألة فحص الآراء والفكرات بإمعان شديد ، والإصرار على الحق والصدق أول مطلب لأتباعه ، فيجب عدم التعلق بالخرافات القبيحة شكلا وزينة ، فكان مثلا يذم العقيدة السائدة القائلة بتناسخ الأرواح . ويوجد فى إحدى المحاورات البوذية الشهيرة الأولى تحليل هدّام لفكرة الروح الفردية المستديمة .

ثم تأتى بعد وجهات النظر الحقة « الأمانى الحقة » ، فإن الطبيعة تكره أى مكان خال مفرغ . ولما كانت التلهفات الوضيعة شوائب لا بد من إقصائها ، فإنه ينبغى أن يحل محلها فى النفوس رغبات سامية من أمثال الرغبة فى خدمة الناس والرغبة فى إقامة العدل وتثبيت أركانه وما شابهها .

ولم تكن البوذية البدائية التى لم يتطرق إليها الفساد تجعل هدفها تدمير الرغبة بل استبدالها بأخرى . وكان التعلق بالعلم أو الفن وبتحسين حال الأشياء مما يتسق مع الأمانى البوذية الحقة بشرط أن تكون تلك الغايات خلواً من الغيرة أو من التلهف على الشهرة ؛ وليست موضوعات الحديث الحق والسلوك الحق والارتزاق الحق بحاجة إلى التوسعة هاهنا .

ثم يأتى فى البند السادس لهـذه القائمة الجهد الحق ، إذ أن جوتاما لم يكن ليتسامح أى تسامح حيال حسن النية المصحوب بالتوانى فى التنفيذ . فـكان لزاماً على التلميذ أن يقيم على مناشطه عيناً يقظة نفاذة . والعنصر السابع فى الطريق وهو حسن المبالاة الحقة إنما هو الحارس اللازم الواقى لنا من الانزلاق إلى الشعور الشخصى أو المجد الذاتى فى أى شىء تم أو لم يتم . وأخيراً يأتى الجذل الحق الذى يبدو أنه مسدد ضد النشوة العقيمة لدى المتبتل المخلص على نحو ما كان ينطلق مع جلجلة آلة الصلاصل (السيستروم) الموسيقية بمعابد الإسكندرية من غرور أحمق .

ولن نناقش هنا عقيدة « كرما » (Karma) البوذية لأنها تنتمى إلى عالم أفكار آخذ فى الزوال . فإن الخير والشر فى حياة كل فرد كانا فى زعمه يحددان السعادة والشقاء فى حياة تالية تكون مطابقة لسابقتها بطريقة لا يمكن تفسيرها . وإنا لندرك فى هذا الأوان أن حياة الفرد تستمر فى ذريته إلى الأبد . بيد أنا لا نجد أية ضرورة تدعونا لفرض أن أية حياة فردية معينة تستأنف . وكان العقل الهندى مليئا بفكرة التكرر الدورانى إذ كان يزعم أن كل شىء لا بد أن يدور فيعود ، وهذا زعم طبيعى جدا أن يتخذه الناس . فعلى هذه الشاكلة تلوح لنا الأشياء كلها حتى نحللها . ولقد أوضح لنا العلم العصرى أنه ليس هناك شىء من هـذا التكرار المضبوط ، الذى نميل للظن بوجوده . فإن كل يوم يكبر سابقه بمقدار ضئيل لا حد لضآلته . وما من جيل يكرر سابقه تكراراً دقيقا مضبوطا .

وهذا التاريخ لايعيد نفسه أبداً . إذ أن ألوان التغير التى تلحقه لاتنتهى ولا يكاد يدركها حصر . فـكل شىء جديد جدة أبدية لا ينقطع معينها . على أن الفوارق التى تفرق بين فكراتنا العامة وفكرات بوذا ينبغى أن لا تمنعنا بأى حال عن تقدير حكمته المبتكرة التى لم يسبقه إليها أحد ، وعن معرفة الخير والعظمة اللذين يتجليان فى هذه الخطة التى تنهج عليها حياة طليقة على النحو الذى وضعه جوتاما فى زمن ما من القرن السادس قبل الميلاد .

فلئن فشل من الوجهة النظرية فى جمع إرادة كل أتباعه المنضوين تحت لوائه وربطها بعضها ببعض فى منشطة واحدة متعـددة النواحى لجنسنا الإنسانى إذ يكافح الموت والجمود فى الزمان والفضاء ، فلقد استطاع بالفعـل أن يوجه حياته ذاته وحياة تلاميذه المباشرين نحو مغامرة واحدة تسير فى سبيل التقدم ، كان عليها أن تنشر وتبشر بمبادئ وأساليب « النيرفانا » أى صـفو النفس فى كل أرجاء عالمنا المحموم . فـكان تعليمه لهم هم على الأقل كاملا موفوراً . على أنه ليس كل الرجال بقادرين على أن يبشروا وأن يعلموا . وما المذاهب إلا إحدى وظائف الحياة

التى يقوم جوهرها على البر والصلاح . ويبدو أن الفكر الحديث لا يكاد يفرق بين أن يقوم امرؤ وإن واجهته صعاب كبرى بازدراع الأرض أو بحكم مدينة من المدن أو بتعبيد الطرق أو ببناء البيوت أو بإنشاء الآلات ، أو بطلب المعرفة ونشرها على حال من نكران الذات وهدوء النفس التام . وكانت كل هذه الأمور من طبيعة تعليم جوتاما . ولكن الاهتمام والتشديد كان على التحقيق موجها نحو التعليم نفسه ، وعلى الانسحاب من شؤون الناس العادية أكثر منه إلى التسامى بها فى درج النبل والكمال .

وكانت هذه البوذية البدائية تختلف من أوجه أخرى معينة عن أى دين من الأديان التى تأملناها حتى الآن . فكانت قبل كل شىء ديانة خلق وسلوك ، لا ديانة طقوس وقرابين . ولم تكن لها معابد . ثم لما لم تكن لها قرابين لم يكن لها هيئة مقدسة من الكهان . كذلك لم يقم لها أى لاهوت ، فهى لم تؤكد وتعترف ، ولا هى أنكرت وجحدت حقيقة الآلهة التى لا تحصى ، والتى غالباً ما كانت غريبة الشكل — مما كان يعبد الناس فى الهند فى ذلك الزمان ، بل غضت الطرف عنها جميعا .

٤ — البوذية وأسوكا

أساء الناس فهم هذه التعاليم الجديدة منذ مستهل بدايتها الأولى ، وربما كان هناك نقطة فساد واحدة كامنة فى طبيعة تعاليمها ، ولأن الناس لم يكن لديهم حتى آنذاك أى شعور بمجهود الحياة المتواصل المطرد ، فكان من أسهل الأمور الإفلات من فكرة التخلى عن النفس إلى فكرة التخلى عن حياة النشاط والعمل ، وكما أظهرت تجارب جوتاما الخاصة ، كان الفرار من هذا العالم أيسر من الفرار من النفس ، وكان تلاميذه الأوائل مفكرين مجدين ومعلمين مجتهدين ، ولكن الانزلاق إلى مجرد عزلة رهبانية كان أمراً هيناً جدا ، ولا سيما فى مناخ الهند ، حيث بساطة العيش التامة أمر جذاب ترتاح إليه النفوس ، وحيث المجهود أتعب للجسم منه فى أى مكان آخر فى العالم .

ولقد شاءت المقادير لجوتاما منذ بداية دعوته ، كما شاءت لكل مؤسسى الديانات منذ زمانه ، أن يحولهم تلاميذهم الأقل ذكاء إلى أعجوبة من الأعاجيب ليؤثروا بهم فى العالم الخارجى ؛ ولقد ذكرنا من قبل كيف أن تابعاً مخلصاً ، لم يسعه إلا الاعتقاد بأن ساعة الإشعاع العقلى لأستاذه لا بد أن تكون بحكم الضرورة موسومة بنوبة صرع تصيب عناصر

الطبيعة . ذلك نموذج صغير للمجموعة الهـائلة من الأعاجيب المبتذلة التى تزاحمت للفور حول ذكرى جوتاما .

ومما لاسبيل إلى الشك فيه ، أن مجرد الفكرة الخاصة بالتحرر من النفس ، كانت فكرة جد عسيرة على أفهام الغالبية من جمهور الكائنات البشرية فى ذلك العصر ، كما هى فى عصرنا . والراجح أن كثيرا من المعلمين الذين كان بوذا يرسلهم من بنارس لم يستطيعوا هم أنفسهم أن يفهموها ، وهم لا يستطيعون بالطبع أن ينقلوها إلى سامعيهم . فمن الطبيعى إذن أن اتخذ تعليمهم هيئة الخلاص ، لا من النفس — إذ كانت الفكرة أبعد عليهم منالا — بل من الشقاوات والآلام ، فى هذا العالم والعالم الآخر . ولقد وجدوا فى خرافات القوم الموجودة من قبل ، وبخاصة فى فكرة تقمص الروح بعد الموت — وإن كانت هذه الفكرة تناقض تماما تعاليم الأستاذ نفسه — مادّة من الخوف يستطيعون أن يبنوا من فوقها ، فاستحثوا الناس على الفضيلة لكى لا يعودوا إلى الحياة ثانية فى أشكال منحطة أو متعَسة ، أو أن يقعوا فى أحد أنواع العذاب وهى كثيرة لا يبلغها الحصر — وكان المعلمون البرهميون قد ملأوا بها عقولهم من قبل — ومثلوا البوذا على صورة المنقذ للناس مما لا يكاد يحصيه الحصر من ألوان العذاب .

ويلوح أنه ليس هناك حد للأكاذيب التى كان يقولها التلاميذ الأمناء الأغبياء أيضا ، رغبة منهم فى تمجيد أستاذهم ، وبلوغ مايمدونه نجاحا لغاياتهم . وعلى هذا النحو يصبح الرجال الذين يترفعون عن قولة الكذب فى حياتهم اليومية ، غشاشين كذابين لا يتورعون عن الدنايا حين يكرسون أنفسهم للدعاية . وهذه حال عجيبة محيرة تتجلى فيها النواحى السخيفة الملحوظة فى طبيعتنا الإنسانية ، فمن عجب أن تقدم مثل هاته النفوس الأمينة — وغالبيتهم كانت ولا مراء من الأمناء — على إخبار سامعيهم بالمعجزات التى صحبت مولد البوذا ، وإن أحدا منهم لم يعد يسميه جوتاما ، إذ كان ذلك اسماً رُفعت فيه كل كلفة ، أطلق عليه وهو فى عنفوان قوته وأوج نزواته ، وأن يقبلوا على الناس منبئين لهم بأعاجيب حياته اليومية ، معرجين إلى ما نال جسمه من النورانية فى ساعته الأخيرة .

وبديهى أنه كان من المستحيل أن يعتقد الناس أن بوذا كان ابناً لأب فان ، إذ حملت فيه أمه — فيما يقال — بطريقة إعجازية بأن رأت فى منامها فيلا أبيض جميلا !! وكان هو نفسه فيما سلف فيلا جميلا له ستة أنياب ، تكرم فمنحها كلها إلى قانص معوز ذى حاجة ؛ بل لقد ساعده على نشرها من جسمه ، وهكذا . . .

وفضلا عن ذلك فإن ضربا من اللاهوت نشأ حول البوذا ، فاكتشف الناس أنه إلــه ، وأنه واحــد من سلسلة من كائنات قدسية هي البوذوات ، وأن « لــكل البوذوات روحاً خالدة » لا تمتد إليها يد الموت ، فهناك سلسلة من البوذوات مضت مع الغـابرين وأخرى بوذات أو بوذوات (Buddhisatvas) ، ستتلوها في اللاحقين بيد أننا لا نستطيع أن نزيد توغلا في معقدات اللاهوت الأسيوى هذه . « كادت تعاليم جوتاما الأخلاقية أن تختفى عن الأنظار تحت القوى الجـارفة لتلك الخيالات السقيمة . وسرعانــ ما نمت النظريات وازدهرت ، وكانت كل خطوة جديدة ، وكأن كل فرض جديد ، يتطلب آخر جديداً ، حتى أصبحت السماء بأكملها مليئة بتزيفات من نسج العقول ، وأصبح ما بشر به مؤسس الديانة من دروس أكثر نبلا وبساطة ، خامد الأنفاس تحت كتلة الترهات الميتافيزيقية اللألاءة » .

وفي القرن الثالث ق . م . كانت البوذية تكتسب ثروة وسلطانا . وكانت مجـاميع الخصاص الصغيرة التي يتجمع فيها معتنقو المذهب في الموسم المطير : تخلى مكانها لمبانى للأديرة شامخة البنيان وطيـدة الأركان . وإلى تلك المدة تنتمى بداية الفن البوذى . وإذا تذكرنا كم كانت مغامرة الإسكندر حديثة العهد ، وأن كل البنجاب كان ما يزال تحت الحكم السلوقى ، وأن الهند بأكملها كانت غاصة بالمغامرين الإغريق ، وأن المواصلات مع الإسكندرية ما برحت مستمرة مطردة براً وبحراً ، إذا تذكرنا كل ذلك فليس هناك كبير عجب أن نرى ذلك الفن البوذى الأول متصفا بخصائص إغريقية قوية ، وأن تكون نحلة الإسكندرية الجديدة : نحلة سيرابيس (Serapis) وإيزيس عظيمة الأثر في تطوره إلى درجة خارقة للعادة .

وكانت مملـكة جندارا (Gandhara) الواقعة على الحدود الشمالية الغربيــة بالقرب من بيشاور (Peshawar) والتي ازدهرت في القرن الثالث ق . م . ، ملتقا نموذجيا بين العالمين الهلليني والهندي . فهنا توجد أول النحائت البوذية ، وقد انتسجت معها أشكال يمكن للمرء أن يميزها فيعرف أنها أشكال سيرابيس وإيزيس وحوريس ، وقد أدمجت في شـباك الأساطير المجتمعة حول بوذا . ولا شك أن فناني الإغريق الذين ذهبوا إلى جندارا عز عليهم أن يهجروا موضوعا ألفوه . ولـكن يقال لنا أن إيزيس لم تعد بعــد إيزيس وإنما هي هاريتى (Hariti) وكانت ربة وباء وبيل ، ثم هداها بوذا وجعلها من الصـالحات الخـيّرات المحسنات ، ويقفو فوشر (Foucher) إيزيس من هذا المـكان إلى الصين ، بيــد أن مؤثرات أخرى كانت تعمل عملها هنا أيضا ، وتصبح القصة أعقد من أن نستبينها في هذه المعالم . كانت للصين ربة تاوية (Taoist) هي الأم المقدســة ، مليكة السماء التي اتخذت لنفسها اسم « كوان يين »

Kuan-Yin (وهو فى الأصل اسم مذكر) وهى التى تصادف أن شابهت هيئة إيزيس مشابهة وثيقة . وإنا لنشعر أن شكل إيزيس لا بد أن قد أثر فى معالجة كوان يين . وكان من أشباه إيزيس كذلك مليكة البحار ستيلامارس (Stella Maris) ، وكانت تسمى فى اليابان كوانن (Kwannon) . ويبدو أنه كان هناك تبادل مستمر فى المظاهر الخارجية للديانات بين الشرق والغرب . فإنا نقرأ فى رحلات هك (Huc) ، كيف تحير فكره وفكر زميله فى البعثة الدينية لما شاهداه فى العبادات من التقاليد المشتركة بين الشرق والغرب ، وهو يقول : « إن الصليب وتاج الأسقف والثوب الكهنوتى الرسمى والبطرشيل ، التى يلبسها اللامات العظام فى رحلاتهم أو عند ما يقومون بطقوس خارج المعبد ، والصلاة المصحوبة بجوقتين من المرتلين ، وترنيم المزامير ، والتعويذات ، والرق ، والمبخرة المعلقة من خمس سلاسل ، والتى تستطيع أن تفتحها وتغلقها ، والبركات التى يمنحها اللامات بمد يدهم اليمنى على رأس المؤمنين والسبحة والمزوبة الأكليروسية ، والانزواء الروحى ، وعبادة القديسين والصيام والمواكب والأوراد الكنسية ، والماء المقدس ؛ كل هذه متماثلات يشترك معنا فيها البوذيون » .

ثم أخذت عقيدة جوتاما ومبادؤه ، وهى تجمع المفاسد ، وتستقبل التغيرات من البرهمية والهللينية على السواء ، تنتشر فى أنحاء الهند على يد حشد متزايد من المعلمين فى القرنين الرابع والثالث ق . م . وظلت بضعة أجيال على الأقل محتفظة بالكثير من جمالها المعنوى وبشىء من بساطة طورها الأول . وكثير من الناس ممن لا تستطيع أذهانهم إدراك معنى إنكار الذات وعدم التعلق بمصالحها ، لديهم رغم هذا ، المقدرة على تقدير الروعة التى تنطوى عليها هذه الصفات .

كانت البوذية الأولى تنتج ولا مراء نفوسا نبيلة ، ولا يخفى أن طريق استثارة كامن الاستجابة للنبل فى أذهاننا لا يقتصر على العقل وحده ، فهى قد انتشرت لا بفضل ما بذلته من إذعان للتخيلات السوقية بل على الرغم من ذلك البذل ، لأن الكثيرين من البوذيين الأوائل كانوا أناساً عذبى الشمائل ، رقيقى العواطف ، يبذلون لغيرهم العون ، ويتجلى فى سجاياهم النبل والمروءة ، ممن يضطرون الناس إلى الاعتقاد بإيمانهم الموطد للروح المقيم للأود .

اشتبكت البوذية وهى ما تزال غضة فى أول مدارج حياتها فى نزاع مع مدعيات البراهمة النامية . وكما سبق أن لاحظنا ، كانت تلك الطائفة الكهنوتيــة لا تزال تكافح للتسلط على الحياة الهندية أيام جوتاما . وكانت لها من قبل مزايا عظيمة ، فكانت التقاليد والقرابين الدينية حكرة فى أيديهم لا ينازعهم فيها أحد ، ولكن تطور الملكية كان فى الواقع تحدياً لسلطانهم

لأن الرجال الذين أصبحوا زعماء للعشائر وملوكا ، لم يكونوا فى العادة من طائفة البراهمة .

وكان للملكية فى غزوات الفرس والإغريق للبنجاب دافع أى دافع . ولقد ذكرنا من قبل اسم الملك پوروس (Porus) الذى هزمه الإسكندر بالرغم من أفياله ، وحوله إلى وال (Satrap) وكذلك وفد على المعسكر الإغريقى على نهر السند مغامر آخر يدعى شاندراجوبتا موريا (Chandra Gupta Maurya) وهو الذى يسميه الإغريق ساندرا كوتوس (Sandracottus) يحمل مقترحات لفتح منطقة الكنج . ولم تكن الخطة محببة لدى المقدونيين ، الذين كانوا فى فورة غضب ضد متابعة أى سير داخل بلاد الهند ، فاضطر الرجل أن يغادر المعسكر فراراً وتجول بين القبائل على الحدود الشمالية الغربية ، وحصل على تأييدهم ، وبعد أن رحل الإسكندر ، اجتاح البنجاب طاردا ممثلى المقدونيين . ثم فتح بلاد الكنج (٣٢١ ق . م .) وخاض حرباً ٣٠٣ ق . م ضد سيلوكوس الأول ، عندما حاول الأخير أن يسترد البنجاب . وضم بين يديه شتات أجزاء إمبراطورية عظيمة تمتد عبر سهل الهند الشمالى بأجمعه من البحر الغربى إلى البحر الشرقى . ثم اشتبك مع قوة البراهمة المتزايدة فى ذلك النزاع بين التاج والكهانة ، الذى سبق أن لاحظناه يحدث فى بابل ومصر والصين . فرأى فى مبادئ البوذية الآخذة فى الانتشار حليفاً يعينه على إيقاف نماء نظام الطوائف . فأعان النظام البوذى ومنحه المطايا وشجع تعاليمه . وخلفه على العرش ابنه أسوكا (٢٦٤ — ٢٢٧ ق . م .) وهو من أعظم الملوك فى التاريخ ، امتدت ممتلكاته من أفغانستان حتى ما يسمى الآن ولاية مدراس . وهو الملك العسكرى الوحيد الذى يشهد التاريخ بأنه هجر الحرب بعد النصر . وكان قد غزا كالنجا (Kalinga) (٢٢٥ ق . م .) وهى قطر على امتداد ساحل مدراس الشرقى ، ولعله كان يعقد النية أن يتم فتح شبه الجزيرة الهندية . وتوجت الحملة بالتوفيق ، ولكنه اشمأز مما رأى من فظائع الحرب وأهوالها . فأعلن فى بعض المخطوطات التى لا تزال موجودة أنه لن يطلب الغزو حرباً بعد هذا ، وإنما بطريق الدين . فكرس بقية حياته لنشر البوذية فى كافة أصقاع العالم .

ويلوح أنه حكم إمبراطوريته الفسيحة فى سلام شامل وبكفاية عظيمة . لم يكن مجرد متعصب دينى . بيد أنه فى السنة التى حدثت فيها حربه الأولى والأخيرة ، انضم إلى المجتمع البوذى بوصفه رجلا علمانياً ، وبعد ذلك ببضع سنوات أصبح عضواً كاملا فى الهيئة ، وكرس نفسه للوصول إلى النيرڤانا بواسطة (الطريق الثمن الجوانب) ، فكم كانت طريقة العيش هذه متسقة تمام الاتساق مع أنفع وأكرم ضروب النشاط التى تعرضها لناحياته التى

امتازت بالأمانى الحقة والجهود الحقة والتعيش الحق . فنظم حركة عظيمة لحفر الآبار فى الهند ولزراعة الأشجار طلبا للظل وعين موظفين للإشراف على أعمال الإحسان . وأسس المستشفيات والحدائق العامة . وأمر فأنشئت حدائق لإزدراع الأعشاب الطبية . فلو أتيح له فيلسوف كأرسطو يوحى إليه بآرائه لحبا البحث العلمى بالعطايا السنية ولاءمراء . واستحدث وزارة للعناية بالسكان الأصليين والأجناس المتهورة . واتخذ التدابير لتعليم النساء . وكان أول ملك فى التاريخ قام بمحاولة لتربية شعبه تربية توحد نظرتهم إلى الحياة : غاياتها وسبلها ، ووهب هيئات التعليم البوذية منحاً جزيلة ، وحاول أن يستنهضهم إلى دراسة أدبها الخاص دراسة أوفى وأحسن ، وأقام فى طول البلاد وعرضها نقوشاً مستفيضة تسرد على الناس تعاليم جوتاما ، واهتم فى ذلك بالتعاليم البسيطة الإنسانية ، لا الزيادات المضادة للمعقول ، وما تزال خمس وثلاثون من نقوشه باقية إلى اليوم . وفضلا عن ذلك فإنه أرسل المبشرين لنشر تعاليم أستاذه النبيلة المعقولة ، فى جميع أنحاء العالم : فى كشمير وسيلان كما بعث بهم إلى السلوقيين والبطالمة . فكانت إحدى تلك البعثات هى التى حملت إلى سيلان القطعة المأخوذة من شجرة البو التى سبق أن تحدثنا عنها .

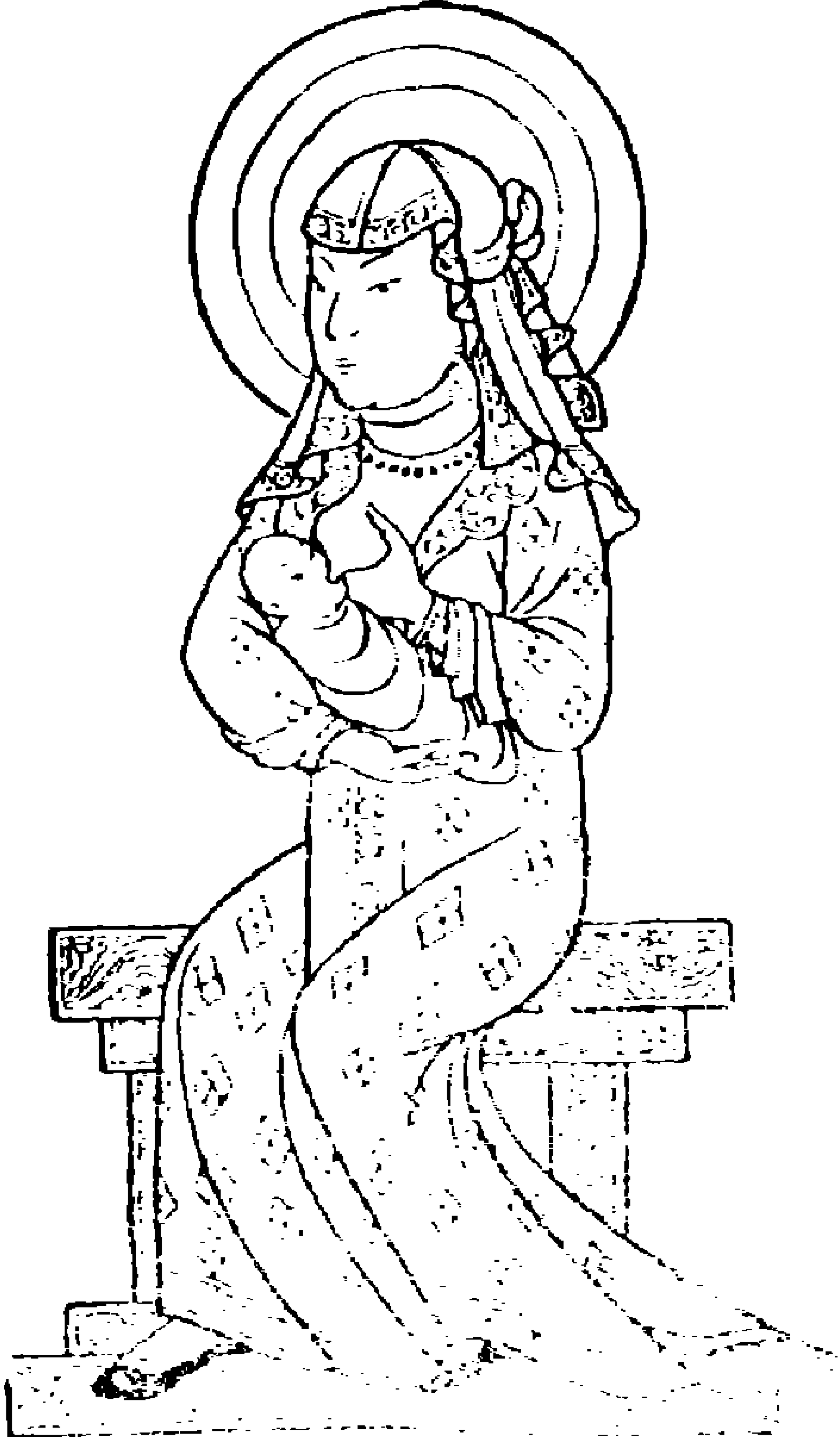
وظل أسوكا مدة ثمانية وعشرين عاما يعمل بعقله الراجح لسد حاجات الناس الحقيقية ، وإنك لترى بين عشرات الآلاف من أسماء الملوك التى تزدحم بها قوائم التاريخ بين أصحاب الجلالة والتعطف والوقار وأصحاب السمو الملكى ومن إليهم ، اسم « أسوكا » يتلألأ ، بل يكاد يتلألأ وحده كالنجم الثاقب ، ولا يزال اسمه موضع التكريم من الفولجا إلى اليابان ولا تزال الصين التبت وحتى الهند نفسها (وإن كانت قد هجرت مبادئه) محتفظات له بالتقاليد العظيمة والذكرى الخالدة . وإن الرجال الأحياء الذين يعتزون بذكراه اليوم لأكثر عدداً ممن سمعوا قط أسماء قسطنطين وشرلمان .

٥ — معلمان صينيان عظيمان

يرى بعض الناس أن مبرات « أسوكا » العميمة انتهت بالبوذية آخر الأمر إلى الفساد ، بأن اجتذبت إلى هيئتها عدداً كبيراً من الأتباع المرتزقة وغير المخلصين ، ولكن لا سبيل إلى الشك أن امتدادها فى كل أصقاع آسيا يعود معظم الفضل فيه إلى تأثيره هو .

شقت البوذية طريقها إلى آسيا الوسطى عابرة أفغانستان وتركستان وبذا وصلت إلى الصين ، ويقول الأستاذ براماثانات بوز أن البوذية وصلت إلى الصين قرابة ٦٤ ميلادية فى

عصر حكم الإمبراطور منج تى (Ming Ti) من أسرة هان ، وكان البانديت كاسيابا رسولها إلى الصين ثم تلته سلسلة من المعلمين الآخرين العظماء ، وكانت أيام الدعاية البوذية العظيمة فى الصين هى القرنان الثالث والرابع الميلاديان ثم لقيت اضطهادات محزنة ثم عادت فنشطت من جديد وأخذت تصعد درج المجد قبيل ظهور أسرة تانج .


٩٥ — هاريتى

وجدت البوذية فى الصين ديانة شعبية منتشرة وطيدة الأركان من قبـــل ، هى الديانة التاوية (Taoism) وهى صـورة متطورة للسحر البدائى العتيق وللممارسات الخفيـة . وأعاد شانج تاولنج (Chang Tao'ing) تنظيمها بوصفها نحلة مميزة فى زمان أسرة هان . ومعنى كلمة تاو (Tao) هو الطريق ، وهـذا يشاكل فـكرة النهج الآرى مشاكلة وثيقة . وابتـدأ الأمر بأن نشب الـكفاح بين الديانتين ، ثم لم تلبثا أن انتشرتا جنباً إلى جنب ولحقتهما تغييرات متشابهة ، حتى لقـد أصبحت ممارساتهما الخارجية فى الوقت الحاضر وثيقة التشاكل . والتقت البوذية أيضا بالـكونفوشيوسـية (وتسمى أيضا الـكونفوشيانية) وهى عقيـدة تـكاد تـكون أقل لاهوتية وأكثرشبها بقانون للسلوك الشخصى منها بدين أو عبادة . ثم التقت آخر الأمر بتعاليم لاوتسى (Lao Tse) وهو فيلسوف أخـلاقى فوضوى يناصر مذهب الارتقاء والسـلام ، ولم تـكن هـذه ديانة قدر ما كانت قاعدة فلسفية للحياة . ثم اندمجت تعاليم لاوتسى فيما بعـد فى الديانة التاوية على يد شن توان (Chen Tuan) مؤسس التاوية الحديثة .

وكان كونفوشيوس (Confucuis) مؤسس الـكونفوشـية يعيش كذلك فى القرن السادس ق . م . شأن المعلمين المظيمين الجنوبيين (لاوتسى وجوتاما) . وتتجلى فى سيرته بعض أوجه شبه شائقة بينه وبين بعض الفلاسفة الإغريق فى القرنين الخامس والرابع وإن فاقوه نزوعا إلى السياسة .


٩٦ — صورة صينيه لـكوان يين

ويقع القرن السادس ق . م . فى المدة التى يخصصها المؤرخون الصينيون لأسرة تشاو (Chow) ولـكن كان حكم تلك الأسرة لايتجاوز أيامئذ الحـكم الأسمى إلا قليلا . فـكان الإمبراطور يقوم بالقرابين التقليدية المقـدمة من ابن السماء ، ويحظى ببعض مظاهر الاحـترام الشكلى . وليت الأمر وقف به عند حـد الولاية الاسميـة على بلاد الصين بل إن رقعتها لم تكن لتعادل سدس الصين فى الوقت الحاضر . ولقـد سبق أن ألقينا نظرة إلى مجريات الأمور فى الصين فى ذلك الزمان ، وإذ كانت الصين بالفعل مجموعـة من الولايات التجارية مفتوحـة الفجاج للهمج الشماليين ، وكان كونفوشيوس فرداً من أفراد الرعايا فى إحدى تلك الولايات ، وهى ولاية « لو » (Lu) وهو أرستقراطى المولد وإن نشأ رقيق الحال . وبعد أن تقلد عدة مناصب فى الوظائف ، أقام فى لو ضربا من الأكاديمية يبغى به اكتشاف الحـكمة وبثها فى الناس . كذلك نجد كونفوشيوس يجول من ولاية إلى ولاية فى الصـين باحثا عن أمير قد يتخذه مستشاراً ناصحا له ، ويجعل بلاطه مركزاً لعالم مستصلح . وكذلك ذهب أفلاطون ، بعد ذلك بقرنين وبين جنبيه نفس تلك الأمنية والروح بالضبط ، إلى الطاغية السيراقوزى ، ديونيسيوس فى صقلية ، ليصبح مستشارا له . ولقد ذكرنا من قبل موقف أرسطو وإيزوقراطيس حيال فيليب المقدونى .

قامت تعاليم كونفوشيوس حول فـكرة الحياة النبيلة التى تمثلها فى معيار أو مثـل أعلى هو الرجل الأرستقراطى . وغالباً ما تترجم هذه العبارة فى اللغة الإنجليزية باسم الشخص الأسمى ، ولـكن لمـا كانت كلمتى « الأسمى » و « الشخص » كـكلمات المحترم « والدمث » ، قد أصبحت من زمان بعيـد ألفاظا تتضمن معنى السباب والسخرية التى تنطوى على شىء من التهـكم اللاذع ، فليس فى ترجمتها على هذه الشاكلة إنصاف للـكونفوشية ، فإن مؤسسها قدم بالفعل إلى زمانه المثل الأعلى للرجل المخلص الذى وقف حياته على خـدمة الجمهور . وكانت الناحية العامة هذه على أقصى درجة من الأهمية فى نظره ، وكان الرجل مفـكراً سياسيا إنشائيا

أكثر من جوناما أو لا وتسى ، وكان ذهنه فى شغل شاغل بحالة الصين ، فحاول أن يخلق الرجل الأرستقراطى حتى يقوم بصفة خاصة بإنشاء الدول النبيلة .

وإنا لنستطيع أن نقتبس هنا بعض ما قال : « من المستحيل أن يعتزل المرء العالم ، وأن يخالط الطيور والوحوش التى لا يجمعنا وإياها تشاكل ولا قرابة ، فمن ذا الذى يجب علىّ أن أخالطه من الناس إن لم أخالط من يتألمون ويشقون ؟ ، فإن هـذه الفوضى التى تعم الدنيا هى الشىء الذى يحتاج إلى جهودى ، فلو أن المبادئ الحقة كانت هى السارية فى أرجاء المملكة ، لم تكن بى أى حاجة إلى تغيير حالها » .

ويبدو أن الدعامة السياسية التى تقوم عليها تعاليمه مما تختص به التعاليم الأخلاقية الصينية . وفى تعاليمه من الاهتمام وشدة الإشارة إلى الدولة ما ليس فى معظم المبادئ الهندية والأوربية : الخلقية منها والدينية سواء . وعين حاكما فترة من الزمان فى شانج تو Chung-tu وهى إحدى مدن دوقية « لو » وهناك حاول أن ينظم الحياة ، تنظيما خارقاً للعادة ، وأن يخضع كل علاقة وكل عمل بالفعل لقواعد ثابتة من أدب اللياقة المحكم وكانت تعاليمه تفرض على عامة الشعب مراسم بروتوكولية بكل تفاصيلها كالتى لا ترعى إلا فى بلاطات الملوك وقصور عَليّة القوم وأصبحت كل شئون الحياة اليومية خاضعة لقواعد جامدة ، حتى الطعام الذى قد تتناوله طبقات الناس المختلفة امتدت إليه يد التنظيم ، كذلك فرّق بين الذكور والأناث فى الطرقات . بل إن سماكة النعوش ، وشكل القبور وموقعها ، قد خضعت هى أيضاً للتنظيم .

وكل هذا ، على حد قول الناس ، صينى(١) جداً . فما من شعب آخر بلغ من النظام الأخلاق والاستقرار الاجتماعى قط بواسطة طرائق السلوك ، مثل ما بلغه الشعب الصينى ومع ذلك فقد كان لأساليب كونفوشيوس أثر هائل فى الصين على كل حال ، وما من شعب فى العالم اليوم له مثل هذه التقاليد الشاملة الخاصة بآداب اللياقة والحد من النفس .

ثم تقوضت بعد ذلك سلطة كونفوشيوس على مولاه الدوق ، فاعتزل الحياة العامة من جديد ، وتكدر صفو أيامه الأخيرة بوفاة نفر من أشد تلاميذه نجابة وتبشيرا بالخير ، ومن قوله « ليس هناك من حاكم ذكى ، ينهض فيتخذنى معلماً له ، وها قددنا أجلى » .

على أنه مات ليميش . ويقول هيرث Hirth «لامجال للريب أن كونفوشيوس كان له فى تطور

(١) صينى هنا بمعنى عقيم .

الخلق القومى الصينى ، أثر أعظم مما لكثير من الأباطرة مجتمعين ، فهو لذلك أحد الشخصيات الأساسية الواجب تأملها فى كل تاريخ يكتب عن بلاد الصين ، فأما تمكنه من التأثير على قومه إلى مثل هذه الدرجة ، فإنه كما يبدو لى راجع أكثر ما يرجع إلى خصيصة الشعب ، أكثر منه إلى شخصيته هو نفسه . فلو أنه عاش فى أى جزء آخر من العالم فلربما نسى الناس اسمه — وهو كما رأينا — قد صاغ خلقه وآراءه الشخصية فى حياة الإنسان بعد أن درس دراسة وافية بعض الوثائق المتصلة اتصالا وثيقا بالفلسفة الأخلاقية التى ازدرعتها الأجيال السابقة ، فالذى بشر به بين معاصريه ، لم يكن إذن جديداً كل الجدة عليهم . بيد أنه لما كان قد سمع بنفسه أثناء دراسته للسجلات المدونة القديمة، صوت حكماء الماضى خفيضا خافتاً ، فإنه أصبح بوقاً يسمع الصم ، وحاكياً ينقل للشعب تلك النظرات التى استخلصها من التطور الأول للشعب نفسه .

وليس ما بلغته شخصية كونفوشيوس من الأثر العظيم فى الحياة القومية الصينية راجعاً فحسب ، إلى كتاباته وتعاليمه كما سجلها أناس آخرون ، بل يرجع كذلك إلى أفعاله ، فقد أصبح خلقه الشخصى ، كما وصفه لنا تلاميذه وكما توضحه لنا بيانات من تلاه من الكتّاب — وليس بعيدا أن يكون بعضها بأجمعه من بنات الأساطير — المثال الذى يحتذيه ملايين من أولئك النزاعين إلى تقليد السلوك الظاهر لرجل عظيم ! ! فكل ما كان يأتيه على الملأ من أفعال ، كانت الطقوس والمرعيات تتخذ منه قاعدة تنظمها وترعاها . ولم يكن ذلك من مستحدثاته ، لأن حياة المرعيات كانت موضع عناية الصينيين قبل كونفوشيوس بقرون كثيرة . بيد أن سلطانه ومثاله المحتذى كان لهما أثر كبير فى تخليد ما كان يعتبره واجبات اجتماعية لازمة .

وكانت تعاليم لاوتسى ، الذى ظل زماناً طويلا أمينا للمكتبة الإمبراطورية فى عهد أسرة تشاو ، أكثر غموضا وإبهاما وخداعا من تعاليم كونفوشيوس . ويلوح أنه دعا المجتمع دعوة الكلبيين (Stoics) إلى عدم المبالاة بما فى العالم من مسرّات وسلطان ، كما دعا إلى العودة إلى حياة بسيطة تخيلها للماضى السحيق . وخلف لنا كتابات ، إلا أنها مقتضبة جدا فى أسلوبها ، شديدة الغموض فى معانيها ، حتى لكأنى به يكتب فى ألغاز . وبعد وفاة لاوتسى أفسدت تعاليمه كما أفسدت تعاليم جوتامابوذا من قبل ، وأضيف إليها الشىء الكثير من الأساطير وأدخل إليها أشد المرعيات تعقيداً وشذوذاً وأكثر الفكرات خرافة . على أن تعاليم

كونفوشيوس لم تثقل بالإضافات إلى هـذا الحد ، إذ كانت واضحة محدودة مستقيمة المحجة لا تسمح بتدسس مثل هذه التشويهات إليها .

ويتحـدث الصينيون عن البوذية وعن مبادئ لاوتسى وكونفوشيوس باسم التعاليم الثلاثة . وهى مجتمعة ، تكوّن قاعدة أساسية ونقطة ارتحال لـكل ماتلاها من فكر صينى . ودراستها بدقة إنما هى توطئة ضرورية لتأسيس أى رابطة ذهنية وخلقية صحيحة بين الشعب العظيم فى الشرق وبين العالم الغربى .

ويلاحظ أن هناك أموراً معينة يتفق فيها جميع هؤلاء المعلمين الثـلاثة ، الذين يعتبر جوتاما ، أعظمهم وأعمقهم غير منازع ، وهو الذى تتسلط تعاليمه إلى يومنا هذا على فـكر الغالبية العظمى من الـكائنات الإنسانية . كما أن هناك مظاهر بعينها تتباين فيها تعاليمهم مع الأفـكار والمشاعر التى قدر لها أن تتملك العالم الغربى على الفور . فهى : أولا تعاليم شخصية سمحة . تعاليم طريق ونهج وطبقة نبيلة أرستقراطية وليست مبادئ كنيسة أو قاعدة عامة . وهى لا تقدم شيئا يدعم عبادة الآلهة الشائعين أو يهدم وجودها .

ويجب أن نلحظ أن الفلاسـفة الآثينيين ، كانوا على نفس الانفصال عن النواحى اللاهوتية ، فـكان سقراط على أتم الاستعداد أن ينحنى فى أدب لأى إلـٰه تقريباً وأن يقرب القرابين طبقا للأوضاع المألوفة مع احتفاظه بأفـكاره الخاصة . فهذه الحـال هى النقيض الصراح للحـالة العقلية التى كانت تنمو فى أوساط اليهود فى أرض يهوذا ومصر وبلادبابل ، التى كانت فـكرة الرب الواحد لديها هى الأولى المقـدمة على كل ما سواها . ولم يشر جوتاما ولاوتسى أو كونفوشيوس أية إشارة إلى هذه الفـكرة القائلة برب غيور ، رب لايسمح بوجود « أى أرباب أخر معه » رب للحقيقة المرة لايسمح بأى اعتقاد خفى فى السحر ، أو العرافة ، أو العادات القـــديمة ، أو أى قربان يقرب للملك الرب ، أو أى عبث بالوحدة الشديدة للأشياء .

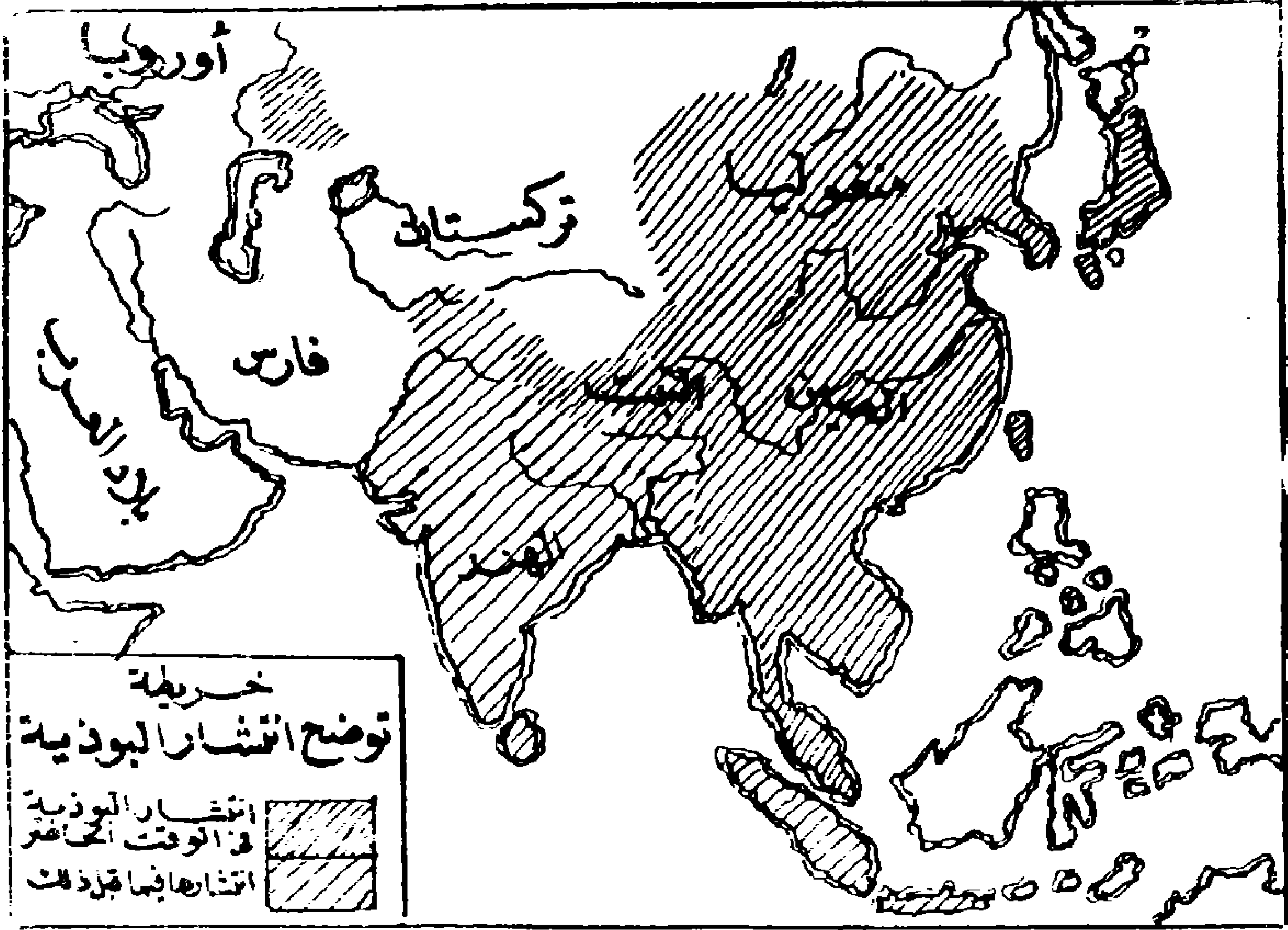
٦ — مفاسد البوذية

كانت عاقبة تعصب الفـكر اليهودى وعدم تسامحه ، أن أبقى عقيـدته الأساسية صافية نقية . فإن إغفال المعلمين الشرقيين العظماء اللاهوت ووقوفهم منه على حال لايقبلون فيها ولا ينكرون ، قد أتاح بالفعل كل فرصـة أمام تزويق التفسيرات وإحكامها وتجمع الطقوس منذ البداية الأولى . وفيما عدا إصرار جوتاما على (وجهات النظر الحق) الذى كان إغفاله

أمراً هينا ، لم يكن هناك أى عنصر « لتطهير النفس » فى أى من البوذية ، أو التاوية ، أو الـكونفوشية . ولم يكن هناك أى نهى فعلى عن الممارسات الخرافية أو قيام الأرواح ورفعها أو عن التعازيم والسجود والعبادات الإضافية (النوافل) . ومن ثم تلقت العقيـدة منذ مراحلها الأولى إضافات وزيادات اضطردت وتواصلت على مر الزمان . فإن العقائد الجديدة التقطت معظم الأدواء المعيبة بالديانات الفاسـدة التى حاولت أن تحل محلها . فأخذت عنها الأصنام والمعابد والمذابح والمباخر .

والتبت اليوم قطر بوذى ، ومع ذلك فلو أن جوتاما بعث من قبره حيا لذهب من أقصى التبت إلى أقصاها باحثا عن تعاليمه بلا جـدوى ، وإنه ليجد هناك ذلك الطراز العتيق من الحاكم البشرى ، وهو الملك الرب متوجاً وممثلا فى شخص الدالاى لاما (Dalai Lama) الذى هو (البوذا الحى) . وإنه ليجد فى لهاسا (Lhasa) معبداً فخما غاصا بالـكهنة والرهبان واللامات — وهو (أى جوتاما) الذى لم تكن مبانيه إلا الخصاص والذى لم يكن له أى كهنة — وإنه ليشهد فوق هيكل مرتفع صنما ذهبيا ضخما يخبرونه أنه يسمى (جوتاما بوذا) وإنه ليسمع صلوات ترتل أمام ذلك الرب ، ويرى نواميس معينة تبدو مألوفة لديه وإن حفها شىء من الإبهام ، وهى تتمم بوصـفها استجابات . وتلعب الأجراس والبخور والسجود دورها فى هذه المراسم المدهشة . ويُدق جرس فى لحظة من لحظات الصـلاة وترفع مرآة ، بينما تزيد الجماعة بأسرها فى انحنائها فى حالة من مزيد التوقير ! !

وإنه ليستـكشف حول هذه المنطقة القروية البوذية كثيراً من الآلات الصـغيرة ، وهى عجلات هوائية ومائية صغيرة تدور ، وقد كتبت عليها صلوات مختصرة . وإنه ليعلم منهم أنه كلما دارت هـذه الأشياء الصغيرة دورة احتسبت بمقتضاها صلاة . وهو لابد سائل لمن ؟ وفضلا عن ذلك فإنه ليجد عـدداً من ساريات الأعلام فى البـلاد تحمل رايات جميلة من الحرير ، رايات حريرية عليها هذه النقوش المحيرة ، « أم ماقى يادمى هم » ، ومعناها : « إنمـا الجوهرة فى اللوتس » . وإنه ليعلم أنه كلما رفرفت الراية كتبت صلاة نافعة جدا للسيد الذى دفع ثمن الراية وللبلاد عامة . وإن عددا من عصبات العمال ليستخدمهم الأتقياء من الناس ليضربوا فى أرجاء البلاد وهم يحفرون هذه الوصـفة النفيسة فوق جوانب الصخر والأحجار . وإنه ليدرك آخر الأمر ، أن هذا هو كل ما استخلصه العـالم من ديانته !! وتحت هذا البارق الخلب المتألق يرقد (النهج الآرى) الموصل إلى صفو النفس وسكونها دفينا مطمورا .



(٩٧)

ولقد أسلفنا عليك نبأ افتقار البوذية البدائية إلى كل فكرة للتقدم ، وهى فى هذا أيضا مباينة لليهودية . فإن فكرة الوعد قد أمدت اليهودية بصفة لم تظهرها أية ديانة سابقة أو معاصرة ، إذ أصبحت اليهودية بسببها دينا تاريخيا دراميا ، كما بررت عدم تسامحها العنيف لأنها كانت ترمى إلى هدف .

وبالرغم من صدق تعاليم جوتاما وعمق الناحية السيكولوجية فيها ، فإن البوذية ركدت وأسِنتْ وفسدت ، بسبب نقص تلك الفكرة التوجيهية . ولا بد لنا من الإعتراف بأن البوذية فى أدوارها الأولى ، لم تتغلغل إلا قليلا فى نفوس الرجال ، فتركتهم فى شهواتهم . سادرين وأشحاء مقترين علمانيين قد استهوتهم الدنيا ، أو معتقدين فى الخرافات . ولكن اليهودية بسبب اقتناعها بوعد وزعامة قدسية ، تخدم غايات قدسية ، ظلت بالمقايسة إلى البوذية براقة متطلعة ، مثل حسامٍ له من يُعنى بصقاله .

٧ — مجال البوذية الحالى

ازدهرت البوذية فى الهند ردحا من الزمان . بيد أن البرهمانية بما لها من آلهة كثيرة وأضرب شتى من عقائد لا نهاية لها ، ظلت على الدوام مزدهرة إلى جوارها ، وأصبحت هيئة البراهمة أشد قوة ، حتى استطاعوا آخر الأمر أن ينقلبوا على هذه النِّحلة التى تنكر

الطوائف ، وأن يطردوها من الهند طرداً تاماً . وليس هذا موضع قصة هذا الكفاح . فقد حدثت اضطهادات استتبعت ردود أفعال ، ولكن ما كاد القرن الحادى عشر يبزغ ، حتى كانت تعاليم البوذية قد خمدت فى الهند اللهم إلا فى أوريسا . على أن الشيء الكثير من وداعتها وصفائها دخل مع ذلك فى جسم البرهمانية .

وهى ما تزال على قيد الوجود فى مناطق مترامية من العالم ، ولعل تعاليم جوتاما الأصلية عندما تتصل بالعلم الغربى وعندما ينفخ فيها التاريخ من روحه ، وحين تنتعش وتنق من الشوائب ، — تستطيع أن تقوم مع ذلك بدور عظيم فى توجيه مستقبل البشر ومصيرهم .

على أنه عندما أفلتت الهند من يد « النهج الآرى » بطل سلطانه فى حياة كل الشعوب الآرية . ومن عجب أن يلحظ المرء أنه بينما الديانة الآرية الوحيدة تكاد اليوم تكون مقصورة قصراً تاماً على الشعوب المغولية ، فإن الآريين أنفسهم أصبحوا تحت سلطان دينين هما المسيحية والإسلام وهما كما سنرى ساميان خالصان . وتتخذ البوذية والتاوية والمسيحية على السواء أثواباً من الطقوس والمراسم التى تلوح أنها مستقاة عن طريق الهلينيين من مصر — أرض المعابد والكهانات ، ومن العقلية الأشد بدائية وأولية ، عقلية الشعوب الحامية الدكناء .

الكتاب الخامس

قيام الأمبراطورية الرومانية وانهيارها

الفصل الخامس والعشرون

الجمهوريتان الغربيتان

١ — بدايات اللاتين .
٢ — نوع جديد من الدولة .
٣ — جمهورية الأغنياء القرطاجية .
٤ — الحرب البونية الأولى .
٥ — كاتو الأكبر وروح كاتو .
٦ — الحرب البونية الثانية .
٧ — الحرب البونية الثالثة .
٨ — كيف قوضت الحروب البونية الحرية الرومانية .
٩ — مقارنة الجمهورية الرومانية بدولة حديثة .

١ — بدايات اللاتين

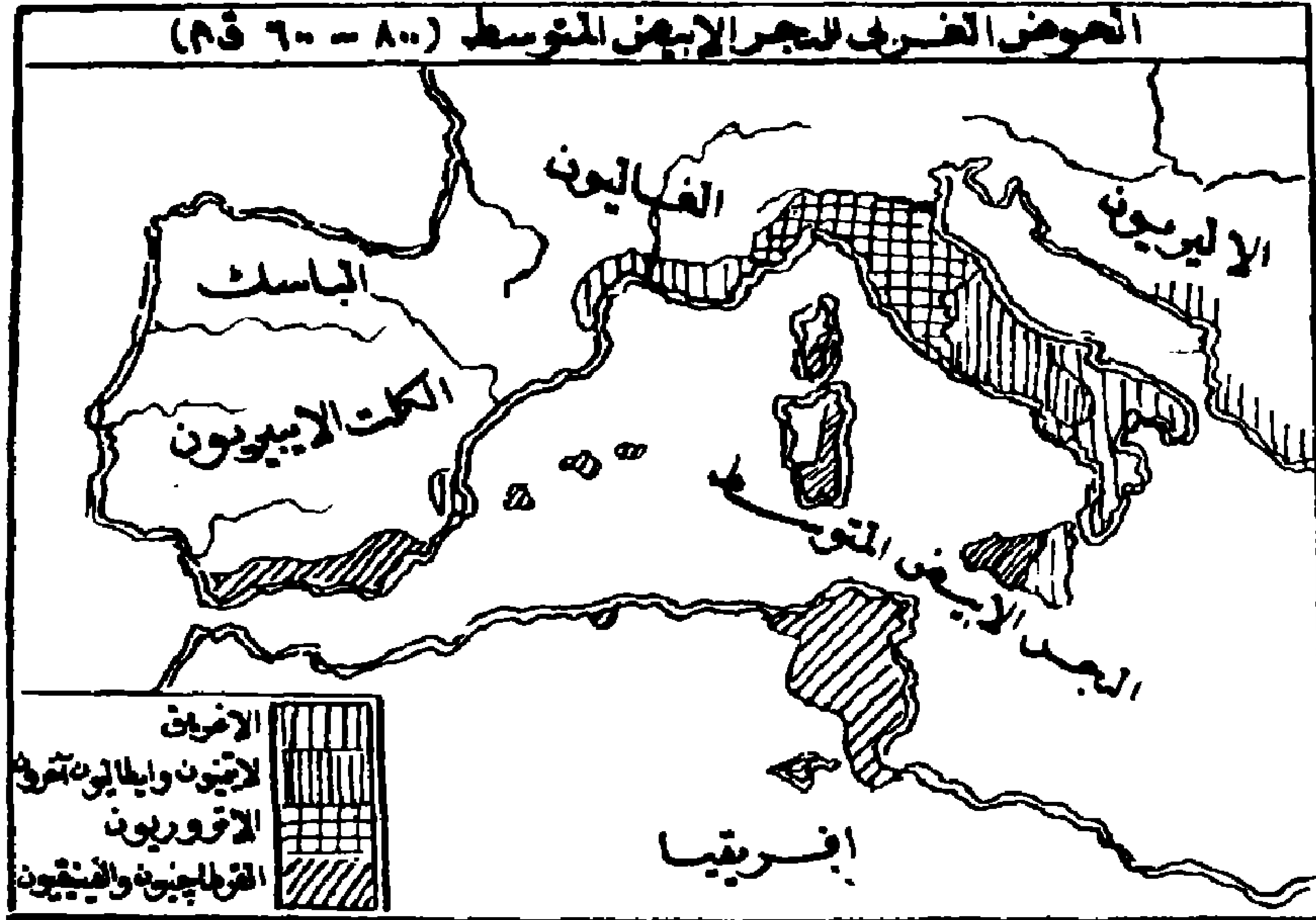
من الضرورى الآن أن نتناول تاريخ الجمهوريتين العظيمتين اللتين ظهرتا فى البحر المتوسط الغربى ، وهما روما وقرطاجنة وأن نبين لك كيف نجحت روما فى الاحتفاظ طوال أجيال كثيرة بإمبراطورية تكاد تكون أعظم من تلك التى غنمها الإسكندر الأكبر بفتوحه . بيد أن هذه الإمبراطورية الجديدة كانت كما سنحاول أن نوضح لك بناء سياسياً يختلف فى طبيعته أبلغ اختلاف عن أية إمبراطورية من الإمبراطوريات الشرقية التى سبقتها وقد انقضت أجيال عدة كانت تجرى فى غضونها تغيرات هائلة فى تكوين المجتمع الإنسانى وفى أحوال العلاقات الاجتماعية بين طبقاته . وكانت مرونة التعامل بالنقود وقابليتها للتداول قد أخذت تصبح قوة أى قوة ولها — شأن كل القوى فى الأيدى غير الخبيرة — خطرها على الشئون الإنسانية ، فكانت آخذة بأسباب تغيير العلاقات بين الأغنياء والدولة وبينهم وبين المادنين الأفقرين . لم تكن هذه الإمبراطورية الجديدة وأعنى بها الإمبراطورية الرومانية — من صنع فاتح عظيم ، على النقيض من كل الإمبراطوريات السابقة فلم يكن منشؤها راجعاً إلى عاهل

كسرجون أو تحتمس أونابو خذ نصر أو قورش أو الإسكندر الأكبر أوشند راجو بتا ، بل هى من صنع جمهورية . ثم إنها نمت واتسعت بحكم نوع من الضرورة ونتيجة لقوى جديدة مركزة وموحدة لم تن أسبابها عن الاحتشاد والتمكن من شئون البشر . على أنا نرى أن نبدأ الحديث بالمامة بسيطة بالأحوال السائدة فى إيطاليا فى القرون السابقة لظهور روما فى قصة العالم .

والراجح أن إيطاليا فى القرون السابقة على ١٢٠٠ ق . م أعنى قبل قيام الإمبراطورية الآشورية وحصار طروادة ، وتدمير كنوسوس النهائى ، وبعد عصر أمينحوتب الرابع . — كانت شأنها شأن أسبانيا ، لا يزال يسكنها فى معظم الأمر شعب أبيض داكن ينتمى إلى الجنس الأيبيرى الأصلى الذى هو جنس البحر المتوسط الأساسى القديم . وهؤلاء السكان الأصليون كانوا على الراجح سكانا متأخرين قليلا عديدهم ولكن كان الآريون قد أخذوا من قبل ينحدرون جنوبا فى إيطاليا كما فعلوا فى بلاد الإغريق . ولم تأت سنة ١٠٠٠ ق م حتى كان المهاجرون من الشمال قد استقروا وانتشروا فى معظم شمال إيطاليا ووسطها . وكما حدث فى بلاد الإغريق اختلطوا زواجا بسابقيهم الداكنين وأسسوا مجموعة من اللغات الآرية هى المجموعة الإيطالية وهى أقرب إلى الكلتية (الجايلية Gaelic) منها إلى أية مجموعة أخرى ، وأهم هذه اللغات من وجهة النظر التاريخية هى تلك التى تتكلمها القبائل اللاتينية النازلة فى السهول الواقعة جنوبى وشرقى نهر التيبر . وكان الإغريق فى نفس الوقت قد أخذوا يستقرون فى بلاد الإغريق وأخذوا عند ذاك يتطلعون إلى البحر ويعبرونه إلى جنوبى إيطاليا وصقلية مستقرين فيهما هناك ثم أنشأوا فيما بعد المستعمرات على طول ساحل الريفييرا الفرنسى وأسسوا مرسيليا فى بقعة كانت تشغلها مستعمرة فينيقية عتيقة . وثمة شعب شائق آخر هبط إيطاليا بحراً وهم شعب قوى الشكيمة متين العضل مائل إلى اللون البنى الذى عرفناه فيهم استنتاجا مما خلفوه من صور لأنفسهم . وأغلب الظن أنهم قبيلة من أولئك الإيجيين البيض الداكنين الذين كان الإغريق يدفعونهم دفعا خارج بلاد اليونان وآسيا الصغرى والجزائر الواقعة فيما بينهما .

ولقد ذكرنا من قبل قصة كنوسوس وأهالى كريت واستقرار ذوى قرباهم الفلسطينيين فى أرض فلسطين . فهؤلاء الإترسك (: الإترورپون) كما كانوا يسمون فى إيطاليا عرفوا حتى فى الأزمنة القديمة بأنهم ذوو أرومة آسيوية . ولعل من المغرى وإن لم يكن له على الراجح ما يبرره ، أن نربط هذه الفكرة المتواترة بالإينيادة Aeneid وهى ملحمة الشاعر اللاتينى ڤرجيل Virgil التى تنسب فيها المدنية اللاتينية إلى نازحين طرواديين من آسيا الصغرى (على أن الطرواديين أنفسهم

كانوا فيما يرجح شعبا آريا يمت إلى الفريجيين ببعض الأواصر) وقد فتح هذا الشعب الأترورى معظم إيطاليا شمالى نهر التيبر منتزعين إياه من القبائل الآرية التى كانت متناثرة فى أرجاء تلك البلاد . والراجح أن الإترسك كانوا يحكمون شعوبا إيطالية مقهورة وبذلك قلبوا الوضع الذى كان جاريا فى بلاد الإغريق حيث كان لآاريون هم الأعلون .



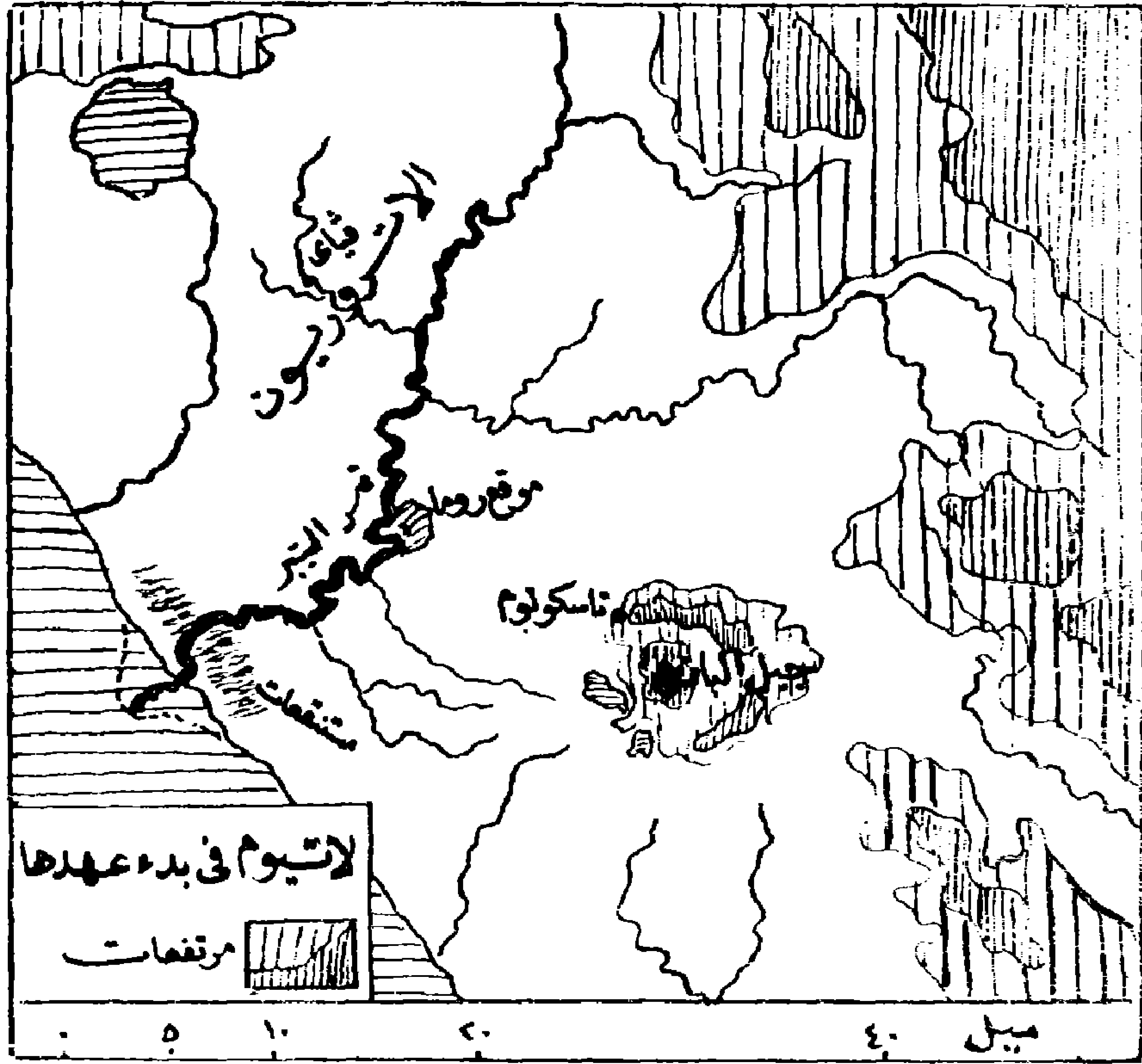
(٩٨)

وربما مثلت خريطة حوض البحر المتوسط الغربى ، الحالة السائدة حوالى ٧٥٠ ق . م تمثيلا تقريبيا وهى تبين أيضاً مؤسسات التجار الفينيقيين على امتداد شواطىء إفريقيا وأسبانيا — التى كانت قرطاجنة أعظمها شأناً .

كان الإترسك أشد الشعوب القيمة فعلا فى إيطاليا مدنيـة وحضارة ، فـكانوا يبنون قلاعا منيعة على طراز فن العمارة الميسينى وضربوا فى الصناعة المعدنية بسهم ، وكانوا يستعملون خزفاً إغريقيا فاخراً . وكانت القبائل اللاتينية على الضـفة الأخرى من التيبر همجية بالمقايسة إلى هؤلاء .

وكان اللاتين لا يزالون شعباً زراعيا متأخراً خشناً ، وكان مركز عبادتهم معبـد أقيم لرب القبيلة المشترى (Jupiter) على جبل ألبان كما هو مبين بالخريطة المسماة (اللاتيوم فى عصره الأول) . وهناك كانوا يجتمعون لإقامة كبريات حفلاتهم على نحو يشبه كثيراً الاجتماعات القبيلية القـديمة التى تخيلناها من قبـل فى آفبورى (Avebury) ولم يكن موضع اجتماعهم هذا مدينة من المدن بل مكاناً عالياً رحيباً يجتمعون فيـه ، ولم يكن به من

سكان يقيمون هناك بصفة مستديمة . ومهما يكن من شيء فإن العصبة اللاتينية كانت تضم اثني عشر بلداً ، وكان هناك فى نقطة خاصة من التيبر مخاضة تتبادل عندها التجارة بين اللاتين والإترسك . وعند هذه المخاضة نشأت بدايات روما إذ يلتقى المتجرون هناك ، ووجد اللاجئون من البلدان الإثنى عشر فى هذا المركز التجاري ملاذاً ومرتزقا . ونشأ على التلال السبعة بالقرب من المخاضة عدد من المستقرات اندمجت آخر الأمر فأصبحت مدينة واحدة .



(٩٩)

وقد سمع معظم الناس بقصة الأخوين روميولوس (Romulus) وريموس (Remus) اللذين أسسا روما ، والأسطورة التى تروى كيف تعرضا فى طفولتهما للهلاك وكيف آوتهما ذئبة وأرضعتهما . والمؤرخون العصريون لا يعلقون على هذه القصة أدنى قيمة . ويذكر عام ٧٥٣ ق . م بوصفه تاريخ تأسيس روما ، بيد أن هناك قبوراً للإترسك تحت الفوروم الرومانى يرجع تاريخها إلى عهد أقدم من ذلك بكثير ، وما يسمونه قبر روميولوس إنما يحمل كتابة إترسكية لم يستطع أحد حل رموزها .

ولم تكن شبه جزيرة إيطاليا فى ذلك الأوان ، تلك الأرض الباسمة بالكروم وحدائق الزيتون التى صار إليها حالها منذ ذلك الحين ، بل كانت لا تزال أرضاً غليظة مليئة بالغابات

والمستنقعات ، كان الفلاحون يرعون فيها أغنامهم ويسلبون الأرض أشجارها . ولم تكن روما — وموقعها كما نعلم على الحدود بين اللاتين والإترسك — فى موقع شديد المنعة يساعد على الدفاع ، وربما كان هناك فى بادئ الأمر ملوك لاتينيون فى روما . ثم يبدو أن المدينة سقطت فى أيدى عواهل الإترسك الذين أدى طغيانهم آخر الأمر إلى طردهم ، ومن ثم أصبحت روما جمهورية ناطقة باللاتينية على حين كان خلفاء نبوخذ نصر يتولون الأمر فى بابل برضاء الميديين . وطرد الملوك الإترسك من روما فى القرن السادس ق . م ، بينما كان كونفوشيوس يبحث عن ملك يصلح فوضى بلاد الصين ، ويوم كان جوتاما يعلم (النهج الآرى) لتلاميذه فى بنارس .

ولسنا بمستطيعين أن نتحدث هنا فى أى تفصيل عن الكفاح بين الرومان والإترسك ، وكان الإترسك أحسن تسلحاً وأكثر تمدنا وأوفر عدداً ، وكان الراجح أن تسوء العواقب على الرومان لو أنهم اضطروا إلى مقاتلتهم منفردين . ولكن مُنى الإترسك بكارثتين أوهنتا قواهم إلى حد أن الرومان استطاعوا آخر الأمر أن يغلبوهم غلبة تامة . وكانت أولى هاتين الكارثتين حربا مع إغريق سيراقوزة بصقلية انتهت بتدمير الأسطول الإترسكى (٤٧٤ ق . م) . والكارثة الثانية هى غارة عظيمة شنها الغال من الشمال على إيطاليا . احتشد هؤلاء القوم وانتشروا فى شمال إيطاليا واحتلوا وادى نهر البو حوالى نهاية القرن الخامس ق . م . كما احتشد ذوو قرباهم بعد ذلك بقرنين وهبطوا على بلاد الإغريق وآسيا الصغرى واستقروا فى غلاطيا وبذلك وقع الإترسك بين المطرقة والسندان . وبعد حرب طويلة فى فترات متقطعة استطاع الرومان أن يستولوا على ڤياى وهى قلعة إترسكية على بضع أميال من روما ، مافتئت حتى ذلك الحين مصدر تهديد ومضايقة لهم .

وإلى مدة الكفاح هذه بين الرومان وبين التاركوين من ملوك الإترسك يشير كتاب اللورد ماكولى المسمى « أناشيد روما القديمة » والمعروف لدى كل تلميذ فى إنجلترا .

على أن غزو الغال كان إحدى تلك الأعاصير التى تعصف بالشعوب عصفا ، لا تذر شيئا على حاله . فإنهم حملوا غاراتهم قدما فى شبه الجزيرة الإيطالية ، وهم يخربون كل إتروريا (أعنى بلاد الإترسك) حتى أخذوا روما ونهبوها (٣٩٠ ق . م) . وقاومتهم قلعة الكابيتول (كما تقول الأساطير الرومانية التى يلقى عليها الشك بعض ظلاله) ، وهذه أيضا كاد الغال أن يأخذوها على غرة ليلا لو لم توقظ حركة تسللهم بعض الأوزات فصاحت صيحات أيقظت الحامية . وبعد ذلك افتدى الغال أنفسهم بالمال ورحلوا إلى الشمال ثانية ، إذ كانوا

غيرمزودين بما يلزم عمليات الحصار من عتاد ، وربما كونهم أيضا تفشى المرض فى معسكرهم . ومع أنهم قاموا بغارات تالية فإنهم لم يصلوا بعد ذلك قط إلى روما .

وكان قائد الغال الذين نهبوا روما يدعى برينوس Brennus ، ويروى عنه الرواة أنه بينما كان ذهب الفدية فى الميزان تنازع القوم حول صحة وزن الصنجة وتعادل الكفتين . وعند ذلك ألقى بسيفه فى كفة الميزان قائلا « الويل للمغلوب . « Voe Victis » . وهى عبارة لزم شبحها حتى وقتنا هذا كل مناقشة جرت فى شئون الفديات والتعويضات .


١٠٠ — إحراق الموتى « احتفال إترسكى »

شغلت روما خلال نصف القرن التالى لهذه المحنة فى سلسلة من الحروب أرادت بها أن تجعل من نفسها زعيمة للقبائل اللاتينية . إذ يلوح أن احتراق المدينة الكبرى استنهض همتها بدلا من أن يخمد نشاطها ويقعدها عن العمل ومهما يكن مقدار ما لقيت من الآلام — فالظاهر أن معظم جيرانها عانوا من الويلات أكثر مما عانت . ولم تأت سنة ٢٩٠ ق . م حتى كانت روما سيدة بلاد إيطاليا الوسطى من نهر الآرنو إلى جنوبى نابلى ، فإنها غزت الإترسك غزواً تاما ، وأخذت حدودها تنتقل شمالا بتقهقر حدود الغال ، وتمتد جنوبا بارتداد تخوم أصقاع إيطاليا الواقعة تحت السيادة الإغريقية (ماجنا جريكيا أى بلاد الإغريق العظمى) ، وبثت الحاميات ومدن المستقرات على امتداد الحدود بينها وبين الغال ، ولا شك أن هذا الخط الدفاعى يرجع إليه الفضل فى انحراف غارات الغال وجهودهم نحو الشرق إلى بلاد البلقان .

ولن يدهش القارئ حين يعلم — بعد الذى سبق أن قلناه عن تاريخ اليونان وعن دساتير مدنها — أن الإغريق بصقلية وإيطاليا كانوا منقسمين إلى عدد من حكومات المدن المنفصلة ، على رأسها سيراقوزة وتارنتم (وهى تارانتو الحديثة) ، وأنهم لم تكن تربطهم قاعدة عامة لتوجيه الجهود أو السياسة ، بيد أنهم لما أزعجهم امتداد الدولة الرومانية شخصوا بأبصارهم وراء الإدرياتى طلباً للمعونة ، ووجدوها فى مطامع پيروس (Pyrrhus) ملك إپيروس .

وكان موقف هؤلاء الإغريق ، سكان الماجناجريكيا حيال الرومان وبيروس ، هو نفس الموقف الذى وقفته بلاد الإغريق الأصلية بين الفرس والمقدونيين قبل ذلك بنصف قرن .

وسوف يتذكر القارىء أن إپيروس وهى أدنى جزء فى بلاد الإغريق إلى عقب (كعب) إيطاليا ، كانت موطن « أوليمپياس » أم الإسكندر . ثم تلت وفاة الإسكندر تقلبات فى خريطة بلاد الإغريق سريعة خاطفة لا عداد لها . فكان المقدونيون يغشون إپيروس أحيانا أوهى تظل مستقلة أحيانا أخرى . وكان پيروس من ذوى قربى الإسكندر الأكبر كما كان ملكا ذا مقدرة وإقدام . ويلوح أنه كان يعد أهبته لغزو إيطاليا وصقلية . وكان تحت إمرته جيش جدير بالإعجاب فكان جنود الرومان القليلو الخبرة نسبيا على غير كبير شأن بإزائه فى أول الأمر . أجل كان جيشه يحتوى على كل الوسائل والمعدات الحربية المعروفة فى زمانه ، من فيالق المشاة والفرسان التساليين وعشرين فيلا مقاتلا أحضرت من الشرق . فبدد شمل الرومان فى هرقليا (Heraclea) (٢٨٠ ق . م) ، ثم تعقبهم بشدة وهزمهم مرة ثانية فى أوسكولوم (Ausculum) (٢٧٩ ق . م) فى نفس بلادهم ، ولكنه بدلا من أن يواصل تعقبهم تهادن وإياهم . ووجه همه نحو إخضاع صقلية ، وبذلك اضطر دولة قرطاچنة البحرية إلى التحالف ضده : ذلك أن قرطاچنة لم تكن تستطيع أن تسمح بتأسيس دولة قوية فوق أرض صقلية القريبة منها . عند ذلك رأى القرطاچيون فى روما مصدرا للتهديد أقل خطرا عليهم من ظهور إسكندر أكبر آخر فى أرض صقلية — ومن ثم ظهر أمام مصب التيبر أسطول قرطاچنة ليشجع الرومان ويحملهم على استئناف القتال .

ثم تحالفت روما وقرطاچنة تحالفا وثيقا ضد الغزاة .

وقضى تدخل قرطاچنة على پيروس فانحلت عرى جيشه دون أن يشتبك فى معركة فاصلة . واضطر أن يتراجع إلى إپيروس (٢٧٥ ق . م) بعد أن منى بكارثة فى هجوم له على المعسكر الرومانى فى بنيفنتم . (Beneventum) .

ويسجل لنا التاريخ أن پيروس عندما غادر صقلية قال إنه يغادرها لكى تصبح ميدانا للقتال بين روما وقرطاچنة . ثم قتل بعد ذلك بثلاث سنوات فى معركة بشوارع آرجوس .

ويرجع الفضل فى انتصار الرومان على بيروس إلى الأسطول القرطاجى . واجتنت روما نصفا كاملا من ثمرة النصر ، الذى انتقلت بسببه صقلية بأكملها إلى قرطاچنة وتقدمت حدود روما جنوبا حتى أصابع إيطاليا وعقبها . وأخذت روما ترمق ببصرها منافستها الجديدة عبر مضيق مسينا . ولم تمض إحدى عشرة سنة (٢٦٤ ق . م) حتى تحققت نبوءة پيروس ، وابتدأت

الحرب الأولى مع قرطاجنة ، وهى أولى الحروب البونية الثلاثة (وكلمة البونية Punic مشتقة من الكلمة اللاتينية بيونيكوس Punicus أى القرطاجية أعنى الفينيقية) .

٢ — نوع جديد من الدولة

على أنا نكتب لفظتى « روما والرومان » وما نزال لزاما علينا أن نفسر لك أى خلق من الناس كان هؤلاء الذين يلعبون دورا من الفتوح لم يقم به حتى ذلك الحين غير ذوى الاقتدار والجسارة والإقدام من الملوك .

كانت دولة الرومان فى القرن الخامس ق . م جمهورية من الطراز الآرى شديدة الشبه بجمهورية إغريقية أرستقراطية ، وأقدم الروايات عن حياة روما الاجتماعية يمثلها لنا على صورة مجتمع آرى بدائى جدا . « وفى النصف الثانى من القرن الخامس ق . م كانت روما لا تزال مجتمعا أرستقراطيا من الفلاحين الأحرار يشغلون مساحة قدرها أربعمئة ميل مربع ، وبها من السكان مالا يزيد على وجه التأكيد عن مئة وخمسين ألفا ، يكادون ينتشرون انتشارا تاما فى الريف وينقسمون إلى سبعة عشر حيا أو قبيلة ريفية . وكانت معظم العائلات تمتلك مساحات صغيرة من الأرض وتنفرد بكوخ صغير يعيش فيه الوالد وأولاده ويشتغلون معا ، زارعين فى أغلب أمرهم القمح ، مع قطعة صغيرة من الكرم أو الزيتون هنا وهناك . وكانت الماشية القليلة العدد لديهم ترعى فى الأراضى المشاعة المجاورة — فأما ثيابهم وأدواتهم البسيطة اللازمة للزراعة فكانوا يصنعونها بأنفسهم فى المنازل . ولم يكن فى مستطاعهم الاختلاف إلى المدينة المحصنة إلا فى القليل النادر وعلى فترات متباعدة وفى مناسبات خاصة جدا . وكانت المدينة مركز دياناتهم ومقر حكومتهم على السواء . وبها معابد الآلهة ومنازل الأثرياء وحوانيت الصناع والتجار ، حيث يمكن المقايضة على كميات صغيرة من القمح أو الزيت أو النبيذ بالملح أو الآلات الخشنة البدائية والأسلحة الحديدية[١] » .

وقد جرى هذا المجتمع على التقاليد المألوفة التى تقسم المجتمعات إلى ممادنين أرستقراطيين وعامة وكان يطلق عليهم فى روما اسم البطارقة Patricians والپلبز (البلبيان plebians) وكان هؤلاء وحدهم هم المادنون فيها . ولم يكن نصيب العبد أو الأجنبى فى شئون الدولة بأعظم من نصيبه فى بلاد الإغريق ، بيد أن الدستور كان يخالف أى دستور إغريقى من حيث تركيز قسط كبير من السلطة الحاكمة فى قبضة هيئة تسمى السناتو ، ولم يكن السناتو هيئة خالصة من الأعضاء

(١) نقلا عن كتاب « عظمة روما واضمحلالها » تأليف فريرو .

الوراثيين ولا هو بهيئة تمثيلية منتخبة بطريقة مباشرة . بل كان هيئة تقوم على التعيين واقتصر الترشيح لها فى العصر الأول على البطارقة وحدهم ، وكان هذا المجلس قائماً قبل طرد الملوك ، وكان الملك عند ذاك هو الذى يعين أعضاء السناتو . ولكن بعد طرد الملوك (٥١٠ ق . م) انتقلت سلطة الحكومة العليا إلى يد حاكمين منتخبين هما القنصلان Consuls . فتولى هذان أمر تعيين أعضاء السناتو . وفى الأيام الأولى للجمهورية كان حق الانتخاب لوظائف القناصل أو عضوية الشيوخ مقصوراً على البطارقة ، أما العامة فلم يتعد نصيبهم من الحكم حق التصويت لا نتخاب القناصل وغيرهم من الموظفين العموميين . ولكن لم تكن لأصواتهم حتى فى هذا الأمر نفس القيمة التى كانت لزملائهم المادنين البطارقة . بيد أن أصواتهم كان لها على كل حال الوزن الكافى لحمل الكثيرين من المرشحين البطارقة على التودد للعامة وإظهار قدر من الاهتمام بآلامهم ومظالمهم تتفاوت درجة إخلاصه . هذا إلى أن العامة فى العهود الأولى للدولة الرومانية لم يحرموا من تولى الوظائف العمومية فحسب ، بل من التزاوج مع طبقة البطارقة . وبديه أن إدارة شئون الحكم كانت قبل كل شيء شأناً اختص به البطارقة .

فكأن الطور الأول من أطوار الشئون الرومانية كان والحالة هذه أرستقراطياً بيّن الحدود ، وكان تاريخ روما الداخلى فى فترة القرنين ونصف القرن الممتدة بين طرد « تاركوين الصلف » آخر ملك إترسكى وبين بداية الحروب البونية الأولى (٢٦٤ ق م .) فترة من الزمان قضيت غالبيتها فى نزاع على السيادة بين هاتين الطبقتين البطارقة والبلبز أى النبلاء والعامة . فما أعظم الشبه بين هذا النزاع وبين ذلك الذى كان بين الأستقراطية والديمقراطية ، فى دول المدن الإغريقية وكما هو الحال فى بلاد الإغريق كانت بالمجتمع طبقات بأسرها ، ما بين أرقاء ، وعبيد معتقين ، ورجال أحرار لا أملاك لهم ، وغرباء ومن إليهم ، وهم جميعاً بمعزل عن الكفاح ومن دونه فى الدرك الأسفل . ولقد لاحظنا من قبل الفارق الجوهرى بين الديمقراطية الإغريقية ، وبين ما يسمى باسم الديمقراطية اليوم فى العالم . وثمة كلمة أخرى يساء استعمالها وهى كلمة الدهماء البروليتاريات Proletariat الرومانية التى يكنى بها فى مصطلح عصرنا هذا كل من ليس لهم ممتلكات فى دولة حديثة . وفى روما كانت جماعة البروليتارى تدل على أدنى طبقات العامة وتمثل قسما من المادنين ذوى المؤهلات الكاملة ممن لهم الحق فى التصويت على أن لا يقلّ نصابهم العقارى عن ١٠٫٠٠٠ آس نحاسى As (أى ٢٧٥ جنيها) وكانوا طبقة مقيدة فى السجلات تنهض قيمتهم فى نظر الدولة على تكوينهم عائلات من المادنين (إذ أن معنى كلمة Proles هو النسل

والذرية) . وكان يؤخذ من بين صفوفهم سكان المستعمرات الذين يذهبون لتكوين مدن لا تينية جديدة أو لتكوين حاميات المراكز الهامة ، على أن طبقة البروليتارى كانت من حيث الأصل منفصلة تمام الانفصال عن الأرقاء أو الرجال العتقاء أو ذلك الخليط النازح إلى الأحياء الفقيرة المكتظة من المدن ، ومما يؤسف له كثيراً أن يختلط الأمر على الناس فى المناقشات السياسية العصرية فيستعملون لفظاً كهذا استعمالا خاطئا غير مضبوط وهو لا يعبر عن شىء صحيح فى تصنيف الطبقات فى المجتمع الحديث .

وإنا لنستطيع أن نتجاهل فى هذا « المجمل » تفاصيل هذا الكفاح بين النبلاء والعامة . فإنه كان كفاحا أظهر فى الرومان شعبا ذا حصافة وسجايا غريبة لا يضطرون الأمور أن تبلغ حد الأزمة المهلكة بل يدركون بحزمهم وبصيرتهم الفلاة المتشددين قبل أن يتجاوزوا حدود العقل والحكمة . ولكم أساء البطارقة استغلال ميزاتهم السياسية استغلالا دنيئا ليجمعوا الثروات عن سبيل الفتوح القومية ، لا على حساب العدو المندحر فحسب ، بل على نفقة العامة الأفقرين الذين أهملت مزارعهم والذين وقعوا فى ربقة الديون أثناء خدمتهم العسكرية فاخرج العامة (البلبيان) من كل نصيب فى الأرض المغزوة التى اقتسمها النبلاء فيما بينهم . والراجح أن استحداث النقود وانتشار تداولها زاد فى تيسير الأمر على المرابين وفى زيادة الصعوبات على المدينين المقترضين .

واستخدم العامة ثلاثة ألوان من الضغط على النبلاء ظفروا بواسطتها بنصيب أوفى فى حكم البلاد وفى الخيرات التى غدت على وشك الانسياب إلى روما عند تسنمها ذروة المجد والقوة . وكان أول أنواع هذه الضغوط هو (١) الإضراب العام فإنهم ثاروا مرتين حتى خرجوا من روما خروجاً تاماً مهددين بإقامة مدينة جديدة فى أعالى نهر التيبر ، وأثبت هذا التهديد مرتين أنه حاسم فعال . وكانت طريقة الضغط الثانية هى : (٢) التهديد بإقامة حكم طاغية ، كما حدث بالضبط فى أتيكا (وهى الدويلة التى كانت أثينا عاصمتها) يوم تسلم بيزستراتوس مقاليد السلطان مستنداً إلى تأييد الأحياء الفقيرة . فقياساً على هذا لم تكن البلاد لتعدم البتة فى معظم عصور تذمر العامة رجلا ذا طموح مستعداً لتولى الزعامة وانتزاع السلطان من مجلس السناتو . على أن نبلاء الرومان ظلوا زمناً طويلا وهم من المهارة بحيث يغلبون أيا من أمثال ذلك الطاغية المحتمل الظهور بتساهلهم مع العامة إلى حد معين . ويجىء أخيراً ثالث هذه الأمور : (٣) إذ ظهر بين البطارقة النبلاء من بلغ من سعة العقل وبعد النظر مبلغاً دفعه إلى الإصرار على ضرورة إرضاء العامة (البلبز) ومصالحتهم .

ففي سنة (٥٠٩ ق . م) أصدر القنصل فاليريوس بوبلكولا (ويتعلق هذا بالأمر الثالث) قانوناً يقضي بأنه إذا تعرضت حياة أي مادن أو حقوقه للخطر وجب أن يقدم استئناف عن أحكام الموظفين إلى الجمعية العمومية . وكان هذا القانون الفاليري هو (قانون حماية الفرد) في روما «Habeas Corpus of Rome» وهو القانون الذي أنقذ العامة الرومان من أسوأ أخطار روح الانتقام بين الطبقات في المحاكم .

وحدث (في ٤٩٤ ق . م) إضراب — ويتعلق هذا بالأمر الأول — لأن عبء الديون أصبح بعد الحرب اللاتينية باهظا لا يطاق ولأن العامة غضبوا حين شهدوا أصدقاءهم الذين كثيرا ما خدموا الدولة بشجاعة في صفوف فرق الجيش يكبلون في أغلال الدين والفاقة وينزلون إلى دركات العبودية بناء على طلب دائنيهم النبلاء . وكانت الحرب ضد الفولسكانيين (Volscians) محتدمة الوطيس فلما أن خمد أوارها رفض جنود الكتائب الرومانية عند عودتهم مظفرين أن يطيعوا القناصل بعدها أبداً ، وساروا في نظام موفور لم يداخله أي فساد إلى « الجبل المقدس » ، وراء الأنيو (في أعلى التيبر) ، وهناك أعدوا العدة لإنشاء مدينة جديدة ، ما داموا قد حرموا حقوق المادنين الأحرار في المدينة القديمة . فاضطر البطارقة إلى الإذعان ، ولما عاد العامة إلى روما بعد « اعتصامهم الأول » نالوا الحق في أن يكون لهم من أنفسهم موظفين ، فيولون عليهم ترابنة (Tribunes) وأيادلة (Aediles)[١] .

وفي سنة ٤٨٦ ق . م . قام سپوريوس كاسيوس (Spurius Cassius) وهو أحد القناصل بإصدار قانون عقاري يضمن للعامة الحق في الأرض العمومية (ويتعلق هذا بالأمر الثاني) ، ولكنه اتهم في السنة التالية بأنه يرمي إلى إقامة حكم ملكي ، وقضى عليه بالإعدام ولم ينفذ قانونه قط .

ونشب عقب ذلك كفاح طويل قام به العامة لتدوين قوانين روما ، حتى لا يضطروا بعد ذلك إلى الاعتماد على ذاكرة النبلاء . وصدر قانون الألواح الاثني عشر (٤٥١ — ٤٥٠ ق . م) وهو أساس كل قانون روماني .

ولكن صوغ الألواح الاثني عشر استلزم تعيين لجنة من عشرة رجال (The Decemvirate)[٢] في مكان الحكام العاديين . وجاءت لجنة ثانية من عشرة عينت لتخلف الأولى ، فحاولت أن تقيم شبه ثورة أرستقراطية رجعية برئاسة أپيوس كلوديوس (Appius Claudius) فانسحب

(١) « موجز تاريخ روما حتى وفاة أغسطس » تأليف ج . ولز (J. Wells) والأيادلة جمع آيديل وهو موظف يشرف على المباني والطرق والموازين والمهرجانات .

(٢) كلمة لاتينية مكونة من Decem ومعناها عشرة ، وكلمة Vir بمعنى رجل .

العامة من جديد إلى الجبل المقدس ، وانتحر أبيوس كلوديوس بعد ذلك فى السجن .

وحلت بالبلاد مجاعة فى ٤٤٠ ق . م . وحاول بعض الناس مرة ثانية أن ينصبوا على البلاد طاغية شعبياً يقوم حكمه على ما يحيق بالشعب من مظالم ، وكان على رأس هذه المحاولة سپوريوس ميليوس (Spurius Maelius) وهو رجل مثر من العامة ولكن المحاولة انتهت بقتله غيلة .

وبعد أن نهب الغال روما (٣٩٠ ق . م) ، تقدم إلى مكانة الزعامة الشعبية ماركوس مانليوس (Marcus Manlius) — الذى كانت بيده إمرة الكاپيتول ، يوم أن أنقذه صياح الإوز . وكان العامة فى أشد العسر والعناء لما لقوا من النبلاء بعد الحرب من ربا فاحش واستغلال للنفوذ فى جنى الأرباح الطائلة ، فليس من العامة من لم يقع فى ربقة الديون الباهظة التى عقدوها ليبنوا بها قراهم من جديد ويعمروها بالماشية والأغنام . فأنفق مانليوس ثروته فى تخليص المدينين . فرماه النبلاء بأنه يهدف إلى أن يكون طاغية ، فأدين ، ولقى نصيب الخونة المدانين فى روما ، بأن ألقى من أعلى الصخرة التارپية (Tarpeian)[1] وهى حافة الهاوية فى نفس تل الكاپيتول الذى نافح عنه .

وفى عام ٣٧٦ ق . م . بدأ ليسينيوس (Licinius) أحد ترابنة الشعب العشرة مرحلة كفاح طويل الأمد مع البطارقة بأن قدم مقترحات بعينها تسمى القوانين الليسينية (Licinian Rogations) وتنص هذه بأن يكون هناك حد أقصى لمقدار الأرض العامة التى يستولى عليها أى فرد من المادنين ، وبذلك يتبقى لكل امرئ شىء منها ؛ وأن ما تبقى من الديون غير المسددة يجب التنازل عنه من غير فائدة متى دفع الأصل ؛ وأنه منذ ذلك الحين . فصاعداً يجب أن يكون واحد على الأقل من القنصلين من طبقة العامة ، فأفضت هذه الطلبات إلى التعجيل بكفاح دام عشر سنوات . واستخدم العامة (البلبز) حقهم كاملا فى تعطيل دولاب الأعمال بتطبيقهم حق النقض المخول لممثليهم الترابنة .

وقد جرت العادة فى حالات الحرج القومى والأزمات أن يتخلى كل الحكام عن العمل وأن يعين زعيم واحد ، هو الدكتاتور وقد فعلت روما فيما سلف شيئاً من هذا القبيل إبان الملمات الحربية على أن البطارقة أقاموا إذ ذاك دكتاتوراً فى وقت كان السلام فيه شاملا مستهدفين القضاء التام على ليسينيوس . فعينوا كاميلوس (Camillus) الذى حاصر فياى واستولى

---

(١) كان الكاپيتول فى العصور الأولى يطلق عليه اسم جبل تارپيوس (Mons Tarpeiues) ثم أصبح الاسم فى العصور المتأخرة يطلق على جزء من صخرة الكاپيتول .

عليها من الإترسك ، بيد أن كاميلوس كان رجلا أوسع من أنصاره بصيرة وأشد حنكة فحمل الطرفين على تراض منح فيه العامة معظم مطالبهم ٣٦٧ ق م . وأقام لتخليد ذلك الصلح معبداً يرمز إلى الوفاق (Concord) ثم اعتزل منصبه .

ومن ذلك الحين هدأت حدة النزاع بين الطبقتين ، هدأت لأن الفروق الاجتماعية بين البطارقة والعامة أخذت فى النقصان ، بالإضافة إلى مؤثرات أخرى كثيرة خففت من حدة الخلاف . وكانت التجارة تزداد ورودا إلى روما مع تزايد نفوذها السياسى ، وكان الكثيرون من العامة قد أخذوا يثرون ، وأصبح كثير من البطارقة فقراء نسبياً . وغدت المصاهرة بين الطبقتين من الأمور المكنة وذلك بإدخال بعض التعديل على القانون . وأخذ التمازج الاجتماعى يجرى مجراه . وعلى حين شرع العامة الأغنياء يصبحون على الأقل أوليجاركيين فى عاداتهم وعواطفهم إن لم يصبحوا أرستقراطيين ، أخذت تنشأ فى روما طبقات جديدة لها مصالح جديدة وليس لها أية منزلة سياسية . وكان المحررون ، وهم الأرقاء الذين أعتقوا ، على وفرة خاصة فى عددهم ، وهم فى معظم أمرهم من الصناع ، وإن كان بعضهم من التجار الذين أخذوا يثرون ، فأما مجلس السناتو ، فلم يعد بعد هيئة مقصورة على البطارقة وحدهم — نظراً لأن مناصب كثيرة متنوعة غدت عند ذلك مباحة للبلبز ، وأصبح أمثال هؤلاء الموظفين من العامة (البلبيان) — أعضاء فى السناتو — حتى غدا ذلك المجلس آنئذ جمعية تضم كل ذوى الثراء والاقتدار والهمة والنفوذ من رجال الدولة . وطفقت رقعة الدولة الرومانية تتسع وكلما ترامت أطرافها أصبحت هذه الخصومات القديمة بين طبقات المجتمع اللاتينى الأول شيئا لا معنى له . فأخذت الدولة تستبدل بها جماعات أخرى وخصومات أخرى وكان الأغنياء أيا كانت أصولهم ينضمون بعضهم إلى بعض تربطهم مصلحة مشتركة تجمعهم ضد آراء الفقراء الإشتراكية .

وفى ٣٩٠ ق . م . كانت روما مدينة صغيرة حقيرة على حدود إتروريا (Etruria) تمتد إليها يد الغال بالنهب ، وماوافت ٢٧٥ ق . م حتى كانت مسيطرة على كل إيطاليا وقد وحدتها ولمت شملها من نهر الأرنو إلى مضيق مسينا . وكان الوفاق الذى أبرمه كاميلوس (٣٦٧ق.م) قد قضى على الخلافات الداخلية ، وترك كل قواها طليقة يمكن استخدامها فى التوسع ، وكان الامتزاج الغريب بين الحصافة والأنانية العدوانية ، الذى امتازت به الحرب بين طبقاتها فى الداخل والذى هيأ لسكانها أن يشقوا لأنفسهم الطريق مع الاحتفاظ بتوازن القوى دون الوقوع فى أى كارثة هو رائد سياستها فى الخارج وعنوانها وميزتها فإنها أدركت قيمة الحلفاء وعرفت كيف تتمثل غيرها . وكانت تستطيع فى تلك الأيام على الأقل أن تتبادل المنافع والمصالح فى الداخل

والخارج على حد سواء فكانت « تعطى مثلما تأخذ » متوخية بعض العدالة وشيئا من الحكمة وهذا هو سر قوة روما الخاصة . وبهذا استطاعت أن تفلح حيث فشلت أثينا فشلا بيّنا .

لقد قاست ديمقراطية الأثينيين كثيراً من جراء ضيق الأفق الذى اتسمت به (فى الوطنية) والذى طالما جلب الدمار للأمم فإن أثينا كانت موضع الكراهية والحسد من إمبراطوريتها لأنها كانت تتسلط عليها بروح ضيق من الأنانية ، ولم تكن المدن الخاضعة لها لتشعر بكوارثها وتشاركها فيها . هذا بينما أعضاء السناتو الأكثر حصافة ونبلا إبان سنوات روما العظيمة ، قبل أن تنهك الحروب البونية الأولى قوتها المعنوية وتبث فيها الانحلال ، — لم يقتصر أمرهم — بدلا منهم لآخرسهم فى جعبتهم — على الرغبة فى إشراك عامة قومهم فيما كانوا يتمتعون من امتيازات بل كانوا كذلك تواقين إلى ضم أشد أعدائهم مراسا إلى صفوفهم على أساس من المساواة التامة المستديمة بين الطرفين ولقد توسعوا فى منح الحرية الدينية أعنى حقوق المادنة متوخين الحرص والحذر مع الإطراد والاستمرار . وأصبحت بعض المدن تتمتع بالمادنة الرومانية بل منحت نصيبا من التصويت فى الحكومة وأداة الحكم . وخُوّل لبعضها الآخر حكومة ذاتية مع منحها حق الاتجار أو الزواج فى روما دون أن تحظى بحقوق المادنة الرومانية كاملة . وكانت الحاميات من المادنين المستكملى الحقوق تنشأ فى المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية وتقام المستقرات الصغيرة التى تتمتع بمختلف الامتيازات بين ظهرانى الشعوب المغزوة غزواً تاما . وكانت الحاجة إلى الاحتفاظ بالمواصلات مفتوحة بين هذه الكتلة العظيمة المتزايدة من المادنين أمراً ملموسا ظاهرا للعيان منذ البداية . ولم يكن أمر الطباعة ولا الورق قد تيسرا بعد فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، على أن شبكة من الطرق الرئيسية ترسمت خطى اللسان اللاتينى والحكم الرومانى أنى حلا . وكان أول هذه الطرق ، وهو الطريق الأبيانى Appian Way[1] يجرى من روما حتى يصل إلى نهاية عقب إيطاليا . وقد شرع فى إنشائه الرقيب[2] (Censor) أبيوس كلوديوس ٣١٢ ق . م (الذى يجب ألا نخلط بينه وبين عضو مجلس العشرة الرجال أبيوس كلوديوس الذى عاش قبله بقرن) .

ويدل الإحصاء الذى تم فى (٢٦٥ ق . م) ، على أنه كان يوجد فى مناطق السيادة الرومانية ، أعنى فى إيطاليا جنوبى الأرنو ، ثلاثمئة ألف ممادن حر ، وكانت لهم جميعا مصلحة

---

(١) اسمه عند الرومان « Via Appia » أى طريق آبيا أو الطريق الأبيانى .

(٢) الرقيب السنسور ج سناسرة موظف رومانى مكلف بجمع الإحصاءات وحماية الأخلاق العامة .

مشتركة فى خير الدولة ورفاهيتها ، وكلهم لم يتأثر إلا قليلا بسلطة الملك ، وقد توزعت فى عصر الجمهورية بين أيد كثيرة . ولا بد لنا من أن نلاحظ أن هذا كان شيئا جديداً تمام الجدة فى تاريخ الجنس البشرى إذ كانت كل الدول والممالك والإمبراطوريات الضخمة حتى ذلك الحين مجتمعات تقوم على مجرد الطاعة لبعض الرؤساء أو الملوك لا مفر لمصلحة الشعب ورفاهيته من أن تتوقف على مزاجهم وطباعهم وتعتمد عليهم اعتماد العاجز الذى لا عون له . فلم تفلح أية جمهورية حتى ذلك الحين اللهم إلا أن تكون دويلة مدينة . ولقد كان ما يسمونه بالإمبراطورية الأثينية مجرد (دولة مدينة) توجه حلفائها والمدن الخاضعة لها . ولكن الجمهورية الرومانية تسنى لها أن تمد حقوق ممادنتها فى بضع عشرات من السنين إلى وادى نهر البو ، وأن تتمثل أبناء قرابتها من الغال ، وأن تستبدل بلغتهم لا تينيتها وأن تقيم مدينة لاتينية هى آكويليا على ناصية البحر الأدرياتى نفسه . وفى (٨٩ ق . م) أصبح كل سكان إيطاليا الأحرار ، ممادنين رومانيين . وفى (٢١٢ بعد الميلاد) شملت الممادنة كل رجال الإمبراطورية الأحرار .

ومن البين أن هذا التطور السياسى العجيب هو البشير المؤذن بظهور كل الدول الحديثة ذات الطراز الغربى . ومن ثم فهو نظام شائق يستحق عناية دارس السياسة مثلما يروق للباحث فى التطور الحيوانى : (الزولوجى) أن يقع بين يده أى كائن برمائى[1] متكرين أو أى أركيو بتريك[2] . فهو الطراز البدائى للنظام السائد اليوم . وينبعث عن خبرات روما وتجاربها ضياء ينير معالم التاريخ السياسى فى كل العصور التالية .

وهناك نتيجة طبيعية واحدة لهذا النماء الذى يتهيأ لديمقراطية قوامها مئات الآلاف من الممادنين ، المنتشرين فى أرجاء الجزء الأكبر من إيطاليا : هى نمو قوة السناتو . وقد ظهرت أثناء تطور الدستور الرومانى أضرب كثيرة من أشكال مجلس الأحرار ومجلس العامة (البلبز) ، والمجلس القَبَلى والمجلس المئوى وما إليها . وليس فى وسعنا أن نتناول مختلف أنواعها فى أى تفصيل وبحسبك أن تعلم أن الفكرة السائدة هى أن مجلس الأحرار كان صاحب الحق فى اقتراح القوانين . ولا يذهب عنكم أن هـذا النظام كان يحوى ضرباً من الحكومة المزدوجة وكان

---

(١) البرمائى أو المتراوح هو ما يكنى فى علم الحيوان باسم Amphibia أى الحيوان الذى يتراوح فى سكناه بين الماء واليبس فيكون فى طور من أطواره مائيا وفى الطور الآخر بريا .

(٢) وهوالمعروف باسم Archaeopteryx وهىمشتقة من Archae ومعناها قديم ثم Pteryx ومعناها جناح وهو أقدم طائر متحجر له ذنب ذو فقرات .

المجلس القبلى أو المجلس المئوى جمعية تضم هيئة المادنين كافة ، النبلاء منهم والعامة معاً . وكان مجلس البلبز — بالطبع — جمعية مكونة من طبقة العامة وحدهم ولـكل مجلس موظفوه الخاصون . فالموظفون فى الحالة الأولى هم القناصل وغيرهم ، وهم فى الثانية الترابنة . ويوم كانت روما دويلة صغيرة ، ذرعها عشرون ميلا مربعاً ، كان فى الإمكان أن يلتئم مجلس تتوفر فيه الروح التمثيلية لجموع الشعب ولـكن من الواضح أن صعوبة وسائل المواصلات فى إيطاليا آنذاك كانت تجعل من المحال على الغالبية العظمى من السكان أن يحيطوا علماً حتى بما يجرى فى روما ، وأقل من ذلك احتمالا أن يكون لهم أى نصيب فعال من الحياة السياسية هناك . وقديماً أوضح أرسطو فى كتابه (السياسة) ما عساه أن يلحق المصوتين من الحرمان الفعلى من الحقوق المدنية ، يخص بذلك أصحاب الأصوات الذين يعيشون خارج المدينة ، والذين تشغلهم شئون الزراعة . وهـذا النوع من الحرمان الفعلى من حق الانتخاب والتصويت ومباشرة الحقوق الانتخابية بسبب الصعوبات المادية ، كان ينطبق على الغالبية العظمى من المادنين الرومانيين . ومن ثم دب إلى الحيـاة السياسية مع نمو روما ضعف غير منتظر يرجع إلى هذه الأسباب ، واستحال مجلس الأحرار شيئا فشيئا إلى جمع من المأجورين السياسيين وغوغاء المدينة ، وأخذ ينحط تدريجيا عن مرتبة التمثيل الحق للمادن العادى الجدير بالاحترام وقد أصبح مجلس الأحرار أقرب ما يكون إلى القوة والهيبة فى القرن الرابع ق . م ومنذ ذلك التاريخ أخذ نفوذه يذوى ذويا متواصلا ، فأما مجلس السناتو الجديد — الذى لم يعد بعد ذلك هيئة بطريقية من النبلاء تسوده تقاليد متجانسة ذات طابع متوائم نبيل على وجه العموم بل غدا هيئة من أغنياء الرجال والحـكام السابقين ، والموظفين الأقوياء والمغامرين ذوى الجراءة ومن إليهم كما أمسى يسوده ميل قوى إلى العودة إلى فكرة المؤهل الوراثى ، — فإنه (أى مجلس السناتو) أصبح طوال ثلاثة قرون السلطة الحاكمة فى العالم الرومانى .

وهناك وسيلتان عرفتا منذ ذلك التاريخ فى العالم ، ربما كان يتأتى لهما أن تمكنا حكومة روما الشعبية أن تستمر فى تطورها إلى أبعد من الذروة التى بلغتها أيام أبيوس كلوديوس الرقيب ، عند ختام القرن الرابع ق . م ، بيد أن واحدة منهما لم تخطر للعقل الرومانى على بال وأولى هاتين الوسيلتين هى استخدام الطبع استخداما صحيحاً ، فلقد لاحظنا من قبل فى بياننا عن الإسكندرية فى عصرها الأول ، تلك الحقيقة الغريبة الماثلة فى كون الـكتب المطبوعة لم تظهر فى العالم فى القرن الرابع أو الثالث ق . م ويضطرنا هذا الحديث عن الشئون الرومانية إلى تكرار هذه الملاحظة . ومن الجلى للعقل الحديث أن الحـكومة الشعبية المديدة الأنصار

الدائمة الانتشار تتطلب كشرط ضروري لسلامة بنيانها أن تزود كل المادنين بقدر ثابت من المعلومات الصحيحة فى الشئون العامة وأن تسهر على مصالح الناس ، ولم تصبح الحكومات الشعبية فى الدول المصرية التى نشأت على جانبى المحيط الأطلسى فى القرنين الأخيرين ، أمرا ممكنا إلا بوساطة تناول الشئون العامة بالنقد بواسطة الصحافة «وتهوية» الآراء بدرجة تتفاوت اكتمالا وأمانة ، ولكن كانت الطريقة الوحيدة التى تستطيع بها الحكومة فى روما أن تتصل بأية هيئة من هيئات مماديها فى مكان آخر ، هى إرسالها الرسل ، وما كانت لتستطيع أن تقيم بينها وبين المادن الفرد أى اتصال بأى حال .

والوسيلة الثانية التى يرجع الفضل الأكبر فيها إلى الإنجليز فى تاريخ البشر والتى لم يعرفها الرومان قط ، هى الحكومة التمثيلية التى تكاد تعادل هذه فى وضوحها . ذلك أنه كان فى الإمكان استبدال مجلس الأحرار القديم (فى أشكاله الثلاثة) باجتماع من المندوبين . ووفق الإنجليز فيما تلى ذلك من حقب التاريخ إلى القيام بتحقيق تلك الفكرة باطهاد مع نمو الدولة ، فإن رجالا معينين هم فرسان المقاطعات(Knight of the Shires) كانوا يدعون إلى وستمنستر للتكلم وإبداء الرأي ، تعبيراً عن الشعور المحلى ، وكانوا ينتخبون لتلك الغاية انتخابا شكليا نوعاً ما ، ويبدو للعقل الحديث أن الوضع الرومانى كان ينادى بأعلى صوته مطالباً بمثل هذا التعديل ، بيد أنه لم يتم قط .

كانت طريقة اجتماع المجلس القَبلى أو الكوميتيا تريبوتا (Comitia Tributa) وهو أحد الأشكال الثلاثة لمجلس الأحرار بواسطة إعلان من مناد قبل تاريخ الاجتماع بسبعة عشر يوماً على أن هذا المعلن لا يمكن أن يصل صوته بالطبع إلى مسامع معظم سكان إيطاليا . وكان العرافون (Augurs) وهم كهنة التنبؤ بالمستقبل الذين ورثتهم روما عن الإترسك يقومون بفحص أحشاء الذبائح والقرابين فى الليلة السابقة للاجتماع ، فإن رأوا من الأوفق أن يقولوا إن هاته الدلائل أو النذر الملطخة بالدماء كانت غير مواتية ، تفرق المجلس القبلى (الكوميتيا تريبوتا) . فإن قال العرافون إن الأكباد راضية متعطفة صدر عن الكابيتول وأسوار المدينة نفخ عظيم فى الأبواق ، وواصل المجلس عمله وكان ينعقد فى الهواء الطلق ، إما فى الفوروم[1] (Forum) الصغير أسفل الكابيتول ، أو فى منعكف أصغر منه يخرج من الفوروم أو على أرض التدريب العسكرى وهى ساحة الإله مارس (Campus Martius) وهى الآن أشد

(١) الفوروم (Forum) هو سوق المدينة فى روما ، وكانت تجرى فيه أعمال البيع والشراء وهو ملتقى الاجتماعات العامة ، ولما اتسعت المدينة زاد عدد الأسواق بها ، وكانت تقوم بها المنشئات والأبنية العامة .

أجزاء روما الحديثة ازدحاماً بالسكان ، وكانت عند ذاك أرض براح . وكان المجلس يبدأ عمله عند الفجر بالصلاة . ولم يكن هناك مقاعد ، ولعل ذلك كان مما يساعد على تطمين المهادنين إلى ما جرت عليه العادة من انتهاء كل شيء عند الغروب .

وبعد صلاة الافتتاح تدور المناقشة فى التدابير التى يتعين على المجلس أن ينظر فيها ويدرسها ، وتقرأ المقترحات المطروحة فى الاجتماع . أو ليس مما يبعث على الدهشة أن لم تكن توزع هناك نسخ مطبوعة ! فلو وجدت نسخ تتداولها الأيدى فهى لا بد مخطوطات ولا بد أن كل نسخة كانت عرضة للأخطاء والتحريف المقصود ، وليس يبدو أنهم كانوا يسمحون بإلقاء الأسئلة على أنه كان يجوز للأفراد بصفتهم الشخصية أن يخطبوا فى الاجتماع بإذن من الموظف الذى يرأسه .

ثم ينتقل الجمع فيدخلون إلى أماكن مسورة تشبه حظائر الماشية ، لكل قبيلة محلها ، فتعطى كل قبيلة صوتها فيما طرح على بساط البحث من التدابير ، وكان القرار النهائى يؤخذ بغالبية عدد القبائل لا بغالبية أفرادها من المهادنين ، وعند ذلك يعلنه المبلغون .

وكان مجلس الأحرار المئوى وهو الكوميتيا كنتورياتا (Comitia Centuriata) شديد الشبه بهذا فى خصائصه ، اللهم إلا أنه فى القرن الثالث ق . م . كان المجلس القبلى يتألف من خمس وثلاثين قبيلة ، بينما المجلس المئوى قوامه ٣٧٣ وحدة مئوية (Centuria) وتقرب عند الافتتاح كذلك القرابين وتقام الصلاة . وكان المئويون ، وهم فى الأصل من العسكريين (شأن مئويى الحكومة المحلية البدائية الإنجليزية) قد فقدوا من زمن بعيد كل اتصال بينهم وبين الرقم مئة ، إذ كان بعض الوحدات المئوية لا يضم إلا بضع نفر من الناس وبعضها يضم العدد الجم . وكان هناك ثمانى عشرة وحدة مئوية أعضاؤها من الفوارس (Equites) ممن كانوا فى الأصل رجالا ذوى مكانة تؤهلهم أن يقتنوا حصاناً وأن يخدموا فى جيش الفرسان ، وإن كانت الفروسية الرومانية قد أصبحت فيما بعد — شأن الفروسية فى انجلترا — امتيازاً مبتذلا ، غير ذى معنى عسكرى أو عقلى أو خلقى .

وأصبح هؤلاء الفوارس مع اشتغال روما بالتجارة وزيادة ثرائها طبقة هامة جداً فلبثوا دهراً وهم الطبقة النشيطة الحقيقية فى المجتمع . وكانت لا تزال لديهم من الفروسية بقية كالتى لا تزال لدى فوارس (قاعة الشرف) فى انجلترا اليوم . ولقد أقصى أعضاء مجلس الشيوخ عن التجارة منذ نحو عام ٢٠٠ ق . م . وأصبح هؤلاء الفوارس ، تبعاً لذلك رجال الأعمال والمال

العظام (Negotiatores) وكانوا الملتزمين (Publicani) الذين بيدهم جباية الضرائب[1]
وكان هناك بالإضافة إلى هؤلاء ثمانون وحدة مئوية من الأثرياء (وهم من يملكون ما يربو
على مئة ألف آس واثنان وعشرون وحدة مئوية من الرجال يملك كل منهم ما يعادل خمسة
وسبعين ألف آس . وهكذا .

وكان هناك وحدتان مئويتان ، إحداهما من الميكانيكيين . والثانية من الموسيقيين .
وكذلك كان لطبقة البروليتاري وحدة مئوية واحدة . وكان قرار المجلس المئوى (الكوميتيا
كنتوريانا) يصدر بغالبية الوحدات المئوية .

أعجيب إذن أنه مع نمو الدولة الرومانية وتعقد أعمالها ، أن تنتقل السلطة عائدة من مثل
مجلس الأحرار هذا إلى السناتو ، الذى كان هيئة متماسكة نسبياً يتراوح عددها بين ثلاثمئة
كحد أدنى ، وبين تسعمئة عضو كحد أقصى (وهو العدد الذى رفعه إليه قيصر) وهم رجال
كان لزاماً عليهم أن يتصرفوا فى كبار الأمور والأعمال وكانت معرفتهم بعضهم ببعض
تتفاوت فى مقدارها، ولديهم فى الحكم والسياسة تقاليد متوارثة ينتهجون نهجها . وكان تعيين
أعضاء مجلس السناتو ودعوتهم إلى الاجتماع موكولين فى الجمهورية فى أول الأمر إلى القناصل .
ولما أن أنشئت بعد ذلك بزمن يسير وظيفة المراقبين (السناسرة Censors) ، ونقل الكثير
من اختصاصات القناصل إليهم ، وكل إليهم كذلك القيام بهذه المهمة . وقام أبيوس كلوديوس
أحد أوائل من شغلوا منصب الرقيب واضطلعوا بهذه المهمة بتقييد أسماء العبيد المعتقين
فى سجل القبائل ، ودعا أبناء الرجال المعتقين إلى عضوية مجلس السناتو . غير أن هذا العمل
جاء صدمة أزعجت ذلك المجتمع المحافظ بغريزته على القديم . فأبى القنصلان أن يعترفا بمجلسه ،
واستبعد من عقبه من الرقباء ٣٠٤ ق. م مرشحيه ومندوبيه . وكيفما كان الأمر فإن محاولته
تساعدنا على تفهم مدى تقدم السناتو عن حاله الأصلية حين كان هيئة صرفة من البطارقة فأصبح،
شأن مجلس اللوردة المعاصر — جمعا من رجال الأعمال الكبار ، والسياسيين ذوي النشاط
الجم ، والمغامرين الناجحين ، وكبار أصحاب الأراضى والأملاك ومن شابههم . فأما ارتداؤه
ثوب النبل وكرامته وانتحاله سمة البطارقة فزيف جميل وخداع خلاب . على أنه على عكس
مجلس اللوردات البريطانى لم يكن يحد سلطته من الناحية القانونية أى شيء اللهم إلا مجلس

(١) Negotiatores — كلمة لاتينية جمع معناها تاجر على نطاق واسع أو رجل من رجال المال
يشتغل بأعمال المصارف . — Publicani : لاتينية جمع وهم ملتزمو الضرائب وهم فى الغالب من طبقة الفرسان
اشتهروا بافتنانهم فى أساليب جباية الضرائب فى ولاية آسيا .

الأحرار الذى وصفناه من قبل بالعجز والتقصير ، وإلا الترابنة الذين كان ينتخبهم مجلس البلبز . وكانت رقابة مجلس السناتو القانونية على القنصلين ونواب القناصل[1] غير كبيرة . وكانت سلطته التنفيذية ضئيلة لا تذكر ، على أن قوته ونفوذه كانا ينطويان تحت هيبته وخبرته . وكانت مصالح أعضائه تناقض بالطبع مصالح هيئة المادنين عامة ، ولكن انقضت أجيال عدة وهذه الكتلة العظيمة من عامة الناس عاجزة عن الترجمة عن عدم رضائها عن إجراءات هذه الأوليجاركية . ومن ثم فإن الحكومة الشعبية المباشرة فى دولة تكبر دولة مدينة ، كان مصيرها إذن هو الفشل والخذلان فى إيطاليا لأنه لم يتهيأ للناس حتى آنذاك أى تعليم عام ، ولم تنهض لهم صحافة . ولا تم لهم أى نظام تمثيلى . باءت هذه الحكومة المباشرة بالفشل لمجرد وجود هذه الصعوبات المادية قبل شبوب الحرب البونية الأولى ، ولكن فى ظهورها أهمية كبرى ، لأنها تمثل بوادر ظهور مجموعة من المشاكل التى لا تزال فطنة العالم السياسية جمعاء تناضل محاولة إيجاد حل لها حتى وقتنا هذا .

كان السناتو يجتمع عادةً فى دار السناتو بالفوروم ، ولكنه كان يدعى للاجتماع فى الظروف الخاصة فى هذا المعبد أو ذاك ، فإذا ما كان داعى الاجتماع هو الاتصال بالسفراء الأجانب والنظر فى شئون قواده (الذين كان محرماً عليهم دخول المدينة وهم على إمرة جنودهم) كان مكان اجتماعه هو ساحة الإله مارس (Campus Martius) خارج أسوار المدينة .

٣ — جمهورية الأغنياء القرطاجية

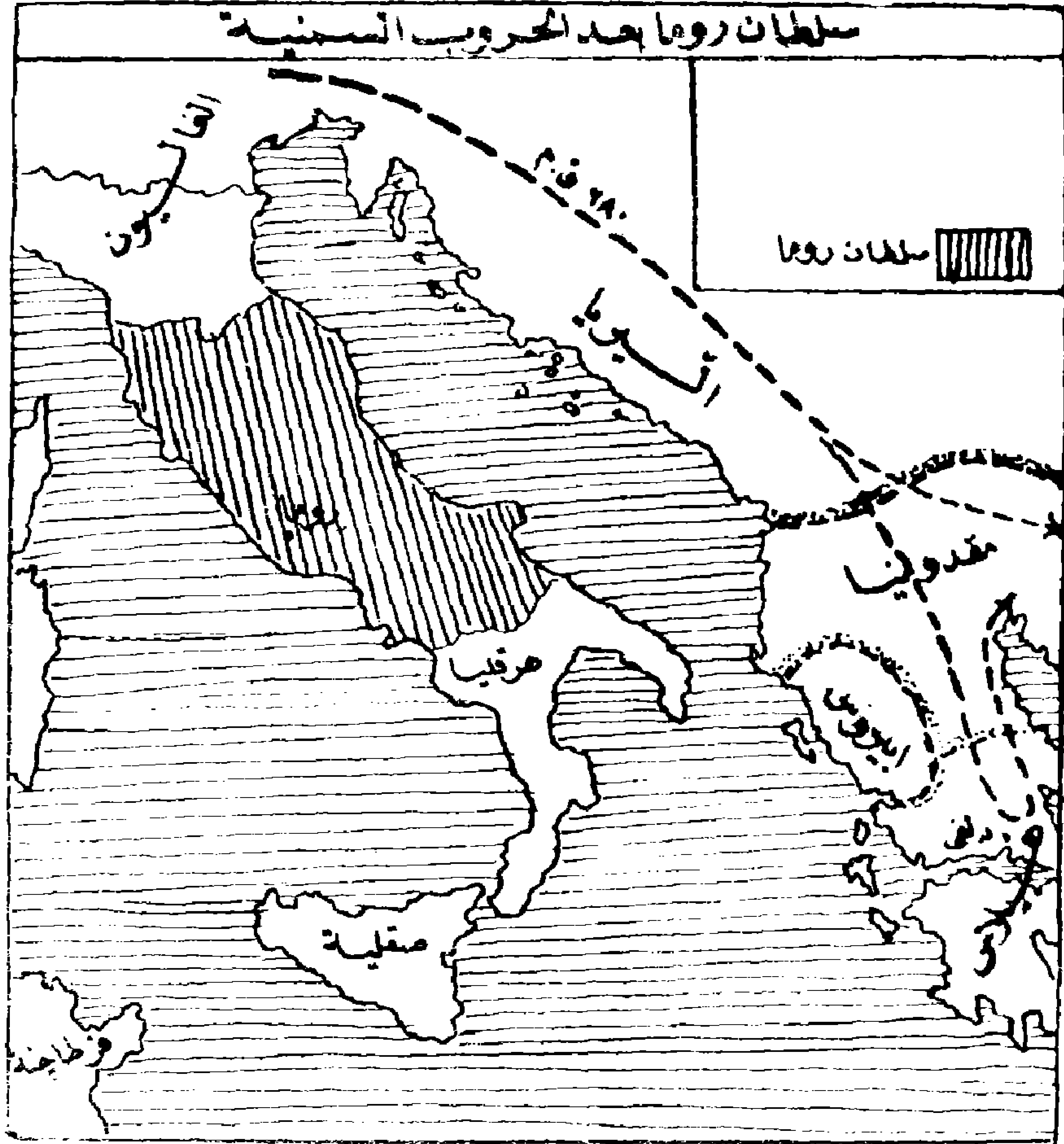
كان من الضرورى أن نسهب شيئا ما فى موضوع الكيان السياسى للجمهورية الرومانية بسبب استمرار أهميتها الهائلة إلى يومنا هذا . وليس دستور قرطاجنة بحاجة إلى أن نطيل إليه الوقوف .

كانت إيطاليا تحت سيطرة روما قطراً جمهوريا . وكانت قرطاجنة على غرار ذلك النظام العريق فى القدم ، وأعنى به المدينة الجمهورية . وكانت لها (إمبراطورية) كما كانت لأثينا إمبراطورية من الدول التابعة التى لم تكن تضمر لها أية مودة ، وكان بها جمهرة ضخمة من الرقيق الصناع ممن لا يخلصون لها سليقة وطبعا . وكان للمدينة ملكان يتوليان

---

(١) نائب القنصل (Proconsul) هو قنصل سابق وكان يعين حاكما على إحدى الولايات الرومانية بعد توليه وظيفة القنصلية سنة أو أكثر فى روما

الحكم بالإنتخاب يسميهما أرسطو بالسوفيتين (Suffetes) وكانا فى الحقيقة يعادلان الرقباء (السناسرة) عنـد الرومان . وكان لقبهما السامى هو نفس اللقب الذى يطلق على القضاة اليهود . وثمة جمعيـة عمومية لا حول لها ، ومجلس سناتو من الشخصيات الزعيمة البارزة ، بيد أن لجنتين من هذا السناتو ، وهما منتخبتان انتخابا اسميا — ولـكن بوسائل تسهل معها



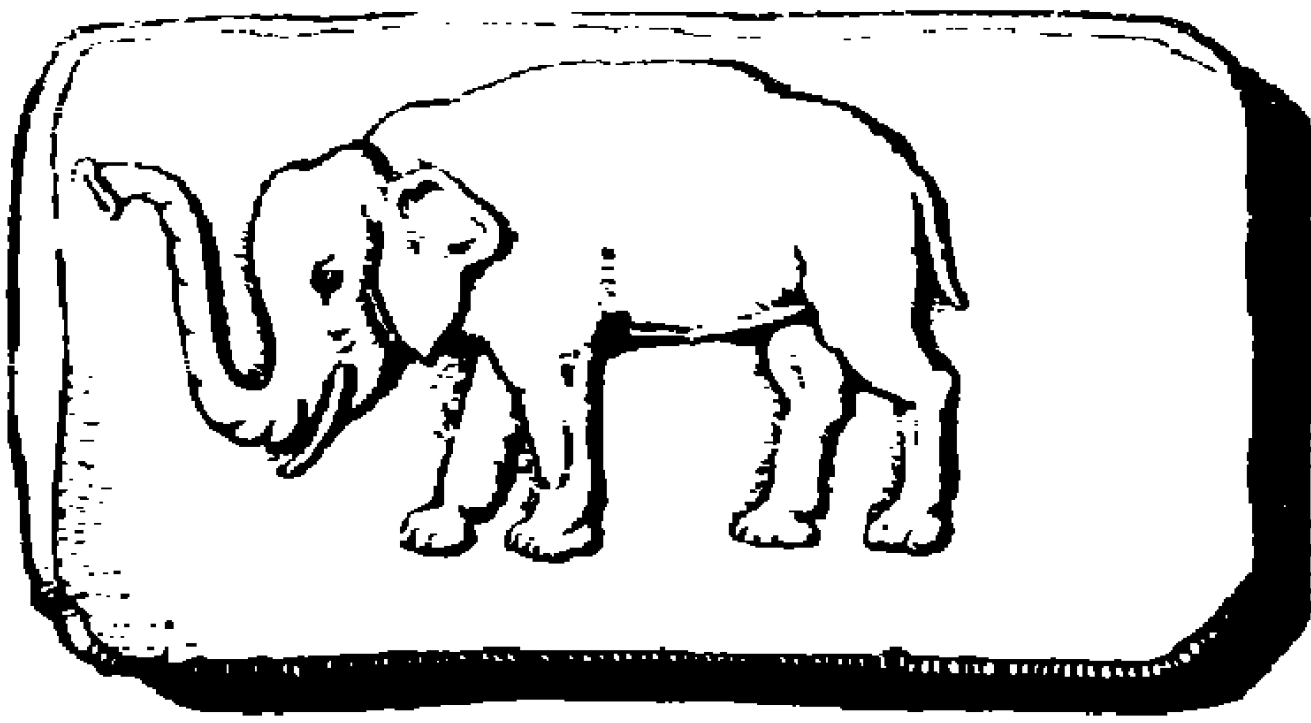
(١٠١)

الرقابة والتأثير وهما لجنة المئة والأربعة ولجنة الثلاثين ، كانتا تُـكـوِّنان فى الحقيقة أوليجاركية ضيقة وثيقة البنيان مكونة من أغنى الرجال وأوسعهم نفوذاً ، وكانوا يبلِّغون حلفاءهم وزملاءهم فى المهادنة أقل ما يمكن من الأخبار ولا يستشيرونهم إلا فى أقل حدّ يستطيعونه ، وكانوا يسلـكون سبلا ويتبعون أساليب تخضع فيها مصلحة قرطاجنة ورفاهيتها بلا ريب لمصلحتهم هم . كانوا يناصبون العداء كل رجل ناهض وكل إجراء ومذهب جديد ، كما كانوا على يقين أن السيادة البحرية التى استدامت لبلادهم قرنين من الزمان لا بد أن تكون جزءاً من طبيعة الأشياء .

٤ — الحرب البونية الأولى (الفينيقية)

فى اعتقادنا أن من الشائق — وليس من العبث والتراخى فى شىء — أن نتأمل ما كان يحصل للجنس البشرى لو أن روما وقرطاجنة استطاعتا تسوية ما بينهما من خلافات وتمكنتا من أن تقيما حلفاً دائماً فى العالم الغربى . فلو قد طال بالإسكندر الأكبر الأجل ، فلعله كان يسير غرباً ويكره هاتين القوتين (: الدولتين) على سلوك هذا السبيل الذى تقتضيه المصلحة على أن هـذا الأمر لم يكن ليتفق والخطط الخصوصية للأوليجاركية القرطاجية وأبهتها وبذخها ؛ كذلك كان سناتو روما العظمى بوضعه الجديد قد أخذ يغدو مغرماً بتذوّق طعم الكسب . وكان يرمق بعين الحسد الممتلكات القرطاجية فى صقلية وراء مضيق مسينا ، فكان أعضاؤه يتطلعون إليها جشعاً ولكنهم يخشون قوة قرطاجنة البحرية .

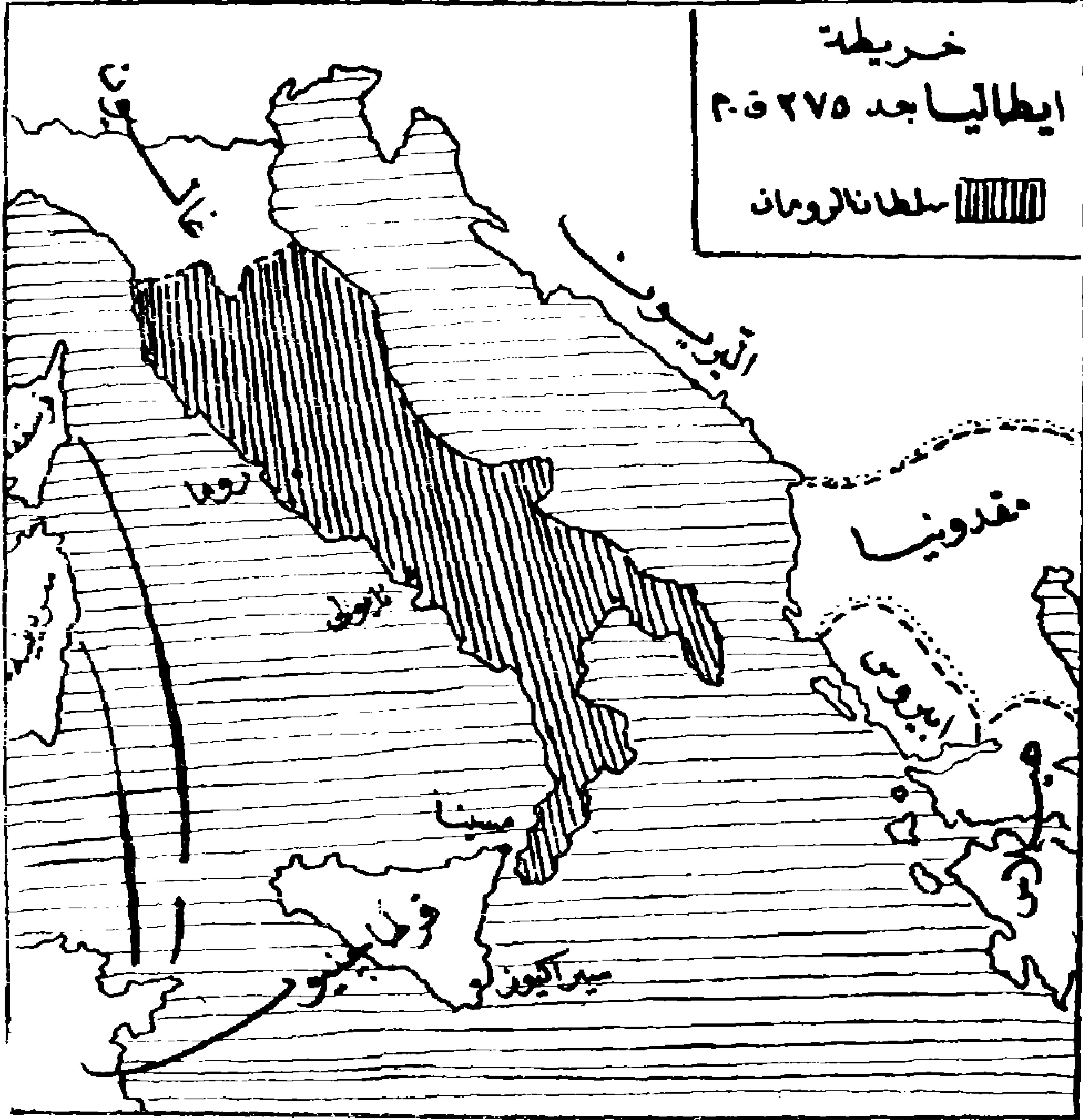
وكانت وطنية الشعب الرومانى إلى ذلك تتأجج غيرة وحسداً من أولئك القرطاجنيين على أن عامة الشعب كانت أقل من السناتو ميلا أن تقيم لنفقات القتال وزناً . ولم تستمر أحكام المحالفة التى قضى بإبرامها بين روما وقرطاجنة ، ظهور بيروس إلا إحدى عشرة سنة ،على أن روما كانت على تمام الأهبة لما يسمى فى لغة السياسة العصرية وأسلوبها العقيم باسم الحرب « الهجومية الدفاعية » وسنحت الفرصة فى ٢٦٤ ق . م .



١٠٢ — عملة رومانية لذكرى الانتصار على بيروس

ولم تكن صقلية فى ذلك الوقت فى يد قرطاجنة تماماً إذ كان طرفها الشرقى لا يزال تحت حكم هيرون ملك سيراقوزة الإغريقى ، وهو خلف لذلك الملك ديونيسيوس Dionysius الذى ذهب إليه أفلاطون فيلسوفاً لبلاطه ، فقد استولت فى سنة ٢٨٩ ق . م على مسينا جماعة من الجند المرتزقة كانوا فى خدمة سيراقوزة ، ثم أخذوا يغيرون على تجارة سيراقوزة حتى اضطر هيرون آخر الأمر أن يتخذ التدابير للقضاء عليهم (٢٧٠ ق . م) . وعند ذلك هبت لمساعدته قرطاجنة التى كانت تهتم اهتماما حيويا بالقضاء على القرصنة ، ووضعت فى مسينا حامية قرطاجية ؛ وكان هذا ولا شك إجراءاً له كل مبرراته ، فإن قرطاجنة أصبحت بعد تدمير مدينة صور ، هى الحارس المقتدر الوحيد لقانون البحار فى مياه البحر المتوسط . وكان القضاء على القرصنة واجبا بحكم العادة كما هو التزام أملته عليها التقاليد المتوارثة .

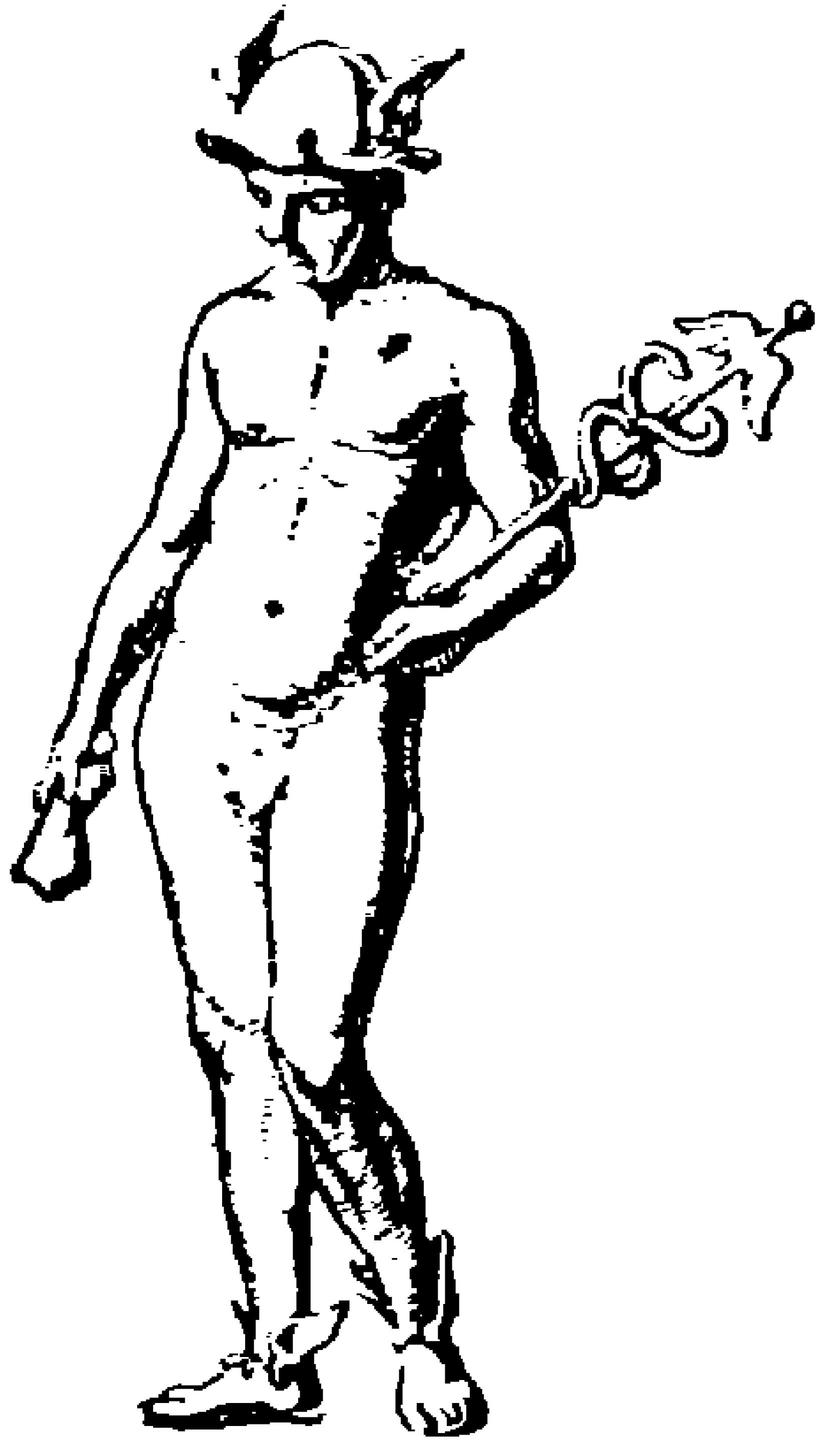
وهرع قراصنة مسينا يلتمسون المعونة من روما . وهنا تحركت الخشية والغيرة التى طالما أفعمت قلوب الشعب الرومانى نحو قرطاجنة فدفعته إلى أن يقرر مساعدة المستجيرين ، ومن ثم أرسلت حملة عسكرية إلى مسينا بإمرة القنصل أبيوس كلوديوس (وهو ثالث أبيوس كلوديوس ، اضطررنا إلى ذكره فى هذا الكتاب) .



(١٠٣)

وبذلك ابتدأت الحلقة الأولى فى سلسلة من أشد الحروب جموحاً وتدميراً ، وأحفلها بالكوارث ، وأحلكها فى تاريخ البشر صحيفة . وها نحن نظهرك على الطريقة التى كان يكتب بها أحد المؤرخين ، معبراً عما يملأ جوانب نفسه من غريب الأفكار الشائعة فى عصرنا هذا ، إذ قال مترجما عن سروره بحملة الشر هذه : « كان الرومان يعرفون أنهم مقدمون على الحرب مع قرطاجنة ، بيد أن غرائز القوم السياسية كانت صائبة إذ أن وجود حامية قرطاجية على المضيق الصقلى ، كان مصدر تهديد مخطر لسلام إيطاليا » لذا وقوا سلام إيطاليا من هذا « الخطر » بحرب دامت ربع قرن ، فخطموا فى أثناء ذلك خُلقهم السياسى الذى لم يتكامل لهم تكوينه إلا بعد دهور وأجيال .

استولى الرومان على مسينا ، وتخلى هيرون عن القرطاجيين وانضم إلى الرومان ، ثم تركز القتال زمانا حول مدينة أجريجنتوم (Agrigentum) فحاصرها الرومان ، وعقب ذلك مدة من حرب الخنادق ، وقاسى الطرفان أعظم الآلام من الطاعون ومن عدم انتظام المدد ، وخسر الرومان ثلاثين ألف رجل . على أن القرطاجيين أخلوا مراكزهم آخر الأمر (٢٦٢ ق م) وانسحبوا إلى مدنهم الحصينة الواقعة على شاطىء الجزيرة الغربى ، وأهمها مدينة ليليبيوم (Lilybaeum) ، إذ أنهم كانوا يستطيعون أن يمدوا هذه بالمدد من أرض القارة الإفريقية فى يسر وسهولة ، وذلك لأن من اليسير عليهم ما بقيت لهم سيادتهم البحرية ، أن يستنفدوا كل جهد يبذله الرومان ضدهم .


١٤ — عطارد

وعند ذلك دخلت الحرب فى دور جديد لا عهد للناس بمثله ، فإن الرومان خرجوا إلى البحر ثم هزموا الأسطول القرطاجى ، فأدهشوا بذلك القرطاجيين وأنفسهم على السواء وقد تطور فن بناء السفن وتقدم تقدما عظيما منذ أيام سلاميس ، فكان طراز سفينة الحرب الغالب هو المثلاثة (الترريم trireme) أى ذات الطبقات الثلاث من المجدفين ، وهى سفينة قديمة ذات ثلاثة صفوف من المجاديف فأما السفينة الحربية الرئيسية القرطاجية فكانت المخماسة (كوينكويرم Quinguereme) ، وهى سفينة أكبر بكثير لها خمس صفوف من المجاديف تستطيع أن تصك أو تقطع مجاديف أية سفينة أضعف منها . ولقد دخل الرومان الحرب وليس لديهم من أمثال هذه السفن شىء ، فأخذوا يشتغلون فى إنشاء ربات الخمسة صفوف أى المخماسات يساعدهم فى ذلك ، كما يقال ، وصول إحدى هذه السفن القرطاجية إلى الشاطىء . ولم ينقض شهران حتى صار لديهم مئة من المخماسات ذوات الخمسة الصفوف ، وثلاثون من المثلاثات ذوات الثلاثة الصفوف . بيد أنهم لم يكن لديهم الملاحون المهرة المدربون ولا المجدفون الخبيرون ، فعالجوا هذا علاجا جزئيا بالاستعانة بحلفائهم الإغريق ، وعالجوه من ناحية أخرى باختراع أضرب جديدة من التكتيك . فبدلا من الاعتماد على دق أو قطع مجاديف الخصم ، وهو أمر يتطلب براعة فى الملاحة فوق مالديهم . رأوا أن يعتلوا سفن الأعداء ، وابتنوا على سفنهم ضربا من الكبارى الطويلة القابلة للرفع ، تشدها بكرة إلى سارية ، وبنهايتها خطاطيف وخوازيق ،

تتشبث بواسطتها فى سفن الأعداء ، كذلك حملوا سفنهم بالجنود . حتى إذا صكت سفن القرطاجيين سفنهم أو احتكوا بجوانبها أنزل هذا الكوبرى ، أو كما كانوا يسمونه Corvus ثم تقدم عليه من على ظهر السفينة من الجنود حاشدين .

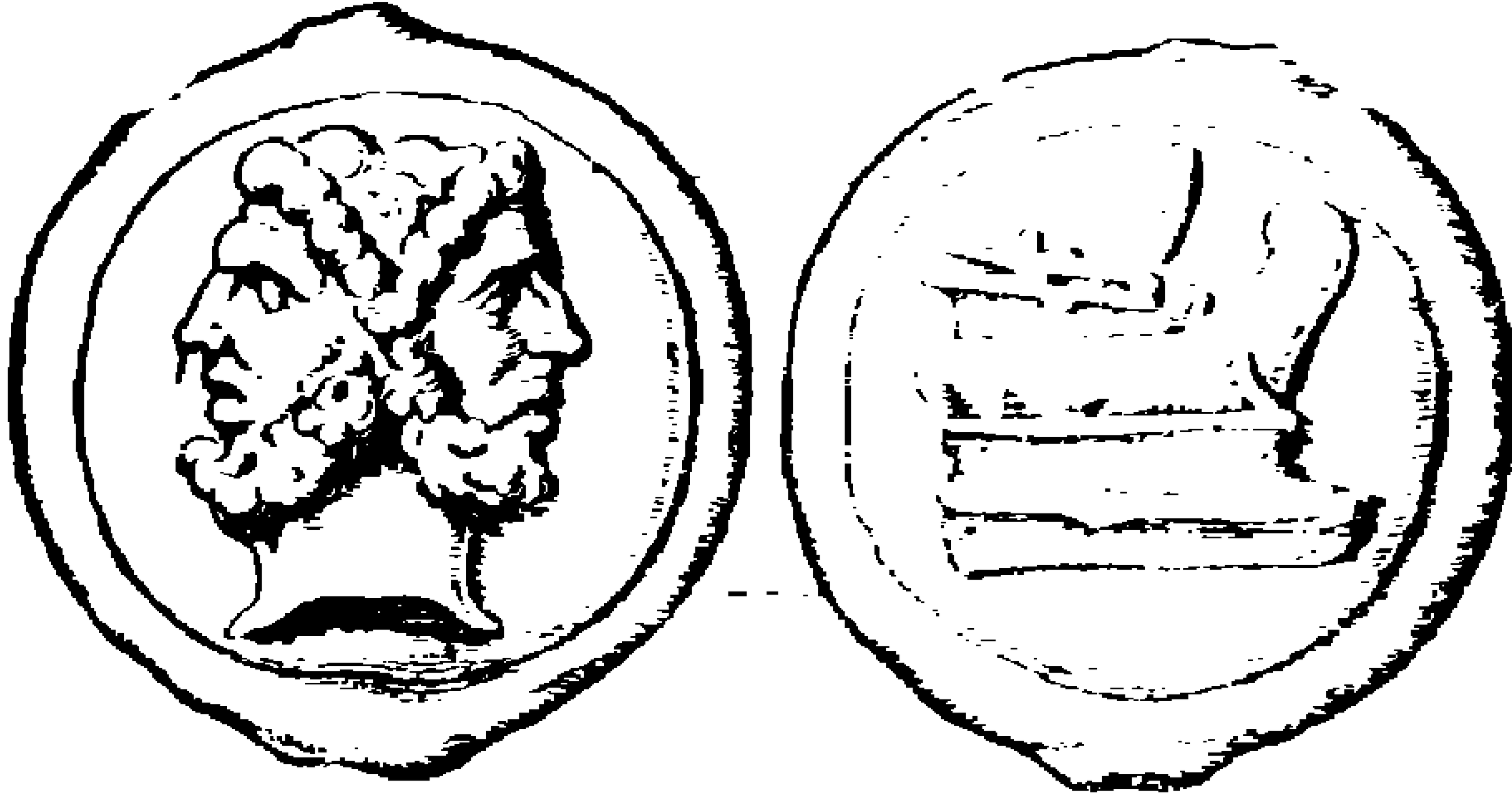
ومع أن هذه الوسيلة كانت بسيطة كما ترى ، فإنهـا أتيت نجاحا تاما ؛ فغيرت مجرى الحرب ومصير العالم . وواضح أنه لم يكن فى طاقة عقول الحكام القرطاجيين ابتكار وسيلة بسيطة لإحباط أثر هذا الكوبرى . وفاز الرومان فى معركة ميلاى (Mylae) (٢٦٠ ق م) بأول نصر بحرى لهم ودمروا أو استولوا على خمسين سفينة . وفى معركة إكنوموس Ecnomus (٢٥٦ ق . م) — وهى فيما يرجح أعظم موقعة بحرية فى العالم القديم[1] . وفيهـا التحمت سبعمئة أو ثمانمئة من السفن الكبيرة ، وأظهر القرطاجيون أنهم لم يتعلموا شيئا من كارثتهم السابقة . أجـل إنهم جروا على قديم عادتهم بزوا الرومان فى المداورات ، فحق لهم لذلك أن يهزموهم . بيد أن الكوبرى عاد مرة ثانية فهزمهم . وأغرق الرومان ثلاثين سفينة واستولوا على ست وأربعين .

ثم واصل الطرفان بعد ذلك الحرب وأخذت كفتا الحظ تتأرجحان عنيفا . ولم ين الرومان عن إظهار ما هم عليه من تفوق فى الهمة والتماسك والبداهة وروح الابتكار . وبعد « إكنوموس » ، غزا الرومان إفريقيا بحراً ، وأرسلوا جيشا ناقص العون والعدة هزم هزيمة تامة بعد أن أحرز كثيراً من الانتصارات ، وبعد استيلائه على تونس (وهى على بعد عشرة أميال من قرطاجنة) . ثم ما لبثوا أن خسروا سيادتهم البحرية فى إحدى العواصف ثم استعادوها بتشييد عمـارة بحرية أخرى من مئتين وعشرين سفينة فى مدى ثلاثة شهور ، واستولوا على بالرمو (Palermo) وهزموا هناك جيشا قرطاجيـا عظيما (٢٥١ ق . م) مستولين على مئة وأربعة من الأفيال ، وعادوا إلى روما بموكب نصر هائل لم تره تلك المدينة من قبل . ثم ضربوا على مدينة ليليبيوم حصاراً باء بالفشـل وهى المعقل الرئيسى الباقى فى أيدى القرطاجيين بصقلية . ثم فقدوا أسطولهم الثانى فى معركة بحرية عظيمة فى دريبانوم (Drepannum) (٢٤٩ ق . م) إذ خسروا مئة وثمانين سفينة من مئتين وعشرة . وفقد أسطول ثالث عدته مئة وعشرون سفينة حربية وثمانمئة نقالة ، فى نفس السنة ، ضاع بعضه فى الحرب والبعض الآخر فى إحدى العواصف .

---

(١) عن ولز فى كتاب « موجز تاريخ روما حتى وفاة أغسطس » .

ثم انقضت سنوات سبع واصل فيها الطرفان — وقد كادت قواها أن تنفد — حربا فاترة ، قوامها الغارات الكليلة والحصار الواهى ، كان للقرطاجيين فيها اليد العليا فى البحر . ثم قامت روما بمجهود أخير متفوق ، فأنزلت إلى البحر أسطولا رابعاً ، عدته مئتا صندل . وسحقت آخر مالدى القرطاجيين من قوة فى معركة الجزائر الإيجاتية (٢٤١ ق . م) . هنالك طلبت قرطاجنة الصلح (٢٤٠ ق . م)



١٠٥ — آس رومانى

وبشروط هذا الصلح ، أصبحت صقلية فيما عدا ممتلكات هيرون السيراقوزى ، من أملاك الشعب الرومانى . ولم يقم الرومان بتمثل تلك الجزيرة ، كما فعلوا فى إيطاليا ، بل صارت صقلية ولاية مقهورة ، تدفع الجزية وتدر عليهم الأرباح وتقدم كل خيراتها طعمة لسادتها ، شأن مستعمرات الإمبراطوريات القدمى وفضلا عن ذلك دفعت قرطاجنة تعويضات حرب قيمتها ٣٢٠٠ تالنتوم ، أى ما يعادل (٧٨٨ ألف جنيه) .

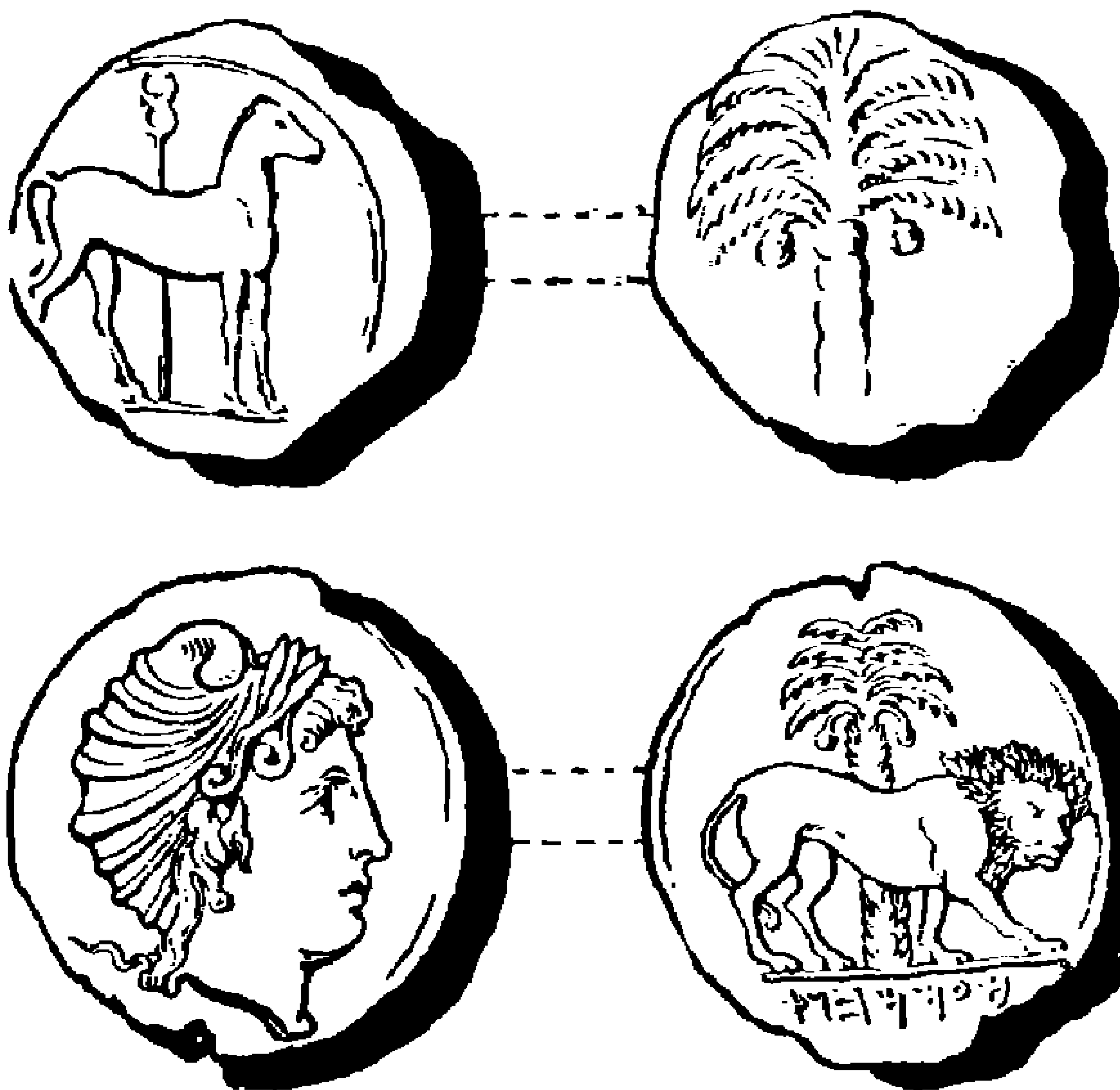
٥ — كاتو الأكبر وروح كاتو

دام السلام بين روما وقرطاجنة اثنتين وعشرين سنة ، وكان سلاماً لا رخاء فيه ، قاسى فيه كلا المتحاربين آلام العوز وانحلال النظام التى تتلو بالضرورة والطبيعة كل الحروب العظيمة ، وكانت أراضى قرطاجنة تضطرم بالفوضى المنيفة . ولم يستطع الجنود العائدون أن يحصلوا على أعطياتهم ، فقاموا بعصيان وأخذوا ينهبون ويسلبون . وتركت الأراضى ليس لها من يزرعها . وإنا لنقرأ فى سجل التاريخ صفحات رهيبة من القساوات المروعة التى حدثت إبان إخماد هاملكار (Hamilcar) القائد القرطاجى لهذا الشغب ، فنسمع برجال يعدمون صلبا بالألف ، وثارت سردينيا وقورسيقا . ولم يكد « السلم المخيم فى إيطاليا » أن يكون أسعد من هذا حالا . فثار الغال وتقدموا جنوبا ولكنهم هزموا وقتل منهم أربعون ألفاً عند تيلامون (Telamon) . وغنى عن البيان أن إيطاليا لاتتم وحدتها حتى تصل إلى جبال الألب ، ولذا أنشئت المستعمرات الرومانية فى وادى البو ، وبدئ فى إنشاء الشريان الكبير المتجه شمالا وهو طريق فلاميا (Via Flammia) ولكن هناك شيئا يظهر ما وصل إليه

الرومان من انحطاط خلق وعقلى فى هـذه الفترة التالية للحرب : إذ حدث عند ما كان الغال يهددون روما أن تقدم البعض باقتراح تقـديم القرابين البشرية . ومن عجب أن ذلك الأمر نفذ فعلا . ثم إن القانون البحرى القرطاجى القديم انهار ، نعم إنه ربما بدا قانونا ينطوى على الأنانية ويرمى إلى تنظيم الاحتـكار ، بيـد أنه كان على أقل التقديرات مصدراً للنظام . فزخر البحر الأدرياتى بالقراصنة الإلليريين ، ونشب فى أعقاب ذلك نزاع بسبب هذه القرصنة انتهى بأن ألحقت إلليريا بروما بوصفها ولاية ثانية بعد نشوب حربين بينهما . ومهد الرومان السبيل للحرب البونية الثانية بإرسالهم الحملات لضم سردينيا وقورسيقا ، وهما ولايتان قرطاچيتان ، اندلعت فيهما نار الثورة .

كانت الحرب البونية الأولى قد كشفت عما لدى كل من روما وقرطاجنة مـن قوى نسبية ، فلو أوتى الطرفان من التبصر حظا أوفر قليلا ، ولو طبـع الرومان على مقدار من التسامح وعلوّ النفس أكثر قليلا ، لما دعت حاجة إلى تجديد النضال . بيد أن روما كانت غازياً دنيئاً لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ، فاستولت على قورسيقا وسردينيا بغير وجه حق . وزادت التعويض بمقدار ١٢٠٠ تالنتوم وجعلت من نهر الإبرو حداً أقصى للتوغل القرطاجى فى أسبانيا . وكان فى قرطاجنة حزب قوى يتزعمه هانو ، يدعو إلى استرضاء روما . على أنّ من البديهى أن الـكثير من القرطاجيين أصـبحوا ينظرون إلى خصمهم الطبيعى ، نظرة الحاقد اليائس .

والحقـد أحد الشهوات التى قد تتسلط على حيـاة فرد من الأفراد ، وإن هناك طرازاً من الأمزجة أشـد ما يكون تعرضا له . وهذا المزاج على أتم استعداد للنظر إلى الحياة نظرة تقوم على أسس من الميـلودراما الانتقامية العنيفة ، كما أنه على أتم أهبة لالتماس الدافع المثير وطلب الاشتفاء فى صورة المظاهر الرهيبة للعدالة والانتقام . وما برحت مخاوف سكان الجثم والـكهف



١٠٦ — عملة قرطاچية

والفقر المغتصب تثمر فى حياتنا حتى اليوم زهراتها السود ، فلسنا بعد على مبعدة تتجاوز الأربعمئة جيل من العصر الحجرى القديم . والحروب العظيمة — كما تعلم أوربا بأجمعها — تثبت وجود هذه الروح « الحقودة الشريرة » وتلهب أوارها إلى أقصى حد . وفى ذلك الحين أخذ الشره والكبرياء والقساوة التى أطلقت لها الحرب البونية الأولى العنان ، تنتج ثماراً وفيرة من روح كراهية الأجنبى فى إفراط بالغ حد الجنون . وكان أبرز الشخصيات فى الجانب القرطاجى ، قائداً عظيما وإداريا بارعا ، هو هاملكار بارقا ، الذى نصب نفسه آنذاك للكيد لروما وتمزيقها إربا . كان حما هاسدروبال . وأباً لغلام هو هانيبال ، وهو الذى قدر له أن يكون أخطر الأعداء الذين أرعبوا مجلس السناتو الرومانى أبد الدهر . وكان أوضح طريق أمام قرطاجنة هو إعادة بناء أسطولها وإدارتها البحرية ، واستعادة قوتها فى البحر ، على أن هاملكار لم يستطع تنفيذ ذلك فيما يبدو ، فاعتزم أن يستعيض عنه بتنظيم أسبانيا ، وجعلها قاعدة لهجوم برى على إيطاليا ، فذهب إلى أسبانيا والياً (٢٣٦ ق . م) . ويقص هانيبال بعد ذلك أن أباه — وكان هو إذ ذاك غلاما فى الحادية عشرة — جعله يقسم أغلظ الأيمان على العداء الأبدى للدولة الرومانية .

وإن تركيز عائلة بارقا لمواهبها وحياتها وتوفرها على الانتقام على مثل هذا النحو شبه الجنونى إن هو إلا مثال لما كان يقض مضاجع الناس من مرارة وضيق بالحياة ، بثهما فى أفئدتهم الضغط المستمر والشعور العام بعدم الطمأنينة فى ذلك الكفاح العظيم . فإن ربع قرن من الحرب غادر العالم الغربى برمته ، تعسا بائسا . وبينما هانيبال الغلام ذو الأحد عشر عاما ، يقسم يمينه تلك بالكره المقيم لروما ، كان يدرج حول بيت ريفى فى توسكولوم[1] طفل فى الثانية من عمره ، صغير السن ، إلا أنه بغيض كريه ، اسمه ماركوس پوركيوس كاتو ، عاش هذا الغلام حتى بلغ الخامسة والثمانين ، ولعل أعظم العواطف سلطانا عليه ، بغضه لكل سعادة يصيبها أى إنسان إلا شخصه هو . كان جنديا ماهراً ، كما كان موفقا فى حياته السياسية أيما توفيق . وعقد له لواء القيادة فى أسبانيا ، فذاع صيته بما أظهره من ضروب القساوات ، واتخذ موقفا مصطنعا يحمى فيه الديانة والأخلاق العامة . ثم قضى بقية أيام حياته يشن — وهو مستتر تحت ثيابه الزاهية تلك — حربا عوانا على كل شىء يرى فيه الفتوة أو السماحة أو الجمال ، وكلما استثار غيرته أحد من خصومه تعرض لسخطه واستنكاره الأدبى . وكان جم النشاط

---

(١) مدينة بإيطاليا .

فى المعاونة على سن وتنفيـذ جميع القوانين المكافحة للبهرجة فى أزياء السيدات وزينتهن ، والمناهضة للملاهى والمناقشات الحرة . وأتاح له الحظ الحسن منصب الرقيب (السنسور) وهو أمر ألقى بين يديه سلطة عظيمة على الحياة الخصوصـية للرجال العموميين . واستطاع بهذه الوسيلة أن يقضى على خصومه العموميين بنشره فضائحهم الخاصة ، فطرد ما نليوس من مجلس السناتو لأنه قبّل امرأته نهاراً بمرأى من ابنتهما ، واضطهد الأدب الإغريقى ، الذى ظل على جهل به حتى بلغ سنا متأخرة ، ثم قرأ دِموستنيز وأعجب به وكتب باللاتينية عن الزراعة وعن « القديم الضائع من فضائل روما » . وتلقى كتاباته ضياء كاشفا ، يظهرك على خلقه فمن أقواله المأثورة : إنه إذا لم يكن العبد نائما وجب أن يكون قائمـا يعمل . وثمت قول آخر هو : إن الثيران والعبدان المسنة يجب أن تباع . وإنك لتراه يترك وراءه يوم عاد إلى إيطاليا جواد الحرب الذى حمله إلى النصر فى حملاته الأسبانية ، توفيراً لنفقة نقله ، وكان يكره وجود الحدائق عند غيره من الناس ، لذا قطع عن الناس مدد الماء الذى كان يستعمل فى الحدائق بروما ، وإنه ليخرج بعد تناوله الغداء والاحتفاء بمدعويه وبيده سوط من الجلد ليصلح ما عساه أن يكتشفه فى خدمه من إهمال ، وكان يعجب بفضائله الذاتية أيما إعجاب ويشيد بها فى كتاباته . ولما حدثت معركة ترموبيل ضد أنطيوخوس العظيم ، كتب عنها قائلا « إن من رأوه يهاجم العدو ويطارده ويقتفى أثره ، أعلنوا أن كاتو مدين لأهل روما دينا أقل من دين أهل روما لـكاتو»[1] .

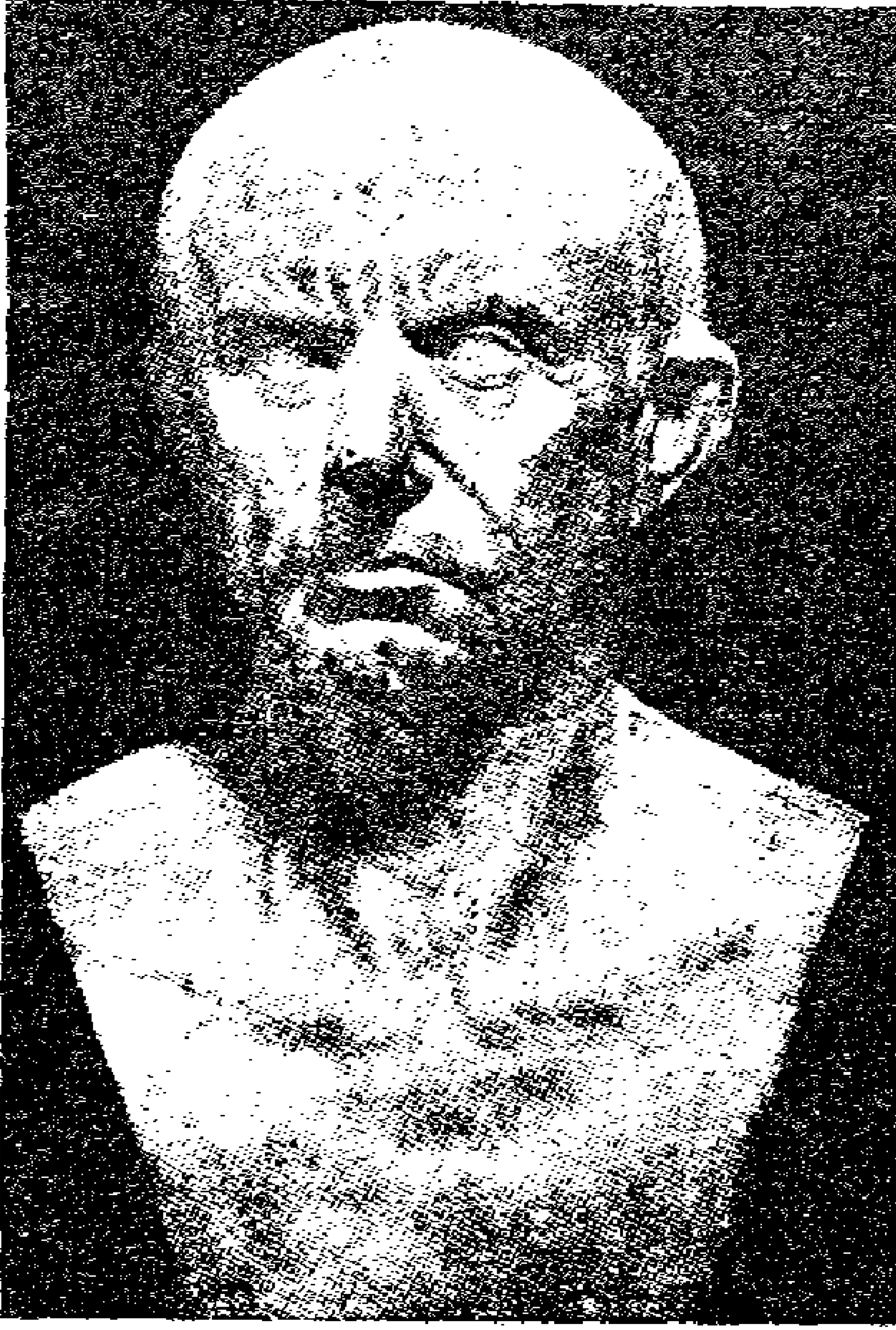
ثم إن كاتو أصبح ، وقد طعن فى السن ، داعرا خليعا ، ندّ عن قويم الأخـلاق مع امرأة من الإماء ، ولما أن احتج ابنـه على هذه الفوضى فى دارها المشتركة ، بلغ به الأمر أن تزوج من فتاة صغيرة ، هى ابنة سـكرتيره ، ولم يكن الرجل فى مركز يسمح له أن يرفض طلبه — (ولم يخبرنا أحد عما آل إليه أمر تلك الأمـة ؛ والراجح أنه باعها) . ومات هذا الرجل الذى جمع فى شخصه صفوة الفضائل الرومانية القديمة بأكملها ، فى سن متقدمة ، والناس يحترمونه ويخشونه ، ويكاد يكون آخر أعماله العامة فى كل يوم تحريضـه على إشعال الحرب البونية الثالثة وعلى تدمير قرطاجنة نهائيا . ذلك أنه ذهب يوما مندوبا إلى قرطاجنة ليسوى بعض الخلاف بينها وبين نوميديا (Numidia) ، فهاله ما فى ذلك القطر من دلالات التقدم وأمارات السعادة .

---

(١) « حياة كاتو » لبلوتارك

ومنذ تلك الزيارة أصبح كاتو يختم كل خطاب يلقيه فى مجلس السناتو بأن ينعق قائلا : « يجب أن تدمر قرطاجنة Delenda est Carthago » .

على هـذه الحال كان طراز الرجال الذين ارتقوا إلى ذروة الرفعة فى روما أثناء الحروب البونية ، وعلى تلك الشاكلة كان خصم هانيبال ، وعلى هذا المنوال كان استعداد قرطاجنة للانتقام . ومن خلال كاتو وهانيبال نستطيع أن نحكم على طبيعة ذلك العصر وندرك كنهه وروحه .



١٠٧ — كاتو

كانت الدولتـان الغربيتان العظيمتان ، مجهدتين مكدودتين عقليا وخلقيا لما لحقهما من أهوال الحرب الأولى . ولعل روما أشدهما إجهاداً وتوتراً . وكان جانب الشر هو الأعلى فى معترك الحياة . ومن الجلى أن تاريخ الحربين البونيتين الثانية والثالثة (من ٢١٨ إلى ٢٠١ ق م ، ثم من ١٤٩ إلى ١٤٦ ق م) تاريخ شعوب ليست مستكملة تماما لتوازنها العقلى . ومن سفسف القول أن يتحدث المؤرخون عن « الغرائز السياسية » لدى الرومان أو القرطاجيين ، فإن غرائز أخرى مضادة لهذه على خط مستقيم هى التى أطلق لها العنان . إذ غلب الحقد على العقل ، واحمرت الحدق كأنما عادت إلى هذا العالم عينا السلف القرد الحمراوان . ذلك زمان كان خصوم عقلاء الرجال يهاجمونهم بالعواء سبا وتشهيراً أو يقتلونهم قتلا . ولا أدل على الروح الحقة لذلك العصر المظلم من تلهف القوم فاحصين عن النذر فى تلك الأكباد الإنسانية التى أخرجوها من الضحايا البشرية حارة مختلجة وهى الضحايا التى قربوها فى روما قربانا يوم شملهم الرعب قبيل معركة تيلامون ، فالعالم الغربى كان مسودّ الصحيفة بتلك الرغبة الجنونية فى القتل . فقد اختصم شعبان عظيمان ، كلاهما شديد اللزوم لتطور العالم ونجحت روما آخر الأمر فى إهلاك قرطاجنة والقضاء عليها .

٦ — الحرب البونية الثانية

لسنا بمستطيعين فى هذا المقام إلا أن نوجز القول فى تفاصيل الحرب البونية الثانية والثالثة ولقد أخبرناك منذ هنيهة كيف شرع (هاملكار) فى تنظيم أسبانيا وكيف حظر عليه الرومان

أن يتخطى نهر الأبرو . ومات هاملكار (٢٢٨ ق م) وعقبه زوج ابنته هاسدروبال ، الذى اغتيل (٢٢١ ق م) وخلفه هانيبال ، وكان إذ ذاك فى السادسة والعشرين . وقد عجل الرومان شبوب الحرب بنقضهم الشروط التى وضموها بأنفسهم وبتدخلهم فى شئون جنوبى نهر الإبرو . ومن ثم سار هانيبال قدما إلى جنوب بلاد الغال (أى فرنسا) ، ثم عبر جبال الألب (٢١٨ ق م) وهبط إيطاليا .

والسنوات الخمس عشرة التالية تحوى قصة أشد الغزوات فى التاريخ شهرة وأقلها طائلا . فقد استمر هانيبال صامداً فى إيطاليا خمسة عشر عاما وهو منصور لم يغلب ، ولم يكن القواد الرومان كفوا لذلك القرطاجى . فكلما التقوا به هزمهم . على أن قائدا رومانيا واحدا هو پ كرنيليوس سيبيون أو سكيبيو P. Cornelius Scipio أوتى من الإدراك الاستراتيجى ما جعله يختط لنفسه خطة فوتت على خصمه كل ثمار انتصاراته . فإنه كان عند ابتداء شبوب الحرب قد أرسل بحرا إلى مرسيليا ليصد هانيبال ، غير أنه وصل متأخرا ثلاثة أيام ، ولكنه بدلا من تعقبه دفع بجيشه إلى أسبانيا ليقطع عن هانيبال كل مؤنة أو مدد . وفى كل ما عقب ذلك من حرب ظل ذلك الجيش الرومانى فى أسبانيا حائلا بين هانيبال وقاعدته . « فأصبح الرجل معلقا فى الهواء » ، لا يستطيع القيام بالحصارات ولا تثبيت الفتوح .

وكلما التقى هانيبال بالرومان فى قتال وجها لوجه غلبهم . فأحرز عليهم نصرين عظيمين فى شمالى إيطاليا . واجتذب إلى جانبه الغال ، ثم اندفع جنوبا نحو أتروريا ، ثم كمن لجيش رومانى وأحاط به ودمره تدميرا عند بحيرة ترازيمين Trasimene . وفى ٢١٦ ق م هاجمته عند كانى Cannae قوة رومانية تفوقه فوقا هائلا ، تحت قيادة ڤارو فقضى عليها ، ويقال إن خمسين ألفا من الرجال قتلوا فى تلك المعركة ، وأن عشرة آلاف رجل أخذوا أسرى . على أنه لم يستطع مع ذلك أن يواصل الزحف إلى روما ويستولى عليها ، إذ لم تكن لديه معدات الحصار .

غير أن معركة كانى أثمرت ثمارا أخرى . فإن قسما كبيرا من إيطاليا الجنوبية انحاز إلى هانيبال ، بما فى ذلك كابوا Capua ، أكبر مدن إيطاليا بعد روما . ثم تحالف معه المقدونيون . هذا إلى أن هيرون السيراقوزى حليف روما المخلص كان قد مات ، وانضم خلفه هيرونيموس إلى القرطاجيين ، وواصل الرومان الحرب مع ذلك بعزم أكيد وشدة مكينة لا تعرف الكلال . فرفضوا أن يعقدوا صلحا مع هانيبال بعد كانى ثم ضربوا على كابوا حصارا بحريا طويل الأمد كلل بالنجاح آخر الأمر . ثم أخذ جيش رومانى نفسه بإخضاع سيراقوزا ، وحصار سيراقوزا مشهور بصفة خاصة بسبب المخترعات الرائعة التى استحدثها الفيلسوف « أرشميدس » ، والتى أوقفت

الرومان موقف الحرج وصدتهم طويلا . ولقد ذكرنا من قبل أرشميدس هذا بوصفه أحد تلاميذ مدرسة المتحف الإسكندرى ومراسليها ، وقتل أثناء فتح المدينة عنوة ، ثم انتهى الأمر بعد سيراقوزا (٢١٢ ق . م) بأن سقطت تارنتم (٢٠٩ ق . م) وهى مرفأ هانيبال الرئيسى وسبيل تموينه من قرطاجنة ، وكابوا (٢١١ ق . م) فاضطربت على أثر ذلك مواصلاته .

وكذلك انتُزعت أسبانيا من قبضة القرطاجيين جزءاً فجزءاً . ولما أن وصلت إلى إيطاليا الأمداد المرسلة لهانيبال تشق طريقها كفاحا تحت قيادة أخيه هاسدروبال (ويجب ألا يخلط اسمه باسم صهره هاسدروبال الذى اغتيل) دمرها الرومان فى معركة متاوروس Metaurus (٢٠٧ ق . م) وكانت أول أخبار وصلت إلى هانيبال عن الكارثة ، هى رأس أخيه المفصولة عن جسمه تلقى فى معسكره .

وبعد ذلك حصر هانيبال فى كالابريا Calabria وهى عقب إيطاليا، ولم تكن لديه قوات يستطيع بها القيام بعمليات ذات جرم كبير ، فعاد آخر الأمر إلى قرطاجنة فى الوقت المناسب لكى يتولى قيادة أبناء وطنه فى آخر معركة فى الحرب .

حدثت هذه المعركة الأخيرة وهى معركة زاما Zama (٢٠٢ ق . م) على مقربة من قرطاجنة نفسها ، فكانت أول هزيمة أصابت هانيبال

ولذا فمن المستحسن أن نوجه بعض عنايتنا إلى شخصية قاهره سيبيون الإفريقى الأسن الذى خلد التاريخ اسمه إنساناً دمث الأخلاق وجنديا عظيما ورجلا كريما . ولقد ذكرنا من قبل شخصا اسمه كورنيليوس سيبيون ، كان ينزل الضربات بقواعد هانيبال فى أسبانيا . فهذا هو ابنه ، وكان هذا الإبن إلى مابعد معركة زاما يحمل اسم « پ كورنيليوس سيبيون » ثم منح لقب الإفريقى (فأما سيبيون الإفريقى الأصغر وهو Scipio Africanus Minor الذى قدر له فيما بعد أن ينهى الحروب البونية الثالثة ، فهو الإبن المتبنى لإبن هذا السيبيون الأول الإفريقى الأسن) ، وكان كل مافيه يثير فى نفس كل رومانى قديم الطراز من مدرسة كاتو ، وأضرابه — هوائج المعارضة والكراهية وعدم الثقة . ذلك أنه كان صغير السن وكان موفقاً تام الكفاية جواداً ، ينفق المال بسخاء ، وكان واسع الاطلاع على الأدب الإغريقى ، ويكاد يكون من ناحية آرائه الدينية أميل إلى « البدع » الفريجية منه إلى آلهة روما الجامدة . ولم يكن ممن يؤمنون بالتحرز المطلق الذى كان يتسلط على خطط قواد الرومان الاستراتيجية فى عصره .

ذلك أنه حدث بعد الهزائم الأولى التى حلت بالرومان فى الحرب البونية الثانيـة ، أن تسلطت على العمليات العسكرية الرومانية ، شخصية قائد هو فابيوس Fabius الذى أخذ ينادى بضرورة تجنب القتال مع هانيبال حتى جعل ذلك نوعا من المبدأ المقدس. وغلب فن التكتيك الفابيانى Fabian على إيطاليا مدة عشر سنوات ، راح الرومان فى أثنائها يحصرون خصـومهم بحراً ويقطعون الطريق على القوافل البحرية المعادية ، ويهاجمون الشاردين من أعدائهم ، فإذا لاح لهم شبح هانيبال ولوا الأدبار . ولا ريب أن الحكمة كانت تقضى عليهـم ، عقب هزائمهم الأولى ، أن ينتهجوا مثل هذه الخطة ردحا من الزمن . بيد أن الواجب كان يقضى على الدولة الأشـد قوة — وكانت روما هى الدولة الأقوى طوال الحـروب البونية الثانيـة — بأن لا تسمح باستمرار حرب لا نهاية لها ، بل تسعى فى سـد خلة الخسائر ، واكتشاف القواد المقتدرين ، وتدريب جيوش أفضل من الأولى ، وتدمير قوى العـدو . والعزم أهم واجبات القوىّ وألزم صفاته .


١٠٨ — سيبيون الأفريقى

كانت مخاتلة فابيوس الماكرة غير المجدية ، التى أوشكت أن تُفضى بإيطاليا وقرطاجنة معاً أن تنزفا الدماء فى مهل حتى تقضيا — بغيضة ممقوتة عند أمثال سيبيون من الرجال — لذلك أخذ ينادى فى المدينة مطالباً بالهجوم على قرطاجنة نفسها .

على أن فابيوس ملأ المدينة عنـد ذلك ذعرا ، كأنما كانت الدولة مقبلة على أشد الأهوال وأعظم المحن، يدفعها إليها شاب أهوج غير متزن . وموجز القول أنه لم يتورع عن أن يأتى أى عمل أو يقول أى شىء يرى فيه وسيلة لحمل مواطنيه على العدول عن قبول الاقتراح وتأييده ، فظفر بأمنيته فى مجلس السناتو . على أن الناس اعتقدوا أن معارضة فابيوس لسيبيون ترجع إما إلى حسده إياه على نجاحه ، وإما إلى إضماره الخوف من قيام هذا البطل الصغير بمأثرة باهرة ممتازة تضع للحرب حدا ، أو تبعد شبحها على الأقل عن إيطاليا ، وتظهر للملأ أن تصرفاته البطيئة التى امتدت خلال هذا العدد الجم من السنين لا يمكن أن تعزى إلا إلى التوانى والخور . وعند ذلك يتبين للنـاس الفارق بين الرجلين . . ! ! ! فلجأ إلى كراسوس (Crassus) شريك

سيبيون فى القيادة محاولا أن يقنعه بألا يتنازل عن حقه فى القيادة لسيبيون على أن يذهب بنفسه إلى هناك للعمل ضد قرطاجنة ، إذا رأى من الصواب أن يقوم بالحرب على تلك الشاكلة . ولم يكتف بهذا بل أعاق عملية تدبير المال اللازم لتلك الحملة ، حتى لقد اضطر سيبيون أن يدبر ما يلزم الحملة من مال جهد طاقته . ثم حاول أن يثنى الشبان الذين تطوعوا ، عن تقييد أسمائهم وصرح بأعلى صوته فى كل من مجلس السناتو والفوروم « أن سيبيون نفسه لم يكن يتجنب هانيبال فحسب ، بل يرمى أن يحمل معه كل ما تبقى لدى إيطاليا من قوة ، بإقناعه الشبان بمغادرة والديهم وزوجاتهم ومدنهم ، بينما لا يبرح عدو قوى غير مقهور مرابطا على الأبواب » . بمثل هذه الترهات بث الرعب فى النفوس إلى حد جعل القوم لا يأذنون لسيبيون إلا بالكتائب التى كانت فى صقلية وثلاثمئة من أولئك الرجال الذين عاونوه بإخلاص عظيم فى أسبانيا . . . وسرعان ما وردت من سيبيون أثر نزوله بإفريقيا أخبار تبشر روما بما قام به من جلائل الأعمال . ثم تلى ذلك وصول غنائم ثمينة أكدت البشرى فقد أخذ ملك نوميديا أسيرا وأحرق معسكران ودمرا وبهما عدد ضخم من الرجال والسلاح والخيل ، فأرسل القرطاجيون الأوامر إلى هانيبال أن يتخلى عن آماله المقيمة فى إيطاليا ، وأن يعود إلى بلاده ليدافع عن وطنه ، وبينما كان كل لسان فى روما يلهج بالثناء على مآثر سيبيون هذه ، اقترح فابيوس تعيين شخص آخر فى مكانه دون ما سبب أو مبرر معقول اللهم إلا ما يتضمنه المثل الشهير القائل بأن من الخطر أن نستودع شئونا على مثل تلك الدرجة من الأهمية حظ رجل واحد ، ليس من المحتمل أن يستمر النجح حليفا له على الدوام . كلا بل إن فابيوس لما أبحر هانيبال بجيشه مغادرا إيطاليا ، لم ينقطع لحظة عن تكدير السرور العام ، وأن يوهن من روح روما ، بأن اجترأ على التوكيد ، « أن الدولة قد وصلت إلى أقصى محنتها وأسوئها عاقبة وأن لديها كل سبب يدعوها أن تخشى جهود هانيبال عندما يصل إلى إفريقيا ، ويهاجم أبناء روما تحت أسوار قرطاجنة ، وأن سيبيون سيضطر إلى أن يلتحم بجيش ما تزال يداه مخضبتان دفيئتان بدماء العدد الكبير من القواد والدكتاتورين ، والقناصل الرومان » .

وانزعجت المدينة لهذه التشهيرات الحماسية ، ومع أن ساحة القتال انتقلت إلى إفريقيا ، فقد كان الخطر يلوح أقرب إلى روما منه فى أى وقت آخر[1] .

وحدثت قبيل معركة زاما هدنة وجيزة ومفاوضات ، انقطعت بغلطة من القرطاجيين . وكما كان الحال فى معركة أربيلا ، يمكن تحديد يوم معركة زاما بالضبط بكسوف حدث فى هذه

(١) بلوتارك (كتاب السير) .

المرة أثناء القتال . وكان قد انحاز إلى الرومان النوميديون ، وهم الشعب الذى يسكن فيما وراء قرطاجنة من أرض إفريقيا ، انضموا إليهم تحت إمرة ملكهم ماسينيسا (Massinissa) فأكسبهم ذلك لأول مرة تفوقا عظيما على هانيبال فى الفرسان . فتزحزح جناحا فرسان هانيبال عن مراكزهما . على حين استطاع مشاة سيبيون بما لهم من نظام قوى سليم أن يفسحوا بين صفوفهم منعطفات تهجم خلالها فيلة الحرب القرطاجية دون أن يضطرب نظام هؤلاء المشاة . وحاول هانيبال أن يمد خط مشاته لكى يحيطوا بكتلة المشاة الرومانية ، بيد أنه على حين كانت لجنوده كل ميزات التفوق فى التدريب فى كانى ، وكانت قوة المداورة هنالك تبعا لذلك فى جانبه ، فاستطاع أن يحيط بجمهور من المشاة وأن يعمل فيهم السيف ذبحا وتقتيلا — فإنه وجد الآن أمامه خط مشاة يفوق خط مشاته صلابة وقوة . فانقطع خطه أثناء امتداده ، وهجمت الكتائب الرومانية فى الصميم وخسر هانيبال اليوم وعاد الفرسان الرومانيون من ملاحقة هانيبال لكى يحيلوا الهزيمة التى منى بها القرطاجيون إلى كارثة تشتيت مروعة .

عند ذلك خضعت قرطاجنة دون كفاح آخر . وكانت الشروط قاسية بيد أنها تركت لها المجال فى أن تأمل فى مستقبل كريم فأجبرت على ترك أسبانيا لروما ، وأن تتنازل عن كل أسطولها الحربى إلا عشر سفن ، وأن تدفع عشرة آلاف تالنتوم (٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه) وثمة شرط آخر هو أصعب شروط الحرب قاطبة وبه توافق على ألا تخوض غمار حرب ، دون إذن من روما . ثم أضيف شرط آخر الأمر هو أن هانيبال بوصفه عدو روما اللدود ، يجب أن يسلم إليها . بيد أنه كفى مواطنيه هذا الإذلال ، بأن فرّ إلى آسيا .

كانت هذه شروطا جائرة ، وكان يجدر بروما أن تقنع بها . بيد أن من الشعوب من بلغ من الجبانة حدا لا يجترؤون معه على مجرد قهر عدوهم ، فلا بد لهم إذن من إعمال القتل فيهم وإفنائهم . فإن ذلك الجيل من الرومان الذى كان يرى العظمة والفضيلة فى رجل مثل كاتو الرقيب ، خليق أن يجعل من وطنه حليفا دنيئا ومنتصرا جبانا .

٧ — الحرب البونية الثالثة

إن تاريخ روما فى السنوات الثلاث والخمسين التى انقضت فيما بين معركة زاما والفصل الأخير من المأساة ، وهو الحرب البونية الثالثة ، لينبئنا عما أصابته روما من نفوذ وسلطان خارجى

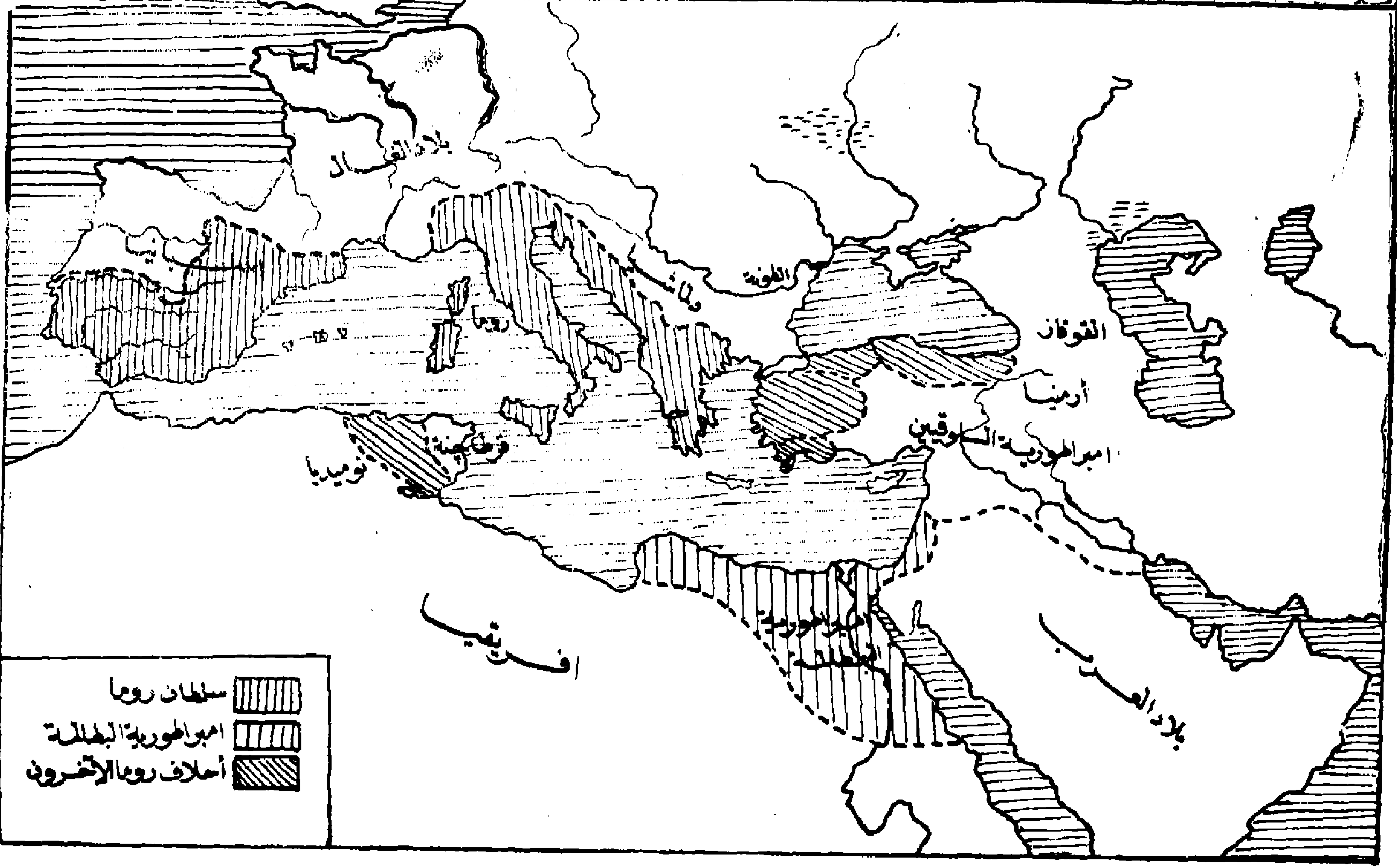
واسع تتجلى فيه الخشونة والخسة ، وينبئنا كذلك عما أحدثه ربا الأغنياء وشرههم من تدمير بطىء للعنصر الزراعى الحر من سكان إيطاليا .

وكانت روح الشعب قد صارت إلى الخشونة والوضاعة . ولم يجر هناك توسع جديد فى منح حقوق المهادنة ، ولا أى محاولات سمحة أخرى ترمى إلى إدماج السكان الأجانب بحكم مولدهم . وكان نظام الحكم الرومانى فى أسبانيا سيئاً معيباً والاستقرار فيها بطيئاً عسيراً . وحدثت أحداث معقدة تدخلت فيها روما وأفضى ذلك إلى إنزال إلليريا ومقدونيا من روما منزلة الإيالات الدافعة للجزية . ولم يكن يخفى على أحد أن روما تنهج فى سياستها نحو تكاليف الأجنبى بالضرائب وإعفاء سكانها بأرض الوطن من كل ضريبة . فبعد عام ١٦٨ ق م ، لم تعد ضريبة الأراضى القديمة تجبى فى إيطاليا ، وكان مورد الدخل (الإيراد) الوحيد المتحصل من إيطاليا ، هو المأخوذ على ممتلكات الدولة والأراضى العامة والمكوس المفروضة على الواردات الخارجية . وكانت الإيرادات الآتية من ولاية « آسيا » تقوم بنفقة الدولة الرومانية وكان رجال من طراز كاتو ، يحتازون المزارع بأرض الوطن بالسلف وحرمان الراهن من حق فكاك الرهن ، وكثيراً ما كانت هذه المزارع ملكا لرجال حل بهم الفقر والعوز بسبب أدائهم الخدمة العسكرية . وكان هؤلاء المرابون يطاردون المهادنين الأحرار خارج أراضيهم ، ويديرون مزارعهم بواسطة العمال الأرقاء الذين كانوا يسوقونهم سوقا لا رحمة فيه والذين أصبحوا زهيدى الثمن وفيرى العدد . وكان مثل هؤلاء الرجال يعدون السكان الأجانب فى الخارج عبيداً لهم وإن لم يجتابوا إلى روما . وسلمت صقلية إلى ملتزمى الضرائب الشرهين يستغلونها ويستنزفون دماءها . وكان الأغنياء يستخدمون الأرقاء هناك فى زراعة القمح الذى يصدر بعد ذلك إلى روما فيدر عليهم الربح الوفير ، وبذلك يصبح فى المستطاع تحويل الأراضى الزراعية فى إيطاليا إلى مراعى للماشية والأغنام . ومن ثم شرع الإيطاليون بعد أن نزعت منهم أراضيهم يهرعون إلى المدن والحواضر وبخاصة إلى روما .

وليس لدينا ها هنا غير القليل ، ندلى به عن المنازعات الأولى بين قوة روما الناهضة وبين دولة السلوقيين ولا كيف أبرمت روما مع مصر تحالفاً ، كذلك ليس لدينا مانقوله عن الأساليب الملتوية والتقلبات التى ألمت بحظ المدن الإغريقية ، منذ أن خيم عليها ظل روما أثناء توسيعها رقعة أملاكها حتى تردت تلك المدن فى هوة الخضوع الفعلى .

وحسبنا الآن خريطة لتبيين امتداد إمبراطوريتها فى ذلك الزمان .

ولم يخل ذلك العصر على ما كان يشوبه من وضاعة كريهة وخسة مرذولة ، من صوت


امتداد سلطان روما وأحلافها حوالى ١٥٠ قبل الميلاد
بلاد الغال
روما
قرطاجنة
نوميديا
القوقاز
أرمينيا
امبراطورية السلوقيين
امبراطورية البطالمة
بلاد العرب
افريقيا
سلطان روما
امبراطورية البطالمة
أحلاف روما الآخرون

(١٠٩)

يجأر بالاحتجاج ويجهر بالتذمر . فإنا أخبرناك كيف وضعت قوة سيبيون الإفريقى حداً لداء الحرب البونية الثانية الوبيل المزمن فى تلك الدولة الرومانية التى كانت تنتج رجالا أثرياء أشحاء ، هم أشبه ما يكونون بالقرح والبثور تطفح فى أديم الجسد السقيم . ولما أن ساوره بعض الشك فى أن يسمح له مجلس السناتو بأن يتولى قيادة الجيش الرومانى هدده بأن يلجأ إلى الشعب فيحتكم إليه . ومنذ ذلك الحين أصبح رجلا مرهوب الجانب تحذره عصبة السناتو الدائبين على تحويل إيطاليا من أرض مزارعين أحرار إلى أرض مراعى واسعة للماشية يشتغل فيها الأرقاء . فحاولوا أن يقضوا عليه قبل أن يصل إلى إفريقيا وكان أن أعطوه من القوات ما لا يكفى — فيما يؤملون — لإحراز النصر ؛ ثم حالوا بعد الحرب بينه وبين تولى أى منصب فى الدولة . وقد انبرى كاتو لمهاجمته مدفوعا بعامل المصلحة الشخصية والنزعة الشريرة الفطرية . ويبدو أن سيبيون الأفريقى الأسن كان سمح النفس قليل الصبر عن يحيطون به كما كان أبعد الناس عن استغلال تذمر الشعب مما حوله من النزعات الخبيثة السائدة واستثمار محبة الشعب له لمصلحته الخاصة . فذهب مع أخيه لوكيوس سيبيون (Lucius Scipio) عندما قاد الأخير أول جيش رومانى عبر البحر إلى آسيا ، وهناك فى ماجنيزيا من أعمال ليديا لقى على يديهما جيش عظيم مخلط بقيادة أنتيوخوس الثالث (Antiochus III) الملك السلوقى (عام ١٩٠ ق م) ، — نفس الهزيمة التى لقيتها الجيوش الفارسية المخلطة — قبل ذلك بمئة وأربعين سنة . وأثار هذا النصر عداوة مجلس السناتو ضد لوكيوس سيبيون ، فاتهم باختلاس النقود التى تلقاها من أنتيوخوس ، فغضب « الإفريقى » لهذا الاتهام غضبة الرجل الشريف . وبينما لوكيوس ماثل فى مجلس السناتو يحمل بين يديه وثائق حساباته وهو مستعد للرد على نهشات متهميه ، خطف الإفريقى الوثائق من يديه ومزقها وألقاها على الأرض ، قائلا إن أخاه قد دفع فى خزانة الدولة مئتى ألف سسترتيا[1] (Sestertia) وهو مايساوى مليونين من الجنيهات فهل هم يريدون أن يكدروا صفو أيامه ويسقطوه لمثل هاته أو تلك من التفاصيل . وعند ما رفعت الدعوى فيما بعد على لوكيوس و حكم بإدانته أنقذه أخوه الإفريقى بالقوة . فلما أن قدم للمحاكمة ذكّر الأهالى أن ذلك اليوم هو يوم ذكرى موقعة زاما وتحدى السلطات بين تهليل جموع الشعب وهتافه . ويلوح أن الشعب الرومانى كان يحب سيبيون الإفريقى ويعاضده ، ولا بد أن يحبه الناس اليوم ويعطفوا عليه بعد انقضاء ألفين من السنين . فإنه استطاع أن يلقى بالورق الممزق فى وجه مجلس السناتو وعندما هوجم لوكيوس مرة ثانية ،

(١) السسترتيا — عملة رومانية قدرها عشرة جنيهات .

تدخل أحد ترابنة الشعب بمـاله من حق النقض وأحبط الإجراءات . على أن سيبيون الإفريقى كانت تعوزه صلابة العود . التى تجمـل من الرجال زعماء ديموقراطيين ذوى عظمة ومهابة . فإنه لم يكن كقيصر ، وكان يعوزه الـكثير من صفات الرجل السياسي التى تجعله يستسلم لما تمليه عليه ضرورات الحياة السياسية على ما فيهـا من ضعة . ولم يلبث أن تقاعد بعد هذه الحوادث ، مشمئزاً وغادر روما إلى مزارعه ، حيث توفى ١٧٣ ق م .

وفى نفس تلك السنة مات هانيبال . إذ تجرع السم يائساً ، فإن خشية مجلس السناتو الرومانى إياه تعقبته من بلاط إلى بلاط . وكانت روما قد طلبت من قرطاجنة أن تسلمه إليها على الرغم من احتجاجات سيبيون الحانقة الغاضبة ، ثم استمرت تطلب هذا الطلب من كل دولة تؤويه . وعندما تم إبرام الصلح مع أنتيوخوس الثالث كان تسليم هانيبال أحد شروط ذلك الصلح ولـكنه فرّ من هناك ، ولبث على هـذه الحال حتى أرغم رأسه فى الثرى آخر الأمر فى بيثينيا إذ اعتقله ملـكها لـكى يرسله إلى روما ، بيـد أن هانيبال كان يحمل فى خاتمه السم اللازم له وبه قضى على نفسه .

ومما يزيد اسم سيبيون شرفا ، أن قد جاء سيبيون آخر ، هو سيبيون ناسيكا (Scipio Nasica) الذى كان يسخر من عبارة كاتو « يجب تدمير قرطاجنة » بأن يختم كل خطبة له فى مجلس السناتو بقوله « يجب أن تبقى قرطاجنة » إذ بلغ من حصافة رأيه أن كان يرى ، أن وجود قرطاجنة حافز عظيم ، وله فضل كبير فى رخاء روما العام .

ومع هذا شاءت الأقدار أن يكون سيبيون الإفريقى الثانى ، وهو حفيد متبنى لسيبيون الإفريقى الأسن ، هو فاتح قرطاجنة ومدمرها . وكانت جريرة القرطاجيين التى سببت الحرب البونية الثالثة والأخيرة ، هى أنهم استمروا يتجرون وينجحون ، ولم تكن تجارتهم مما ينافس تجارة روما . ولذلك فإن قرطاجنة لـما أن دمرت مات بموتها الشىء الـكثير من تجارتها ، ودخل شمال إفريقيا فى دور تدهور اقتصادى ، ولـكن ما نعمت به قبل تدميرها من رخاء كان يثير فى نفوس الرومان حسدا عنيفاً متقد الأوار يعظم كل مالهم من صفات أخرى ذميمة لا يستثنى منها حتى الجشع ، ذلك أن طبقة الفرسان الأغنياء كانت تضيق بأي ثراء فى العالم إلا ثراءها . وقد أثارت روما الحرب بتحريضها النوميديين على الاعتداء على قرطاجنة ، حتى هب القرطاجيون للحرب ثائرين مستيئسين . وعند ذلك انقضت روما على قرطاجنة ، وأعلنت أنها خرقت المعاهدة بأن دخلت حرباً بلا استئذان .

وأرسل القرطاجيون الرهائن الذين طلبتهم روما ، وسلموا أسلحتهم واستعدوا لتسليم بلادهم . على أن الخضوع لم يكن ليزيد روما إلا تجبراً وعتواً ولم يكن ليزيد نفوس طبقة الفوارس الغنية إلا شراهة وجشعا ، وهم الذين لا تعرف الشفقة إلى قلوبهم سبيلا ، والذين كانوا متسلطين على أداة الحكم فيها . هنالك طلبوا أن يخرج أهالى قرطاجنة من ديارهم ، وأن يرحل السكان إلى مسافة لاتقل عن عشرة أميال من البحر حيث يتخذون لهم مقاماً . طلبوا هذا الطلب إلى قوم يكادون يعتمدون اعتماداً كليا فى معاشهم على التجارة الخارجية .

وأثار هذا الطلب غير المعقول اليأس فى نفوس القرطاجيين ، فاستدعوا المنفيين منهم واستعدوا للمقاومة ، وكانت الكفاية العسكرية عند الرومان فى انحطاط مستمر خلال نصف قرن قضوه فى ظل حكومة قصيرة النظر ضيقة الأفق ، وكادت الهجمات الأولى على المدينة سنة ١٤٩ ق . م . أن تبوء بكارثة . وأظهر سيبيون الصغير خلال هذه العمليات ما هو عليه من قصور وعجز . وكانت السنة التالية سنة فشل أيضا يرجع إلى عجز رجال السناتو . وعند ذلك انتقل ذلك المجلس الجليل من حالة الوعيد الصاخب إلى حالة رعب مفرط . وانذعر سكان روما انذعاراً أشد وأكبر ، فانتخب سيبيون الصغير قنصلا لا لسبب إلا اسمه ، على الرغم من أنه كان دون السن القانونية ، كما كان من نواحى أخرى غير أهل لذلك المنصب ، ثم أرسل إلى إفريقيا لينقذ وطنه الغالى .

وابتدأ على أثر ذلك أشد صنوف الحصارات عناداً وفظاعة . وبنى سيبيون جسراً عبر ميناء قرطاجنة ، وقطع عنها كل المدد براً وبحراً . فقاسى القرطاجيون من الجوع آلاما ذريعة . بيد أنهم صمدوا حتى فتحت المدينة عنوة . واستمر القتال فى الشوارع ستة أيام ، ولما سلمت القلعة آخر الأمر ، كان الأحياء من القرطاجيين خمسين ألفا من سكان يقدر عددهم الأصلى بنصف مليون نسمة . وأخذ هؤلاء الباقون أرقاء ، ثم أحرقت المدينة بأسرها ، وأعمل المحراث فى الأنقاض تعبيراً عن التدمير النهائى ، واستنزلت اللعنات فى حفل دينى رهيب على كل من تحدثه نفسه بأن يعيد بناءها .

وفى نفس تلك السنة (١٤٦ ق . م) قضى مجلس السناتو الرومانى وطبقة الفرسان الرومان على مدينة عظيمة أخرى هى مونوبوليس بكورنثة ، بدا لهم أنها تضيق الخناق على تجارتهم واحتكاراتهم التى استأثروا بها وكان لهم فى ذلك مبرر ، لأن كورنثة كانت قد شهرت السيف فى وجههم ، على أنه كان مبرراً غير كاف .

٨ — كيف قوضت الحروب البونية الحربية الرومانية

ينبغى أن نلحظ ها هنا ، فى موجز من القول تغييرا لحق نظام روما الحربى ، بعد الحروب البونية الثـانية ، وكانت له أهمية هائلة فيما تلى ذلك من تطوراتها . فحتى ذلك الوقت ، كانت الجيوش الرومانية ، تؤخذ من مجندين من المادنين الأحرار . فـكانت القوة المحاربة والقوة المصوتة الناخبة مرتبطتين ارتباطا وثيقا . واتخذ مجلس الأحرار فى وحداته المئوية مظاهر التعبئة العسكرية وزحف وعلى رأسه الوحدات المئوية من الفرسان إلى ساحة الإلـه مارس وكان هذا النظام شديد الشبه بنظام البوير قبل شبوب الحرب الأخيرة بجنوب أفريقيا . ذلك أن المادن الرومانى العادى كان فلاحا مثله مثل البويرى العادى ، وكان عند ما يهيب به وطنه يلبى النداء وينخرط فى سلك الجندية وكان البوير يبلون فى القتال بلاء فائقا بيد أن العودة إلى المزارع كانت شغلهم الشاغل . فإذا استدعى الأمر القيام بعمليات مطولة ، من أمثال حصار فياى ، كان الرومان يرسلون المدد ويغـيّرون قواتهم كرة بعد أخرى وعلى نفس هذه القاعدة كان البوير يجرون فى حصار ليدى سميث .

وكانت الحاجة إلى قهر أسبانيا بعد الحرب البونية الثانية تنادى بضرورة إنشاء جيوش من طراز آخر . إذ كانت أسبانيا أبعد شقة من أن تسمح بموالاة العمل بهذه الاستبدالات ، وكانت الحرب تتطلب وجود جيوش على تدريب أوفى ومرانة أكمل مما كان يستطيعه هؤلاء الجنود الغادون والرائحون ومن ثم قيدت أسماء الرجال لمدد أطول ودفعت لهم الأعطيات والرواتب . وبذا بدأ ظهور الجنـدى المأجور فى الشئون الرومانية . وأضيفت الأسلاب إلى الأعطيات . فوزع كاتو كنوز الفضة على من تحت إمرته من الجنود فى أسبانيا . ومما هو مأثور عنه أنه هاجم سيبيون الإفريقى لأنه وزع الأسلاب على جنوده فى صقلية . وأدى إدخال نظام الأعطيات العسكرية آخر الأمر إلى نشوء جيش محترف ، وأدى هذا بعد ذلك بقرن إلى نزع السلاح من المادن الرومانى العادى الذى أخذ ينساب إذ ذاك إلى روما والمدن الـكبرى فى حالة عسر وإملاق . وكانت الحروب العظيمة قد كللت بالنجاح ووضعت أسس الإمبراطورية وضعا وطيدا بفضل جهود فلاحى روما الذين حملوا أعباء الحروب وخاضوا غمارها قبل سنة ٢٠٠ ق . م . واختفى فى أثناء هذه العملية الجديدة العديد الأكبر من فلاحى روما المقاتلين . على أن ذلك التغيير الذى ابتدأ بعد الحرب البونية الثانية لم يتم إلا وقد استشرف القرن نهايته حين أعاد ماريوس تنظيم الجيش ، كما سيلى ذكر ذلك فى موضعه وبعـد عصر ماريوس سنشرع فى

الكلام عن (الجيش) ثم عن (الكتائب) وسنجد أنفسنا نعالج نوعاً جديداً من الجيوش ، يخالف ما قبله تماماً ولا تضمه بعضه إلى بعض رابطة المهادنة ، وإذ تنفصم عُرى هذه الرابطة لا تلبث أن تهتدى الكتائب إلى نوع آخر من الترابط هو روح التشيع للطائفة (Esprit de corps) التى تربط الجند بفرقهم فتتحزب فى خلافاتها المشتركة مع المجتمع العام وتنتصر لمصلحتها المشتركة ضده . ولا يلبث الجنود حتى يداخلهم المزيد من الاهتمام والتعلق بقوادهم ، الذين يضمنون لهم الأرزاق والسلب . وكان ذوو الأطماع من الرجال نزاعين فى روما قبل الحروب البونية إلى استرضاء العامة والتملق إليهم ، ولكنهم بعد ذلك الزمان أنشأوا يترضّون الكتائب ويخطبون وُدها .

٩ — مقارنة الجمهورية الرومانية بدولة عصرية

إنا لنتنسم من تاريخ الجمهورية الرومانية حتى ذلك التاريخ نفحات تذكرنا من كثير من الوجوه بالروح العصرية أكثر مما يذكرنا بها أى تاريخ آخر لما سبقها من الدول ، وليس هناك من هو أشد إدراكا لهذه النفحات من القارىء الأمريكى أو الأوربى الغربى . فإنا نلمس لأول مرة نظاما يشابه أمة تحكم نفسها بنفسها ، ومجتمعا أكبر من مجرد دولة مدينة يحاول أن يتحكم فى مصيره الخاص . وإنا لنجد لأول مرة قطراً فسيح الأرجاء يتفيأ فكرة واحدة من القانون السائد فيه . وإنا لواجدون فى مجلس السناتو ومجلس الأحرار نضالا بين الجماعات والشخصيات ، وأسلوبا فى تصريف الأمور يقوم على الجدل والنقاش ولكنه أرسخ قدما وأطول أمداً من أية أوتوقراطية ، وأكثر مرونة وقابلية للتكيف من أية كهانة . وإنا لنجد لأول مرة كذلك ، منازعات اجتماعية يمكن مقارنتها بمنازعاتنا . وكانت النقود قد حلت محل المقايضة ، وأصبح رأس المال النقدى سيالا حرا لا يعرف الجمود . ولعله لم يصل فى سيولته وحريته إلى ما هو عليه اليوم ، بيد أنه بلغ عند ذاك درجة لم يبلغها من قبل قط . ثم إن الحروب البونية كانت حروبا بين الشعوب ، اتخذت مسحة لم تسبق إليها أية حروب أخرى دوّنها لنا التاريخ حتى آنذاك . ولا مرية أن الخطوط الرئيسية التى يقوم عليها عالمنا الراهن وما به من فكرات أساسية وخلافات رئيسية ، كانت آخذة فى الظهور فى تلك الأيام .

غير أن روما إبان الحروب البونية كانت تعوزها كما أسلفنا بعض تسهيلات أولية ، كما ينقصها بعض الأفكار السياسية السارية فى زماننا هذا . فلم يكن هناك صحف ، ولم يكن هناك فى الواقع أى استخدام لنظام الممثلين فى مجالس الأحرار الشعبية . وقد أمر يوليوس قيصر

(٦٠ ق . م) بنشر إجراءات السناتو وقراراته بكتابتها على الأبيض (in Albo) أعنى على ألواح النشرات . وكانت العادة قد جرت بنشر المرسوم السنوى للبريتور[1] (Prætor) (أى صاحب القضاء روما) على هذه الشاكلة . وكان هناك كتاب يحترفون كتابة الرسائل ، فيرسلون الأخبار بوساطة الرسل والسعاة إلى مراسلين أغنياء من سكان الريف ، وكان هؤلاء الكتاب ينسخون المكتوب على الألبو أى (اللوح الأبيض) ، وعند ما كان شيشرون حاكما على كيليكيا ، كان يتلقى الأخبار الجارية عن مثل هذا المراسل . وهو يشكو فى أحد رسائله أنها لم تكن مما يبغى . فإن مجموعة الأخبار التى أرسلها إليه مراسله قد أسهبت فى أخبار سباق العجلات ، وغيرها من أنباء الألعاب ، على حين فات المراسل أن يقدم أى فكرة عن الموقف السياسى . وواضح أن هذه الطريقة فى نقل الأخبار بالرسائل كانت فى متناول الرجال العموميين الميسرى الحال دون غيرهم . وثمة نقص آخر فى النظام الديموقراطى فى الجمهورية الرومانية وهو نقص فهمه علينا اليوم يسير ، وإن كان أبعد من أن يتطاول إليه فكر أى إنسان عند ذاك — ذلك هو انعدام كل أثر لمبادئ التعليم السياسى العام على الإطلاق . ولقد أظهر عامة روما شيئا من الإدراك الخفى للفكرة القائلة بأن الأصوات بلا معرفة لا تستطيع أن تجعل الرجال أحرارا ، وذلك يوم أصروا على نشر قانون الألواح الإثنى عشر . بيد أنهم لم يستطيعوا قط أن يتصوروا أن هناك أى مجال آخر لانتشار المعرفة يمتد حتى يتطرق بها إلى كتلة الشعب إذ كان ذلك خارج طاقة العصر . ولم يبدأ الناس إلا فى هذه الأيام أن يدركوا تماما المعنى السياسى للقول المأثور القائل بأن « المعرفة قوة » فإن اتحادات العمال (Trade Unions) البريطانية مثلا ، أنشأت حديثا كلية للعمال تسد حاجات الأكفاء منهم فى علم التاريخ ، وفى العلوم السياسية والاجتماعية وما إليها . بيد أن التعليم فى روما الجمهورية كان إحدى نزوات الوالد ، وكان من امتيازات ذوى الثروة والفراغ . وكان فى معظمه فى أيدى الإغريق وهم فى الكثير الغالب من الأرقاء . وكان هناك جدول ضحضاح من العلوم الممتازة والتفكير الممتاز تواصل فيضه وانسيابه حتى القرن الأول من عصر الملكية ، يشهد على ذلك لوكريشيوس (Lucretius) وشيشرون (S cero) بيد أنه لم يمتد إلى كتلة الشعب . ولم يكن الرومانى العادى جاهلا فقط بتاريخ الجنس البشرى جهلا مطبقا ، بل بأحوال الشعوب

---

(١) البريتور هو موظف قضائى اختص بأعمال القضاء ومعاونة القنصل فى هذا النطاق . وكان هناك اثنان أحدهما للنظر فى قضايا الرومان ويسمى (Praetorurbanus) نسبة إلى مدينة روما التى يطلق عليها (Urbs) ويسمى الثانى (Praetorperigrinus) للنظر فى قضايا الأجانب .

الأجنبية كذلك . ولم يكن لديه أى علم ومعرفة بالقوانين الاقتصادية ولا بالاحتمالات الاجتماعية . بل إنه لم يكن حتى ليفهم مصالحه الخاصة فهما واضحا .

وبديهى أنه فى دول المدن الإغريقية الصغيرة ، وفى تلك الدولة الرومانية الأولى ذات الأربعمئة ميلا مربعاً ، كان الرجال يكتسبون بالنقل والحديث والملاحظة قدراً من المعرفة يكفى للقيام بواجبات المادنة العادية ، ولكن الأمر عند ابتداء الحروب البونية كان قد تضخم وتعقد حتى أضحت المعلومات فوق طاقة الأميين من الرجال . ومع ذلك فلم يبد على أحد أنه لحظ الثغرة التى أخذت تباعد بين المادن وبين دولته ، وعلى ذلك خلت السجلات من كل إشارة إلى أية محاولة ترمى إلى « توسيع » عقلية المادن بالتعليم توسيعا يقابل اتساع واجباته . وإنك لترى الناس جميعا منذ القرن الثانى قبل الميلاد وما بعده يبدون ملاحظاتهم على جهالة المادن العادى وضآلة حظه من الحكمة السياسية . وكان كل شىء فى الدولة عقيما مضطربا يقاسى الآلام بسبب انعدام التماسك السياسى الناشىء عن هذه الجهالة ، ولكن أحداً من الناس لايتقدم بالأمر حتى يصل به إلى مانعده اليوم النتيجة الحتمية له ، فما من إنسان يقترح القضاء على الجهالة الضاربة أطنابها . وإذن فلم تكن هناك أية وسيلة لتعليم جماهير الشعب فى نطاق مثل عليا مشتركة ذات طابع سياسى واجتماعى . ولم يحدث إلا يوم تطورت الديانات الكبرى التى تقوم على الدعوة فى العالم الرومانى ، وأهمها وأبقاها جميعاً هى المسيحية ، أن لمس الناس ما يحتمل أن ينتج من آثار لمثل هذا التعليم المنظم لجماهير عظيمة من الناس ورأوا ثماره بارزة فى العالم وكان الإمبراطور قسطنطين الأكبر ، ذلك العبقرى العظيم أول من أدرك ذلك الأثر المحتمل بعد هذا الزمان بستة قرون ، وأول من حاول أن يستعمله فى سبيل الإبقاء على تماسك المجتمع العالمى الذى يحكمه وفى ربطه من الناحيتين العقلية والخلقية .

على أن اختلاف نظام روما السياسى عن نظامنا ليس مقصوراً على قيام هاته النقائص فى وسيلة نقل الأخبار ونشر التعليم وفى نظام الحكومة التمثيلية ، أجل أنها كانت بالدول العصرية المدنة أشبه من أى دولة أخرى تقدم ذكرها على أنها كانت فى بعض الأمور ، بدائية « تنحط دون مرتبة المدنية انحطاطاً عجيباً » . وإن قارىء التاريخ الرومانى حين يقرأ مافيه من أساليب المجادلات والتصرفات والسياسات والحملات الحربية ويعرض له من وجهة نظر رأس المال والعمل ، — ليعثر فيه بين الفينة والفينة على شىء يشيع فى نفسه قسطا وافراً من تلك الفزعة التى تتمشى فى مفاصل من نزل يستقبل فى بيته طارقاً مجهولا ، ومد يده فلقى كف الإنسان

الأول النياندرتالى (Homo Neanderthalensis) الشوهاء الشعرة تمتد إليه ، ثم رفع رأسه فرأى وجهاً وحشياً بشماً عديم الذقن . ولقد ذكرنا من قبل أنهم كانوا يقدمون الأضاحى الإنسانية فى القرن الثالث ق . م وإن كثيراً مما نعرفه عن ديانة روما الجمهورية ، ليرجع بنا شوطا بعيداً إلى ما قبل أيام الآلهة المحترمين اللائقين أعنى إلى عصر الشعوذة . (الشامانية)[1] والسحر فإنا حين نتكلم عن الهيئات التشريعية ينطلق بنا الذهن فوراً إلى « وستمنستر » (حيث البرلمان الإنجليزى) ولكن ماذا يكون شعورنا لو أنا ذهبنا نشهد افتتاح إحدى جلسات مجلس اللوردة ، فوجدنا يد قاضى القضاة (Lord Chancellor) مخضبة بالدماء بينما هو يحرك أصابعه ذهابا وجيئة بين أحشاء شاة حديثة الذبح ، متطيراً باحثاً فيها عما عسى أن ينذر بالشؤم والثبور ؟ وعند ذلك يكر العقل راجعاً من وستمنستر إلى عادات بنين[2] (Benin) كذلك كان الاسترقاق فى روما ، وحشياً ، أبلغ شراً من الاسترقاق فى بابل . ولقد أتيح لنا أن نلقى لمحة إلى كاتو صاحب الصلاح والفضيلة إذ يتنقل بين عبدانه فى القرن الثانى ق . م . وفوق ذلك فإنه فى القرن الثالث ق . م . حالما كان الملك أسوكا يحكم بلاد الهند فى جو يفيض ضياء وعذوبة كان الرومان يتعشون من جديد لعبة إتروسكية وحشية وهى تحريشهم العبدان بعضهم ببعض ليستنقذوا حياتهم جلاداً وقتالا ، مما يعيد إلى الذاكرة صورة أفريقيا الغربية التى صدرت عنها هذه التسلية الهمجية ، ذلك أنها نشأت عن عادة قديمة ترجع إلى ما قبل التاريخ وهى إعمال السيف ذبحاً فى الأسرى عند دفن أحد الرؤساء . ولهذه التسلية عندهم مسحة دينية ، فإن العبيد الذين كانوا يسحبون الجثث من المجتلد بالخطاطيف يلبسون أقنعة تمثل إلـه العالم السفلى المعداوى وهو خارون (Charon) .

وفى سنة ٢٦٤ ق . م وهى نفس السنة التى بدأ فيها أسوكا حكمه ، والتى ابتدأت فيها الحرب البونية الأولى ، حدثت فى سوق المدينة « الفوروم » بروما أولى ما يذكره التاريخ من المصارعات ، احتفالا بجنازة عضو من أعضاء عائلة بروتس « Brutus » الرومانية العريقة . كان ذلك عرضا متواضعا اشترك فيه ثلاثة أزواج ، ولكن سرعان ما أصبح المجالدون يتقاتلون بالمئة . وأخذ الإقبال على هذه المصارعات يزداد بسرعة ، وأمدتهم الحرب بالعدد الوفير من الأسرى ، فأما الأخلاقيون الرومان القدماء الذين كانوا على غاية الصرامة ضد التقبيل وزينة النساء والفلسفة الإغريقية ، فلم يكن لديهم ما يقولونه عن هذا

(١) الشامانية : ممارسات دينية بدائية لشعوب آسيا الشمالية تقوم على الاعتقاد بأن فى الإمكان الهيمنة بالسحر على الأرواح الطيبة والشريرة .

(٢) بنين : مدينة فى غرب إفريقية تقع على الساحل الشمالى لخليج غانة .

التطور الجديد إلا كل خير . ولقد يلوح أن الأخلاق الرومانية كانت تطمئن راضية مرضية ماشهدت الناس يلقون الآلام والعذاب .

ولئن كانت روما الجمهورية أول المجتمعات القومية العصرية المتمتعة بالحكم الذاتى ، فلقد كانت ولا ريب أول شكل بدائى نياندرتالى لتلك المجتمعات .

ونمت حفلات المجالدين فى روما نمواً هائلا فى خلال القرنين أو الثلاثة التالية . وابتدأ الأمر بأن كان المجالدون يؤخذون من أسرى الحرب يوم كانت الحروب كثيرة متلاحقة . وكان كل مجالد يتقدم بأسلحته المميزة له ما بين بريطان ذوى وشم أو مغاربة أو إسكيذيين أو زنوج ومن إليهم ، وربما كانت لهذه الحفلات بعض القيمة العسكرية ، على أنهم عمدوا كذلك إلى استخدام المجرمين من الطبقات الدنيا ، ذلك أن العالم القديم لم يكن ليدرك أن المجرم المحكوم عليه بالإعدام ما يزال شخصاً له حقوقه . وأيا ما كان ، فإن استعمال المجرم كمجالد ، لم يبلغ من السوء الدرجة التى بلغها استعماله « مادة » للتشريح وهو حى فى متحف الإسكندرية ، ولكن لما زادت أرباح هذا الصنف من الحفلات ، وزاد الطلب على الضحايا ، بيع العبدان العادون لمدربى المجالدين Gladiators ، فكان كل عبد يستغضب سيده عرضة لأن يجد نفسه فى أحد المعاهد الخاصة بتدريب المجالدين وتأجيرهم . وكان كل خليع من الشبان الذين بددوا ثرواتهم وكل ذوى النفوس الوثابة من الغلمان يحترفون تلك المهنة متطوعين فترة معينة من الزمان معتمدين فى بقائهم أحياء على بسالتهم وحسن بلائهم .

وكما ازداد عمل المجالدين وتطور ظهر لهم إلى هذا التطور نفع جديد باستخدامهم تابعين مسلحين يقومون ببعض الخدمات ، فإن الأغنياء كانوا يشترون الجوقة منهم ويستخدمونها حرساً خاصا أو يؤجرونها طلباً للربح فى الحفلات .

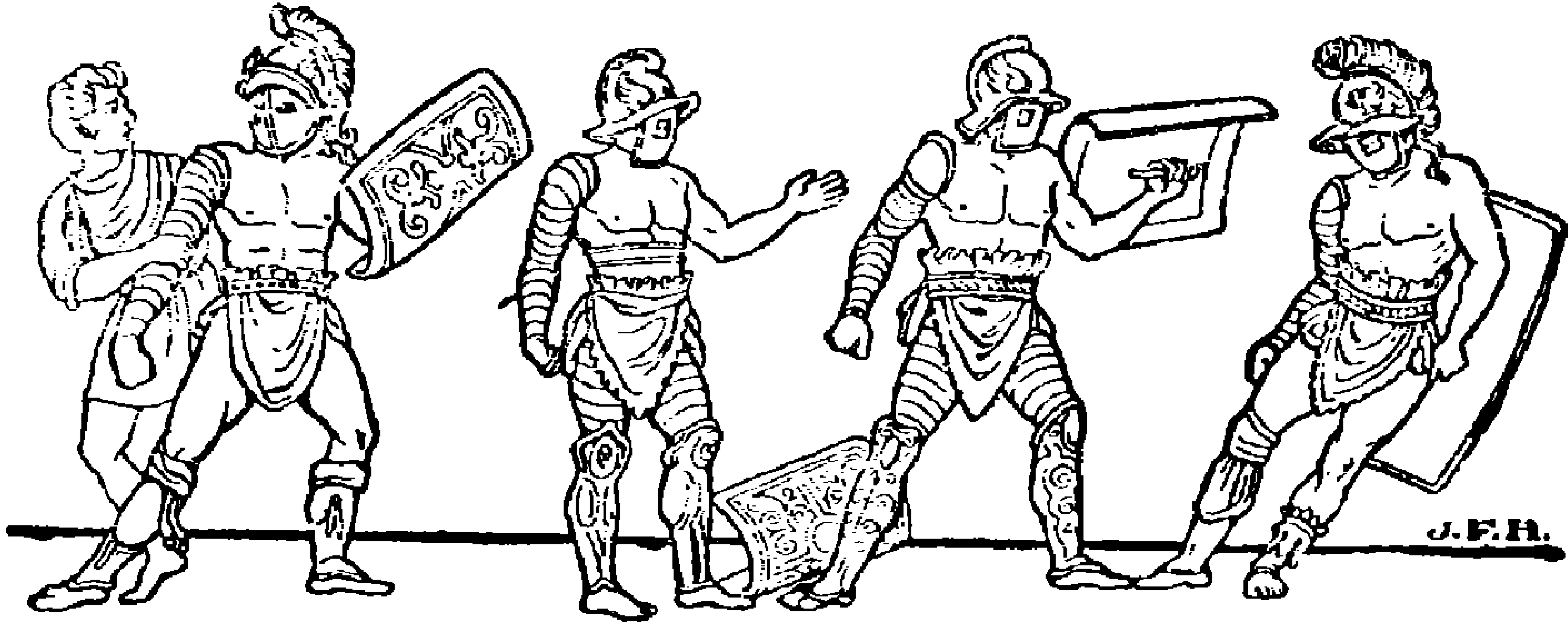
وتبدأ حفلات العرض بموكب استعراضى رسمى وبقتال زائف praelusio [1] ، ثم يعلن بدء القتال الحقيقى بالنفخ فى الأبواق . فأما المجالدون الذين يرفضون أن يقاتلوا لأى سبب من الأسباب فيدفعون دفعاً بالسياط والحدائد المحماة ، وربما التمس الجريح منهم الرحمة برفع أصبعه السبابة ، وعندئذ فإما أن يلوح النظارة بمناديلهم دلالة على الرحمة ، أو يقضوا بإعدامه بمد أيديهم مقبوضة مع وضع الإبهام فى هيئة معناها الموت . ويختلف الثقاة هنا فى حقيقة أمر هذه العلامة بالضبط ؛ فيقول مايور « Mayor » إن رفع الإبهام إلى الصدر معناه (الموت) ،

---

(١) praelusio — كلمة لاتينية معناها مقدمة على شكل تجربة .

وإن خفض الإبهام إلى أسفل معناه : أن أزل هذا السيف . ولـكن جمهرة الرأى السائد المحقق أن وضع الإبهام إلى أسفل معناه (الموت) . وكان المذبوحون والذين أشرفوا على الموت يسحبون إلى مكان خاص يسمى « الاسبولياروم »[1] حيث يجردون من أسلحتهم وممتلكاتهم ، فمن لم يكن قد مات منهم آنفا أجهزوا عليه .

وهذا الوضع الذى كان يعد الموت لعبا ولهواً وتسلية يساعد على بيان مقدار الثغرة



١١٠ — المجالدون

العظيمة التى تفصل بين المعايير الخلقية فى كل من المجتمع الرومانى ومجتمعنا ، ولا شك أن كثيرا من ألوان القساوات وانتهاك حرمة الكرامة الإنسانية بمثل هذه الوحشية ، ما تزال تحدث فى العالم . بيد أنها لا تحدث باسم القانون ، ولا دون أن يرتفع صوت واحد بالاعتراض عليها وإنكارها ؛ فالحق أنا لم نعثر حتى زمان سنيكا « Seneca » (القرن الأول الميلادى) على أى أثر يسجل احتجاجا صريحا على ذلك الأمر . فلقد كان ضمير الإنسانية أضعف وأقل فطنة مما هو الآن . ثم جرت إرادة القادير أن تنشأ فى الضمير الإنسانى فور ذلك قوة جديدة هى المسيحية . فإن روح يسوع « Jesus » المنبعثة من المسيحية ، أصبحت فى الدولة الرومانية المتأخرة ، الخصم اللدود لـكل هذه الحفلات العنيفة والعدو العنيد للعبودية ، وتناقص هذان الشران بانتشار المسيحية ، حتى أصبحا أثرا بعد عين . ويضيف العلامة جلبرت موراى « G. Murray » إلى ذلك أن « كان الإغريق يرون فى معارض المجالدين سببا يدللون به على اعتبارهم الرومان همجا متوحشين « Barbaroi » ، وقد حدثت بعض الاضطرابات عندما حاول نائب القنصل الرومانى « proconsul » أن يدخلها فى كورنثة » . فمعارضة هذه القساوة القديمة لم تكن إذن مسيحية محضة . « وواضح أن حيرة الناس بين

(١) الاسبولياروم Spoliarum — كلمة لاتينية معناها مكان فى الملعب المدرج حيث كانت تنزع ملابس الجلادين الذين خروا صرعى .

الرومان كانوا يبغضونها ، بيد أن ضربا من الخشية والحياء قد حال بينهم وبين التنديد بقسوتها علنا . مثال ذلك أن شيشرون عندما كان يضطر أن يحضر لمشاهدة ساحة الألعاب[١] أخذ معه ألواحه وسكرتيره ، ولم يحفل بمشاهدة شيء قط ، وإنه ليعبر عن اشمئزاز خاص لمقتل أحد الفيلة . وقد طعنت الفلسفة الإغريقية فى هذه الألعاب ولم تتردد فى إنكارها ، وذهبت أرواح اثنين من الكلبيين ومسيحى واحد ضحية المجتلد[٢] — فى أوقات مختلفة فقضوا نحبهم وهم يجأرون بالاحتجاج عليها قبل أن يتقرر إلغاؤها » .

(١) Circus ساحة الألعاب ، وهى فى روما الساحة الكبرى التى كانت تقام فيها الألعاب ويجرى فيها السباق وفى بعض الأحيان كانت تجرى بها الاستعراضات العسكرية

(٢) المجتلد (Arena) : الجزء الأوسط المكشوف للعيان من الملعب المدرج الرومانى (Amphitheatre) حيث كان يصطرع المجالدون Gladiators .

الفصل السادس والعشرون

من تيبريوس جراكوس إلى الإمبراطور المؤله فى روما

---

١ — العلم وسيلة للقضاء على الرجل العام

سبق لنا مرتين ، أن شبهنا لك المجتمع الرومانى الذى يتمتع بالحكم الذاتى بضرب « نياندرتالى » من الدولة الديموقراطية المصرية المدنة ، وها نحن نعود مرة أخرى إلى هذه المقارنة . ذلك أن الأمرين : وهما المحاولة البدائية العظيمة الأولى فى روما ، وضريباتها التاليات ، متشابهان من الناحية الشكلية تشابها خارقا للمعتاد ؛ على أنهما يختلفان أحدهما عن الآخر اختلافا عميقا فى الروح . فإن الحياة الرومانية السياسية والاجتماعية ولا سيما تلك الحياة السياسية والاجتماعية فى القرن المحصور بين سقوط قرطاجنة وبين قيام قيصر والقيصرية ، ذات مشابهة عامة واضحة جدا بالحياة السياسية والاجتماعية فى أمثال الولايات المتحدة الأمريكية أو الإمبراطورية البريطانية اليوم . ويزيد فى قوة التشابه ما درج عليه الرومان والمحدثون على السواء من استعمال ألفاظ من أمثال « مجلس السناتو والديموقراطية والبروليتاريات Proletariat » وما شابهها على درجات من عدم الدقة تتفاوت بين حالة وأخرى . بيد أن كل شىء فى الدولة الرومانية كان يتسم بما لكل بدائى من سذاجة وخشونة ولجاجة . فكانت نار المظالم أشد تأججا ، والمنازعات أشد خشونة وعنفا . وكان حظ العالم من العرفان ضئيلا ومن الفكرات العامة قليلا نسبيا . ولم يشرع الناس فى روما فى قراءة مؤلفات أرسطو العلمية إلا فى القرن الأول ق . م . حقا أن فريرو[٢] (Ferrero) يدعى لقيصر الإلمام بكتاب السياسة لأرسطو وهو ينسب إليه

---

(١) Princeps كلمة لاتينية مفردة معناها : زعيم ، رئيس ، قائد ، حاكم ، ملك ، إمبراطور . وقد اتخذت معنى اصطلاحيا للدلالة على أباطرة الرومان .

(٢) فى كتابه : « عظمة روما وانحلالها » الكتاب الأول — الفصل الحادى عشر .

الحلم بإنشاء « روما بركليسية » وكأنى بفريرو يهيم حين يقول ذلك فى غيبوبة من الأحلام الرائعة يرخى فيها لخياله العنان وهذا لعمرى مبعث سعادة كتاب التاريخ وزلاهم على السواء .

ولقد سبق أن وجهنا النظر إلى ما ينهض ، بين الأحوال الرومانية والعصرية من فروق عميقة بسبب انعدام الصحافة ، وعدم وجود أى تعليم شعبى وغيبة الفكرة النيابية فى مجلس الأحرار . ولا يبرح عالمنا اليوم بمنآة عن حل مشكلة التمثيل النيابى وعن ابتكار جمعية عمومية تلخص وتمثل وتعبر عن فكرة المجتمع وإرادته تعبيرا صادقا . فإن انتخاباتنا ما تبرح فى جل شأنها سخرية بارعة بالناخب العادى ، الذى يجد نفسه عاجزا مغلول اليدين حيال التنظيمات الحزبية التى تحيل حريته فى اختيار ممثليه إلى عملية يضطر فيها إلى الاختيار بين فرسى الرهان بانتخاب أقل المأجورين السياسيين المرشحين أمامه سماجة وأهونهم ضررا . ومع ذلك فإن صوته يعتبر بالمقايسة إلى صوت أى مماثل رومانى عادى ، أداة فعالة ذات أثر ، ومن عجب أن الكثرة الغفيرة من كتب التاريخ التى تعالج هذا العصر من التاريخ الرومانى تتحدث عن « حزب الأحرار » وعن أصوات الشعب وما إلى ذلك من عبارات ، كأنما كانت تلك الأشياء عند ذلك حقائق واقعة كما هى اليوم . على أن أعضاء السناتو وسياسيى روما عملوا على ألا يكون لمثل هذه الأوضاع من وجود البتة تصبح معه حقائق خالصة صحيحة التكوين . فهذه العبارات العصرية تقتادنا إلى أبلغ الضلال ما لم نحددها بغاية العناية .

ولقد وصفنا لك من قبل اجتماعات مجلس الأحرار ، بيد أن ذلك المجلس العديم الحنكة الذى كانوا يزجون به فى حظائر الأغنام لا يصور لنا مبلغ ما كان يجرى فى روما من العبث بتقسيم البلاد من حيث التمثيل الشعبى تقسيما يكفل الأغلبية لأحد الأحزاب ، فكلما منحت طائفة جديدة حقوق المادنة فى إيطاليا ، لجأ بعض القوم إلى محكم الألاعيب ، وبادر البعض الآخر إلى ألاعيب أخرى متقنة مضادة لتلك ، هذه ترمى إلى تدوين المصوتين الجدد فى أقل أو أكثر عدد ممكن من القبائل الثلاثين القديمة ، وتلك تنزع إلى إدراجهم فى أقل ما يمكن من القبائل الجديدة . وإذ أن الأصوات كانت تؤخذ بعدد القبائل ، فمن الجلى أنه مهما بلغ عدد أفراد الأصوات الجديدة التى تضاف لم يمكن أن يعد صوتهم إلا صوتا قبيليا واحدا إذ كان يجمع كله فى قبيلة واحدة . وكذلك يكون الحال لو أنها حشدت فى قبائل قليلة سواء منها الجديد أو القديم .

ولو أنها وضعت من الناحية الأخرى فى عدد عظيم جداً من القبائل ، فربما كان تأثيرها

فى أية قبيلة خاصة تأثيراً غير جسيم ، وإنك لتلمس فى هذا عملا ذا طراز خلاب يجتذب إلى غمرته كل نذل من أنذال السياسة . وكان من المستطاع فى بعض الأحيان أن تُستصدر من المجلس القبلى (Comitia Tributa) قرارات مناقضة للشعور العام تماماً . وكانت الكثرة العظيمة من الناخبين فى إيطاليا محرومة من حقوقها الانتخابية ، بسبب بعد الشقة كما سبق أن بينا . وقد حدث قرابة منتصف مدة الحروب القرطاجية (البونية) أن ارتفع عدد الناخبين حتى تجاوز ٣٠٠٫٠٠٠ مماذن . وفى حوالى سنة ١٠٠ ق . م ، كان هناك أكثر من ٩٠٠٫٠٠٠ منهم ولكن كان تصويت مجلس الأحرار فى واقع الأمر ، قاصراً على بضع عشرات قليلة من الألوف تقيم فى روما وبالقرب منها . ومعظمهم رجال من طراز وضيع . وكان الناخبون الرومان منظمين تنظيما محكما يجعل مااشتهرت به الإدارة الانتخابية المركزية للحزب الديمقراطى فى نيويورك من فساد الأداة الإنتخابية ، يبدو ساذجا شريفا بالقياس إليهم ، فإنهم كانوا ينتسبون إلى أندية (Collegia Svdalicia) تستتر فى العادة وراء بعض مدعيات دينية شائقة . وكان السياسى الناشىء ، وهو يشق طريقه نحو المناصب ، يذهب باديء بدء إلى المرابين ، ثم ينقلب بالمال المقترض إلى هذه النوادى . فإذا أثارت مسألة من المسائل اهتمام الناخبين فى غير روما إلى حد أن يهرعوا إلى المدينة حاشدين ، كان فى الإمكان دائما تأجيل التصويت بإعلان عدم مواءمة النذر ، فإن حضروا إلى المدينة غير مسلحين ، كان من المستطاع إرهابهم . أما إذا أحضروا معهم أسلحتهم ، علت الصيحة بأن هناك مؤامرة لقلب الجمهورية ، وعند ذلك تعد العدة لإعمال الذبح فيهم .

وليس هناك من مرية أن كل إيطاليا ، وكل الإمبراطورية ، كانت جياشة بالسخط ، والقلق والتذمر طيلة القرن الذى عقب تدمير قرطاجنة . وكان عدد قليل من الرجال قد أخذ يقتنى غنى فاحشا . ووجدت غالبية الناس نفسها غارقة فى أحابيل عجيبة من الأسعار غير الثابتة والأسواق المتقلبة والديون الباهظة . ومع هذا لم تكن هناك قط أية وسيلة للترجمة عن التذمر العام وتخفيف وطأته . ولم يسجل لنا التاريخ محاولة واحدة لجعل مجلس الأحرار أداة عامة قوية ذات أثر فعال . ومن دون المظاهر السطحية للشئون العامة ، كان الرأى العام والرغبة العامة — ذانكم الجباران الصامتان — يكافحان جاهدين ، فكانا فى بعض الأحيان يبذلان مجهوداً سياسيا عظيما ، واندفاعا إلى التصويت وما إلى ذلك ، أو يخوضان غمار دور من أدوار العنف الفعلى . وطالما لم يبد من الناس شىء من مظاهر العنف الفعلى كان رجال السناتو وأصحاب رءوس الأموال يواصلون سياستهم الضارة المدمرة . ولم يكن هناك إلا الإخافة الشديدة سبيلا

يمنع به الشعب تلك المناسر الحاكمة أو الأحزاب من انتهاج سياساتها الشنعاء ويرغمها أن تذعن للمصلحة العامة .

ولم يكن المجلس القبلي هو السبيل الحق الذي يعبر به الشعب في إيطاليا آنذاك عن رغباته تعبيراً صادقا ، بل كانت الوسيلة إلى ذلك هي الإضرابات والعصيان وهي أصلح الطرق وألزمها لكل الشعوب التي تمنى بالغبن والظلم . ولقد رأينا في زماننا هذا في كثير من دول أوربا ما اعترى الحكومة البرلمانية من نقص في هيبتها ، ومن لجوء الجماهير إلى الطرق غير الدستورية لنفس هذا السبب عينه : أعني بسبب ميل بعض السياسيين إلى التلاعب بالأداة الانتخابية وحرمان طائفة معينة من الناس من حق الانتخاب ، حتى يدفع المجتمع إلى الانفجار دفعا .

والسكان المتذمرون يحتاجون في عصيانهم إلى زعيم يتزعمهم ، وتاريخ روما السياسي في القرن الختامي للنظام الجمهوري الروماني ، إنما يدور حول زعماء ثورات ، وآخرين يناهضون الثورة . وواضح أن معظم الأولين مغامرون لاشرف ولا ضمير لهم ممن يحاولون الإفادة من الضرورات الملحة والتعاسة الفاشية بين الناس في رفع شأنهم . والكثيرون من مؤرخي تلك الحقبة يظهرون ميلا إلى التحزب ، وهم إما أرستقراطيون في نغماتهم أو ديموقراطيون متطرفون . والواقع أنه ليس لأحد من الطرفين المشتبكين في هذه المنازعات الدقيقة المعقدة التركيب ، تاريخ يشهد له بسمو الغرض ونقاء اليدين . فإن مجلس السناتو الفرسان الأغنياء كانوا ذوي نفوس خسيسة شرهة معادية للجمهور المسكين محتقرة له . وكان العامة جهلة لايستقر لهم حال ، كما كانوا على أقل تقدير يعادلون الأولين في الشره . ويتلألأ اسم أسرة سيبيون بالمقارنة إلى غيرها في كل هذا السجل ، بوصفها مجموعة من السادة الشرفاء . وربما جاز لنا أن نحسن الظن قليلا بهذا الشخص أو ذاك من رجال ذلك العصر ونظن بدوافعه خيرا شأننا مع تيبريوس جراكوس مثلا ، أما الباقون فهم قوم لا يتبدى لنا منهم إلا ما هم عليه من الدهاء والمكر والمدى البالغ الذي بلغوه من الخبث في المنازعات والذكاء في الادعاء والغرور ومبلغ ما كان يعوزهم من الحكمة ورشاقة الروح ، ولست أجد عليهم في هذا المقام تعليقا أبلغ من قول بعضهم وأظنه السير هاري جونستون (Harry Johnston) حين وصف الإنسان النياندرتالي بقوله : « فهو مخلوق جاهل مشعر وحشي وإن كان فيما يرجح شديد المكر ووراءه مخ كبير » .

ولا يسعنا إلا أن نستعمل إلى يومنا هذا ألفاظا مشابهة لهذه في وصف روح رجل

السياسة (Poolitician) وما أحوج رجل الدولة (Statesman) أن يطرد السياسى من وجاراته وأكوام أسلحته .

وما أحوج التاريخ إلى أن يصبح سجلا للكرامة الإنسانية ! ! !

٢ — المالية فى الدولة الرومانية

وهناك منحى آخر كان فيه النظام الرومانى صورة بدائية وتسلفا فجيجا لنظامنا ، ومختلفا عن كل ما تأملناه من النظم السياسية السابقة ذلك أنه كان نظاما للائتمان والدفع نقداً (Cash and Credit System) ولم تكن العملة قد عرفت فى العالم إلا قبل ذلك بقرون قليلة ليس غير — بيد أن استعمالها كان آخذا فى النمو . لأنها كانت تزود الناس بأداة سيالة سهلة تعينهم على ما يقومون به من أسباب التجارة والمشروعات ، وباتت تحدث فى الأحوال الاقتصادية تغييرا عميقا . وشرع رجل المال وفائدة رأس المال يلعبان فى روما الجمهورية ، دورا بارزا يشبه الأدوار التى يلعبانها فى الوقت الحاضر .

ولقد أسلفنا عليك فيما كتبناه عن هيرودوت — أن من أوائل آثار النقود أن أتاحت من حرية الحركة والفراغ ، ما مكن عددا من الناس لم يكونوا ليستطيعوا من دونها أن يستمتعوا بتلك الميزات . وتلك هى القيمة الخاصة للنقود لدى الجنس البشرى . فبدلا من أن يدفع أجر العامل أو المساعد عينا وبطريقة تغل استمتاعه قدر ما تقيده فى عمله ، تتركه النقود حرا فى أن يفعل ما يشاء ، وتدع أمامه مجال الاختيار واسعا يشترى فيه ما شاء من أشياء تعاونه ومن راحة يستجم بها ومن لذات يستمتع بها . وهو قد يستهلك نقوده فى مطعمه ومشربه أو يعطيها لمعبد من المعابد ، أو ينفقها فى تعلم شىء أو يدخرها لمناسبة متوقعة . ففضل النقود وخيرها هو حريتها فى قابليتها للتحويل فى أرجاء العالم ، بيد أن الحرية التى تمنحها النقود للرجل الفقير لا تعد شيئا بالموازنة إلى الحرية التى تمنحها الثرى . فإن الأثرياء قد كفوا بفضل النقود عن أن يكونوا مرتبطين بالأرض والمنازل والمخازن والقطعان والرعائل . فكانوا يستطيعون أن يغيروا طبيعة ممتلكاتهم وموضعها بحرية لم يسمع الناس بمثلها من قبل . وفى القرنين الثالث والثانى ق . م . كان ما ترى من إطلاق سراح الثروة وفكاكها من الأغلال قد أخذا يؤثران فى الحياة الاقتصادية العامة للعالم الرومانى والمهلن (المصطبغ بصبغة هلينية) ، فشرع الناس يشترون الأرض وما إليها لا ابتغاء النفع الذى يفيدون منها ، بل لبيعها ثانية بشىء من الربح وكان الناس يقترضون ليشتروا ، وتطورت المضاربات . وكان هناك لا محالة

رجال مصارف فى بابل عام ١٠٠٠ ق . م ، بيد أنهم كانوا يسلفون فى نطاق يتسم بالضيق والجمود إلى أبعد حد ، قضبانا من المعدن ومخزونات من السلع . فقد كان ذلك العالم الأول ، عالم مقايضة يجرى فيه الدفع عينا ، وكان لهذا السبب يسير سيرا وئيدا متثاقلا . وعلى تلك الحالة أقامت مملكة الصين الهائلة حتى الزمن الحاضر تقريبا .

وكانت المدن الكبيرة قبل روما ، مدنا تجارية صناعية . وعلى هذه الشاكلة كانت كورنثة وقرطاجنة وسيراقوزة . بيد أن روما لم تنتج قط سكانا صناعيين وفيرى العدد ولم تنافس مخازنها قط مخازن الإسكندرية . وكانت ميناء أوستيا على صغرها تفى على الدوام بكل مطالبها . وإنما كانت روما عاصمة سياسية مالية . وكانت من هذه الناحية الأخيرة على الأقل ، نوعا جديدا من المدن . إذ كانت تستورد الأرباح والجزيات ، ولا يخرج منها مقابل ذلك إلا أقل القليل . وكانت أرصفة ميناء أوستيا مشغولة بنوع خاص ، بتفريغ قمح صقلية وإفريقيا وإساغة سلب العالم أجمع .

وقد جُنّ جنون الخيال الرومانى بعد سقوط قرطاجنة ، بما سنح له من الفرص المالية التى لم يكن يعرف الناس لها حتى ذلك الحين نظيرا ، إذ أن الصدفة أظهرت الجنس البشرى على النقود كما أظهرته على معظم مخترعاته الأخرى . وكان ما زال على الرجال أن ينهضوا بعلم النقد وأصوله الأخلاقية . بل ما زال عليهم اليوم أن يتقنوا ذلك جميعا . وإن المرء ليرى تلك الأداة الصغيرة (النقود) تطيف بحياة كاتو الرقيب المدونة ويلمح طيفها فى كتاباته . ذلك أنه كان فى مستهل حياته شديد الورع مرير العداوة للربا ، غير أنه قضى ما تلى ذلك من أيام حياته فى استنباط أبرع خطط الربا وأسلمها عاقبة .

وإنك لترى الناس على مر هذا القرن الممتع العجيب من عصور التاريخ الرومانى يسائل بعضهم بعضاً « ماذا جرى لروما ؟ » فيجابون على ذلك بأجوبة متنوعة : انحطاط فى الدين ، وتدهور عن مستوى فضائل السلف الأول من الرومان ، ثم تلك «السموم العقلية» الإغريقية وما إلى ذلك ! ! . ونحن الذين نستطيع أن ننظر إلى المسألة وأمامنا — بتراخى الدهور — أفق رحيب يمكننا أن نحكم أن ما حاق بروما من النوازل إنما جلبه عليها « المال المتدفق » وما أتاحته تلك الأموال من حريات جديدة وصدف وفرص سانحة . وقد أثرت النقود فى الرومانيين فجعلتهم يهيمون على متنها ، ومادت الأرض الثابتة من تحت أقدامهم ، فإن كل إنسان فى الدولة أخذ يقبض على النقود بكلتا يديه ، وإن احتازها معظمهم بالوسيلة البسيطة وسيلة الاستدانة . وهذا امتداد الإمبراطورية شرقا كان فى معظمه تصيداً للكنوز التى تحتويها الحجرات الحصينة والمعابد ، وذلك ابتغاء مسايرتهم الناس إلى تلك الطلبة الجديدة .

وأصبحت طبقة الفوارس على الأخص هم أرباب المال ، وكان كل فرد يزيد فى ممتلكاته ، وكان الفلاحون يهجرون القمح والماشية ، إذ يقترضون الأموال ، ويشترون العبيد ، ويفرطون فى زراعة الزيتون والكروم .

وكانت النقود حدثاً صغير السن فى الخبرة الإنسانية وكانت ضارية متوحشة . فلم يكن أحد قد استطاع بعدُ أن يكبح جماحها ، فهى تتأرجح تأرجحا عظيما ، وكانت آونة وفيرة وآونة نادرة ، وكان الناس يدبرون الخطط الماكرة الفجة لاصطيادها وتضييق الخناق عليها بقصد اكتنازها وكانوا يعمدون إلى رفع الأسعار بإطلاق المعادن المكتنزة ، وأخذت طائفة صغيرة من أشد الناس دهاءاً تثرى ثراءاً فاحشا . وكان الكثيرون من النبلاء والبطارقة قد أخذ الفقر يعضهم وأخذ الغيظ بمجامع نفوسهم فلم يعودوا يستمسكون بمبدأ أو يتورعون عن نقيصة ، ومن بين أفراد الطبقة الوسطى كثيرون تمتلىء قلوبهم بحرارة الأمل وآخرون توفروا على الخطار والمغامرة وآخرون قد شاعت خيبة الآمال فى نفوسهم . فأما من نزعت منهم ملكيتهم وهم جمهرة نامية متزايدة فقد تدسس إليهم ذلك الشعور المبهم المربك الذي يفقد المرء معه كل أمل ويصبح مغلوباً على أمره ويحس الكوارث تدهمه بغير ما علة ظاهرة وهى الحالة التى تمهد السبيل لكل الحركات الثورية العظيمة .

٣ — آخر سنوات السياسة الجمهورية

كان أول زعيم بارز التجأ إلى الشعور الثورى المتجمع فى إيطاليا هو تيبريوس جراكوس (Tiberius Gracchus) — وهو يبدو أدنى رجال ذلك العصر إلى النزاهة ، لا نستثنى منهم أحداً اللهم إلا سيبيون الإفريقى الأسن . كان تيبريوس جراكوس فى مبدأ الأمر مصلحاً معتدلا من طراز يكاد يكون رجعيا . وكان شديد الرغبة فى أن يعيد إلى طبقة صغار المزارعين ملكيتهم ، لاعتقاده الراسخ بأن تلك الطبقة هى العمود الفقرى للجيش . وقد وقرت فى نفسه خبرته العسكرية فى أسبانيا قبل تدمير قرطاجنة وبعده ، ما أصاب الكتائب الرومانية من انحطاط فى كفايتها . فكان تيبريوس بذلك من قد نسميه فى هذه الأيام « رجلا يدعو إلى العودة إلى الريف » ولم يكن يدرك ، مثله فى ذلك مثل الكثيرين من الناس فى أيامنا هذه ، كيف أنه أيسر على الإنسان أن ينقل السكان من الأرض إلى حضر المدينة من أن يعيدهم إلى أشغال الحياة الزراعية المضنية الرتيبة . فأراد أن يبعث القوانين الليسينية ، التى سنت عندما بنى كاميلوس معبده المسمى معبد الوفاق منذ نحو قرنين ونصف من الزمان (راجع الفصل الخامس

والعشرين القسم ٢) مع قصر تلك الإعادة على ما يتعلق بتجزئة المزارع العظيمة والحد من استخدام العبدان فى العمل .

ولطالما بعثت هاته القوانين الليسينية مراراً وتكراراً ، ثم أهملت مراراً وتكراراً وعفى عليها النسيان . ولم يحدث إلا عندما اعترض كبار ملاك الأراضى فى مجلس السناتو على ذلك المقترح — أن تحول تيبريوس جراكوس إلى الشعب وشرع يسلك مسلكا عنيفاً مطالبا بحكومة شعبية ، فأنشأ لجنة للبحث فى حق الملاك كافة فى ملكية الأراضى . وبينما تيبريوس فى أوج نشاطه حدثت حادثة من أعجب حوادث التاريخ وأكثرها خروجا عن المألوف . ذلك أن أتالوس ملك برجاموم ذلك القطر الغنى فى آسيا الصغرى مات (١٣٣ ق . م) موصيا بمملكته للشعب الرومانى .

ومن العسير علينا أن نفهم السر فى تلك المنحة . فإن برجاموم كانت قطراً متحالفا مع روما ، وبذلك أصبحت فى مأمن من الاعتداء نوعا ما . وكانت النتيجة الطبيعية لمثل هاته الوصية هى إثارتها مناسر مجلس السناتو إلى عنيف التخاطف والتدافع وإيقاظها كامن النزاع بينهم وبين الشعب على مغانم تلك الأرض الجديدة . والواقع أن أتالوس نزل عن مملكته لتنهبها أيدى الناهبين . وكان بتلك البلاد — لا جرم — كثير من رجال الأعمال الإيطاليين الذين استوطنوها واستقروا بها ، وحزب قوى من الأهالى الأصليين ذوى اليسار ممن لهم علاقة وثيقة بروما . وكان الانضمام إلى النظام الرومانى أمراً مقبولا لديهم ولا مراء . ويشهد يوسيفوس[1] بوجود مثل هاته الرغبة فى الالتحاق بروما والانضمام إليها لدى أغنياء سوريا ، وهى رغبة كانت على غير هوى من كل من الملك والشعب فيها . وهذه الوصية التى تهب مملكة برجاموم لروما ، مدهشة فى حد ذاتها وكانت لها إلى ذلك نتيجة أدهش منها كثيراً وهى أنها أصبحت قدوة تحتذيها أقطار أخرى . ففى (٩٦ق.م) وهب بطلميوس أبيون (Ptolemy Apion) بلاد برقة فى شمال أفريقيا للشعب الرومانى . وفى (٨١ ق . م) أتبع الإسكندر الثانى ملك مصر نفس الطريقة فأوصى بمصر وهى تراث أكبر من أن تتحمله شجاعة أعضاء مجلس السناتو إن لم يكن أكبر من أن تستسيغه أفواههم فرفضوا قبول هذه الهبة . وفى (٧٤ ق . م) أوصى نيقوميدس ملك بيثينيا ببلاده بعد وفاته لروما . ولن نزيدك فى هذا المقام حديثا عن هذه الوصايا الشاذة .

---

(١) يوسيفوس Josephus مورخ يهودى عاصر الإمبراطور فسبازيان ولد فى أورشليم ٣٧ ميلادية وتوفى فى ١٠٠ م . وأهم مؤلفاته كتاب « تاريخ اليهود القديم » فى عشرين جزءا وهو يسرد تاريخهم منذ بدء الخليقة حتى عام ٦٦ م .

ومن هنا يتضح عظم الفرصة التى أتاحتها هبة أتالوس لتيبريوس جراكوس الذى شرع من فوره يتهم الأثرياء بالشره ، وألح فى طلب إصدار المراسيم باعطاء كنوز أتالوس للشعب . على أن تستخدم هذه الثروة الجديدة فى إمداد الناس بالبذور والماشية والأدوات الزراعية حتى يعودوا إلى المقام بالريف والاستقرار فى أراضيه .

وسرعان ما اشتبكت حركته فى أحابيل النظام الانتخابى الرومانى المعقدة . وذلك أن كل الحركات الشعبية إن لم يكن لها واق من نظام انتخابى بسيط قويم — تصاب فى كل العصور بالاضطراب والاختلال كضرورة لازمة ويمسها مما يخالطها من المعقدات الدستورية مس من الجنون ثم توشك الضرورة أن تؤدى بها إلى سفك الدماء . وكان من اللازم لتيبريوس جراكوس — إن شاء لعمله دواما — أن يظل فى وظيفة التريبيون ، ولم يكن القانون يبيح له أن يصبح تريبيونا مرتين متعاقبتين ، ولذا تجاوز حدوده القانونية ، وأخذ يطالب بأن يعين للمرة الثانية فى وظيفة التريبيون . وحضر الفلاحون الذين جاءوا من الريف ليعطوه أصواتهم مسلحين . فأثيرت فى مجلس السناتو الصيحة القائلة بأنه يرمى إلى جعل نفسه طاغية ، وهى الصيحة التى قضت منذ زمن طويل على ميلنوس ومانليوس ، فذهب أنصار القانون والنظام إلى الكابيتول بهيئة رسمية يصحبهم رعانف من الأتباع مسلحين بالعصى والهراوات وحدث بين الطرفين نزاع ، أو قل مذبحة فى الثوار ، قتل فيها ما يقرب من ثلاثمئة شخص ، وضرب تيبريوس جراكوس حتى قضى ، ضربه إثنان من أعضاء مجلس السناتو بحطام مقعد مكسور .

وعند ذلك حاول أعضاء السناتو أن يقوموا بحركة مضادة وأهدروا دماء كثيرين من أتباع تيبريوس جراكوس وصادروا أملاكهم . بيد أن الرأى العام كان غاضبا متوعداً بحيث أهملت هذه الحركة ، واضطر سيبيون ناسيكا الذى كان له ضلع فى مقتل تيبريوس أن يرحل إلى الخارج اتقاء للشر وإن كان يشغل وظيفة الكاهن الأعظم (pontifex Maximus) . وكان لزاما عليه أن يبقى فى روما من أجل تقديم القرابين العامة ، وهى التى كانت قوام واجبات منصبه .

وبعد ذلك بقليل ثارت نفس سيبيون الأفريقى الأصغر لما كان يشهده فى إيطاليا من دلائل القلق فاقترح منح كل إيطالى الحرية المدنية ، غير أنه مات موت الفجاءة قبل أن يخرج اقتراحه إلى حيز التنفيذ .

وجاء فى أعقابه كايوس جراكوس (Caius Gracchus) وسيرته معقده وهو أخو تيبريوس ، فاتبع سياسة ملتوية ، لاتزال تجهد عقول المؤرخين . فإنه زاد فى أثقال الضرائب

الملقاة على عاتق الولايات ويظن أنه كان يرمى بذلك إلى إثارة المـاليين الحديثين أعنى الفرسان (Equites) على أصحاب الأراضى من أعضاء السناتو . فأعطى الأولين التزام جباية الضرائب فى ولاية آسيا الموهوبة للدولة حديثاً ، وأدهى من ذلك وأمر أنه أعطاهم حق الرقابة على المحاكم الخاصة المعينة لمنع الابتزاز . ثم شرع يقوم بأعمال عامة هائلة وبخاصة بناء الطرق الجديدة ، واتهم بأنه كان يتخذ من العقود وسيلة لخدمة مآربه السياسية . ثم بعث من جديد الاقتراح الخاص بمنح إيطاليا الحقوق المدنيـة . وزاد فى مقدار القمح الرخيص الموزع إعانة للميادنين الرومان ... ولسنا بمحاولين أن نفسر خططه ونحلل سياسته ، ولا نحن بقاضين فيه برأى . ولـكن لايخالجنا أدنى شك أن سياسته قد أساءت إلى الجماعات التى كانت تدير مجلس السناتو . فذبحه أنصار « القانون والنظام » ومعه قرابة ثلاثة آلاف من أتباعه ، فى شوارع روما (١٢١ ق م) وحملت رأسه المقطوعة إلى السناتو على رأس حربة .

ويقول بلوتارك إن القاتل منح جائزة تعادل وزن الرأس ذهباً لما أحرزه من نصر وأن هذا السفاك قد تصرف أليق التصرفات وأجدرها بنصراء الشرف والنزاهة وجلائل الأعمال فملأ الجمجمة بالرصاص وهى فى طريقها إلى الميزان !!...

وعلى الرغم من هـذه التدبيرات السريعة الحازمة لم تكتب الأقدار للسناتو أن يستمتع بمنافع السلام وبمزايا الإشراف على موارد الإمبراطورية زمانا طويلا ، فإن القوم ثاروا ثانية فى مدى عشر سنوات .

ففى (١١٨ق . م) تملك عرش نوميديا وهى المملـكة شبه الهمجية التى نشأت فى إفريقيا الشمالية على أنقاض الدولة القرطاجية المدنة ، ملك قدير اسمه يوجورثا (Jugurtha) . وقد سلفت له الخدمة العسكرية مع الجيوش الرومانية فى أسبانيا ، فكان أعرف الناس بالخلق الرومانى وقد أثارت بعض تصرفاته تدخل روما العسكرى ، على حين أن الرومان وجدوا أن قوتهم العسكرية فى ظل سناتو مكون من المـاليين وملاك الأراضى ، مختلفة جد الاختلاف عما كانت عليه حتى فى أيام سيبيون الإفريقى الأصغر « واشترى يوجورثا ذمم المندوبين المرسلين لمراقبته وأعضاء السناتو الذين عهد إليهم محاكمتهم والقواد أصحاب الأمرة على الجيوش المسيرة عليه »[1] وهناك مثل رومانى هـذا نصه « pecunia non olet أي إن المال لا يأسن ولا تفوح له رائحة » ، ولـكنه مثل خاطىء ذلك أن نقود يوجورثا أسنت وفاحت رائحتها

(١) فريرو Ferrero .

حتى فى روما . فثار ثائر القوم ، وفى أثناء موجة الغضب العام ارتفع إلى منصب القنصلية جندى مقتدر وضيع الأصل اسمه ماريوس (١٠٧ ق . م) . ولم يحاول ماريوس أن ينسج على منوال آل جراكوس بأن يعيد للريف طبقة صغار الملاك الذين هم عماد الجيش . كان جنديا محترفا على درجة عالية من الكفاية ميالا إلى سلوك أقصر السبل فاكتفى بأن جمع الجنود من بين طبقات الفقراء ، سواء أكانوا من أهل الريف أم من الحضر وأجزل لهم العطاء ، ونظمهم تنظيما كاملا . ثم أنهى فى (١٠٦ ق . م) حرب السبع السنوات مع يوجورثا باحضاره ذلك الزعيم إلى روما مكبلا بالسلاسل والأغلال . ولم يخطر ببال إنسان أن ماريوس قد قام أيضاً بمحض الصدفة بإنشاء جيش محترف ليس له من مصلحة تجمع شتاته إلا أعطياته . ثم أقام فى وظيفة القنصلية سنوات عدة لا يبالى أكان بقاؤه فيها قانونياً أم غير قانونى ، وفى (١٠٢ ، ١٠١ ق . م) صد حركة هجوم خطرة قام بها (الجرمان) الألمان (الذين يظهرون بذلك فى تاريخنا لأول مرة) ، والذين كانوا يغيرون مارين ببلاد الغال متجهين إلى إيطاليا . فأحرز نصرين أحدهما على الأرض الإيطالية . فهلل له الناس وأكبروا فيه انقاذه وطنه ، وشبهوه بكاميلوس (١٠٠ ق . م) .

ولطالما سخرت الفوارق الاجتماعية وما صاحبها من توتر فى ذلك الزمان من مقارنته بكاميلوس ، وقد اجتنى السناتو أكبر الفوائد من النشاط الكبير فى الشئون الخارجية ومن الكفاية العسكرية المتزايدة التى وضع ماريوس أسسها ، بيد أن التذمر القبيح المرير الذى يملأ نفس الجمهور كان ما يزال يبحث عن منفذ فعال ينفس عنه ما به . وازداد الأغنياء غنى والفقراء فقرا . وكان استعمال الأحابيل السياسية فى القضاء على نتائج هذه الحال قضاء أبديا مبرما ، أمراً محالا ، فإن الشعب الإيطالى كان ما يزال محروما من حقوقه المدنية . وقد اغتيل اثنان من الزعماء الديموقراطيين المتطرفين ، هما ساترنينوس saturninus وجلوكيا Glaucia . بيد أن هذا العلاج المألوف الذى اعتاده مجلس السناتو باء بالفشل فى تهدئة الشعب فى هذا الظرف . وفى (٩٢ ق . م) حاول موظف أرستقراطى هو روتيليوس روفوس أن يضع حدا لابتزازات الماليين فى آسيا الصغرى فاتهم بقبول الرشى وكان ذلك اتهاماً مفتعلا لم ينخدع له أحد ثم قضى بإدانته . وفى (٩١ ق . م) اغتيل ليفيوس دروسوس Liviuis Drusus وهو تريبيون للشعب حديث الانتخاب ، كان يحاول أن يستغل محاكمة روتيليوس روفوس . وكان قد اقترح منح الحقوق المدنية للإيطاليين عامة . وليس ظهوره نذيرا بحسب بسن قانون آخر للأراضى بل ومؤذنا بالغاء عام للديون .

ومع ذلك فعلى الرغم من هذه الشدة التى كان يبديها رجال السناتو المرابون الذين كانوا يتصيدون الأراضى ويحتكرون الأسواق لم ين الجياع والقلقون عن ملاحقتهم بالتمرد والعصيان . وكان مقتل دروسوس آخر قطرة فى كأس العامة ، فإن إيطاليا اضطرمت بنار عصيان مستيئس .

وتلى ذلك سنتان من حرب مدنية مريرة ، هى الحرب الأهلية وهى صراع بين فكرتين إحداها تنادى بإيطاليا الموحدة والأخرى تقول بحكم السناتو الرومانى ، ولم تكن حرباً اجتماعية بالمعنى المصرى ، وإنما هى حرب بين روما وأحلافها Socii [١] من الإيطاليين ، « وطفق القواد الرومان المدربون على تقاليد الحروب الاستعمارية يذرعون إيطاليا طولا وعرضا ، يحرقون المزارع وينهبون المدن ، ويحملون الرجال والنساء ، والأطفال لكى يبيعوهم فى السوق علنا أو يسخروهم فى العمل جماعات فى مزارعهم الكبيرة من غير أن تداخلهم بالناس الرحمة [٢] » .

وكان ماريوس ومعه قائد أرستقراطى هو سُلا Sulla وقد كان يعمل معه فى إفريقيا كما كان خصما لدوداً له ، يقودان جيوش روما . ومع أن الثوار كابدوا كثيراً من عناء ما لاقوا من هزائم وما فقدوا من سلب ، فإن واحدا من هذين القائدين لم ينه الحرب . فانتهت على شكل ما (٨٩ ق . م) بأن سلم السناتو عملياً بفكرة الإصلاح ، وبذلك سلبت الثورة روحها بقبول مطالب الثوار من ناحية المبدأ . فما أن تفرق الثوار حتى عاد زعماء السناتو إلى ما ألفوه من تلاعب بالناخبين الجدد قائم على نفس الأساليب التى شرحناها فى القسم الأول من هذا الفصل .

وما وافت السنة التالية (٨٨ ق . م) حتى كانت الجولة القديمة قد ابتدأت من جديد . وكان يشوبها ويخالطها مؤامرات شخصية يأتمر فيها كل من ماريوس وسُلا بصاحبه . ولكن الكفاح اتخذ لونا جديدا ، بسبب اصلاحات ماريوس فى الجيش ، التى أنشأت طرازا جديدا من الكتائب ، المكونة من جند محترفين لا أرض لهم ولا مصلحة فى الحياة غير الأعطيات والسلب ، ولا شعور عندهم بالولاء اللهم إلا نحو قائد موفق . وثمة تريبيون محبوب اسمه سالبكيوس Sulpicius أخذ يسن بعض قوانين جديدة تتصل بالديون بينما روع القناصل من العاصفة بإعلان إيقاف الأعمال العامة . ثم جاء الدور المعتاد من اللجوء إلى

---

(١) Socii كلمة لاتينية ، مفردها Socius وهو الحليف .

(٢) فيريرو Ferrero .

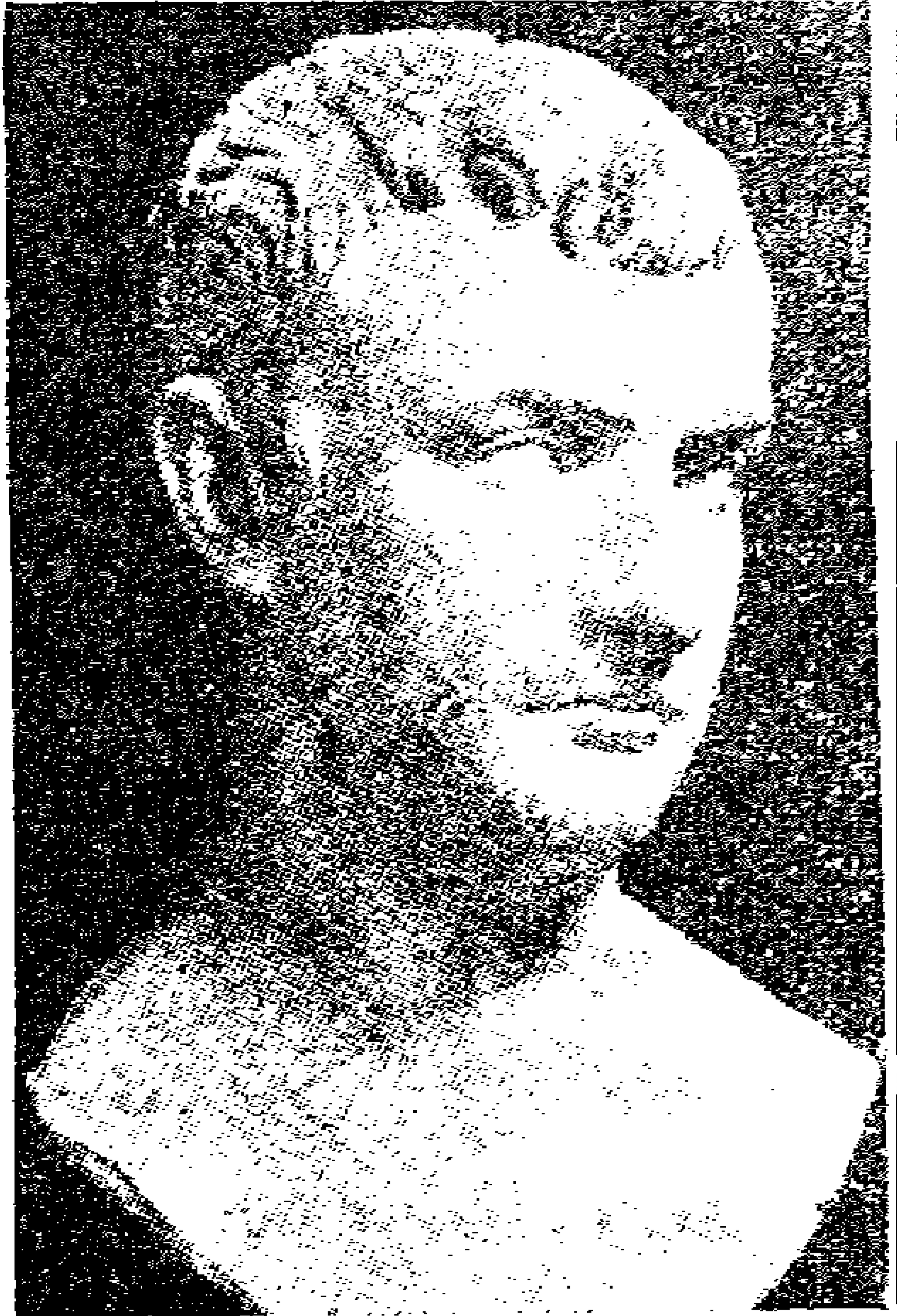
العنف فطرد أتباع سالبكيوس القنصلين من سوق المدينة (الفوروم) وعند ذلك ظهرت القوى الجديدة التي قوامها الجيش الجديد . فإن متريداتيس Mithridetes ملك بونطوش المطبوعة بالطابع الهليني والواقعة على شواطىء البحر الأسود الجنوبية والمتاخمة من الناحية الشرقية بيثينيا أخذ يتحرش بروما ويستدرجها إلى الحرب . وكان من بين مشروعات القوانين التي اقترحها سلبيكيوس قانون يقضي بأن يقود ماريوس الجيوش التي أرسلت ضد ذلك الملك ، وعند ذلك زحف « سلا » على روما بالجيش الذي كان تحت إمرته طوال الحرب الأهلية ، ففر ماريوس وسلبيكيوس ، وابتدأ عصر جديد هو عصر الإعلانات والتصريحات العسكرية الثورية .

ولسنا بمستطيعين أن نبين لك في أي تفصيل كيف جعل سُلاَّ من نفسه قائدا للحملة على متريداتيس ثم رحل عن البلاد ، وكيف أن الكتائب الموالية لماريوس قبضت على زمام الحكم ، وكيف عاد ماريوس إلى إيطاليا وتشفى من خصومه السياسيين بمذبحة رهيبة ، ثم مات بالحمى بعد أن روى غلته انتقاما وثأرا ، غير أن هنالك تدبيرا واحدا أبرم في أثناء حكم الإرهاب الذي أقامه ماريوس وكان له فضل كبير في تخفيف التوتر الاجتماعي ، ذلك هو إلغاء ثلاثة أرباع الديون القائمة . ولسنا بمستطيعين أيضا أن نبين لك كيف أن سُلاَّ عقد صلحا مخزيا مع متريداتيس (الذي سبق له أن أعمل السيف في مئة ألف إيطالي بآسيا الصغرى) لكي يرجع بكتائبه إلى روما ، ويهزم أنصار ماريوس عند معركة بوابة كولين Colline Gate بروما ، وينقض كل ما أبرمه ماريوس من تنظيمات . واستعاد سلاَّ النظام والقانون بأن أهدر دماء أكثر من خمسة آلاف إنسان أعدمهم وصادر أملاكهم وخرب أجزاء كبيرة من إيطاليا فأصبحت قاعاً صفصفاً ، وأعاد إلى السناتو سلطانه ، ونقض كثيرا من القوانين الحديثة العهد ، وإن لم يستطع أن يرجع أعباء الديون الملغاة ، ثم داخله الملل من السياسة وإذ كان قد جمع ثروة طائلة ، فإنه اعتزل العمل يحوطه جو من الكرامة ، وما لبث أن استسلم للملذات الدنيئة ، وسرعان ما قضى نحبه ، وقد أكل جسده مرض وبيل مما يسببه الفسوق .

٤ — حقبة القواد المغامرين

لم يكن ما طرأ على الحياة السياسية في إيطاليا بعد ذلك من السكون هدوءاً قدر ما كان ذهولا مما استهدفت له على يد ماريوس و« سُلاً » من ذريع الذابح والمصادرات ، ولا يسمح لنا

النطاق الذى وضع على أساسه هذا التاريخ بأن نتكلم ها هنا عن كبار المغامرين الذين سرعان ما أخذوا يدبرون خططا ودسائس يرمون من ورائها إلى إقامة الديكتاتورية فى روما معتمدين اعتمادا متزايدا على نصرة الكتائب لهم ، ففى (٧٣ ق . م) ذعرت إيطاليا بأجمعها بثورة الأرقاء وبخاصة المجالدين منهم بقيادة مجالد تسالى اسمه سبارتاكوس . كان قد هرب ومعه سبعون آخرون من « ضيعة » للمجالدين فى كابوا Capua وحدثت فورات مشابهة لهذه فى صقلية . وأصبحت القوات التى تحت إمرة سبارتاكوس عصبة مخلطة مشكلة تجمعت حوله من كل حدب وصوب ، وليس بينها من رابط أو فكرة مشتركة ، اللهم إلا فكرة التفرق والعودة إلى الأوطان . ومع ذلك فإنه صمد فى جنوب إيطاليا مدة سنتين واضطر أن يتخذ من فوهة بركان فيزوف التى كانت خامدة آنذاك خمودا ظاهريا — قلعة طبيعية تحصن بها حينا من الدهر . وبالرغم من حب الإيطاليين لحفلات المجالدين ، فإنهم كرهوا تحويل كل البلاد إلى مجتلد عام ، وتوصيل سيف المجالدين إلى أبواب المنازل . فلما أن غلب سبارتاكوس وأصحابه على أمرهم آخر الأمر ، انقلب رعب الرومان منهم إلى قساوة جنونية ، فإن ستة آلاف من أتباعه الذين أسروا قد صلبوا — وامتدت الضحايا الذاوية المرفوعة على الأعواد مسافة أميال طويلة على طول الطريق الأبيانى .



١١١ — پمپى العظيم

ولسنا بقادرين هنا على أن نسهب الحديث فى لوكولوس Lucullus الذى اجتاح بونطوش ، وحارب متريداتيس ، وجلب شجرة الكريز لأول مرة إلى أوربا . ولا كيف استطاع پمپى العظيم Pompey أن يغتصب بمهارة وحذق معظم ما فاز به لوكولوس فى أرمينيا فيما وراء بونطوش من نصر وسلطان . وتقاعد لوكولوس كما فعل سلا فعاش عيش الثراء واليسار يحوطه جو أكثر وقارا من صاحبه حتى انتهى إلى نهاية أشرف وأكرم . ولسنا كذلك بمفصلين القول فى كيف أن يوليوس قيصر ، حاز فى الغرب الشهرة البالغة بغزوه بلاد الغال وهزيمته القبائل الألمانية على نهر الرين ، ثم بتوجيهه حملة تأديبية عبر مضيق دوڤر إلى بريطانيا . وتزايدت الكتائب أهمية . وتناقصت قيمة السناتو والمجالس فى روما ، على أن قصة

كراسوس يحيط بها من الفكاهة المرة جو لا نستطيع تلقاءه أن نغفلها .

كان كراسوس هذا مرابيا عظيما ومحتكراً كبيراً فكان نموذجا لطراز الفرسان بوضعهم الجديد . وهو يعادل من الناحية الاجتماعية رجال السوق السوداء المستغلين لأسعار المؤن والذخائر فى العصر الحديث . وقد أثرى فى أول أمره بأن اشترى أملاك أولئك الذين أهدر سلا دماءهم ، وصادر أملاكهم . وكانت أول جهوده الحربية فى الميدان حملته ضد سبارتاكوس ، فاستطاع آخر الأمر أن يقضى عليه بدفع المبالغ الطائلة وبذل المجهودات الشاقة بعد حملة طويلة الأمد باهظة النفقة . ثم استطاع بعد ذلك أن يتولى القيادة فى الشرق نتيجة لمساومات وصفقات معقدة ، ثم تهيأ لمحاكاة ما ناله لوكولوس من مجد وهو الذى تقدم من برجاموم وبيثينيا شرقا إلى بونطوش ، كما تأهب لمطاولة مجد پومپى الذى كان قد أتم — نهب أرمينية .

ويساعدنا ما حاق به من محن على تبيان الجهل المطبق الذى كان الرومان يسيّرون به أمورهم فى ذلك الزمان . فإنه عبر نهر الفرات متوقعا أن يجد فى بلاد فارس مملكة مهلنة تشبه بونطوش . ولكن حقيقة الأمر كما سبق أن أشرنا هى أن المستودعات الكبرى للشعوب المترحلة التى كانت تمتد من الدانوب عبر الروسيا إلى آسيا الوسطى ، أخذت تفيض ثانية فى الأراضى المحصورة بين بحر قزوين ونهر السند وهى المنطقة التى غزاها الإسكندر . وما لبث كراسوس أن وجد نفسه من جديد أمام « الإسكيذيين » وأمام قبائل متحركة من الفرسان يقودهم ملك فى ثياب ميدية . وكان من لقيهم شاكلة خاصة من الإسكيذيين تسمى بالبارثيين (Parthians) . ويحتمل أنه كان يخالط البارثيين عنصر مغولى (طورانى) ممتزجا بالسلالة الآرية . ومن غرائب الاتفاق أن تشابه حملة كراسوس وراء الفرات حملة دارا وراء الدانوب شبها عجيبا ، إذ حدث فى هذه كما حدث فى تلك أن قذف القائد قذفا ثقيلا بقوة من المشاة ضد راكبة خفيفة مراوغة من الفرسان . بيد أن كراسوس كان أبطأ من دارا إدراكا لضرورة الانسحاب ، وكان البارثيون ناشبة يفوقون الإسكيذيين الذين لقيهم دارا براعة ومقدرة . ويبدو أنه كان لديهم نوع ما من القذائف الرنانة ، لها شدة وقوة غير عاديتين ، وتختلف عن السهم العادى . ويقول الأستاذ چ . ل مايرز (Myres) ، إن هذا القوس كان فيما يرجح هو القوس المركب ، المسمى كذلك لأنه كان مصنوعا من لوحات عديدة من القرن تبلغ الخمسة أو نحو ذلك ، على هيئة زمبركات أعنى (سوستات) العربات وهو يقذف سهما عالى السرعة له طنين . وكان هذا هو القوس الذى كانت المغول تستعمله . فهذا القوس المركب

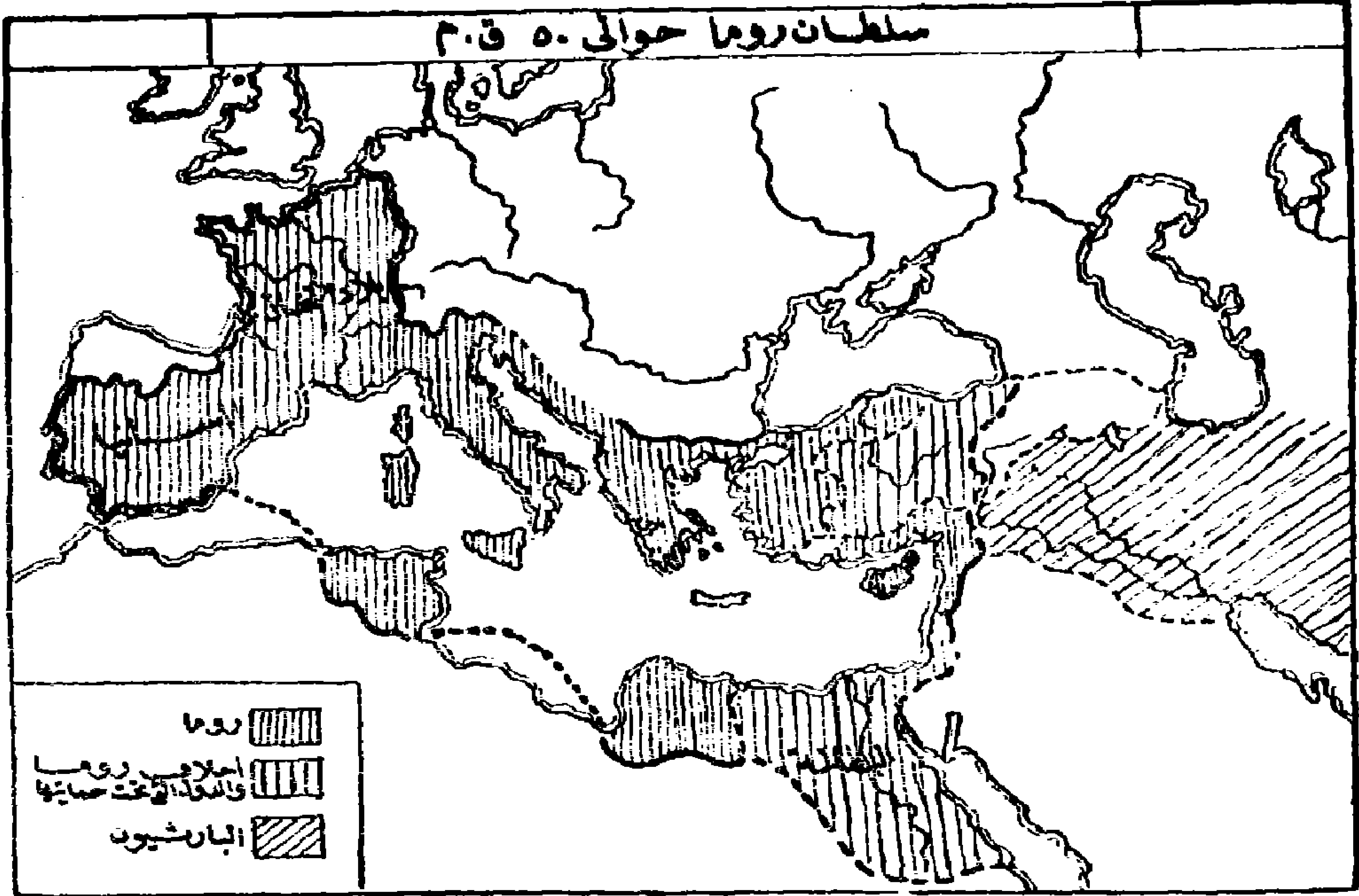
(ولم يكن بالطويل) قديم العهد جداً فى الخبرة الإنسانية . فكان هو قوس أوديسيوس (Odysseus) وكان لدى الأشوريين على هيئة معدلة . وقد انتشر فى بلاد الإغريق زمناً ، وعرف لديهم باسم القوس المغولى . كان قصيراً تام القصر ، صلباً جداً فى جذبه ، وله خط سير مسطح ، وبجال عجيب وضجة عظيمة (نقلا عن إشارة هومر إلى طنين القوس) ولكنه زال من البحر الأبيض ، لأن المناخ هناك لا يناسبه ، ولأنه لم تكن هناك حيوانات كافية لتقديم مايلزم من القرون .

وبلغت الحملة أقصى محنتها فى تلك المذبحة المعروفة باسم معركة كارى (Carrhae) (٥٣ ق . م) والتى استمرت يومين أعمل العدو فيهما الذبح فى الفرق الرومانية وقد أعياها الحر العاطش والجوع والكد إلى حد الاجهاد وظلوا يكدحون فى الرمال الحارة مهاجمين عدواً لايبرح يروغ منهم ، ثم دار من خلفهم راكباً وأعمل فيهم بالقسى حتى مزقهم . فقتل منهم عشرون ألفاً ، وواصل عشرة آلاف المسير شرقا بعد أن أخذوا أسرى وأصبحوا أرقاء فى إيران .

وإن أحداً لايدرى على وجه الدقة ماذا جرى لكراسوس ، وهناك قصة ، ربما حبكت لتكون عظة خلقية لنا قد أوحى بها اشتغاله بالربا تقول : إنه وقع حياً فى أيدى البارثيين ، فقتل بأن صُبَّ فى فيه الذهب المصهور .

والحق أن لهذه الكارثة دلالة عظيمة الأهمية فى تاريخ الإنسانية عامة . فإنها تساعد على تذكيرنا ، أنه من الرين إلى الفرات وعلى الأرض الممتدة بينهما ، إلى شمالى جبال الألب ونهر الطونة والبحر الأسود — كانت تمتد حلقة متصلة على شكل سحابة واحدة من الشعوب المترحلة وشبه المترحلة الذين لم يستطع دهاء روما السياسى فى عهد الإمبراطورية أن يكبح جماحهم ويبعث فيهم السكينة ويبث المدنية بينهم كما لم تتمكن فنونها العسكرية من إخضاعهم . ولقد استرعينا النظر قبل هذا إلى خريطة تبين كيف رقدت الإمبراطورية البابلية الثانية (وهى الإمبراطورية الكلدانية) ، رقود الحمل بين ذراعى القوة الميدية . وعلى نفس هاته الشاكلة بالضبط ، رقدت الإمبراطورية الرومانية رقود الحمل بين ذراعى هذا الهلال العظيم من الهمج الخارجيين . ولم تثبت روما عجزها التام عن إقصاء ذلك الهلال المبسوط من فوقها ، وعن تمثله فحسب ، بل إنها لم تستطع قط أن تنظم طرق المواصلات فى البحر المتوسط وتجعل لها فيه نظاما مضموناً مأمونا محكما بين شقى إمبراطوريتها وكل جزء من أجزائها ، وكانت روما لا تزال تجهل كل شىء عن قبائل المغول فى آسيا الشمالية الشرقية والهون وذوى قرباهم ، ممن

دأبت أسرتا تسى وهان على ردهم عن الصين وإقصائهم بإقامة السور ومطاردتهم بالقوة فكانوا ينتقلون ويزحفون غربا ، مخالطين البارثيين[1] والإسكيذيين والتيوتون ومن إليهم ، أو دافعين إياهم أمامهم .



(١١٢)

ولم يحدث البتة أن نجح الرومان ، فى توسيع حدود إمبراطوريتهم فيما وراء أرض الجزيرة ولم تكن قبضتهم على أرض الجزيرة مكينة قط . وقبل نهاية الجمهورية ، أخذت قوة التمثل ، تلك التى كانت فيما سلف سر نجاحهم ، تزول وتذوى ويحل محلها حال من الوطنية الاعتزالية الشرهة يشوبها الاقتصار ، وقد نهبت روما آسيا الصغرى ومملكة بابل ، ثم دمرتهما وهما القاعدة اللازمة للتوسع شرقا نحو الهند ، كما دمرت ونهبت قرطاجنة ، وبذا حرمت روما موطىء قدم تمتد منه آملا كها فى إفريقيا ، وكما فعلت بالضبط فى تدميرها كورنثة ، وبذلك قطعت على نفسها طريقاً سهلا يوصلها إلى قلب بلاد الإغريق . وكثيراً ما يميل كتاب الغرب الأوربيين لتأثرهم بما فعلته روما فيما بعد من صبغ البلاد بالصبغة الرومانية وتمدين بلاد الشمال وجنوب بريطانيا وتعويض أسبانيا عما أنزلته بها فى البداية من الإتلاف يسراً ورخاء — كثيراً ما يميل هؤلاء الكتاب إلى التغافل عن أنها وجهت نفوذها فى مناطق أخرى تقع إلى الجنوب والشرق ، إلى إضعاف روح تلك الأراضى المترامية الأطراف المنتزعة من يد المدنية الهيلينية وإلى ردها ثانية إلى مرتبة الهمجية .

(١) البارثيون : هم سكان بارثيا وهو الاسم الذى كان يطلق قديما على بلاد خراسان .

٥ — نهاية الجمهورية

لم يكن لدى سياسي إيطاليا فى القرن الأول قبل الميلاد خرائط لألمانيا والروسيا، وإفريقيا وآسيا الوسطى، ولم يكن فيهم من وهب القدر الكافى من الذكاء لدراستها لو أنها وجدت. ولم تبعث حياة روما فى النفوس قط ذلك النوع اللطيف من حب الاستطلاع الذى ساق هانو وملاحى الفرعون نخاو إلى ارتياد سواحل إفريقيا، وعندما حدث فى القرن الأول (ق.م) أن وصل مبعوثو أسرة هان إلى الساحل الشرقى لبحر قزوين، لم يجدوا إلا أقاصيص متناثرة عن مدنية بادت وعفت آثارها، وكانت ذكرى الإسكندر ما تزال باقية فى تلك البلاد، أما روما، فلم يكن الناس يعرفون عنها إلا أن پومپى وصل إلى شواطىء بحر قزوين الغربية ثم عاد أدراجه وأن كراسوس هلك وقضى نحبه. وكانت روما مشغولة فى الداخل ذلك أن البقية الباقية من طاقة المهادن الرومانى الذهنية بعد الذى ينفقه منها فى محاولاته أن يصبح ثريا موفور الثراء ويعيش ممتعا بسلامة الشخص وعافية البدن، كانت تستنفدها شدة انشغال باله بما يجرى حوله من خطط ومكائد وضربات تكال وضربات أخرى مضادة يقوم بها شتى المغامرين الذين كانوا يتخاطفون إذ ذاك السيادة العليا والسلطان جهاراً.

وقد درج المؤرخون على أن يعالجوا هذه المنازعات باحترام مفرط فهم يصورون لنا شخص يوليوس قيصر بصفة خاصة كما لو كان نجماً بلغ فى تاريخ الإنسانية ذرا التألق والأهمية. ومع ذلك فإن نظرة تأمل عادلة للحقائق المعروفة عنه لا بد أن تمنى بالفشل التام فى تبرير تلك النظرية التى تجعل من قيصر نصف إله. بل إن الإسكندر الأكبر نفسه، ذلك الغرير المخيِّب لكل ما نيط به من آمال كبار ومحتملات جسام، لم يبجل ويفخم إلى هذا الحد، ولم يسبل عليه مثل هاته الثياب الرائعة حتى يسترعى إعجاب القراء السطحيين غير الناقدين. وهناك طراز من العلماء يقصر همه — ولكن فى هذا صرحاء — على التقول واختراع سياسات عالمية عجيبة ينحلونها أبرز شخصيات التاريخ، بانين ذلك على مبررات أوهن من خيط العنكبوت أو على غير مبرر البتة.

أولئك يخبروننا مثلا أن الإسكندر كان يزمع غزو قرطاجنة وروما، وكان يبغى إخضاع الهند إخضاعا تاما، وأنه لم يقض على هذه الخطط سوى وفاته. وكل ما نعرفه على وجه التحقيق هو أنه غزا الإمبراطورية الفارسية ولم يتجاوز حدودها إلى مدى بعيد. وأنه يوم كان الاعتقاد سائداً أنه مدبر هذه الخطط الهائلة النبيلة، كان فى حقيقة الأمر يستمرىء أموراً بالغة حد

البشاعة والسخرية مثل حزنه على حظيه هيفايستيون ، وكان شغله الشاغل أن يحتسى الخمر حتى يغيب عن وعيه . وعلى هذا النحو ينسب البعض إلى يوليوس قيصر أنه أزمع الإقدام على نفس ذلك الأمر الوحيد الذى لا يبعد على طاقته والذى يكفل إنقاذ الإمبراطورية الرومانية من انهيارها النهائى — وأعنى به غزو أوربا حتى بحر البلطيق ونهر الدنيبر وتمدينها بطريقة منظمة . ويقول بلوتارك ، إنه كان يأمل أن يزحف على ألمانيا مخترقا بارثيا وإسكيذيا عن طريق شمال بحر قزوين والبحر الأسود .

ومع ذلك فإن الحقيقة التى نحن ملزمون أن نوفق بينها وبين ذلك المشروع الحكيم الواسع النطاق تقول بأن قيصر وهو فى أوج قوته وقد أصبح رجلا أصلع وأصبح فى منتصف العمر ، وتخطى رشاقة الحب الفتىّ الحارة ودوافعه الجامحة قضى الردح الأكبر من العام بمصر يقيم الولائم ويسلى نفسه ويرفه عنها بتبادل كؤوس الغرام والملذات مع الملكة المصرية كليوباترة . ثم استصحبها معه بعد ذلك إلى روما ، حيث ضاق الناس بسلطانها عليه . ومثل هذه الملاقات بينه وبين إحدى النساء ، تبين فيه شهوة الشيخ المسن أو عاطفته — إذ أنه كان فى الرابعة والخمسين عند ابتداء هذه العلاقة — أكثر مما تظهره فى صورة السيد الآمر القاهر بين الرجال .

ولزام علينا أن ندخل فى تقديرنا ذلك التمثال النصفى لقيصر الموجود فى متحف نابولى كدليل لتأييد النظرية القائلة بأن قيصر فوق مستوى البشر فهو يمثل وجها ممتاز الذهنية شديد النبل فى تعبير قسماته ، ونستطيع أن نربط بهذا ، القصة القائلة بأن رأسه كان حتى يوم مولده ، كبيراً كبراً غير عادى ، كما كان ممتاز التكوين . ولكن ليس هناك فى الحقيقة دليل مقنع ، على أن هذا التمثال النصفى يمثل قيصر فعلا ، ومن العسير أن نوفق بين ما يتجلى فيه من صفو النفس الشديد وبين اشتهاره بالدوافع العنيفة وسوء النظام . ولذلك فالأرجح أن تماثيل نصفية أخرى لرجل غيره تماما ، قد نسبت إليه كذلك .

ولن يخالجنا أقل شك أنه كان فى صباه رجلا فاسقا ومسرفا ، وتترادف الفضائح عنه أثناء إقامته فى بيثينيا ، التى لجأ إليها فراراً من سُلَّا — وكان قرينا للخليع الفاجر كلوديوس والمتآمر كاتيلينا — وليس فى حياته السياسية أى شىء يدل على وجود أى هدف له يعلو أو يبعد عن رغبته فى رفع نفسه إلى مرتبة القوة والسلطان وإلى كل ما ينجم من وراء القوة من المجد الشخصى والمتعة الذاتية . ولسنا بمحاولين أن نخبرك ها هنا عن التقلبات التى عرضت له فى حياته والدورات التى ألمت بها . وهو وإن كان ينتمى إلى أسرة نبيلة عريقة ،

فإنه دخل ميدان السياسة بوصفه معبود الشعب وبطله المتألق فأنفق مبالغ عظيمة واستدان ديونا باهظة ليأدب ولائم عامة على أعظم ما يكون السخاء والسرف . ولقد عارض تقاليد سُلّا واعتز بذكرى ماريوس ، الذى كان زوجا لخالته وأقام زمانا يعمل فى ألفة ووفاق مع كراسوس وپومپى ، ولكن دبيب الشقاق دب بينه وبين پومپى بعد وفاة كراسوس .

وما وافت سنة (٤٩ ق . م) حتى كان يقتتل هو وپومپى تؤيد كلا منهما كتائبه ، فقيصر من الغرب وپومپى من الشرق ، يتنازعان علنا على السلطان فى الدولة الرومانية ، وقد خالف القانون بإحضاره كتائبه عبر نهر الروبيكون الذى كان الحد الفاصل بين ما تحت إمرته وإيطاليا نفسها . وشتت شمل جيش پومپى فى معركة فرساليا فى تساليا (٤٨ ق . م) ، وفر پومپى إلى مصر ، فقتل بها تاركا فى يد قيصر من السيادة على العالم الرومانى ما لم يبلغه سُلّا أبداً .

وعند ذلك عين دكتاتوراً مدى عشر سنوات (٤٦ ق . م) ، وفى أوائل (٤٥ ق . م) . عين دكتاتوراً مدى الحياة . وكان هذا هو الملكية بعينها . ولئن لم تكن وراثية ، فلقد كانت على الأقل انتخابية مدى الحياة . وكانت تلك فرصة لا حد لها يؤدى فيها خير مستطاعه لخدمة العالم. ونحن ملزمون أن نحكم عليه من كنه وروح استخدامه لهذه السُلطة الدكتاتورية فى أثناء تلك السنين الأربع . فأعاد تنظيم الإدارة المحلية شيئا ما ويلوح أنه تناول موضوعا كانت الحاجة إليه فى تلك الأيام واضحة نوعا ما ، وهو مشروع إعادة مرفأى كورنثة وقرطاجنة ، المدمرين الذين نتج عن تدميرهما تحطيم الحياة البحرية فى البحر المتوسط . بيد أن سلطان كليوپاترة ومصر كانا أبلغ أثرا فى ذهنه . ولقد هفا فؤاده كما مال الإسكندر من قبل ، إلى فكرة الملك الرب ، وكان تزلف تلك الربة الوراثية الفاتنة كليوپاترة إليه عونا على زيادة تلك الفكرة قوة ورسوخا . وإنا لنجد من الشواهد ما يدل على أنه نشب بينه وبين أصدقائه الشخصيين فيما يتعلق بموضوع تلك الادعاءات الإلهية — نفس ذلك النزاع ، الذى سجلناه من قبل فى حالة الإسكندر . وتقديم مظاهر الإكبار والتقديس للحكام كانت فكرة مألوفة فى الشرق الهلينى لا جرم . بيد أنها كانت ما تزال بغيضة إلى ما عساه تبقى لدى روما من روح آرية .

وكان أنطونيوس —وهو تاليه فى الرتبة فى فرساليا — واحداً من أشد المتملقين المتزلفين إليه . ويصف بلوتارك منظراً حدث فى الألعاب العامة ، حاول فيه أنطونيوس أن يجبر قيصراً على قبول تاج ، فرفضه قيصر بعد تمنع لما أظهره الجمهور من عدم الاستحسان ، غير أنه اتخذ لنفسه الصولجان العاجى والعرش اللذين كانا شارتين تقليديتين لملوك روما . وحملت صورته بين صور

الآلهة فى موكب افتتاح الجتلد ، ونصب تمثاله فى أحد المعابد وقد خطت من تحته العبارة الآتية : « إلى الإله الذى لا يقهر » بل لقد عين بعض الكهنة سدنةً لعبادته . وليست هذه الأمور من دلائل عظم العقل ، ورحابة الأفق بل هى تشير إلى جنون العظمة إذ يمس عقل رجل عادى . وإن ما يسجله التاريخ على قيصر من تدبيره الخطط الرامية إلى أشد مساخر العبادة الشخصية ابتذالا وخسة لأمرٌ لا يستقيم مع الفكرة الذاهبة إلى أنه كان فوق مستوى البشر وأنه كان حكيما رائعاً ، يوجه العالم نحو الخير والحق .

ثم انتهى أمره بأن اغتالته عصبة من نفس أصدقائه ومناصريه (٤٤ ق . م) بعد أن أصبحت تلك الأمانى والأطماع القدسية لديهم أمراً لا يطاق . فهاجموه فى مجلس السناتو ، وطعنوه فى ثلاثة وعشرين موضعا من جسمه فخر صريعا تحت قدمى تمثال خصمه المهزوم بومبى العظيم . ويدلك هذا الحادث على مبلغ الانحطاط الخلقى التام لدى الهيئة الرومانية القديمة الحاكمة . وكان بروتس زعيم عصابة القتلة ، يود لو قام فى أعضاء السناتو خطيبا ، لولا أن الأعضاء حين صدمتهم هذه الصدمة ، هبوا يفرون فى كل صوب . وظلت روما غالب نهارها وهى لا تدرى كيف تتصرف فى هذا الحادث ، وسار القتلة بأسلحتهم ملوثة بالدم بين ظهرانى مدينة مترددة لم تستقر بعد على رأى ، فلم يعترضهم أحد ولم ينضم إليهم إلا نفر قليل . ثم انقلب الرأى العام عليهم ، فهوجمت بيوت بعضهم ، واضطروا أن يختبئوا وأن يفروا طلباً للنجاة وخشية على حياتهم .

٦ — ظهور الإمبراطور Princeps

بيد أن السبيل الذى كانت تسير فيه الحوادث كان متجها نحو الملكية بشكل واضح جارف . واستمر النضال بين الشخصيات أربعة عشر عاما أخرى . وهناك فرد واحد هو شيشرون[1] خليق بأن ننوه به بوصف كونه رجلا حبته المقادير بالفكر الرحيب وصانته تقريبا عن كل طموح مشوب بالأنانية . كان رجلا متواضع الأرومة ، أكسبته فصاحته وقوته فى الأدب مكانة مبرزة فى مجلس السناتو . وقد انتقلت إليه من ديموسثنيز عدوى الهجاء وإن بقدر طفيف ومع ذلك فإنه يبرز بين الناس شخصية نبيلة لا تأثير لها مع الأسف ، وهو يحاج سناتو تلك الأيام وقد ساءت سيرته وبلغ من الانحطاط والوضاعة والجبانة حداً عظيما فكان شيشرون

(١) شيشرون : أفصح خطباء الرومان قاطبة ولد ١٠٦ ق . م وشايع بمبى معارضا قيصر وأنصاره وقتل فى ٤٣ ق . م .

يدافع عن المثل العليا للجمهورية وكان كاتبا مجيداً ممتازاً . وإن الخطب والرسائل الخاصة التى تركها لنا لتجمله فى نظر القارىء المصرى واحداً من أشد شخصيات ذلك العصر صدقا وخلوداً . وقد أهدر دمه وأعدم عام (٤٣ ق . م) وهى السنة التالية لمقتل يوليوس قيصر ، ثم سمرت رأسه ويداه فى الفوروم الرومانى . ويلوح أن أوكتافيوس Octavian الذى أصبح آخر الأمر ملك روما ، بذل جهداً لإنقاذ شيشرون . فلا مراء فى أن القتل لم يكن مما جنت يداه .

وما نحن ها هنا بمستطيعين أن نتعقب ألوان الاتفاقات والخيانات التى انتهت بتألق نجم أكتافيوس هذا ، وهو وريث يوليوس قيصر المتبنى . ويجدر بنا أن نتذكر لهذه المناسبة أن مصير الشخصيات الكبرى مرتبط بمصير كليوباترة .

فإنها جعلت شغلها الشاغل بعد مقتل قيصر أن تتسلط على مشاعر أنطونيوس وغروره وهو رجل أحدث سنا من قيصر بكثير ، ولعلها كانت تعرفت إليه من قبل . واقتسم أوكتافيوس وأنطونيوس وشخص ثالث هو ليبيدوس (Lepidus) العالم الرومانى بينهم مثلما كان قيصر وپومپى يقتسمانه قبل نزاعهما النهائى . فاختص أوكتافيوس بالغرب الأصلب عوداً ، ثم ثبت فيه سلطانه وكان لأنطونيوس الشرق الأكثر بذخا وأبهة وفيه كليوباترة .

وكان نصيب ليبيدوس تلك المظلمة النخرة التى أصبحت حطاما بالية وهى أفريقيا القرطاجية . وهو يلوح رجلا طيب النفس حميد السيرة بين الناس متجها بكل فؤاده إلى استرجاع قرطاجنة أكثر منه إلى الثراء والغرور الشخصى . فأما أنطونيوس فقد رانت على عقله تلك الفكرات القديمة ، فكرات الملكية الإلهية المقدسة التى كانت أكبر من أن يتحملها اتزان يوليوس قيصر العقلى . فاستسلم فى ظلال كليوباترة للهوى والملذات ، ولحلم من المجد الشهوانى ، حتى جاء وقت شعر فيه أوكتافيوس ، أنه قد آن له أن يقضى على هذين الإلهين المصريين .

وفى (٣٢ ق . م) حمل أوكتافيوس السناتو على خلع أنطونيوس من تولى الحكم فى الشرق ، ثم تقدم لمهاجمته . ودارت بينهما رحى معركة عظيمة فى أكتيوم (٣١ ق . م) كان العامل الفاصل فيها تخلى كليوباترة عنه على غير انتظار فى ستين سفينة حين حمى وطيس القتال . ومن المحال علينا الآن تماما أن نفصل فى هل كان هذا التخلى عن خيانة مدبرة من قبل ، أم هو نتيجة لنزوة فجائية أطافت برأس امرأة فتانة . ولكن رحيل هذه السفائن الستين قد ألقى بأسطول أنطونيوس فى حالة من الحرج والارتباك قطعت عليه كل أسباب الرجعة ، وتفاقم الخطب عند ما هرب ذلك العاشق المثالى الولهان فى أثر معشوقته الفاتنة . إذ انطلق

من خلفها فى سفينة سريعة دون أن يخبر قواده . وبذا ترك أتباعه يقاتلون ويموتون حسبما يتراءى لهم ، فظلوا زمانا لا يصدقون أنه قد ولى أما ما تلى ذلك من لقاء العاشقين وصلحهما فهو أمر نتركه لبلوتارك يتمعن فيه بروحه التهكمية .

وأطبقت شباك أوكتافيوس على مهل حول منافسه . وليس مستبعداً أنه كان هناك نوع ما من التفاهم بين أوكتافيوس وكليوباترة ، كما حدث فى زمان يوليوس قيصر ، أن تم التفاهم فيما يحتمل بين الملكة وبين أنطونيوس . واستسلم أنطونيوس للشيء الكثير من مظاهر الأسى الفاجع التى تنوعت ألوانا مع مناظر الحب المختلفة ، أثناء المرحلة الأخيرة من مسرحيته الصغيرة . فقد أقام دهراً على حالة تحاكى مسلك تيمون الكابى ، حين فقد كل ثقة فى الجنس البشرى ، وإن كنا نرى أن بحارته الذين تخلى هو عنهم فى أكتيوم ، كانوا أولى منه بهذا الموقف . ثم ألقى نفسه وكليوباترة آخر الأمر يحاصرهما أوكتافيوس فى الإسكندرية ، وقام المحصورون بهجمات عديدة ونالوا من النجاح قسطا محدوداً . وطفق أنطونيوس يجهر بالتحدى لأوكتافيوس أن يفصل فى الأمر بالنزال الشخصى . ثم أفرغ بعضهم فى وهم ذلك النجم الولهان أن كليوباترة قد انتحرت ، فطعن نفسه ، طعنة غير قاتلة جعلته يقضى نحبه على مهل ثم حمل إليها فقضى فى حضرتها (٣٠ ق . م) .

وإن ما كتبه بلوتارك عن أنطونيوس ، وأغلبه مستقى من الشهود الذين رأوه وعرفوه ، يصفه بأنه كان رجلا باسلا مقداما . ويقارنه بهرقل (Hercules) نصف الإله ، (وهو الذى كان فى الواقع يدعى الانتساب إليه) ، ويشبهه كذلك بباكوس الهندى . ويورد بلوتارك عدا ذلك حادثة تغثى لها النفوس وإن ألقت على أخلاقه ضياء مرشدا ، إذ يصف حادثة وقعت له فى مجلس السناتو وهو يحاول أن يخطب وهو ثمل فلاحقه زميل من أخس قرنائه فى معاقرة الشراب وأقلهم كرامة .

وقد ظلت كليوباترة فترة وجيزة وهى ما تزال متعلقة بالحياة . ولعلها كانت تملل النفس بإخضاع أوكتافيوس لنفس ذلك الدور السماوى ، الذى مثله من قبل يوليوس قيصر وأنطونيوس . وجرت بينها وبين أوكتافيوس مقابلة تقدمت إليه فيها كحسناء مهيضة الجانب كسيرة الفؤاد تلم بها محنة قاسية ، وكانت فى ثياب شفافة . بيد أنه لما اتضح لها أن أوكتافيوس كانت تنقصه الروح الربانية ، وأن عنايته براحتها وخيرها لم يكن يمليها عليه إلا رغبته فى عرضها فى موكب نصر يجتاز شوارع روما ، قضت على نفسها منتحرة . فإن أفعى قد دست إليها مخبأة فى سلة من التين دون أن يشعر بها الحراس الرومان ، فكانت ضحية أنيابها .

ويكاد أوكتافيوس فيما بعد ، أن يخلو فؤاده تماما من كل ما داخل يوليوس قيصر وأنطونيوس من التطلع إلى التقديس والألوهية . فهو لم يكن بالإلـه ولا بالبطل الغرامى . بل كفاه أنه كان رجلا ؛ فكان أوسع أفقا وأكثر مقدرة من أى ممثل آخر فى هذا الفصل الأخير من المسرحية الجمهورية فى روما . ولو أنا قدرنا كل الاعتبارات فلربما وجدنا ظهوره خير ماقد تحبو به الأقدار روما فى ذلك الزمان . فإنه تنازل راضيا عن السلطات غير العادية التى ظل يتولاها منذ (٤٣ ق . م) ، أو كما عبّر هو عن ذلك بنفسه حين قال : « إنه سلم الجمهورية ليتولى السناتو وشعب روما الإشراف عليها » . وبذا دَبّتْ الحركة من جديد فى الأداة الدستورية القديمة ، وعاد مجلس السناتو ، ومجلس الأحرار والموظفون إلى تولى أعمالهم وهلل الناس لأوكتافيوس « معيد الجمهورية ونصير الحرية » .

« وليس من اليسير أن نحدد العلاقة بينه — وهو لعمري السيد الفعلى للعالم الرومانى وبين تلك الجمهورية التى بعثت من جديد . وذلك أن تنازله عن الرياسة بكل ما فى كلمة التنازل من معنى حقيق ، كان يؤدى إلى العودة بكل شىء إلى الفوضى . فإن مصلحة السلام والنظام كانت تقضى عليه أن يحتفظ على الأقل بالقسم الجوهرى من سلطته . وقد تمت له تلك الغاية حقا ، وتم تأسيس حكم الأباطرة ، على طريقة ليس لها من ضريب فى التاريخ . وكان إحياء الملكية وألقابها أمراً لا يصح التفكير فيه . وقد رفض أوكتافيوس نفسه وظيفة الدكتاتورية قصداً . كذلك لم تخلق له أية وظيفة أخرى ولا أنشىء من أجله أى لقب رسمى جديد . بيد أن السناتو والشعب منحاه وفقا للأوضاع الدستورية القديمة ، سلطات معينة ، كما مُنح ممادنون كثيرون من قبله ، وبذلك تبوأ مقعده بجوار حكام الجمهورية وموظفيها المعينين وفق الأصول القانونية . ولكى يظهر السناتو مرتبته الرفيعة بوصفه كبيرهم جميعاً ، أصدر مرسوما يقضى بأن يتخذ لنفسه لقبا إضافيا هو « أوغسطوس » (Augustus) على حين أطلق الناس عليه فى كلامهم العادى منذ ذلك الحين لقب الأمير أو الزعيم (Princeps) وهو مجرد لقب مألوف فى الاستعمال الجمهورى العادى أطلق عليه من قبيل التكريم ، ولا ينطوى على أية فكرة خرى عدا فكرة الأولية المعترف بها ، والأسبقية على كل زملائه المهادنين .

« وبذا تكون قد تحققت تحققا ظاهراً فكرة المثل الأعلى الذى رسمه شيشرون فى كتابه «عن الجمهورية» (De Republica) لرئيس دستورى يتولى الأمر فى جمهورية حرة ، بيد أن ذلك كان أمرا لا يتجاوز الظواهر . إذ الواقع أن الامتيازات الخاصة والحقوق التى أنعم

بها على أوكتافيوس ، أعادت إليه جوهر السلطة الأوتوقراطية التى تنازل عنها ، فأما توازن القوى بين الجمهورية التى أعيدبعثها وبين أميرها الجديد،فكان شديد الجنوح ناحيةالأخير»[1]

٧ — لماذا فشلت الجمهورية الرومانية

على هذه الشاكلة انتهى النظام الجمهورى الرومانى بظهور زعيم أو أمير حاكم ، وانهارت وباءت بالفشل أولى التجارب العظيمة فى مجتمع يتمتع بالحكم الذاتى ويقوم على نطاق أوسع من القبيلة أو المدينة .

وسر فشلها هو أنها لم تستطع أن تدعم الوحدة وترسخ قدمها فى البلاد . ففى مراحلها الأولى ، كان لمادينها ، سيان منهم البطارقة (النبلاء) أو العامة ، تقاليد معينة تقوم على العدالة وطيب الثقة وولاء المادنين جميعاً للقانون الذى كان يهدف إلى خير المادنين جميعا . وتعلقت روما بأهداب هذه الفكرة ، فكرة أهمية القانون واحترامه والخضوع له حتى قرابة القرن الأول (ق . م) . بيد أن اختراع النقود وتطورها بدرجة لم تكن فى الحسبان ، وما ترتب على التوسع الاستعمارى من مغريات ، والانقسام وتفكك العرى وما عرفته روما من تعقد فى الأساليب الانتخابية ، ـ إنما هى أمور أضعفت هذه التقاليد وأوهنتها باظهار الخلافات القديمة

الإمبراطورية الرومانية عند وفاة أغسطس سنة ١٤ ميلادية

(١١٣)

---

(١) نقلا عن هـ . س . جونز H. S. Jones فى الموسوعة البريطانية مادة (روما)

فى أثواب جديدة تتوارى وراءها ، بحيث لم يستطع من تصدوا للحكم عليها أن يتبينوها من دونها ، وبتهيئتها للرجال أسباب الإخلاص لحرفة المهادنة لا لروحها . وكانت الرابطة بين الشعب الرومانى على الدوام ، رابطة أخلاقية أكثر منها دينية وكانت الديانة تقوم على القرابين والخرافات ، ولم تتضمن أيا من تلك الفكرات العظيمة من أمثال فكرة الزعيم المقدس والرسالة المقدسة من أمثال ما كانت تنادى به اليهودية . فلما أن فشلت فكرة المهادنة وذوت تلقاء الظروف الجديدة لم تعد لهم أي وحدة داخلية ، أو بالأحرى لم تعد تجمع شتات نظامهم أى وحدة حقيقية على الإطلاق ، فتزايد بالناس النزوع إلى أن يفعل كل منهم ما يراه حقا .

وفى مثل تلك الظروف لم يكن هناك خيار بين الفوضى الشاملة وبين الرجعة إلى الملكية أى إلى قبول فرد مختار ليكون رمز الإرادة الواحدة العاملة على التوحيد فى الدولة . وبديهى أن يكمن وراء تلك العودة على الدوام توقع الناس أن يستحيل الملك إلى شىء يشبه السحر ، وأن يكف عن أن يكون مجرد كائن إنسانى ضئيل القدر ، وأن يشرع فى التفكير والشعور بأنه مصدر قوة أعظم وأكثر نبلا ، بوصفه — كما هو الواقع — شخصية تمثل الدولة . وبديهى أن الملكية تفشل على الدوام فى أن تحقق ذلك الأمل . وسوف نلقى نظرة إلى مبلغ هذا الفشل فى العرض الوجيز الذى سنستعرض فيه من تونا أباطرة روما . ولسوف نجد آخر الأمر واحداً من أشد هؤلاء الأباطرة تجديدا وإنشاء ، هو قسطنطين الأكبر (Constantine) فإنه وقد أدرك عجزه عن أن يكون قوة عاملة على التوحيد فى الدولة — شخص ببصره إلى عقيدة ونظام وشبكة من التعاليم التى تقوم بها إحدى الحركات الدينية الجديدة فى إمبراطوريته لتمده بنفس ذلك العامل الذى يتسرب إلى عقول الرجال ويربطها بعضها ببعض ، والذى كان العالم فى أمس الحاجة إليه .

وبظهور قيصر عادت حضارة أوربا وآسيا الغربية إلى الملكية ، ولقد تهيأ لهذه الملكية بفضل ما لقيته من المسيحية المنظمة من تأييد عاجل ، أن تسعى فى سبيل السلام والعدالة والبر والسعادة والنظام العالمى طوال مدة تقارب الثمانيـة عشر قرنا . ثم على حين بغتة شرعت الحضارة فى التحول نحو النظام الجمهورى ، مبتدئة بأحد الأقطار ثم مثنية بالآخر . وإذ كان فى عونها قوى جديدة من الطباعة والصحافة والتعليم العام المنظم مستندة إلى الفكرات الدينية التى يدعو إليها أصحاب مذهب الخلاص العام للبشر ، والتى انغمس فيها العالم أجيالا عدة ، فإنها لتبدو الآن كأنما قد عادت من جديد إلى بذل الجهد فى سبيل دولة جمهورية عالية ووضع

مشروع شامل لكل أرجاء العالم قوامه العدل الاقتصادى الذى أراد الرومان أن يفرضوه قبل أوانه والذى فشلوا فيه ذلك الفشل التام الذريع .

ولقد أخذنا ندرك الآن أن هناك شروطاً معينة ، لامندوحة من توفرها لمثل هذا الخلق والإنشاء ، وهى شروط ليس من المعقول أن أى رومانى سابق للمسيحية كان يراها أمراً ممكنا . ولعلنا لا نزال نرى الوصول إلى هذه الشروط ، عملا يكتنفه الكثير من المتاعب والصعوبات والشكوك . بيدأننا ندرك أن بذل المحاولة واجب حتم ، إذ ليس هناك فى المستقبل بارقة أمل أخرى تبشر بمنحنا حتى مجرد الوعد بالسعادة أو احترام الذات أو حفظ نوعنا البشرى . وأول هذه الشروط هو أنه يجب أن تقوم فى عقول جميع الناس فكرة سياسية واحدة وهى فكرة عن «الدولة» بوصفها الملك الشخصى لكل فرد على حدته و بوصفها الحقيقة الأساسية المتضمنة لمنهج واجباته الأساسى . ففى أيام روما الأولى ، عندما كانت دولة مغمورة قليلة الشأن ذرعها عشرون ميلا ، كان فى الإمكان بث هذه الأفكار فى الأطفال فى بيوتهم وتطويرها فى عقولهم بالتلقين و بواسطة ما كانوا يرون ويسمعون من حياة آبائهم السياسية ، ولعمري لم يفت الرومان شىء من ذلك فأما فى قطر كبير الرقعة كالذى بلغته روما قبل حروبها مع بيروس فكانت هناك حاجة إلى خطة منظمة لتعليم التاريخ وأهم القوانين الرئيسية ، والنوايا العامة للدولة نحو كل إنسان ، إن كان يراد الإبقاء على هذه الوحدة الأخلاقية . غير أن هذه الحاجة لم تتحقق قط ، ولم تبذل أية محاولة فى سبيل القيام بأى ضرب من هذا التعليم . إذ لم يكن ذلك العمل مستطاعا فى ذلك الزمان . بل ليس معقولاً أن هذا كان أمراً ميسورا . فإن المعرفة كانت تعوزهم ، ولم يكن ثمة طبقة يمكن أن يؤخذ منها المعلمون المطلوبون لهذه المهمة ولا كان للناس أية فكرة عن نظام تقوم عليه أية تربية نظامية خلقية ذهنية مثل تلك التى قدمها على التو نظام التعليم عند المسيحية ، بما كان لها من عقائد وتعليم لأصول الدين بالحوار وما احتوته من مواعظ وتأييدات كنسية .

هذا إلى أننا نعرف اليوم أنه حتى التربية العامة التى من هذا النوع ، لا تمدنا إلا بالأسس اللازمة لإقامة دولة جمهورية سليمة . ويجب أن يلى التربية العمل على نشر أنباء وفيرة سريعة صادقة لما يجرى فى الدولة ، وتهيئة مناقشة صريحة حرة لكل ما يعرض من أمور ونزاع فى ذلك الوقت ، ولا تتم هذه الأمور حتى فى هذه الأيام إلا على حال من النقص والرداءة على يد ما لدينا من صحافة وعلى يد من لدينا من الصحفيين والمحررين والسياسيين . وهى وإن كانت

سيئة التنفيذ والأداة فحسبنا أن تتم على أى حال ، وحسبك فى مجرد القيام بها الآن تنويها بإمكان الوصول بها فى النهاية إلى مرتبة الجودة والإتقان . ومهما يكن من شىء فإن أحدا فى الدولة الرومانية لم يبذل فى هذا السبيل أية محاولة . والمادن الرومانى كان يحصل على الحقائق السياسية من الشائعات والخطيب العرضى . فكانوا يقفون فى الفوروم كالخشب المسندة ، يسمعون فى غير استبانة واضحة صوت خطيب بعيد ، والراجح أن أحدهم لم يكن يحسن فهم أى موضوع يؤخذ عليه الرأى .

وقد أسلفنا عليك القول فيما عليه نظام التصويت الرومانى من قصور فظيع .

ونظرا لعجزهم عن التغلب على تلك العوائق أو إزالتها من السبيل والتحول إلى حكومة شعبية سليمة فعالة ، اتجهت الغرائز السياسية فى العقل الرومانى نحو الملكية . بيد أنها لم تكن ملكية من الطراز الأوربى فى العصر المتأخر ، ولم تكن ملكية وراثية ، تلك التى قامت إذ ذاك فى روما . فكان الأمير فى الحقيقة شبيها برئيس أمريكى فى أثناء الحرب ، ولكنه لم يكن منتخبا لمدة أربع سنوات وإنما طوال حياته . وكان فى مكنته أن يعين أعضاء مجلس السناتو بدل أن يحد من سلطته مجلس سناتو منتخب ، وكان إلى جانبه مجلس شعبى من الغوغاء بدلا من مجلس نواب . وهو أيضا الكاهن الأعظم (Pontifex Maxcimus) أى كبير كهنة القرابين وهى وظيفة غير معروفة فى واشنطن . وقد درج بحكم الممارسة ، أن يعين خلفه ويدربه وأن ينتخب لذلك المنصب الرفيع ابنا أو ولدا متبنى ، أو ذا رحم وقربى يستطيع أن يثق به . كانت سلطات الأمير هائلة فى ذاتها وأعظم من أن توضع فى يد رجل واحد دون أن يقوم إزاءها ما يكفى من الضوابط للحد منها ، بيد أن تقاليد عبادة الملك زادته قوة على قوته ، وكانت عند ذاك انتشرت من مصر وبسطت ظلالها فى جميع أرجاء الشرق المهلن ، وكانت تفد على روما مستكنة فى ذهن كل عبد ومهاجر شرقى . وقد تسلطت فكرة الإمبراطور الرب على العالم المصطبغ بالصبغة الرومانية بأسره على درجات ومراحل طبيعية غير محسوسة .

ولم يبق إلا شىء واحد يذكر الإمبراطور الرب أنه فان غير مخلد ، ذلك هو الجيش . فإن الإمبراطور الإله لم يكن قط بمأمن فوق الأوليمبوس القائم على التل البالاتينى[1] بروما .

(١) الأوليمبوس مثوى الآلهة ، والتل البالاتينى أحد التلال السبعة المحيطة بروما ، — فكان الإمبراطور الرب لم يكن بمأمن على الرغم من ربوبيته .

فهو لا يطمئن إلى سلامته حتى يكون قائد كتائبه المحبوب . ومن ثم فليس بين الأباطرة من دام له الحكم طويلا إلا المجدون فى أعمالهم الذين دأبوا على تشغيل جنودهم وجعلهم على اتصال وثيق بأنفسهم . فكان السيف معلقا أبدا فوق رأس الإمبراطور يحفزه على النشاط الذى لا يفتر . فلو أنه ترك الأمور لقواده ، لحل أحد هؤلاء محله من فوره . وكان ذلك الحافز فيما يحتمل الظاهرة المخففة التى تشفع لمساوىء النظام الإمبراطورى الرومانى . ولكن الإمبراطورية الصينية ، وهى أكبر حجما وأشد تماسكا وأكثر أمنا وضمانا ، لم تكن بها نفس الحاجة إلى الكتائب ، وبذا لم يلق الملوك الكسالى أو الخليعون أو الأحداث هناك نفس النهايات السريعة التى كانت تحل بأمثالهم فى روما .

الفصل السابع والعشرون

القياصرة بين البحر والوديان العظيمة

١ — ثبت موجز بالأباطرة . ٢ — المدنية الرومانية فى أوجها .
٣ — خصائص الفن فى ظلال الإمبراطورية الرومانية .
٤ — قدر معين من الركود فى الخيال الرومانى .
٥ — حركة الوديان العظيمة .
٦ — الإمبراطورية الغربية (الرومانية الحقة) تتصدع .
٧ — الإمبراطورية الشرقية الهلّينية المبتعثة .

١ — ثبت موجز بالأباطرة

يجنح كتاب الغرب متأثرين بما توقر فى نفوسهم من ميول وطنية ، إلى المبالغة فيما أسدته الملكية المطلقة التى استقرت فى روما باعتلاء أغسطس قيصر العرش من تنظيم وبث للحضارة ونشر للأمن والطمأنينة ، فنحن إنما نقتبس عن روما التقاليد السياسية التى نراها ببريطانيا وفرنسا وأسبانيا وألمانيا وإيطاليا ، وإن هذه الأقطار لتتراءى ضخمة فى أبصار الكتاب الأوربيين على حين أنهم يتجاهلون ما دمرته روما فى الشرق .

وإذا قيس عمر الدولة الرومانية إلى التاريخ العالمى ، حرمت تلك الأهمية الجارفة . فإنها لم تعمر إلا قرابة أربعة قرون فقط قبل أن تتمزق تمزقا تاما . ولم تكن الإمبراطورية البيزنطية استمراراً حقيقيا لها ، بل كانت استئنافاً مشوها لإمبراطورية الإسكندر الهلّينية . وكانت تتكلم الإغريقية . أجل إن لعاهلها لقبا رومانيا ، ولا جرم . ولكن كذلك كان شأن قيصر بلغاريا السابق . وقد تطورت أرض الجزيرة بين الرافدين فى معظم أمرها وفقا لأساليب خاصة بها فى أثناء فترة الحكم الرومانى . فكل كسب مستحدث اكتسبه الهللينيون ، تناولته عبقرية الشعوب الفارسية والبارثية بالتعديل الشامل ، وكان نفوذ روما فى الهند والصين ضئيلا ضآلة لا نهاية لها .

ومرت إمبراطورية روما فى أثناء عمرها البالغ أربعة قرون ، فى أدوار من الانقسام والفوضى الشاملة . فلو جمعت سنوات الرخاء فيها وحسبت ، لم تصل كلها إلى قرنين من الزمان

ولو قورنت بما كان للإمبراطورية الصينية المعاصرة لها من الأمنة والاتساع المادى المتواصل وما قامت به من جهد فى بث المدنية ، ولو أنها ووزنت بعصر بين ٤٠٠٠ ، ١٠٠٠ ق . م ، أو بسوس قبل الغزو السامى ، لنزلت بها هـذه المقارنات إلى مجرد حدث تافه فى التاريخ .

كذلك بلغت إمبراطورية قورش الفارسية ، التى امتدت من الهلسبونت أو المعبر اليونانى (الدردنيل) إلى السند ، شأوا فى الحضارة يعادل فى رفعته شأوها ، وظلت أرضها الأصلية بعيدة عن منال الغازين وفى حال لا بأس بها من الرخاء مدة تربو على قرنين ، وكانت سابقتها الإمبراطورية الميدية قد استدامت نصف قرن من الزمان ، وبعد أن غشيها الإسكندر الأكبر فترة وجيزة ، نهضت من جديد باسم الإمبراطورية السلوقية التى استمرت بضعة قرون . وانكمشت الأراضى السلوقية آخر الأمر إلى غرب نهر الفرات وأصبحت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية . ولـكن بلاد فارس وقد ابتعثها البارثيون ثانية بوصفها إمبراطورية فارسية جديدة تحت حكم الأرشكيين[1] Arsacids أولا ، ثم تحت الساسانيين ثانياً ، Sassanids عمرت طويلا بعد إمبراطورية روما ، وأصبحت ملاذ العلم اليونانى من الاضطهاد الغربى ، وأضحت مهداً دفيئاً تـكـتن فيه الفكرات الدينية .

وقد شن الساسانيون الحرب مراراً على الإمبراطورية البيزنطية ، واستمسكوا ثابتين بخط الفرات . وفى (٦١٦ ميلادية) تحت حكم كسرى الثانى Chosroes كانت فى يدهم دمشق وبيت المقدس ومصر ، وهددوا الهلسبونت (الدردنيل) . على أن الساسانيين لم تـكن لهم تقاليد تصون لهم ما أحرزوا من مجد وفتوح . وقد ازدهرت شهرة روما بسبب ما أصابه ورثتها من رخاء ونجاح وإن تقاليد روما وتراثها لتتراءى أعظم كثيراً من حقيقتها . ذلك أنه حدث بين المدنيات الأعرق منها ، ائتلاف وامتزاج ، وانتشرت المدنية غربا . فاختلط الساميون والآريون فى لجات تطور كان يهدر حول حوض البحر المتوسط ، دون أن يمتزجوا نسبا ورحما ، وكان نظام الحـكم الرومانى أشبه الأشياء بشبكة لا تبرح خيوطها تتقطع ثم تتصل ثانية ، حتى انتهى أمرها إلى التمزق النهائى فى جميع أرجائها .

ويعز التاريخ مجموعات عدة من الأباطرة الرومان ، الذين كانوا رجالا إداريين أكفاء ، وعلى رأس المجموعة الأولى يأتى أوغسطوس قيصر (من ٢٧ ق . م إلى ١٤ م) وهو أوكتافيوس الذى ورد ذكره فى القسم السابق ، والذى دأب عملا فى تنظيم حكومات الولايات وفى الإصلاح المالى . فاستن فى حكومته البيروقراطية سنة طيبة من النزاهة واحترام القانون ، ثم ضيق الخناق

(١) الأرشكيون (الأشغانيون) : دامت دولتهم بفارس من ٢٥٥ ق . م . الى ٢٢٦ م وتنسب الى أرشك (أرساكيس Arsakès) زعيم البارثيين وهم جيل مختلط من الإسكيذيين .

على الفاسد والظلم المتفشى بدرجة مخيفة فى الدولة بأن أعطى المادنين فى الأقاليم حق اللجوء إلى قيصر . بيد أنه وطد الحدود الأوربية للإمبراطورية على امتداد الرين والطونة ، وبذا دفع إلى الهمجية ألمانيا ، التى هى الدعامة الضرورية والعمود الفقرى الذى يكفل لأوربا الأمنة والرخاء ، ثم أقام فى الشرق حداً مشابهاً لهذا عند نهر الفرات ، تاركا أرمينية مستقلة ، مما ترتب عليه أن أصبحت مثار نزاع لا يفتر بين الدولة الرومانية وبين الأرشكيين والساسانيين . والناس من أمره فى ريب وشك فهل تراه فكر فى أن يثبت حدود الإمبراطورية نهائيا على امتداد هذه الخطوط ؟ أم تراه قدر أن من المرغوب فيه أن يوطد أجزاء دولته ويوثق الروابط بينها لبضع سنين ريثما يقوم بمحاولات أخرى للتوسع ؟

كذلك يوصف تيبريوس Tiberius (١٤ إلى ٣٧ م) بأنه حاكم قدير ، بيد أنه أصبح يلقى من الشعب فى روما كراهية شديدة ، ويروى أنه كان منغمسا فى رذائل منكرة مستبشعة . على أن انغماسه فى هذه الرذائل وطغيانه الشخصى وقساواته فى محيطه الخاص لم تحل دون تمتع الإمبراطورية فى عهده بالرخاء العام .

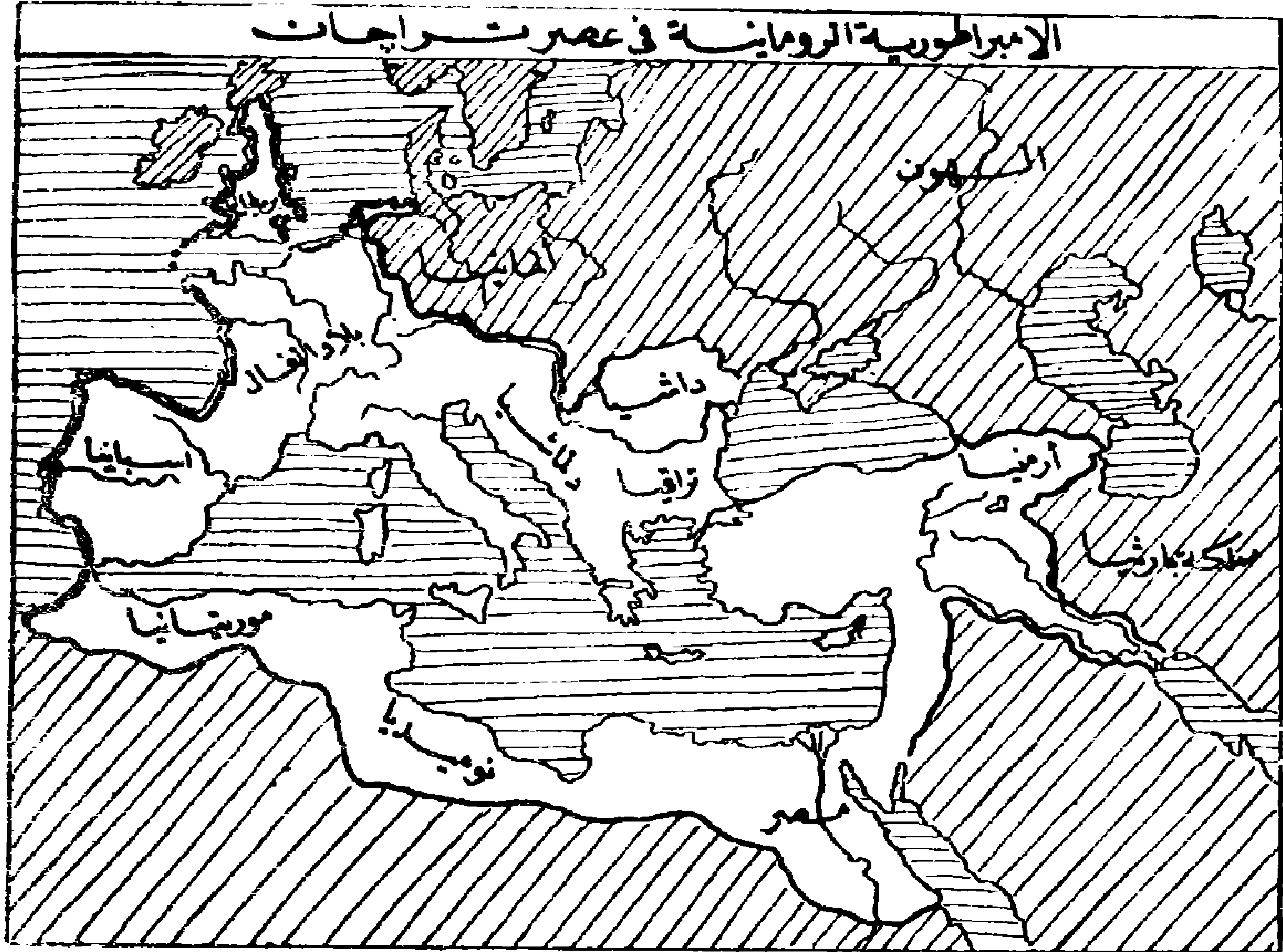
ومن العسير على الإنسان أن يقضى فيه برأى ، لأن كل المصادر التى فى متناولنا تكاد تجمع على العداء الصريح له .

وكان كاليجولا Caligule (٣٧ إلى ٤١ م) معتوها ، غير أن الإمبراطورية واصلت سيرها فى طريق التقدم فى السنوات الأربع التى قضاها على رأسها ، فى شذوذه وتقلب أهوائه . وأخيراً قتله خدمه فى قصره ، ويبدو أن قد بذلت محاولة لاستعادة حكومة طبقة أعضاء السناتو ؛ ولكن سرعان ما قضت كتائب الحرس الإمبراطورى على هذه المحاولة .

أما كلوديوس Claudius (٤١ إلى ٥٤ م) وهو عم كاليجولا الذى وقع عليه اختيار الجند ، فكان غليظ الطبع — ولكن يبدو أنه كان مجداً قديراً إلى حد ما فى تدبير شئون الحكم . فد حد الإمبراطورية الغربى بضم النصف الجنوبى من بريطانيا . ثم قتلته بالسم أجريبينا Agrippina أم ولده المتبنى نيرون Nero وهى امرأة أوتيت حظا عظيما من الفتنة وقوة الشكيمة .

وتنسب إلى نيرون (٥٤ إلى ٦٨ م) — شأن تيبريوس — رذائل وقساوات بشعة ، بيد أن الإمبراطورية كانت قد أحرزت من القوة الذاتية الدافعة ما يكفل مواصلتها التقدم فى أثناء حكمه الذى امتد أربعة عشر عاما . وليس من ريب أنه قتل أمه المحبة المخلصة والمكدرة لصفوه ، كما قتل زوجته ، (قتلها إظهاراً لشغفه بسيدة أخرى هى پوپيا (Poppaea) التى تزوجته عند ذاك) على أن ما يتكشف حياة القياصرة المنزلية من تعس واضطراب ومتاعب

ليس مما يدخل فى نطاق قصتنا . وما على القارىء التواق إلى التفاصيل الإجرامية إلا أن يرجع إلى المرجع القديم وهو المؤرخ سوتونيوس (Suetonius) ولعل هؤلاء القياصرة وأعقابهم ونساءهم لم يكونوا بالضرورة أسوأ خلقا من معظم الكائنات الإنسانية الضعيفة الخلق والخاضعة للشهوات ، ولكنهم لم يكونوا على أى دين حقيقى ، إذ كانوا هم أنفسهم آلهة



(١١٤)

يعبدون . ولم تتثقف عقولهم وتتسع مداركهم وآفاقهم بما يقوم عليه الطموح إلى المثل العليا من معلومات ، واتصفت نساؤهم بشراسة الطباع وكثيراً ما كنّ أميات ، ولم يكن يحدُّ من تصرفاتهم أى حدود من القانون أو العرف . وكان يحيط بهم فئة من المخلوقات ديدنها التحفز لاستثارة أهون رغباتهم ووضع أتفه نزعاتهم موضع التنفيذ ، فكل ما قد يعده الناس مجرد أفكار شيطانية عابرة ودوافع غضب وغيظ كانت لديهم بناء على ذلك أفعالا نافذة لا مرد لها . وقبل أن يحكم إنسان على نيرون وينزله منزلة من دونه من الكائنات التى تختلف عنه ، يجب عليه أن يبدأ بنفسه فيختبر أفكاره الخفية اختبار إمعان وعناية ، وقد اشتد كره الناس فى روما لنيرون ، وإنه لمن الشائق أن نلحظ أنه لم يصبح مكروها ، لأنه كان يقتل أقاربه الأقربين ويدس لهم السم ، بل لأنه حدث فى زمانه عصيان فى بريطانيا تحت قيادة ملكة

اسمها بوديكيا (Boadicia) فأصيبت من جرائه القوات الرومانية بكارثة عظيمة (٦١ م .) ولأن زلزالا مدمراً حدث فى جنوبى إيطاليا . وكان شعب روما المحافظ على الروح الأرسكية المتمشية فى عروقه والمتجلية فى ضعف عقيدته الدينية وفى اعتقاده الدائم فى الخرافات ، لا يبالى أن يتولى أموره قيصر خبيث شرير ، ولكنه يعترض اعتراضاً شديداً على أن يحكمه قيصر يرى فيه الشؤم وسوء الطالع . فثارت الكتائب الإسبانية تحت قيادة قائد مسن بلغ الثالثة والسبعين هو جالبا (Galba) فنادوا به إمبراطوراً . وزحف على روما ، وهو محمول فى محفة . فقضى نيرون على نفسه منتحراً ليأسه من عون الناس له (٦٨ م) .

على أن جالبا ، لم يكن إلا واحداً من مجموعة تسعى لمنصب الإمبراطور وتصبو إليه . فحاول كل من القواد الذين كانوا على إمرة كتائب الرين ، والقوات المعسكرة على تل البالاتين ، والجيوش الشرقية ، أن يصبحوا أباطرة . وشهدت روما أربعة أباطرة فى سنة واحدة هم جالبا وأوتو(Otho)وفيتيليوس(Vitellius)وفسبازيان وكان الأخير منهم أعنى فسبازيان(٦٩ـ٧٩م) وهو من ذوى الإمرة فى الشرق — أشدهم قوة ، فقبض على الغنيمة واحتفظ بها . بيد أن سلسلة القياصرة بحق المولد أو التبنى انتهت بمقتل نيرون . فلم يعد اسم قيصر يطلق على أفراد عائلة الأباطرة الرومان كشأنه فيما سلف بل أصبح لقبا هو قيصر الإله (Divus Caesar) . وتقدمت الملكية خطوة أخرى فى سبيل الاستشراق ، بإظهارها الحرص الشديد على عبادة الحاكم . وبذا انتهت أول مجموعة من القياصرة واقتصر أمرهم على خمس وتسعين عاما فقط .

ويكوّن فسبازيان (٦٩ — ٧٩ م) وابناه تيتوس (Titus) (٧٩م) ودوميشيان (٨١ م) (كما يقولون) أسرة ثانية هى الفلافية (Flavian) ثم جاءت بعد مقتل دوميشيان ، مجموعة من الأباطرة ، يتصل أحدهم بالآخر لا صلة الرحم ، بل صلة التبنى ، وهم الأباطرة المتبنون . وكان نيرفا (Nerva) (٩٦ م) أول هـذه المجموعة ، وتراجان (Trajan) (٩٨ م) هو الثانى وتبعهما هادريان (١١٧ م) الذى لا يكل ، وأنطونينوس بيوس (١٣٨ م) وماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (١٦١ — ١٨٠ م) . وقد اتسعت حدود الإمبراطورية وخطت إلى الأمام من جديد تحت ظل كل من الفلافيين والأنطونيين (Antonines) فضم شمال بريطانيا (٨٤ م) إلى أملاك الدولة الرومانية ، وامتدت حدودها إلى نقطة التقاء الرين بالدانوب ، وجعل ما يسمى الآن باسم ترانسلفانيا ، ولاية جديدة هى داشيا (Dacia) كذلك غزا تراجان بارثيا (Parthia) وضم أرمينية ومملكة آشور وأرض الجزيرة . ووصلت الإمبراطورية تحت حكمه إلى أقصى اتساعها .

وكان خلفه هادريان حذراً يميل بطبعه إلى الانكماش ، فترك هذه الفتوحات الشرقية الجديدة التى فتحها الإمبراطور تراجان ، كذلك ترك شمال بريطانيا . واقتبس الفكرة الصينية القائلة باقامة سور ضد الهمجية يحد من جماحها ، وهى فكرة بديعة ما دام ضغط السكان فى الناحية الإمبراطورية من السور ، أقوى من الضغط الخارجى ، فأما فيما عدا ذلك من حال فإنه يصبح عديم الجدوى . فبنى حائط هادريان عبر بريطانيا[1] وأقام الحواجز بين نهرى الرين والدانوب وكان أوج الاتساع الرومانى قد فات ، وكانت الحدود الشمالية إبان حكم خلفه مشغولة بالدفاع النشيط ضد اعتداء القبائل التيوتونية والسلافية .

وماركوس أوريليوس أنطونينوس ، هو أحد تلك الشخصيات التاريخية التى يختلف فى أمرها رأى الناس اختلافا بيناً حاداً . فهو يلوح فى نظر بعض النقاد شخصاً سراقا غير أمين . كان يتدخل فى الأديان والعبادات ، وكان يجد سروراً لا يعدله سرور فى أن يرأس الحفلات الدينية فى ثياب كهنوتية — وتلك منه نزعة لا يرضى عنها عامة الناس — وهم يغضبون لما ينسب إليه من العجز عن وضع حد لشر زوجته فوستينا (Faustina) وآثامها ، على أن الأقاصيص التى تدور حول شقائه وتعاسته المنزلية ، لا تستند مع ذلك إلى أى أساس قوى جداً ، وإن كانت فظاعة ابنه كومودوس (Commodus) مما لا يتناسب وحالة البيوت الكريمة . على أنه من الناحية الأخرى كان ولامرية إمبراطوراً مخلصاً مجداً ، حافظ على شتات النظام الاجتماعى خلال سلسلة من سنى الكوارث الحافلة بالملمات : من جو سيء وفيضانات عظيمة ومحاصيل ضئيلة ومجاعات ، فضلا عن غارات الهمج وثوراتهم ، ثم أصاب البلاد آخر الأمر وباء عام جائح ، وتقول الموسوعة البريطانية نقلا عن ف . و . فرر (F. W. Farrar) «لقد كان يعد نفسه فى الحقيقة خادم الجميع وكان تسجيل المادنين والقضاء على التشاحن والتنابذ ورفع مستوى الأخلاق العامة ، والعناية بالقصر والأحداث وتقليل النفقات العامة ، والحد من ألعاب المجالدين واستعراضاتهم والعناية بالطرق ، ورد امتيازات مجلس السناتو إلى سابق عهدها وقصر التعيين على الموظفين القديرين حقاً ، بل حتى تنظيم حركة المرور فى الطرقات ، بالإضافة إلى واجبات أخرى لاعداد لها ، — تستنفد عنايته تمام الاستنفاد ، إلى حد أنه بالرغم من اعتلال صحته نوعا ما كانت هذه الأعمال تثقل كاهله بالشغل القاسى من الصباح الباكر إلى ما بعد

(١) الحائط الرومانى . كان يمتد من مدينة نيو كاسل إلى مدينة كارليل عبر بريطانيا وهو حائط ضخم البناء حفرت الخنادق من أمامه ومن خلفه وأقيمت على طوله المعسكرات الرومانية .

منتصف الليل بكثير . وكان منصبه يحتم عليه فى الغالب الحضور لمشاهدة الألعاب والمعارض . بيد أنه كان فى تلك المناسبات يشغل نفسه إما بالمطالعة أو بالاستماع إلى قارئ يقرأ له ، أو بكتابة المذكرات . كان أحد أولئك الذين يرون أنه يجب ألا يتم أى شيء فى عجلة وأنه قل أن كانت هناك جريمة أسوأ من إضاعة الوقت » .

ولكن قلما ذكره الناس اليوم بهذا العمل المتواصل المضنى ، بل يذكرونه بأنه كان من أحسن شراح الفلسفة الرواقية . وهو فى كتابه (التأملات) التى سطرها فى المعسكر والبلاط على السواء ، قد سجل من خطرات نفس من النفوس الإنسانية قدراً كبيراً ينشىء له فى كل جيل سلسلة جديدة من الأصدقاء والمعجبين

وانتهى بموت ماركوس أوريليوس دور من أدوار الوحدة والحكومة الصالحة نسبياً ، وكان حكم ابنه كومودوس فاتحة عصر من عصور الفوضى . وفى الحق أقامت الإمبراطورية فى سلام داخلى استمر مئتى سنة . والآن يجب على دارس تاريخ الرومان فى مئة السنة التالية أن يجلو أمام ناظريه الجرائم المتنوعة التى ارتكبها عدد من الأباطرة الضعاف ، على حين كانت الحدود تتكسر وتتراجع تحت ضغط البرابرة . ويبدو فيهم واحد أو اثنان فقط من ذوى المقدرة أمثال سبتيميوس سيفيروس (Septimius Severus) وأورليان (Aurelian) وبروبوس (Probus) وكان سبتيميوس سيفيروس قرطاجيا ، ولم تستطع أخته قط أن تحسن اللاتينية . فكانت تدير دارها الرومانية وبلاطها باللغة البونية (الفينيقية) مما جعل عظام كاتو الأسن تتقلب فى قبره تململا . وكان سائر أباطرة ذلك العصر فى معظم الشأن مغامرين أقل وزنا من أن يلتفت إليهم فى هذا المنهج الذى تستعرض فيه الأمور بوجه عام . وكثيراً ما كان يظهر بين الفينة والفينة أباطرة مختلفون يحكمون فى أجزاء مختلفة من الإمبراطورية الممزقة وإنما الإمبراطور ديكيوس (Decius) الذى هزم وقتل فى أثناء غارة القوط العظيمة على تراقيا (٢٥١ م) والإمبراطور فاليريان (Valerian) الذى قبض عليه شاه فارس الساسانى وسقطت فى يده مدينة أنطاكية (Antioch) العظيمة عام (٢٦٠ م) هما الجديران بالعناية وما ذلك إلا لأنهما يؤذنان بما لحق النظام الرومانى جميعاً من التقلقل وعدم الأمان ، كما يدلان على طابع الضغط الخارجى عليه . وهكذا أيضاً كان شأن كلوديوس ، «قاهر القوط» لأنه فاز بنصر عظيم على هؤلاء القوم فى نيش ببلاد الصرب (٢٦٩ م) ، ولأنه مات بالطاعون . كما مات بركليس به من قبل .

وفى كل هاته القرون كانت الأوبئة المغبة تلعب دوراً فى إضعاف الشعوب وتغيير

الأحوال الاجتماعية ، وهو دور لا يزال لزاما على المؤرخين أن يوفوه حقه من الدرس . فقد حدث مثلا طاعون عمّ أرجاء الإمبراطورية بين سنتي (١٦٤ ، ١٨٠ م) إبان حكم الإمبراطور ماركوس أوريليوس والراجح أن قد كان له أثر كبير في إفساد الحياة الاجتماعية ، فمهد الطريق للشغب الذي تلى اعتلاء كومودوس العرش . وهذا الوباء نفسه اجتاح الصين ، كما سنبين ذلك في القسم الخامس من هذا الفصل ، وكانت تجرى كذلك تقلبات جسيمة في المناخ في أثناء القرنين الثاني والثالث ، ترتب عليها أن اشتد ضغط السكان وتزاحمهم . وأنهم كانوا يغيرون مواطنهم بين آن وآخر ، وهي أمور لا يزال على المؤرخين أن يقدروا قيمتها .

ولزاما علينا قبل أن نواصل الكلام في غزوات البرابرة ، ومحاولات أولئك الأباطرة المتأخرين من أمثال دقلديانوس (Diocletian) (٢٨٤ م) وقسطنطين الأكبر (٣٠٦ م) أن يحافظوا على كيان الدولة المترنحة المتناثرة الحائرة في مهب الرياح ، — أن نعرج على وصف شيء من حالات الحياة الإنسانية في الإمبراطورية الرومانية في أثناء قرني رخائها .

٢ — المدنية الرومانية في أوجها

ربما نزع قارئ التاريخ النافد الصبر أن يعد قرني النظام والاستقرار بين (٢٧ ق . م) و ١٨٠ م ، من بين ما ضاع على الجنس البشري من فرص . كان عصر إنفاق أكثر منه عصر إنشاء وابتداع ، عصر فن عمارة وتجارة ، كان الغنيّ فيه يزداد غنى ويزداد فيه الفقير فقراً ، وتنحلُّ فيه روح الإنسان ونفسه . فلو نظرنا إليه نظرة سطحية شاملة كما ينظر إليه محلق بطائرة تعلو عن الأرض بضع ألف قدم ، لوجدنا الرخاء في ازدهار بالغ . ولكنا نلاحظ في كل أرجاء الدولة من « يورك » إلى برقة (Cyrene) ومن لشبونة إلى أنطاكية مدنا كبيرة متينة البناء بها المعابد والمسارح والمدرجات والأسواق وما أشبهها . أجل كنا نجد الآلاف من أمثال هاته المدن ، مزودة « بسقايات الماء » (وهي القنوات المشيدة على قناطر مرتفعة لجر مياه الشرب (aqueduct)) وتربطها طرق عامة ممتازة ، ولا تزال أطلالها تدهشنا بفخامتها وروعتها حتى يومنا هذا ، ولا بد أن يلاحظ المرء زراعة وفيرة وخيرات كثيرة وإن لم يدرك في تحليقه العالي أن هذه الزراعة إنما هي من عمل الأرقاء المتكرهين . وإنه لا بد مبصر في البحر المتوسط والبحر الأحمر حركة مرور عظيمة . وقد لا يستطيع الطيار وهو على مثل ذلك الارتفاع الشاهق أن يتبين عند مرآه سفينتين متجاورتين أن إحداهما سفينة قرصان تنهب الأخرى .

بل لو أن الملاحظ هبط إلى مسافة دانية تساعده على الفحص وتدقيق النظر لشهدت

عيناه قدراً كبيراً آخر من التحسينات أخذ فى التكدس إذ لانت الأخلاق كثيراً وتهذبت بوجه عام منذ أيام يوليوس قيصر . وصحب هذا التحسن والرقى زيادة ملموسة فى الشعور الإنسانى . وقصارى القول أن روما كانت تصعد إلى مستوى المدنية ، الذى سبقتها إليه بلاد الإغريق وبابل ومصر منذ زمن مديد

وفى زمان الأنطونيين ، ظهرت قوانين لحماية الأرقاء من شطط القساوات ، فلم يعد بعدُ مسموحاً لأحد ببيعهم إلى مدارس المجالدين . ولم يقتصر أمر المدن من حيث هيئتها الظاهرة على تجلى المزيد من الفخامة والأبهة فى مبانيها ، بل حدث فى داخل منازل الأثرياء رقى عظيم فى فن الزخرفة . ودخلت بعض التهذيبات الجديدة التى خففت من غلواء الناس فى مآدبهم الغليظة ومتعهم الحيوانية وتظاهرهم السوقى فى أيام رفاهة روما الأولى ، وأصبحت الثياب أفخر وأرق وأكثر جمالا . وقامت بينهم وبين بلاد الصين القاصية تجارة عظيمة فى الحرير لأن شجرة التوت ودودة القز لم تكونا قد بدأتا بعد فى الانتقال غربا فإذا انتهى الحرير إلى روما بعد رحلته الطويلة بالبر والبحر بات يساوى وزنه ذهبا . ومع ذلك كان إقبال الناس عليه عظيما وكان فيض المعادن الثمينة الميممة نحو الشرق كبديل له ، فيضا لا ينقطع له معين .

وأصاب التأنق فى المآكل والمشرب وأساليب الضيافة وفنون إقامة الولائم قسطاً جسيما من التقدم والرقى . ويصف بترونيوس (Petronius) وليمة أقامها رجل من الأثرياء أيام حكم القياصرة الأوَل تتعاقب فيها ألوان الأطعمة تعاقباً رائعا وبعضها لذيذ شهى ، وبعضها الآخر ممتع يأخذ بالألباب ويفوق كل ما تستطيع أن تقدمه أناقة نيويورك الحديثة وفخامتها وخيالها ويتخلل الوليمة عزف الموسيقى وعرض للرقص على الحبل المشدود وألعاب الحواة وإلقاء قطع من هوميروس وما إلى ذلك .

ويتجلى فى أرجاء الإمبراطورية كافة قدر جسيم مما قد نصفه بأنه « ثقافة الموسرين ». وباتت الكتب أوفر عدداً مما كانت عليه قبل زمان القياصرة . ولكم كان الرجال يفاخرون بمكتباتهم ، حتى عندما شغلتهم هموم الثروة ومسؤلياتها شغلا لا يسمح لهم بأن يوجهوا إلى كنوزهم الأدبية أكثر من نظرة عابرة . انتشرت المعرفة بالإغريقية شرقا وانتشرت المعرفة باللاتينية غربا . فلئن أعوزت أحد الرجال المبرزين فى هذه أو تلك من المدن البريطانية أو الغالية أى ثقافة إغريقية عميقة ، كان فى ميسوره أن ينقلب إلى أحد الميدان — ممن يضمن النخاس له حسن إلمامه بالعلوم — ليمده بما يعوزه .

ومن أعظم المحال أن نعالج أدب روما أو فنها بوصفهما شيئاً فى ذاته . فإن كلا منهما يمثل تطوراً مستمراً وجزءاً من الثقافة الهلينية الأعظم منه شأناً والأطول منه عمراً . ذلك بأن الفن الهلينى والآداب الهلينية أنبتت فرعا لاتينيا . وكان الجذع الأصيل موجودا قبل أن نبت الفرع ، ثم استمر الجذع ينمو بعد أن ذوى الغصن . وكان العقل اللاتينى يجنح فى التعبير الأدبى قبل أن يتأثر بالنماذج الإغريقية ، إلى شكل أدبى هو الساتورا (Satura)[1] إن صح أن يطلق عليها لفظ شكل أدبى وهى أسلوب يشبه فى روحه « تمثيلية استعراضية » فى الوقت الحاضر ، وهى خليط من التنديد والتقليد والموسيقى . وظهرت طائفة من الشعراء هم الفاتس[2] (Vates) ينشدون كذلك على مسامع الفلاحين أشعاراً تهكمية هى الأشعار الفسكينية[3] . وكانت هناك خطب ومراث وصلوات دينية . وتطورت « الساتورا » مع تقدم الكتابة إلى هيئة كشكول مخلط من الشعر والنثر ، ثم تطورت هذه مرة أخرى إلى قصص نثرى أكثر تسلسلا . وقد ضاع الكثير من الأدب اللاتينى ، إذ كان معظمه ، لأمر ما ، لا يروق الرهبان المسيحيين ولا يرونه جديراً بالحفظ والاستبقاء ، ولكن لما عمت القراءة وتكاثر إنتاج الكتب ، انتشرت القصص النثرية على الراجح انتشاراً واسعاً جداً ، ولكن لم يبق منها إلا قصاصات وأجزاء قليلة .

ولا مراء أن الشعب الرومانى فى العهد المتأخر من الجمهورية وصدر عصر الإمبراطورية كان جمهوراً محباً لقراءة القصص الخيالية . فإن كتاب الساتيريكون[4] الذى ألفه بترونيوس (Satyricon of Petronius) والذى يرجع إلى زمان نيرون ، من أشد الآثار الأدبية الباقية توضيحاً لهذا الرأى . فما من أحد مارس فن القصة قط يستطيع أن يقرأ تلك القطعة الزاكية دون أن يدرك امتيازها بالصنعة الفنية العالية . ولا بد أن قد كانت توجد مئات من تلك الكتب ، ولا بد أن عشرات من الرجال كانوا يشتغلون بفن الكتابة ، قبل أن يصبح إنتاج مسرحية الساتيريكون فى حيز الإمكان . وثمت منحى آخر تجد فيه هجاء هوراس (Horace) وجوفينال (Juvenal) الشعرى مديناً لروح « الساتورا » بالكثير ، وكان هذا أيضاً طرازاً واسع الانتشار من مادة القراءة . بيد أنه منذ القرن الثالث ق . م وما يليه ،

---

(١) Satura كلمة لاتينية معناها الهجو والقدح المصوغ فى قالب شعرى تهذيبى .

(٢) Vates كلمة لاتينية معناها شاعر أو منشد ملهم .

(٣) نسبة إلى مدينة فى أتروريا تسمى فسكينيا Fescennia والشعر الفسكينى هو الشعر الروائى الغنائى أو الهجائى الرخيص .

(٤) الساتيريكون قصة تشبه الرواية الهزلية ، فيها خلاعة وتتخللها الفلتات من الهجو القارص .

فرض المؤثر الإغريقى على الذهن اللاتينى الأشكال التى استقرت عليها فيما سلف الكوميديا الإغريقية . والملهاة اللاتينية توشك أن تكون صورة إغريقية ذات صبغة لاتينية أكثر منها تطوراً محلياً محتفظاً بطابعه القوى الخاص . وما على القارئ الذى قد يرغب فى أن يرى نموذجا من منهجها إلا أن يلقى نظرة إلى مسرحيات بلوتوس (Plautus) وتيرنس (Terence) وهى فى متناول يده .

وكان هناك أيضاً تراث لاتينى مستقل من النثر الواضح البين الذى بذل كاتو الرقيب كثيراً من الجهد فى الإبقاء عليه . ومن الشائق الممتع أن يقارن المرء بين كتاب قيصر عن الحرب الغالية (De Bello Gallico) وبين مؤلفات توسيديدس Thucydides فى سهولة مدخله وقوة تماسكه . فلو جاز لنا أن نصدم العلماء المدققين المیالین إلى الجد والرزانة بتشبيه طريف ولكنه مناسب ، فإن الأول للثانى أشبه شيء بحقيبة الزينة المجهزة بكامل أدواتها إلى جوار منضدة المزدان (التسريحة) .

كانت منزلة العلوم الإغريقية ذات الطراز الذى تعارف الناس على قبوله وإقراره تعادل فى رفعتها بروما أثناء عصر أنطونينوس بيوس ، المقام الذى تبوأته فى أكسفورد وكمبردج بإنجلترا إبان حكم الملكة فكتوريا . وكان العالم الإغريقى يلقى من الاحترام الغافل السادر والاحتقار العملى نفس المزيج الذى كان يلقاه علماء اليونانية القديمة إذ ذاك . وبرز فى الدراسة الإغريقية المدد الجم من الباحثين كما ظهر فيها قدر جسيم جداً من مدونات النقد والتعليق . وفى الحق لقد بلغ الإعجاب بالآداب الإغريقية ، حداً كاد يقضى على الروح الإغريقية قضاء تاماً . وكانت ملاحظات أرسطو المدونة تلقى من عالى التقدير ما يُحْبط أية محاولة لتقليد عمله بموالاة البحث العلمى . وطاول شيشرون كلا من ديموستنيز وسالوست Sallust المؤرخين الإغريقيين . وتعلم كاتولوس (Catullus) من خير النماذج الإغريقية كيف يهتك الستر عن خفايا قلبه . وكما كان لبلاد الإغريق ملاحمها وما إليها من أدب ، أحس الرومان أنهم كذلك يجب أن تكون لديهم ملاحمهم . وكان عصر أوغسطوس عصر رياء باهر ، فأخذ فرجيل نفسه — فى تواضع وعزم توجا بالنجح وارشاقة — بمطاولة الأوذيسيا والإلياذة بملحمته الإنيادة (Aeneid) مطاولة نستشف فيها الشعر الوجدانى ويتحدى أوفيد Ovid وهوراس Horace خير شعراء الإغريق فى الأشعار الغنائية Lyric والمراثى .

وكان فيض من الأدب الإغريقى يدارج هذا (العصر الذهبى) للأدب اللاتينى ، متدارك التيار تداركا عريضا زاخراً . حتى إذا انقضى على هبوط قوة الدفع اللاتينية زمان طويل كان العالم الإغريقى ما يزال غنيا بالإنتاج . بل لقد واصل مسيره بلا انقطاع حتى عصر الأدب

المسيحي المبكر . ولقد أسلفنا لك القول عن البدايات الفكرية الزاكية في الإسكندرية وعن انحطاط أثينا النسبي . فلئن مات علم الإسكندرية للفور وذوى ، فإن الفيض الأدبي لم يكف عن منافسة روما منافسة وسطا بين بين . وكان إقبال الناس هائلا على نسخ الكتب التي لم يكن منزل أي موسر يعد وافياً كاملا بدونها . واستمر تدوين التاريخ وكتابة التراجم . وقد تكلم بوليبيوس (Polybius) — (حوالى ٢٠٤ — ١٢٢ ق . م) عن غزو روما لبلاد الإغريق . وأنشأ بلوتارك حوالى (٥٠ م — ١٠٠ م) دراساته الفذة عن عظماء الرجال . وظهرت أضرب هائلة من القصص والمحاورات ، وقد ضاع الآن معظمها مرة ثانية . وكان لوكيان Lucian (١٢٠ ؟ — ٢٠٠ م) كاتبا قديراً واسع الخيال مبتكراً وهو لايزال موضع تقديرنا وإعجابنا . وكانت حركة النقل والترجمة بين الإغريقية واللاتينية عظيمة جسيمة . ومن ثم فإن الأدبين يكتنفهما جو فكري واحد ويكادان أن يكونا متدانيين تداني الأدبين الإنجليزي والأمريكي اليوم .

كل هاته الثقافة الواسعة الانتشار التي كانت بين يدي السراة من أرباب البيوتات إنما هي مما يعلي قدر الإمبراطورية الرومانية في صدرها الأول ، ويستفيد منها جيبون أكبر الفائدة في استعراضه البهيج الرائع لعصر الأنطونيين ، الذي يفتتح به كتابه « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » . وكانت خطته التي اختطها لذلك السفر الجليل تستلزم مقدمة (ديباجة) قوامها الفخامة والسكينة والوقار . ولكنه كان أحصف وأمهر من أن يفوته أن يخفف من استحسانه الظاهر على الأحوال التي يصفها . فيقول إنه « في ظلال الإمبراطورية الرومانية ، كان مجهود شعب مجد ذكي منصرفاً بطرق شتى ولكن من غير انقطاع إلى خدمة الموسرين . وكان الذين آثرهم الحظ بالثراء يضمون في ثيابهم وموائدهم ومنازلهم ورياشهم ، أشتات كل رقي أصابته الكماليات ووسائل الراحة ، وكل شيء من شأنه أن يرضي كبرياءهم ، أو يشبع شهواتهم . ولقد حمل الأخلاقيون في كل عصر على هذه الكماليات ونعتوها بالترف ذلك الاسم البشع الشنيع . وربما كان أجدى وأدعى إلى الفضيلة في الجنس البشري وأدنى إلى سعادته أن يمتلك الكل ضروريات الحياة ، ولا يمتلك أحد ما يزيد عن حاجته فيها . ولكن الذي نشهده فيما يكتنف الجماعة الإنسانية اليوم من أحوال يعتورها النقص ، أن الترف وإن كان يصدر عن الرذيلة أو السفه والحماقة إلا أنه يبدو الوسيلة الوحيدة التي في طوقها أن تصلح عدم المساواة في توزيع الملكية . فإن العامل الميكانيكي المجد والفنان الحاذق اللذين لم يحصلا على نصيبهما من الأرض ، يتسلمان من ملاك الأراضي ضريبة اختيارية . ويحس هؤلاء الأخيرون بدافع المصلحة الذاتية بضرورة الاهتمام بتحسين هاته المزارع ، التي يستطيعون أن يحصلوا على

ملذات إضافية عن طريق منتجاتها ، فهذه العملية التي تلمس تأثيراتها الخاصة في كل جماعة إنسانية كانت أبعد أثراً وأقوى نشاطاً وأوسع مدى في العالم الروماني منها في أي مجتمع آخر.

فلو أن صناع سلع الترف وتجارها ، لم يستردوا بطريقة غير محسوسة إلى الرعايا المجدين المبالغ التي كانت تفرضها عليهم جيوش روما وسلطاتها لاستنزفت كل ثروة المقاطعات في وقت قصير » . وعلى هـذا الحال استمر جيبون يتكلم في تهكم لاذع في كل ثنايا ذلك الوصف الزاهر .

فلو أنا نظرنا نظرة أوسع مثل تلك التي تهيأ لطائرة محلقة ، إلى حركة الشعوب على ظهر البسيطة ، أو نظرة أدق مما تستطيع أن تصل بنا إليه مشاهدة ما في الطرقات والمدرجات والولائم ، نظرة تنفذ إلى أرواح الرجال وأفكارهم ، فإنا سنجد أن ذلك المظهر الرائع للرخاء المادي إنما هو مجرد ثوب براق لنظام حكومي في دولة مدينة قد عميت عيناه عن كل ما في الخارج والداخل من الأمور كما عميت عن المستقبل . فلو أنا مثلا وازنا بين قرني عظمة روما والفرص الطيبة التي سنحت فيهما ، وهما القرنان الأول والثاني الميلاديان ، وبين قرني الحياة الإغريقية والهلينية ، المبتدئين في قرابة (٤٦٦ ق . م) بسيادة بركليس في أثينا ، لأذهلنا انعدام العلم والمعرفة بينهم . ذلك أنا لا نستطيع أن نقول إن العلم كان لديهم وإن ناقصاً أو منحط الدرجة بل هو وايم الحق منعدم تمام الانعدام . فإن صدوف الروماني الغني عن الاستطلاع وإعراض الحكام الرومان عن البحث والتنقيب كان ظاهرة تفوق في جسامتها كل شيء لديهم حتى فنهم المعماري .

وهناك مجال واحد من مجالات المعرفة ، ربما حقَّ لنا أن نتوقع من الرومان أن يظهروا فيه شيئاً من النشاط واليقظة والإقدام بصفة خاصة ، وأعني به علم الجغرافيا . فإن مصالحهم السياسية كانت تقتضيهم بحثا متواصلا في الأحوال السائدة فيما وراء حدودهم من أقاليم ، ومع ذلك فإن ذلك البحث لم يتم قط . وليس هناك بالفعل أي مصنفات دون الرومان فيها قيامهم برحلات وكشوف وراء الحدود الإمبراطورية ، وليس هناك أي بيانات شائقة عجيبة كالتي يذكرها هيرودوت عن الإسكيذيين والإفريقيين ومن إليهم . وليس في اللاتينية شيء تستطيع أن تقارنه بالأوصاف الأولى للهند وسيبيريا ، الواردة في اللغة الصينية . ولقد ذهبت الكتائب الرومانية يوما ما إلى إسكتلندة ، ومع ذلك فلم يخلفوا أي وصف يتجلى فيه الذكاء الحق لقبائل البكت (Picts) أو الإسكتش (Scots) فضلا عن أي وصف لما وراءهم

من بحار . ويبدو أن أمثال تلك الكشوف التي قام بها هانو أو الفرعون نخاو كانت مما لا يخطر للخيال الروماني ببال .

والراجح أنه بعد تدمير قرطاجنة هبط عدد السفن التي كانت تخرج إلى المحيط الأطلسي مارة بمضيق جبل طارق ، إلى قدر لا يكاد يذكر . وأكثر من هذا استحالة في ذلك العالم ، عالم الثروة السوقية ، والذكاء المستعبد ، والحكم البيروقراطي ، وجود أي مزيد من التطور في علمي الفلك والجغرافيا الطبيعية الإسكندرانيين . بل ليس يبدو أن الرومان بحثوا في هيئة الرجال الذين ينسجون الحرير ويجهزون التوابل والأفاوية أو يجمعون الكهرمان أو اللآلىء التي كانت ترد إلى أسواقهم . ومع ذلك فإن سبل البحث كانت مفتحة ميسرة . فأما أن الطرق كانت تمتد في كل اتجاه ميسرة الخروج لكل من أراد استكشافا ، فأمر لا يعسر على القارىء تذكره وتصوره .

« وكانت[١] أشد أقطار العالم القديم بعدا ، تنهب لكي تمد روما بألوان الأبهة والملذات وكانت غابات إسكيذيا تقدم الفراء الثمين . وكان يؤتى بالكهرمان بطريق البر من شواطىء البلطيق إلى الدانوب ، وكان البرابرة يعجبون للأسعار التي كانوا يتسلمونها في مقابل هذه السلعة المدعة الفائدة . وكان الطلب على الأبسطة البابلية والمصنوعات الشرقية الأخرى جسيما . بيد أن أهم فرع للتجارة الأجنبية كان مع بلاد العرب والهند . ففي كل سنة قرابة زمن الانقلاب الصيفي ، كان أسطول مكون من مئة وعشرين سفينة ، يبحر من ميوس هورموس Myos Hormos وهي ميناء مصرية على البحر الأحمر ، ويقطع المحيط بمساعدة الرياح الموسمية الدورية فيما يقرب من أربعين يوما . وكان ساحل مالابار أو جزيرة سيلان ، هدف رحلتهم البحرية في العادة ، وفي هذه الأسواق كان التجار الوافدون من أقطار آسيا القصية ينتظرون قدومهم . وكان موعد عودة الأسطول إلى مصر هو شهر ديسمبر أو يناير ، وما أن تنقل حمولته الثمينة على ظهور الجمال من البحر الأحمر إلى نهر النيل ، فتنساب في ذلك النهر إلى الاسكندرية حتى تفيض على الفور إلى عاصمة الإمبراطورية » .

وكانت هناك مستودعات رومانية في جنوب الهند ، وفصيلتان من الجيش الروماني ترابطان في كرانجانور Cranganore على ساحل مالابار ، حيث أقيم هناك أيضا معبد لأوغسطوس .

ومع ذلك فإن روما كانت قانعة بأن تأدب المآدب وتحتم أداء الأموال إليها وتترى

---

(١) اقتباس عن جيبون .

وتشاهد حفلات مجالسها ، دون أن تبدى أدنى محاولة لتعلم شيئا عن الهند أو الصين أو فارس أو إسكيذيا أو بوذا أو زرواستر أو عن الهون أو الزنوج وسكان إسكندناوه أو شيئا من أسرار البحر الغربي .

ونحن إذا أدركنا الجو الاجتماعى الموات الخالى من الإلهام الذى أذن بمثل هذا الجمود وعدم الاهتمام ، استطعنا أن نتعرف الأسباب التى جعلت روما ، إبان عصر الفرصة السانحة لها تفشل فى أن تنهض بأى علم فيزيقى أو كيماوى ، وأن لا تحصل نتيجة لهذا ، على أى سلطان متزايد على المادة . وكان غالب الأطباء فى روما من الإغريق وكان الكثير منهم عبدانا أرقاء — ذلك أن أثرياء الرومان قد غاب عنهم أن العقل البشرى المشترى بالمال إنما هو عقل تالف ومع ذلك فإن هذا الحال لم يكن راجعاً إلى أى قصور فى النبوغ الطبيعى لدى الشعب الرومانى بل كان راجعا فى كليته إلى أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية .

وقد أنتجت إيطاليا منذ العصور الوسطى حتى أيامنا هذه ، عددا كبيرا من رجال العلم الأذكياء . وكان من بين أحصف الكتاب والعلماء وأنفذهم بصيرة ، إيطالى ملهم يدعى لوكريشيوس Lucretius — عاش بين زمن ماريوس ويوليوس قيصر — (من قرابة ١٠٠ إلى قرابة ٥٥ ق . م) . وكان هذا الرجل العجيب من صنف ليوناردو دافنشى (وهو إيطالى كذلك) ، أو من طراز نيوتن الإنجليزى فكتب عن أساليب الطبيعة وتطورها قصيدة لاتينية عصماء طويلة تسمى « فى طبيعة الأشياء » De Rerum Natura تنبأ فيها بأسرار تكوين المادة والتاريخ الأول للجنس البشرى ، فأظهر بذلك من نفاذ البصيرة والإلهام كل عجيب مدهش . ويبدى أوسبورن إعجابا عظيما بلوكريشيوس حين يقتبس منه فى كتابه « العصر الحجرى » فقرات طويلة فى وصف الرجل البدائى وهى اليوم من الجودة ومطابقة الحقيقة بمكان عظيم . بيد أن هذا كان مظهراً فردياً ، وكان بذرة لم تؤت ثمارها . فكان العلم الرومانى يولد ميتا خامداً إلى جو خانق من الثراء والضغط العسكرى . والشخص الحقيقى الذى يمثل موقف الرومانى القديم من العلم ، ليس هو لوكريشيوس ، وإنما هو ذلك الجندى الرومانى الذى قطع أرشميدس إربا عند فتح سيراقوزة عنوة .

فلئن ضويت العلوم الفيزيقية والبيولوجية واضمحلت وقضت وسط الرخاء فى تربة روما الحجرية الصلدة ، فإن بذور العلوم السياسية والاجتماعية لم تتح لها البتة فرصة تساعد على إنباتها ، فكانت المناقشة السياسية تعد خيانة للإمبراطور ، وكان البحث الاجتماعى أو الاقتصادى

يعد تهديداً للأثرياء ولذا فإن روما حتى نزلت بها الكارثة ، لم تتبين قط مبلغ سلامة بنيانها الاجتماعي بالفحص والتمحيص ولم تبحث البتة فى الغاية القصوى من وراء تمسكها بالروح الحكومية الجامدة وتقاليدها الرسمية . وبناء على هذا فإن واحداً من الناس لم يدرك خطورة فشلها فى إقامة صرح أى خيال ذهنى ترتبط به أجزاء إمبراطوريتها بعضها ببعض ، ولا أى تعليم عام يقوم على فكرات مشتركة تجعل الرجال يقاتلون ويشتغلون فى سبيل الإمبراطورية كما يقاتل الرجال ويكدون من أجل تراث عزيز عليهم . على أن حكام الإمبراطورية الرومانية لم يكونوا يرغبون فى أن يحارب ممادنوهم بأية روح مهما يكن ما يحاربون من أجله . وكان الأغنياء قد أكلوا قلب الشعب عامة ، وكانوا قانعين بالوجبة التى طعموها . وكانت الكتائب مليئة بالألمان والبريطان والنوميديين ومن إليهم . وكان أغنياء الرومان يظنون ، حتى أحاطت بهم النهاية بقضها وقضيضها ، أنهم يستطيعون أن يواصلوا شراء المتبربرين ليدفعوا عنهم غائلة العدو فى الخارج والفقراء المتمردين فى الداخل .

وبحسبك هذا البيان التالى لإظهار كم كان ما أتمه الرومان من التعليم ضئيلا إذ يقول مستر ﻫ . ستيوارت جونس « منح يوليوس قيصر حقوق المادنة الرومانيـة (لمعلمى الفنون الحرة) وأسبغ فسبازيان على وظائف أساتذة الخطابة الإغريقية واللاتينية الهبات بروما . وبسط من تلاها من أباطرة وعلى الخصوص أنطونينوس بيوس تلك المزايا نفسها إلى الأقاليم والولايات . كذلك لقيت بعض مشروعات التعليم المحلية شيئاً من العناية والتشجيع والمعونة المالية . وإنا لنعلم من مراسلات بلينى (Pliny) الأصغر أن المدارس العامة أنشئت فى مدن إيطاليا الشمالية . ومع أن العرفان انتشر انتشاراً كبيراً إبان حكم الإمبراطورية فلم يكن ثمة تقدم ذهنى حق . حقاً إن أوغسطوس جمع من حوله أذكى كتاب زمانه ، واتفق أن جاء مطلع الملكية الجديدة مع العصر الذهبى للأدب الرومانى . بيد أن هذا العصر كان قصير الأجل . وشهدت بواكير الحقبة المسيحية ، انتصار الروح القديمة الكلاسيكية كما شهدت أول مراحل السقوط التى تنتظر كل الحركات الأدبية التي تتجه إلى الماضى أكثر منه إلى المستقبل .

وقد دبج كاتب إغريقى لعله لونجينيوس فيلولوجوس (Longinus Philologus) مقالا عن الممتاز الفاخر من الأشياء شخص فيه حالة الانحطاط الذهنى التى يرسف فيها عصره — وهو يقع فى زمن ما من القرن الثانى أو الثالث أو الرابع الميلادى — مبينا فيه بغاية الوضوح عاملا واحداً ظاهراً يرجع إليه الداء العقلى فى العالم الرومانى . وينقل عنه جيبون فيقول : « إن

لونجينيوس الرفيع القدر الذى عاش فى زمان متأخر بعض الشىء وفى بلاط ملكة سورية (هى زنوبيا) وتوفر على حفظ روح أثينا القديمة ، استرعى انتباهه وحزنه انحلال معاصريه ، الذى حط من عواطفهم وأوهن من شجاعتهم وفت فى عضدهم وضيق الأفق أمام مواهبهم ، وفى هذا الصدد يقول « وعلى هذه الشاكلة نفسها فكما أن بعض الأطفال يظلون على الدوام أقزاما إذا ضغطت أطرافهم فى طفولتها ضغطاً شديداً ، فكذلك عقولنا اللينة ، حين يغلها ما يملأها من التحامل والتحزب ، وما يتعوده الناس وينشأون عليه من عبودية عادلة ، إذ تصبح غير قادرة على بسط نفسها أو الوصول إلى ذلك العظم والكبر الحسن التناسب الذى نعجب به فى القدماء الذين — إذ يعيشون فى ظلال حكومة شعبية — كانوا يكتبون بكامل الحرية التى بها يتصرفون » .

بيد أن هذا الناقد لم يدرك سوى وجه واحد من أوجه القيود التي كانت تغل النشاط العقلى . فإن أهم الخيوط التى غلت العقل الرومانى وجماته فى حالة مستديمة من الطفولة ، كانت تتضمن استعباداً مزدوجاً ، أحدهما اقتصادى والثانى سياسى . والبيان الذى يدلى به جيبون عن حياة رجل اسمه هيروديس أتيكوس (Herodes Atticus) ، ونشاطه الذى كان يبديه فى زمان هادريان ، يبين كم كان نصيب المادن العادى من أبهة الزمان الخارجية ضئيلا لا يذكر . كان هذا الأتيكوس من أرباب الثراء الطائل ، وكان رأس ما يتسلى به تقديمه منحاً خيرية ضخمة من المبانى لمدن متنوعة ، فنح أثينا ميداناً للسباق وأقام هناك مسرحاً من خشب الأرز محفوراً حفراً عجيباً تخليداً لذكرى زوجته . وبُنى مسرح فى كورنثة ، ومنحت دلفى ميداناً للسباق وأنشئت الحمامات بترموبيلاى وبنيت بكانوزيوم (Canusium) قناة حجرية لجر المياه وهكذا دواليك . وإن لسان المرء لينعقد ذهولا لرؤيته عالما كهذا مكوناً من أرقاء وعامة لا يستشارون ولا يقام لرأيهم وزن يستشرف على رؤوسهم ذلك الرجل الغنى مستمتعا بتجلية مزاجه وذوقه . ولا تزال كتابات عديدة فى بلاد الإغريق وآسيا ، تخلد اسم هيروديس أتيكوس (النصير والمحسن) الذى كان يتنزه فى أرجاء الإمبراطورية نزهته فى حديقته الخاصة فأبقى ذكراه على الأيام بهذه الزخارف والنقوش . ولم يقتصر على العناية بالمبانى الفاخرة . بل كان أيضاً فيلسوفا ، وإن لم يبق الزمن لنا من حكمته شيئاً . كانت له فيلا كبيرة بالقرب من أثينا ، وهناك كان الفلاسفة ينزلون ضيوفاً كراماً ما داموا يستطيعون إقناع نصيرهم بصحة مدعياتهم ، وأن يتلقوا حديثه باحترام ، ولا يكدروه بالخصومة الوقحة .

ومن الجلى أن العالم لم يصب شيئاً من التقدم فى أثناء هذين القرنين من الرخاء الذى ساد

روما . ولكن هل كان العالم سعيداً فى ركوده هذا ؟ إن هناك من الدلالات التى لا يتطرق الخطأ إليها ما يشير إلى أن الأغلبية العظمى من الكائنات الإنسانية فى الإمبراطورية ، وهى كتلة من الناس يتراوح عددها بين مئة مليون ومئة وخمسين مليونا ، لم تكن بالسعيدة ، بل الراجح أنها كانت جد شقية شقاء حاداً بالغا يتوارى تحت ستار خارجى من الفخامة والعظمة . حقا إنه لم تحدث حروب عظيمة ولا غزوات داخل الإمبراطورية ولم يحل بالجنس البشرى إلا الشىء الطفيف التافه من المجاعة أو الحريق أو المذابح . ولكن كان هناك من الناحية الأخرى ، تضييق شديد من جانب الحكومة وتضييق أشد من جانب الملاك الأغنياء يحدان من حرية نشاط كل إنسان تقريباً . فإن الحياة لدى الغالبية العظمى التى لم تكن بالغنية ولا الموظفة ، ولا هى من عنصر النساء والطفيليين الذين يلوذون بالأغنياء والموظفين ، لا بد أن كانت حافلة بالشغل المضنى والكدح الشديد ، يعوزها الأمل والوازع وتنقصها الحرية إلى حد لا يكاد يتصوره عقل حديث .

وربما جاز لنا أن نذكر بصفة خاصة ثلاثة عوامل تدعم كلها الرأى القائل بأن هذا العصر كان عصر تعاسة وبؤس شامل . فأول هذه هو جمود السكان وموت إحساسهم العجيب حيال الحوادث السياسية . فلطالما رأوا مدعيا لعرش الإمبراطورية من محدثى النعمة يخلف مدعيا آخر دون أن يبدو عليهم أى اهتمام أو مبالاة . فليس يلوح أن مثل هذه الأمور كانت تعنيهم . فقد زال الرجاء من النفوس ، فلما أن تدفق البرابرة يهددون ذلك على الإمبراطورية ، لم يكن هناك من يواجههم إلا الكتائب . فلم يحدث يوما أن هب الشعب لمقاتلتهم . وليس من ريب أن عدد البرابرة فى كل مكان كان أقل من عدد الرومان لو خفّ الأهالى لمقاومتهم . بيد أن الأهالى لم يقاوموا ! وواضح أن الدولة الرومانية لم تكن تبدو فى نظر كتلة سكانها شيئاً يستحق أن يحارب المرء من أجله . ولعل الرقيق وعامة الشعب كانوا يرون فى البرابرة مؤذناً بقدر من الحرية والكرامة الإنسانية أكبر مما كان يمنحهم إياه حكم موظفى الإمبراطورية الفاخر واستخدام الأغنياء لهم ذلك الاستخدام المضنى الطاحن . ولم يكن نهب القصور وإحراقها وحدوث مذبحة من وقت إلى آخر مما تنزعج له الطبقة الدنيا الرومانية ، انزعاج الأغنياء والمثقفين الذين نحن لهم مدينون بكل ما لدينا من أخبار عن تحطم النظام الإمبراطورى . والراجح أن عدداً كبيراً من الأرقاء والعامة لحقوا بالبرابرة ، الذين لم يكونوا يعرفون إلا القليل من التحزب العنصرى أو الوطنى ، كانوا طلقى اليدين يرحبون بكل جندى تتبدى فيه أمارات الاقتدار . ولا ريب أن السكان وجدوا البرابرة أشد وبالا حتى من جامع الضرائب

والنخاس فى كثير من الأحوال . بيد أن هذا الاكتشاف جاء بعد فوات فرصة المقاومة أو استعادة النظام القديم .

وإنا لنجد ظاهرة ثانية تشير إلى نفس هذا الاستنتاج هى أن الحياة فى أعين الفقراء والعبدان وغالبية الناس أثناء عصر الأنطونيين لم تكد تكون جديرة بأن يحياها الإنسان . ويجب ألا يغرب عن بالنا التناقص المطرد فى عدد سكان الإمبراطورية . فكان الناس يأبون أن يكون لهم عقب . وأغلب الظن أنهم كانوا يفعلون ذلك لأن منازلهم لم تكن فى أمنة من الاضطهاد ، ولأنه لم يكن هناك فى حالة العبدان أى ضمان يضمن ألا يفرق السيد بين الزوج وزوجه ، ولأن الآباء لم يكونوا يعقدون على أولادهم أى أمل أو فخار ، والمجالى المظيمة لإنتاج النسل والأبناء فى الدول الحديثة ، هى على الدوام أرض الريف الزراعية ، حيث يعيش الريفيون فى ظلال أمن واطمئنان يتفاوتان قدراً . بيد أنه فى ظلال الإمبراطورية الرومانية كان الفلاح والزارع الصغير فى ريفه بين مدين قد أرهقه الدين وأوهنه ، وبين شخص تضيق عليه شبكة حرجة من القيود تجعل منه مولى أرض Serf ، لا روح فيه ، أو كان يطرد طرداً تاماً ويحل محله فى العمل والإنتاج عصبات من الأرقاء .

ثم تتكشف لنا أيضاً دلالة ثالثة على أن هذا العصر المزدهر فى ظاهره كان عصر تعاسة عميقة ومحنة عقلية لدى جماهير غفيرة ، ويتجلى هذا فى انتشار حركات دينية جديدة بين جميع السكان . ولقد رأينا كيف أنه يمكن فى حالة قطر يهوذا الصغير ، أن يصاب شعب بأكمله بعدوى الاقتناع بأن الحياة خاطئة غير مرضية ، وأنه لا بدّ لها من شيء يقوم ما أعوج منها . ومن ثم تبلرت أذهان اليهود كما نعرف ، حول فكرة الوعد ، وعد الإله الأحد الحق ومجيء مخلص أو مسيح . وثمة فكرات أخرى تكاد تخالف هذه ، أخذت تنتشر فى الإمبراطورية الرومانية . وهى لم تكن غير أجوبة متنوعة على سؤال واحد يتردد على ألسنة الناس عامة : « ماذا يجب علينا أن نفعل للوصول إلى الخلاص » . فإن النتيجة الطبيعية المألوفة للتبرم بهذا الضرب من الحياة على ما هى عليه ، مما لا بد أن يطيح بالخيال إلى حياة بعد حياتنا هذه ، تعوض على الناس كل ما يلقونه فى هذه الحياة الدنيا من التعاسات والمظالم . والاعتقاد بمثل هذا الجزاء ، إنما هو مسكن عظيم للشعور بالتعاسات الحاضرة . وكانت الديانة المصرية من قديم الزمان مشبعة بفكرة الخلود ؛ وقد رأينا كيف أن هذه الفكرة كانت محورية أساسية فى نحلة سيرابيس وإيزيس بالإسكندرية . وقد انتعشت الأسرار العتيقة : أسرار « ديمتر »

و« أورفيوس » ، وهى خفايا جنس البحر الأبيض — وكونت بينها وبين هذه العقائد الجديدة طرازا من الثيوقراسيا Theocrasia[1] أعنى المزج بين هذه الآلهة جميعها .

وكانت الحركة الدينية العظيمة الثانية هى الميثرائية Mithraism وهى تطور للزرادشتية Zoroastrianism ، وهى ديانة ذات أصل عريق فى القدم ، يمكن تقفى أثرها حتى الشعب الهندوإرانى قبل أن يتفرع إلى فرس وهندوس . ولسنا بمستطيعين أن نتبين هنا خفاياها فى أى تفصيل[2] . وكان ميثراس ربا للنور ، وشمسا للبر ، وكان يُمَثَّلُ دائما فى مقاصير محلته وهو يذبح عجلا مقدسا ، دمه هو بذرة الحياة . وبحسبك أن هذه العقيدة عقيدة عبادة ميثراس وصلت إلى الإمبراطورية الرومانية ، قرابة زمان پومپي العظيم مختلطة بعناصر كثيرة مضافة إليها ، وبدأت تشيع شيوعا واسعاً جداً إبان حكم القياصرة والأنطونيين وكانت — شأن عقيدة إيزيس — تعد الناس بالخلود . وكان أتباعها على الأخص من العبيد والجنود ومن ألمت بهم عوادى الزمان .

وكانت فى طرائق عبادتها ، وفى إيقاد الشموع أمام المذبح إلى غير ذلك ، تحمل ضربا معينا من الشبه السطحى بتطورات طقوس الحركة الدينية الكبرى الثالثة فى العالم الرومانى بعد ذلك وأعنى بها المسيحية .

وكانت المسيحية أيضاً مذهب خلود وخلاص ، وانتشرت فى بادئ الأمر هى الأخرى كذلك ، بين مصافّ الطبقات الدنيا والبؤساء . وقد اتهم الكتاب الحديثون الديانة المسيحية بأنها (ديانة الأرقاء) . وكذلك كان حالها فإنها ضمت الأرقاء والمدوسين بالأقدام المهيضى الجانب فمنحتهم الأمل وردت إليهم احترام الذات ، حتى لقد جعلوا يناصرون البر والصلاح مناصرة الرجال ، وواجهوا الاضطهاد والتعذيب . فأما أصل المسيحية وكنهها ، فإننا سنتكلم عنهما بمزيد من الإسهاب فى فصل تال .

٣ — خصائص الفن فى ظلال الإمبراطورية الرومانية

قلنا آنفا إن ثقافة روما الفنية والأدبية كانت مجرد فرع من الثقافة الهلينية العظيمة ، ورث كل ما كانت تستطيع بلاد الإغريق وآسيا الدنيا وبابل ومصر أن تمنحه إياه . بيد أن

---

(١) الثيوقراسيا : هى المزج بين عبادة آلهة مختلفة وقد وردت باسم الثيوقراطية فى بعض مواضع من الكتاب فنرجو أن يصححها القارئ حيثما وجدها .

(٢) راجع كتاب سابقات المسيحية ومنافساتها لمؤلفه ليجى Legge .

هناك اتجاهات بعينها ، اتجه فيها النظام الرومانى وجهات محددة جداً اختص بها وحده ، ولم يكن ذلك إلا فى فن العمارة خاصة . والإمبراطورية الرومانية تؤذن بدور جديد من أدوار التاريخ أى بتغير فى المعيار ، انعكس على ما لمبانيها من الضخامة العظمى والحجم الأكبر . وكانت أهم هبات روما لفن العمارة هى السمنت واستعمال البائكية استعمالا حراً . وحيثما ذهبت الكتائب الرومانية ، ظهرت البائكية (Arch) وظهر السمنت . وبفضل السمنت صارت القباب والأقبية الهائلة أمراً ممكنا ، كما أصبح من اليسير تبطينها بالرخام . واقتبس الرومان العمود الكورنثى الجزل الغنى بالنقوش ثم غيروه وأتقنوه واستعملوه مع البوائك . وإنما الممرات ذات البوائك (Arcade) فكرة رومانية أصيلة . كذلك أظهروا ميلا إلى إقامة المبانى المستديرة ، وإلى وضع البوائك فى الطابقات بعضها فوق بعض . وأينما ذهب الرومان خلفوا المدرجات ، وأقواس النصر والشوارع ذات البوائك وعقود السقايات والقصور الفاخرة . كذلك أنشأوا طرقات على درجات ميل معقولة وشادوا كبارى بديعة وعقود سقايات متقنة (Aqueducts) . وما يزال الإيطالى حتى يومنا هذا خير من ينشىء الطرق فى العالم .

ولم يحدث لفن العمارة الرومانى أى تطور منظم كالذى حدث للمصرى والإغريقى . وكانت الجهود الأولى تحذو حذو النماذج الإترسكية وهى من خشب مكسو بالفخار . ثم ما لبث الحجر أن حلّ محل الخشب تدريجيا . ولكن بقيام الإمبراطورية انتقل المهندس المعارى الإغريقى إلى روما واستخدم من فوره الفرص الجديدة التى أتيحت له والمواد التى وجدها ميسرة فى متناوله . ففن العمارة الرومانى لم يتطور بمقدار ما تفجر فجأة ولكنه إذ تفجر ساد وعم انتشاره .

وقد صحب النسور الرومانية فن نحت قوى ، إغريقى كذلك فى جوهره . وإن مجتمعاً مكوناً من رجال أثرياء كبار ، لمجتمع لا تكاد تكون له مندوحة عن الإنتاج فى فن التصوير ، والتمثال النصفى أو الكلى الذى يصور صاحبه فى مماثلة ذاتية دقيقة ، قد وصل إلى أعلى منزلة لتطوراته فى ظلال العصر الأخير من الجمهورية وصدر عصر القياصرة . وبقى التصوير أيضا مليئاً بالحيوية . وهناك حادثة سعيدة هى حادثة تدمير بركان ڤيزوف لمدينتى پومپياى (Pompeii) وهركولانيوم مع الإبقاء عليهما ، مكنت العالم الحديث أن يقدر ما كان عليه فن التصوير لديهم من الوفرة والتنويع والجمال فى القرن الأول الميلادى . وكانت هاتان المدينتان منتجع الأغنياء ، وإن لم تكونا بأى حال ملتقى أرفع الأغنياء شأنا . ويحمل إلينا ما يحتويان من ثروة فى الطرف أبرز معيار لما ضاع علينا من روائع الفنون وبدائعها .

وكانت الفسيفساء طرازا آخر من الإنتاج الذى برزت فيه الإمبراطورية الرومانية فى عصرها الأول أى مظهر سابق من مظاهر المدنية . كذلك وصلت صناعة الزجاج إلى مستويات عالية فى الجمال ، على يد عمال من الإغريق والشرقيين على الأخص .

وقد أصاب الفن مع حلول النوازل والفوضى التى أطبقت على الإمبراطورية الرومانية الغربية فى نهاية القرن الثانى الميلادى ، توقف فى الكثير من نواحى هذه القوة الإنتاجية الفنية ، واستمر فن عمل الصوَر وانتعش فن العمارة من جديد ، بيد أنه بعد القرن الثالث ، تصلبت الروح الطلقة الفياضة فى كثير من النحائت ، بتأثير المؤثرات الشرقية .

٤ — قدر معين من الركود فى الخيال الرومانى

أسلفنا عليك بيان الأسباب التى حملتنا على تقرير أن النظام الإمبراطورى الرومانى ، كان فى واقع الأمر تطوراً سياسيا جد غير سليم . ومن السخف أن يتناول المرء بالحديث ما كان ينطوى عليه من فن الحكم . إذ لم يكن لديه فن حكم . كانت له فى خير أحواله إدارة بيروقراطية أقامت السلام فى العالم فترة من الزمان وفشلت فشلا تاما فى الاحتفاظ به . فلنلاحظ هنا أهم العوامل فى فشلها .

ومفتاح كل ما أصابها من إخفاق قائم فى غيبة كل نشاط عقلى حر ، وكل تنظيمة لزيادة المعرفة وتطورها وتطبيقها . فكانت تحترم الثراء وتزدرى العلم . وكانت تسلم زمام الحكم للأغنياء ، وتتصور أن الحكماء يمكن أن يشتروا بالمال وأن يساوم عليهم فى أسواق الرقيق عند ما تسنح الحاجة إليهم . فهى قد كانت بناء على هذا إمبراطورية جاهلة سقيمة الخيال إلى حد مروع . فلم تتنبأ بشىء ولم تتوقع شيئاً تحتاط له .

ولم تكن من الناحية الاستراتيجية على أى حظ من بعد النظر ، لأنها كانت صفحة بيضاء فى جهلها بالجغرافيا وعلم السلالات البشرية (الإثنولوجيا) . فهى لم تعرف شيئا عن أحوال روسيا وآسيا الوسطى والشرق . وقنعت بأن تتخذ من الرين والدانوب حداً لها ، وأن لاتبذل أى جهد فى سبيل صبغ ألمانيا بالصبغة الرومانية . وما علينا إلا أن نلقى نظرة إلى خريطة أوربا وآسيا التى تبين الإمبراطورية الرومانية ، لكى ندرك أن ضم دولة ألمانية عن طيب خاطر كان ضرورة ماسة تقتضيها حياة أوربا الغربية وسلامتها . فلما أن أهملت ألمانيا أصبحت إسفينا لم يكن ينقصه لكى يحطم النظام كله بددا إلا أن تدفعه مطرقة الهون من الخلف .

وفضلا عن ذلك فإن هذا التراخى عن توسيع الحدود شمالا حتى البلطيق ، قد جعل منه

ومن بحر الشمال منطقة تجارب وتدريب على فنون الملاحة بين أهل الشمال من سكان إسكندناوه والدانمارك والساحل الفريزى . بيد أن روما واصلت السير فى طريقها بغاية الغباء ، غافلة عن نمو قرصنة فى الشمال أحدث عهداً وأشد قوة .

وكان هذا الخيال الكليل نفسه مما دفع الرومان إلى إهمال الطرق البحرية فى البحر المتوسط دون النهوض بها فى مدارج الرقى . فلما أن تدفق البرابرة من توهم نحو المياه الدفيئة ، فلسنا نقرأ شيئا عن أى نقل سريع للجيوش من أسبانيا أو أفريقيا أو آسيا ، لإنقاذ إيطاليا وسواحل الأدرياتى . وعلى النقيض من ذلك نرى الوندال يصبحون سادة الحوض الغربى للبحر المتوسط دون أن يحدث هناك شىء يشبه معركة بحرية .

وقد صدت الرومان عند نهر الفرات تشكيلات مترادفة من الرماة الراكبة . وكان من الواضح أن الكتيبة الرومانية – بالطريقة التى نظمت بها — ، كانت غير ذات جدوى فى الأرض الفسيحة الرحبة ، ولا بد أن قد كان على نفس الدرجة من الوضوح ، أن الراكبة من المترحلين فى ألمانيا الشرقية وجنوب الروسيا أو پارثيا ، كانوا مجبرين إن عاجلا أو آجلا أن يحاولوا أن يصفوا موقفهم مع الإمبراطورية . بيد أن الرومان بعد زمان قيصر بمئتى سنة ، كانوا ما يزالون يسيرون فى العالم نفس الكتائب المدربة المجلجلة التى لم يداخل نظامها أى تغير وهى التى كان من الميسور الالتفاف حولها ركضا بالجياد وتمزيقها إربا . ولم تتعلم الإمبراطورية أى شىء حتى من معركة كارى .

وإن ما أظهره الاستعمار الرومانى من العجز عن التجديد فى طرق المواصلات لأمر يدعو كذلك إلى الدهشة . إذ كان جليا أن قوة الرومان ووحدتهم تعتمدان على سرعة حركة الجنود وإرسال الأمداد من أحد أجزاء الإمبراطورية إلى الجزء الآخر . وقد شيدت الجمهورية الطرق الفاخرة . ولكن لم تدخل الإمبراطورية عليها أى تحسين . وقبل ظهور الأنطونيين بأربعمئة سنة كان هيرون (Hero) السكندرى قد اخترع أول آلة بخارية . وكانت المدونات الأنيقة التى تسجل مثل هاته البدايات فى العلم من بين الكنوز المهملة التى تضمها مكتبات الأثرياء فى كل أنحاء الممتلكات الإمبراطورية مثلها مثل بذور ألقيت فى أرض من الحجر الصلد . وكانت جيوش ماركوس أوريليوس ورسله تكدح فى قطع الطرق على نفس النسق الذى كانت فيه جيوش سيبيون الإفريقى تكدح بالضبط قبلهم بثلاثة قرون .

ولم ينفك الكتاب الرومان يندبون على الدوام تخنث العصر . فتلك أنشودتهم المحببة

خريطة
اسيا واوربا وهى توضح
الأحوال للحياة فى العصر التاريخى
التندورا
المنطقة الشمالية لأقاليم الغابات
موطن القبائل الرحل
مرتفعات
اراضى زراعية
تندورا
غابات او مراعى
غابات
صحارى
سهوب

(١١٥)

إليهم . وهم قد أدركوا أن الرجال الأحرار من سكان الغابات والسهوب والصحارى ، كانوا مقاتلين أشد بأسا وأكثر استبسالا من ممادنيهم ، غير أن النتيجة الطبيعية الحتمية التى تترتب على تقدم قوة الصناعة لدى مجموعاتهم الضخمة من السكان ، بدرجة تكفل إنتاج العتاد اللازم لضمان السيطرة على أعدائهم البرابرة ، لم تخطر لهم قط على بال . بل تراهم على العكس من ذلك يدخلون البرابرة فى كتائبهم ، ويعلمونهم فنون الحرب ، ويسيرونهم فى أرجاء الإمبراطورية ثم يعيدونهم إلى شعوبهم بعد أن اتقنوا الدرس الذى تعلموه .

فليس عجيبا وحالهم من هذا الإهمال الواضح المتكرر ، حالهم ، — أن يغفل الرومان إغفالا تاما ذلك الأمر الأشد دقة وخفاء وأعنى به روح الإمبراطورية ، فإنهم لم يبذلوا أى جهد لتعليم أو تدريب الناس فيها أو اكتساب قلوبهم حتى يندمجوا فى حياتها تحدوهم الرغبة فى المشاركة والتعاون عن قصد ووعى . إذ كان مثل هذا التعليم أو التدريب فى الواقع متعارضاً مع كل آراء الأغنياء وموظفى الإمبراطورية . وهم قد اتخذوا من الديانة أداة ووسيلة . وتركوا العلم والأدب والتعليم فى يد الأرقاء ، الذين كانوا يربون ويدربون ويباعون كالكلاب والخيل . وكان المغامرون من الرومان فى ميادين المال والعقار عن ما بهم من جهل وصلف ودناءة وهم الذين خلقوا الإمبراطورية ، — يسودونها وقد تملكتهم مشاعر الأمنة والاطمئنان ، على حين كانت عاصفة تدميرهم قد أخذت تتجمع خارج الإمبراطورية وداخلها .

وما حل القرنان الثانى والثالث الميلاديان ، حتى كانت أداة الحكم فى الإمبراطورية المرهقة بالضرائب قد أصابها الإعياء ، وأخذت تترنح نحو الهاوية التى تردت فيها آخر الأمر .

٥ — حركة السهول العظيمة

إذا نحن أردنا أن نفهم فهما واضحا ، مركز الإمبراطورية الرومانية الصحيح وجب علينا أن نشخص بأبصارنا إلى العالم فيما وراء حدودها الشمالية والشرقية ، وهو عالم السهول الذى يمتد امتدادا لا يكاد يكون له انقطاع من هولندة عبر ألمانيا وروسيا حتى جبال آسيا الوسطى ومنغوليا ، وأن نعير بعض التفاتنا إلى الإمبراطورية المماثلة لهذه فى بلاد الصين ، وهى التى كانت آخذة فى التماسك والتطور حتى صارت وحدة أخلاقية وفكرية أشد قوة وأبقى أثراً من تلك التى وصلت إليها الإمبراطورية الرومانية قط .

ويقول المستر ا . ه باركر : « جرت العادة بالناس حتى أعلى رجال أوربا تربيــة وثقافة ، أن يرسلوا جملا طنانة ، يتشدقون فيها (بسيادة الإمبراطورية فى العالم وإخضاعها

كل الشعوب لسلطانها) إلى غير ذلك . على حين كان الأمر فى الحقيقة مقصوراً على بعض نواحى وأطراف البحر المتوسط فقط ، أو القيام ببضع هجمات سريعة الزوال فى بلاد فارس أو بلاد الغال . فإن كلا من قورش والإسكندر ودارا وإجزرسيس وقيصر وبومبى ، قد قاموا بحملات شائقة للغاية . ولكن لا شك أنهما لم تكن فى اتساع نطاقها واحتفالها بالمصالح الإنسانية الكبرى تفوق البتة تلك الحملات التى كانت تجرى فى الطرف الآخر من آسيا .

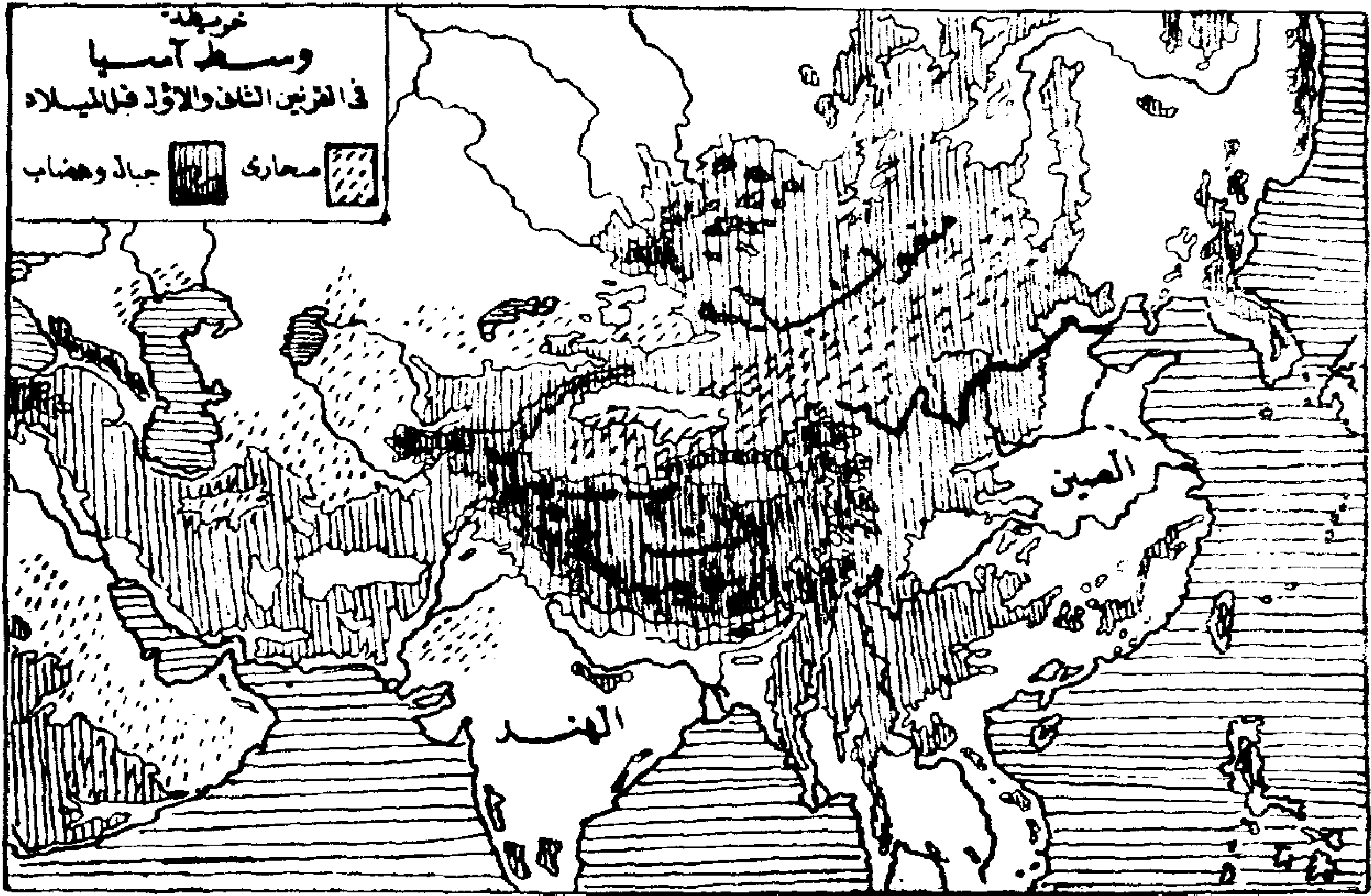
كان فى متناول المدنية الغربية من ألوان الفن والعلم شىء كثير مما لم تعن به الصين أبداً ، غير أن الصينيين من الناحية الأخرى أنتجوا أدبا تاريخيا ونقداً أدبيا ، وكياسة وأدبا للسلوك وترفا فى الثياب ونظاما إداريا ، لعله لو أتيح لأوربا مثله لكان موضع فخارها وزهوها . وموجز القول أن تاريخ الشرق الأقصى لايقل فى أهميته وإمتاعه عن تاريخ الغرب الأقصى . وما هو إلى شىء بأحوج منه إلى القدرة على قراءته . فإذا نفضنا عن بالنا فى شىء من الاحتقار تلك الأحداث الجسام التى مرت على مهول بلاد التتار (Tartary) لكان جديراً بنا ألا نسرف فى لوم الصينيين لعدم صرف عنايتهم واهتمامهم فى شئون دول كانت تبدو لهم لا وزن لها وتقع متناثرة كالنقط حول البحر المتوسط وبحر قزوين ، وهى التى كانت فى ذلك الزمان تمثل كل العالم الذى نعرفه فى أوربا[1] » .

ولقد أسلفنا عليك اسم « شى هوانج تى » ، الذى ربط أجزاء إمبراطورية أصغر فى الواقع كثيراً من حدود الصين الحاضرة ووطد سلطانه بها ، وهى مع ذلك فى غاية من العظم ووفرة السكان ، ولا تبرح تمتد من واديى الهوانج هو واليانج تسى كيانج . ثم أصبح ملكا على « تس إن Ts'in » فى ٢٤٦ ق م ، وأصبح إمبراطورا ٢٢٠ ق م ، واستمر حكمه حتى ٢١٠ ق م فأدى خلال حكمه الذى امتد هذا الثلث القرن الذى قضاه فى توطيد سلطانه نفس العمل الذى أتمه أوغسطوس قيصر فى روما بعد ذلك بقرنين . وقد تنازعت الأسر على العرش عند وفاته واستمر النزاع أربع سنوات ثم مالبثت أسرة جديدة هى أسرة هان أن استوت على عرش الإمبراطورية ٢٠٦ ق . م وحكمت البلاد مدة تسع وعشرين ومئتين من السنين . وقد كدر مغتصب للملك صفو ربع القرن الأول من الحقبة المسيحية . ثم عاد الملك إلى ما يسمى باسم أسرة هان الثانية التى حكمت البلاد قرنا آخر ونصفا من الزمان حتى ظهر فى الصين فى أوان الأنطونيين وباء دام أحد عشر عاما ، أهلك الحرث والنسل وقذف البلاد إلى أحضان الفوضى . ولعلنا نلحظ أيضا أن نفس هذا الوباء ساعد على انتشار الفوضى فى العالم الغربى

---

(١) كتاب « ألف سنة من سنى التتار » تأليف ا . هـ . باركر .

مدة قرن (راجع القسم الأول) . ولكن الصين الوسطى ظلت حتى حدوث هذا الوباء تستمتع بوجه عام بأربعة قرون من السلام وتحظى على الجملة بحكم طيب لا بأس به ، فمرت بذلك فى فترة من القوة والرخاء ليس ثمة ما يماثلها فى خبرة العالم الغربى وأحداثه .



(١١٦)

ولم ينهج إلا أول ملوك أسرة هان على سياسة « شى هوانج تى » ضد رجال العلم والأدب ثم أعاد خلفه الآداب المأثورة (الكلاسيكية) القديمة ، ذلك أنه رأى أن التقاليد القديمة لدعاة الانفصال قد حطمت ؛ وأن توثق عرى الوحدة الصينية يقوم على اتساق العلم وانتشاره فى جميع أرجاء الإمبراطورية . وعلى حين كان العالم الرومانى لا يزال غافلا عن إدراك الحاجة إلى تنظيم للشئون الفكرية ، كان أباطرة أسرة « هان » يقيمون للتعليم وللدرجات الأدبية فى كل أرجاء الصين نظاما متسقا أبقى حتى العصور الحديثة على التماسك الفعلى لذلك القطر العظيم الذي لم ينقطع يوما عن الاتساع . وكان بيروقراطيو روما قوما يرجعون إلى أكثر الأصول اختلافا وأعظم التقاليد تفاوتا وتعددا . على حين كان بيروقراطيو الصين وما يزالون — مطبوعين بطابع واحد ، وكلهم استقى من تقاليد واحدة . وقد ألمت بالصين منذ أيام أسرة هان تقلبات عظيمة فى الحظ السياسى ، بيد أنها لم تغير قط من خصائصها الجوهرية . فقد تقسمت قددا ، غير أنها كانت على الدوام تسترجع وحدتها . وكثيرا ما تغلب عليها أعداؤها ولكنها كانت على الدوام تمتص عدوها وتتمثل قاهرها .

وعندى أن أهم ثمرة هيأها تماسك الصين هذا تحت حكم الملك « شى هوانج تى » وأسرة هان — هى ما أحدثته على حدود الصين الشمالية والغربية من رد فعل ضد القبائل غير المستقرة . فإن الهون (الهيونج نو Hiung-nu) كانوا طوال القرون المذكورة بالفوضى ، قبل زمان « شى هوانج تى » يحتلون منغوليا وقسما كبيرا من الصين الشمالية ، وكانوا يغيرون على الصين بملء حريتهم ، ويتدخلون بملء حريتهم فى الأمور السياسية الصينية . ومن ثم شرعت القوة الجديدة التى توفرت على تنظيم الحضارة الصينية فى تغيير هذه الأوضاع تغييرا شاملا .

ولقد سبق أن أشرنا إلى وجود هؤلاء الهون فى بياننا الأول عن البدايات الصينية . فمن الضرورى الآن أن نفسر فى إيجاز من هم وماهم . فنحن حتى فى استعمالنا هذه الكلمة (هون) كمرادف عام لكلمة هيونج نو إنما ندخل فى حومة الجدل والنقاش . وقد سنحت لنا ونحن بصدد بياناتنا عن تطور العالم الغربى ، فرصة لذكر الإسكيذيين ، وأن نشرح ما نلقى من الصعوبة فى التمييز تمييزا واضحا ما بين السّمريين والسارماتيين والميديين والفرس والبارثيين والقوط وشعوب أخرى تتفاوت فى درجة ترحلها وتتفاوت فى مقدار آريتها ، كانت تتنقل غدوا ورواحا فى قوس عظيم بين الدانوب وآسيا الوسطى . فعلى حين كان فريق من الآريين يتجه جنوبا ويحصل على قسط من المدنية ويتطور بتطوراتها ، كان فريق آخر من الآرية آخذا بأسباب التطور فى خفة الحركة والترحل . وكانوا يتعلمون حياة الخيمة والمركبة والقطيع ، كذلك شرعوا يتعلمون أن يستعملوا اللبن أساسا لغذائهم ، وكانوا فيما يرجح قد أخذوا يصبحون أقل عناية بالزراعة وأقل ميلا حتى إلى نوع المحصول الخطيف مما كانوا من قبل . ومما ساعد على تطورهم تغير بطىء ألمّ بالمناخ ، كان يتبدل بالمستنقعات والغابات وبأراضى الأحراش الخفيفة فى الروسيا الجنوبية وآسيا الوسطى سهوبا ، أى أراضى رعى فسيحة تساعد على إنتاج حياة تنقل صحية وتستدعى حركة سنوية بين مراعى الصيف والشتاء .

وقد كانت لهؤلاء الشعوب على الدوام أدنى أنواع الأشكال السياسية ، فكانوا ينقسمون ويختلطون بعضهم ببعض . وكان للشعوب المتنوعة عادات اجتماعية تميزها ومن ثم نشأت صعوبة بل استحالة التمييز الحاد الدقيق بينها . فإذا كر البصر راجعا إلى الصين رأى حالة الشعوب المغولية فى شمال وشمال غربى المدنية الصينية شديدة المماثلة لهذه الحال . فليس يخامرنا إلا القليل من الشك أن الهيونج نو ، أى الهون ، ومن جاء فى أعقابهم من قوم يسمون بالمغول ، كانوا جميعاً شعبا واحدا ، وأن الترك والتتار ما لبثوا أن تفرعوا من نفس هؤلاء

القوم المغول المتنقلين . فأما الكالموك (Kalmucks) والبوريات Buriats) فهم تطور متأخر لنفس النبعة . ونحن ها هنا أميل إلى استعمال كلمة (الهون) ، بوصفها ضربا من التسمية العامة لهاته القبائل جميعاً ، مثلما كنا بالضبط متحررين ومتوسعين فى استعمالنا كلمة « الإسكيذيين » فى الغرب .

وكان تماسك الصين أمراً خطيراً جداً على هذه الشعوب الهونية . فإن الفائض من أفراد السكان لديهم كان حتى آنذاك ، ينساب نحو الجنوب مغامراً فى لجات فوضى الصين المنقسمة ، انسياب الماء فى شعاب الإسفنج . ثم إذا هم الآن يجدون سوراً مبنياً يقف فى وجوههم ، وحكومة حازمة وجيوشاً نظامية تصدهم عن سهول الكلأ . ومع أن السور كان يصدهم عن التقدم ، فإنه لم يصد الصينيين . ذلك أنهم كانوا يتزايدون ويتكاثرون خلال قرون السلم هذه ، وكانوا مع زيادتهم وتكاثرهم ينتشرون انتشاراً مستمراً ومعهم مسكنهم ومحراثهم حيثما سمحت لهم تربة الأرض . فانتشروا غربا فى بلاد التبت وشمالا وشمالا بغرب وربما وصلوا إلى حافة صحراء غوبى . وانتشروا فى مواطن الهون المترحلين وفى مراعيهم وأراضى صيدهم ، على نفس النسق بالضبط الذى اتبعه سكان الولايات المتحدة البيض فى انتشارهم غربا فى أراضى الصيد التى يقطنها الهنود الحمر . على أنهم بالرغم من الغارات والمذابح ، كانوا والأمريكيين سواء فى استحالة قهرهم ، إذ كان فى جانبهم ضغط الكثرة العددية وكانت من ورائهم حكومة قوية منتقمة تأخذ بالثأر . بل لئن لم يكن معهم حتى العوز الأخير ، فإن لمدنية الصين الزراعية قوة من التشرب والامتداد هائلة ، وقد انتشرت فى بطء واطراد مدى ثلاث آلاف من السنين وهى تنتشر اليوم فى منشوريا وسيبيريا . وترسل جذورها عميقاً حيث تنتشر .

فمدّن الصينيون الهون وتمثلوا بعض عشائرهم . فأما الهون الأبعدون شمالا فقد صدوا ، ووجهت غربا طاقاتهم المفرطة القوة . وانغمر الهون الجنوبيون فى سكان الإمبراطورية .

فلو تأمل القارىء خريطة آسيا الوسطى ، لرأى أن حواجز جبلية عظيمة جداً تفصل شعوب آسيا الجنوبيين عن الغربيين والشرقيين . (ولكن يجدر به أن يتحرز من تكوين فكراته من خريطة مرسومة على أساس مشروع مركاتور (Mercator)[1] الذى يبالغ مبالغة هائلة فى مساحات ومسافات آسيا الشمالية وسيبيريا) وإنه لواجد عند كتل الجبال الوسطى ، أن ثلاث سلاسل جبلية عظيمة تتفرع شرقا ، فتذهب الهملايا جنوبا بشرق ،

---

(١) مشروع مركاتور : طريقة لرسم الخرائط تجعل خطوط الطول والعرض خطوطا مستقيمة فتبدو المناطق القطبية أكبر من حقيقتها

جنوبى بلاد التبت ، وتذهب جبال الـكوين لن شرقاً ، شمال التبت ، وتتجه التيان شان شمالا بشرق ، لـكى تتصل بجبال آلتاى . وبعد ذلك إلى الشمال يوجد السهل العظيم الذى لا يني جليده يذوب وجفافه يزداد . وبين التيان شان والـكوين لن ، متسع هو حوض التاريم (وهى التركستان الشرقية على وجه التقريب) وبه أنهار لا تصل إلى البحر أبداً ، بل تنتهى فى مستنقعات وبحيرات متقطعة ، وكان هذا الحوض أكثر خصباً فى الماضى منه اليوم . والحاجز الجبلى فى غربى حوض التاريم هذا مرتفع ، بيد أنه لا يمنع المرور تمام المنع . وهناك طرق مسلوكة إلى أسفل متجهة إلى التركستان الغربية ، ومن الميسور أن يسافر الناس إما على امتداد التلال السفحية الشمالية لجبال الـكوين لن أو بواسطة وادى التاريم فى الناحية الغربية من الصين إلى قشغر (حيث تلتقى الطرق) ومن ثم من فوق الجبال إلى خوقند وسمرقند وبخارى . فهنا إذن مكان الالتقاء الطبيعى فى التاريخ بين الآريين والمغول . وهو التقاء إما أن يتم هنا أو لا يتم إلا بالدوران بحراً .

ولقد ذكرنا من قبل كيف أن الإسكندر الأكبر وصل إلى أحد جوانب الحاجز فى عام ٣٢٩ ق . م. وفى أعلى جبال تركستان بحيرة تخلد اسمه والواقع أن ذكريات غارته العظيمة تخلد اسمه ، إلى حد أنه لا تكاد توجد أية خرابة حجرية فى آسيا الوسطى إلا نسبت حتى اليوم إلى « إسكندر » ، وبعد هذه البارقة الخاطفة يعود نور التاريخ فيخبو عن هذا الإقليم مرة ثانية حتى إذا عاد إليه سطوعه كرة أخرى كانت عودته فى الناحية الشرقية لا فى الناحية الغربية .

فهناك فى أقصى الشرق نهض شى هوانج تى لتشتيت شمل الهون وإبقاؤهم خارج الصين نفسها فيما وراء السور . فبقى من هؤلاء القوم قسم فى شمال الصين وهى بقية قدر لها أن تندمج فى الحياة الصينية فى أثناء حكم أسرة هان ، بيد أن قسما عظيما منهم اتجه غربا ثم طاردوا أمامهم فى القرنين الثانى والأول ق . م شعباً من ذوى قرباهم اسمه يووى تشى Yueh Chi دافعين إياه من أقصى شرق الـكوين لن إلى أقصى غربها ، ثم عبر الحاجز نفسه إلى إقليم التركستان الغربية الذي كان يوما ما إقليما آريا . هؤلاء الأقوام من اليووى تشى ، غزوا مملـكة باكتريا ذات الطابع الهلينى الخفيف واختلطوا بشعبها الآرى هناك . وأصبح هؤلاء اليووى تشى فيما بعد آريين ، أو انغمروا فى عناصر آرية أى فى شعب يسمى الهندوإسكيذيين انحدروا فى ممر خيبر وغزوا أقاليم الهنـد الشمالية حتى وصلوا بنارس (١٠٠ — ١٥٠ م) جارفين أمامهم آخر آثر للحكم الهيلينى فى الهند .

ولم يكن هذا التلاطم الـكبير للأجناس المغولية وانسيابها نحو الغرب فى الراجح أول تلك

الحركات ، بل هو أول انسياب يسجله التاريخ . فقد كان الهون فى إثر اليووى تشى وكانت أسرة هان القوية الصينية فى إثر الهون تدفعهم آنذاك إلى الشمال . وما حل زمان وُتى (Wu-Ti) أعظم ملوك أسرة هان (١٤٠ — ٧٦ ق . م) إلا وكان الهون قد طردوا شمالا ، خارج التركستان الشرقية بأكلها أو كانوا أخضعوا ، وكان حوض التاريم يموج بالمستقرين الصينيين ، وكانت القوافل تسير غربا تحمل الحرير وطلاء اللاكيه والكهرمان الأسود لتستبدل بهن ذهب أرمينية وروما وفضتهما .

أجل إن حركات «اليووى تشى» غدوا ورواحا وانسيابهم فوق أرض غيرهم من الشعوب مدونة فى صفحات التاريخ . ولكنه من الواضح إلى حد ما أن الكثير من تحركات شعوب الهون نحو الغرب لم تدون . واستمرت الإمبراطورية الصينية من ٢٠٠ ق . م إلى ٢٠٠ م ، تحافظ على جبهة صلبة متينة تتقدم إلى الأمام فى بلاد الترحل ، وكان فائض المترحلين ينساب على الدوام غربا . وإذن فلم يكن هنالك من ناحية الصينيين استقرار على حدود نهائية كالذى رأيناه فى حالة الرومان على نهرى الرين والدانوب . وكان انتقال المترحلين قبل هذه الطمنة الصينية قرنا بعد قرن ، يتجه فى بادئ الأمر جنوبا نحو باكتيريا . ولعل دماء البارثيين فى القرن الأول ق . م كانت تخالطها عناصر إسكيذية ومغولية . و «السهام الطنانة» التى قضت على جيش كراسوس ، جاءت فى الأصل فيما يبدو من جبال آلتاى وتيان شان . وبعد انقضاء القرن الأول ق . م انتقل خط الجاذبية الكبرى والمقاومة الأقل إلى اتجاه آخر شمالى بحر قزوين حيث بقى فترة من الزمان . وقبل أن ينقضى قرن أو مايقاربه ، كان كل القطر المعروف باسم التركستان الغربية قد اصطبغ بالصبغة المغولية . ثم ظل كذلك حتى يومنا هذا . وابتدأت طمنة كبيرة ثانية من الصين قرابة ٧٥ م ، عززت انتقال المترحلين جهة الغرب وزادت من قوته . فنى ١٠٢ م كان « پان شاو Pan Chau » وهو قائد صينى ، يرسل من معسكره الأمامى على بحر قزوين (أو على الخليج الفارسى كما يقول بعض الثقاة) رواداً ليتعرف بواسطتهم مبلغ قوة الرومان . بيد أن تقاريرهم حملته على أن يقرر ألا يواصل المسير .

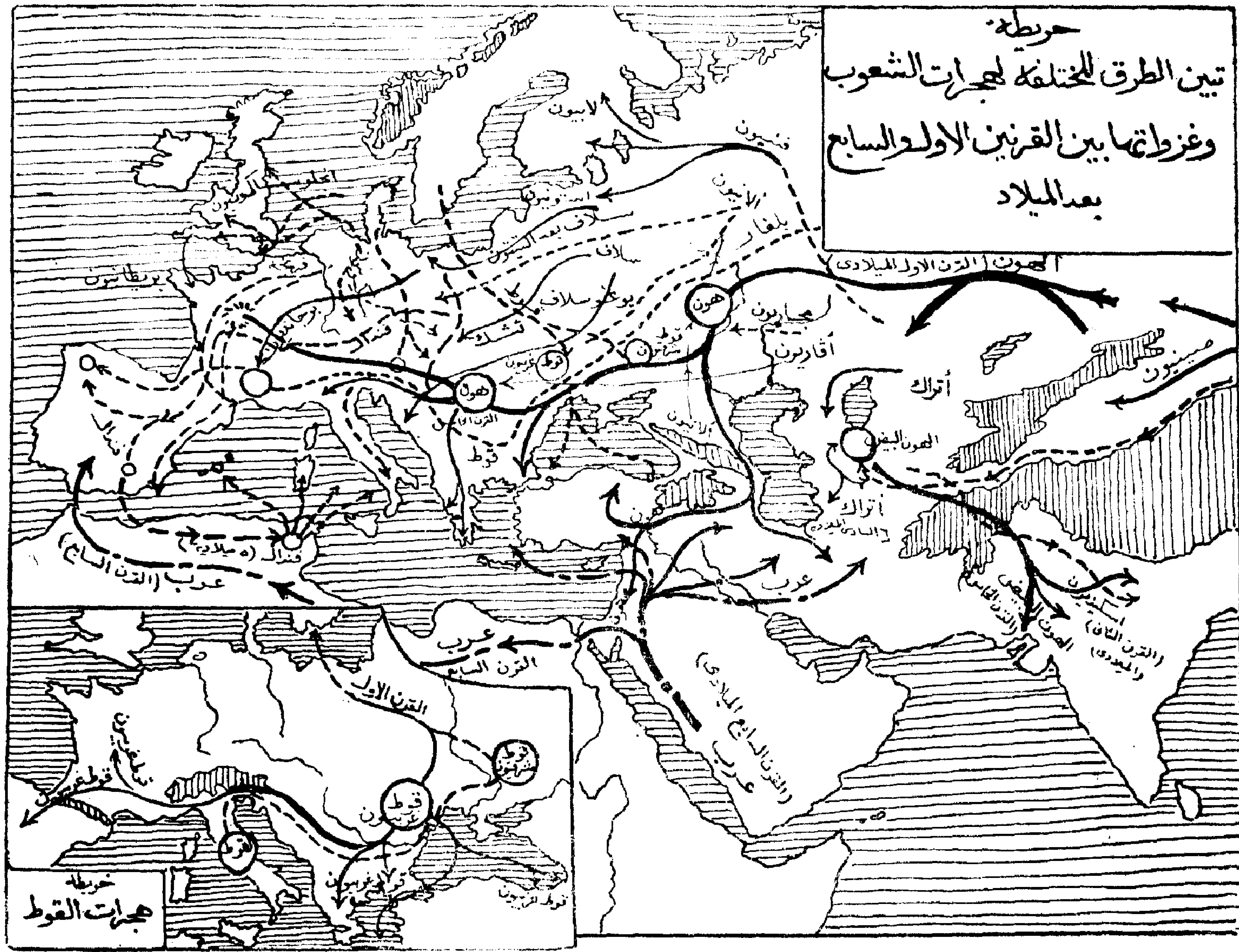
وما وافى القرن الأول الميلادى حتى كانت بعض الشعوب المغولية المترحلة ، قد ظهرت على حدود أوربا الشرقية ، مختلطين آنفاً بالنورديين المترحلين ، وبعناصر نوردية مستأصلة من إقليم « قزوين پامير Caspian-Pamir » . وكانت هنالك شعوب هونية مستقرة بين بحر قزوين وجبال أورال . وإلى الغرب منهم كان الآلان (Alans) وهم كذلك فى الراجح شعب مغولى به عناصر نوردية ، قاتلوا پومپى العظيم عندما كان فى أرمينيا ٦٥ ق . م فكان

هؤلاء حتى ذلك الحين ، أشد شعوب التقدم المغولى الجديد توغلا فى الغرب ، ثم لم يقوموا بعدها بأية حركة أخرى نحو الغرب حتى القرن الرابع الميلادى . وفى الناحية الشمالية الغربية كان الفنلنديون وهم شعب مغولى ، قد استقروا من زمان طويل فى أرض بمدت غربا حتى بحر البلطيق .

وإلى الغرب من الهون فيما وراء نهر الدون ، كانت هناك قبائل نوردية خالصة هى القوط . وكان هؤلاء القوط انتشروا فى اتجاه جنوبى بشرق عن بلاد أرومتهم فى إسكنداناوه . كانوا شعباً تيوتونيا ، ولقد سبق أن لحظناهم وهم يعبرون البلطيق فى الخريطة التى قدمناها عن التوزيع الأول للشعوب الناطقة بالآرية . وواصل هؤلاء القوط حركتهم نحو الجنوب الشرقى عبر الروسيا ، وهم يستعملون الأنهار غير ناسين البتة ما درجوا عليه فى بحر البلطيق من فنون الملاحة . وليس من شك أنهم تمثلوا كثيراً من الإسكيذيين أثناء انتشارهم نحو البحر الأسود جنوبا وكانوا فى القرن الأول الميلادى فى قسمين رئيسيين ، هما القوط الشرقية ، الذين كانوا بين الدون والدنيبر ، والقوط الغربية فى غرب نهر الدنيبر . وساد السكون السهول العظمى فى أثناء القرن الأول ، بيد أن السكان كانوا قد أخذوا يتجمعون وكانت القبائل تختمر وتنضج . ويلوح أن القرنين الثانى والثالث ، كانا دوراً من فصول ممطرة كثيرة الكلأ نسبيا . ولكن سرعان ما أصبح الجو فى القرنين الرابع والخامس ، أكثر جفافا وتناقص الكلأ وتحرك المترحلون من جديد .

ومن الشائق أن نذكر لك أنه فى القرن الأول من الحقبة المسيحية ، كانت الإمبراطورية الصينية على درجة من القوة مكنتها أن تطرد وأن تدفع عن نفسها فائض الترحل المغولى إلى الشمال ، فما لبث المترحلون ، أن غزوا شمال الهند وجمعوا القوى ثم اختلطوا بالمترحلين الآريين ، ثم انقضوا آخر الأمر انقضاض الهيّار الجليدى على الإمبراطورية الرومانية الضعيفة التماسك المهيضة الجناح .

وقبل أن نواصل الحديث عن الضربات التى أخذت تكال للإمبراطورية الرومانية ، ونتعرض لمجهودات عظيم أو عظيمين من الرجال لإيقاف الانهيار ، نرى أن نذكر بضع كلمات عن عادات وكنه هذه الشعوب المغولية المتبربرة المتجهة غربا ، والتى كانت عند ذاك تتقدم من حدود الصين نحو البحرين الأسود والبلطيق . وما زال العرف الأوربى جاريا على الانسياق وراء الكتاب الرومان فى تصوير هؤلاء الهون وخلطائهم ، فى صورة قوة هدامة


خريطة
تبين الطرق المختلفة لهجرات الشعوب
وغزواتها بين القرنين الاول والسابع
بعد الميلاد
خريطة
هجرات القوط
عرب (القرن السابع)
عرب
القرن السابع
القرن الاول
عرب
أتراك
آفاريون
مجاريون
بلغار
الهون البيض
قوط

(١١٧)

قاسية ، إلى حد لا يتصوره عقل . بيد أن مثل تلك البيانات التى نستقيها عن الرومان إنما كتبت فى عصور يكتنفها الذعر والمحن . وكان فى وسع الرومانى أن يكذب فى حق أعدائه ويفترى عليهم بحرية وقوة لابد أن تستثير حسد الداعية العصرى ذاته .

فإنه كان يستطيع أن يتحدث عن العقيدة البونية كمرادف للغدر بينما يرتكب هو ضد قرطاجنة أشنع الخيانات وأبشعها . وكان يجعل من اتهاماته التى يعيّر بها هذا الشعب أو ذاك ويتهمه بالدأب على أعمال القساوة بطريقة منظمة ، مقدمة وذريعة فى العادة لما يقوم به بعيد ذلك من شنيع المجازر أو الاسترقاق أو السرقات . وكان شديد الولع بتبرير نفسه وتسويغ تصرفاته كالعصريين سواء . ولا يذهبن عن بالنا أن تلك البيانات التى تنعت الهون بالوحشية والفظاظة المخيفة ، صدرت عن شعب كان أهم ما يتسلى به حفلات المجالدين ، وكانت أهم وسيلة لديه للتصرف فى أهل العصيان والفتنة دقهم على الصلبان بالمسامير حتى يموتوا . وليس من ريب أن الإمبراطورية الرومانية — قتلت منذ بدايتها إلى النهاية مئات من آلاف الرجال على هذه الشاكلة . وكان قسم كبير من سكان هذه الإمبراطورية التي كانت تستطيع أن تتباكى وتتشاكى من همجية مهاجميها ، يتكون من عبدان يتعرضون فعلا لكل مايثور فى صدور سادتهم من هوائج الشهوات أو ثوائر النزوات . فمن المستحسن أن نتذكر هذه الحقائق قبل أن نأسى على اجتياح البرابرة الإمبراطورية الرومانية ، كأنما كان فى ذلك قضاء كل ما هو كالح قبيح على كل ما هو جميل ممتاز فى الحياة .

ويبدو أن الحقيقة هى أن الشعوب الهونية كانت المرادف الشرقى للآريين البدائيين . وأنهم على الرغم مما يفرق بينهم من فروق عنصرية ولغوية أساسية ، قد وفقوا بغاية السهولة إلى الاختلاط مع البقايا المترحلة وشبه المترحلة للشعوب الناطقة بالآرية فى شمال الدانوب وفارس . وبدلا من إعمال التقتيل فى الشعوب التى غزوها ، كان ينضوى فى لواء جيوشهم أفراد الشعوب التى يقهرونها بل ويتزاوجون معهم . وكانت فيهم تلك الموهبة الضرورية لكل شعب قدر له السيادة السياسية — وهى التمثل المشوب بطابع التسامح . ولكنهم جاءوا فى عصر متأخر نوعا ما ، وكانت حياتهم الترحلية أكثر تقدماً من حياة الآريين البدائيين . إذ كان الآريون البدائيون شعباً يسكن الغابة ويستخدم العربة التى يجرها الثور ثم فضل الحصان فيما بعد . على حين درجت الشعوب الهونية مع الحصان . ذلك بأنهم فى زمان ما يقارب ١٢٠٠ — ١٠٠٠ ق م ، أخذوا يركبون الحصان . وما الشكيمة ولا السرج ولا

الركاب بأشياء بدائية ، بيد أنها ضرورية إذا كان للإنسان والحصان أن يسيرا متلازمين فى مساحات مترامية . وخليق بنا أن نتذكر أن ركوب الخيل شيء حديث قريب العهد . فالإنسان لم يمض عليه وهو على صهوات الخيل أكثر كثيراً من ثلاث آلاف سنة فى الجملة[1] ولقد سبق أن لحظنا ظهور المركبة الحربيــة والرجل الراكب كما لحظنا أخيراً ظهور الخيالة المنظمة فى هذا التاريخ . وكان مصدر هذه الأمور أقاليم آسيا المغولية . ولا يزال الرجال فى آسيا الوسطى إلى يومنا هذا يستخدمون السرج فى ترحالهم أكثر من انتقالهم على أقدامهم . ويقول راتزل (Ratzel)[2] : « توجد فى أرض السهوب خيول قوية طويلة الأعناق فى أعداد ضخمة . فليس الركوب عند المغول والتركمان من الترف فى شيء . بل إن الرعاة المغول يرعون قطعانهم على ظهور الخيل . ويتعلم الأطفـال الركوب وهم بَعْد أيفاع . وكثيراً ما يتلقى الطفل فى الثالثة من عمره أول درس له فى الركوب فى سرج للأطفال أمين ويتقدم تقدما سريعا » .

ومحال أن نفترض أن من الممكن أن يختلف الهون والآلان اختلافا بعيداً عن مترحلى منطقة السهوب فى الزمان الحاضر ، ويكاد كل المراقبين يجمعون على وصف هؤلاء الأخيرين بأنهم قوم صرحاء ظرفاء . فهم أمناء أمانة تامة وهم أحرار الروح . ويقول راتزل « إن خُـلُق رعاة آسيا الوسطى ، عندما يكونون خُـلَّصا غير مدخولين ينطوى على التفكير والتروى مع الفصاحة الهـائلة ، والصراحة وطيب المنصر — فى خشونة — والكبرياء ولكن مع شيء من التكاسل وسرعة الانفعال والميل إلى الانتقام . وتنم وجوههم عما لهم من نصيب جسيم من الصراحة المشوبة بالسذاجة المسلية . وشجاعتهم إنما هى توهج فجائى من الشراسة أكثر منها جرأة طابعها الاتزان . وليس لديهم أى تعصب دينى ، والكرم عندهم أمر شائع » . وليست هـذه صورة مرذولة أو بغيضة فى مجموعها . وهو يقول بعد ذلك إن مظهرهم الشخصى أهدأ وأكثر وقاراً من سمة أهل المدن فى التركستان وبلاد إيران . أضف إلى ذلك أن حياة الترحل تمنع أى فروق عظيمة ناجمة عن عدم المساواة بين الطبقات ،أو أى تقدم عظيم فى نظام الاسترقاق .

وبديهى أن هؤلاء القوم الآتين من آسيا كانوا أميين تمـام الأمية يعوزهم التقدم فى

---

(١) انظر كتاب « الخيل » تأليف السير روجر بوكوك (Roger Pocock) وهو كتاب صغير شائق ممتع .

(٢) « تاريخ الإنسانية » الكتاب الخامس .

روحهم الفنية . ولكن لا ينبغى لنا أن نظن بناء على هذا أنهم كانوا همجا بدائيين ، وأن أحوالهم المعيشية كانت على نفس المستوى الذى نشأت منه المدنية الزراعية منذ زمن بعيد . فإنها لم تكن كذلك . ذلك أنهم تطوروا هم أيضاً ولكنهم تطوروا على نسق آخر وفوق أسس أقل تعقيداً ذهنيا ، ولعل فيها قدراً أكبر من الكرامة الشخصية . ولكن لا مراء أن صلتها بالريح والسماء كانت أشد رسوخا .

٦ — الإمبراطورية الغربية (الرومانية الحقة) تتصدع

ابتدأت فى القرن الثالث أول الغارات الخطيرة للقبائل الألمانية على الإمبراطورية الرومانية مع انحلال القوة المركزية . ولسنا نرمى إلى الزج بالقارىء ها هنا فى ذلك الموضوع الشائك المعقد من أسماء مختلف القبائل الجرمانية المتنوعة وذاتيتها وعلاقاتها المتبادلة . فالمؤرخون يكابدون أعظم العسر فى تمييزها بعضها من بعض . ويزيد فى هذه الصعوبات ما حدث من أنهم هم أنفسهم لم يعنوا إلا قليلا بأن يظلوا مميزين منفصلين .

فإنا نجد فى ٢٣٦ م ، شعبا يسمى الفرنجة (Franks) يقطع الحدود على الرين الأدنى ، وشعبا آخر هو الألامانى (A amanni) ينثال إلى الألزاس . وكانت هجمة القوط جنوبا هجمة أكثر خطورة بكثير . ولقد سبق أن لحظنا وجود هؤلاء القوم فى الروسيا الجنوبية ، وانقسامهم حول الدنيبر إلى قوط غربية وشرقية . وهم قد عادوا من جديد شعبا بحريا على البحر الأسود . والراجح أن هجرتهم التقليدية من السويد كانت على امتداد الطرق المائية ، إذ أنه ما يزال سهلا على المرء أن يمضى مجدفا فى قارب من بحر البلطيق عبر الروسيا قدما حتى البحر الأسود أو بحر قزوين ، ولا يعترض مجدافه إلا مسافات قليلة بين الأنهار يمكن التغلب عليها . ثم انتزع هؤلاء القوط الإمرة فى البحار الشرقية من يد روما .

وما لبثوا أن شرعوا يغيرون على شواطىء بلاد الإغريق . كذلك عبروا نهر الدانوب فى غزوة برية عظيمة فى ٢٤٧ م وهزموا الإمبراطور ديكيوس (Decius) وقتلوه فيما يسمى الآن باسم بلاد الصرب . واختفت مقاطعة داسيا (Dacia) من التاريخ الرومانى . وفى ٢٧٠م هزمهم كلوديوس عند مدينة نيش (Nish) ببلاد الصرب ، وفى ٢٧٦ م كانوا يغيرون على بونطش (Pontus)[١] . ومما يتصل بما جبلت عليه الإمبراطورية من طبيعة رخوة واهية ،

---

(١) بونطش واقعة على سواحل البحر الأسود الجنوبية .

أن الكتائب المحتلة بلاد الغال وجدت أن أفضل الوسائل فى معالجة الفرنجة والألامانى Alamanni فى ذلك الزمان ، هى إقامة إمبراطور منفصل فى بلاد الغال على أن يتولوا تنفيذ ذلك بأنفسهم.

وعندئذ صُدت جموع الهمج برهة من الزمان ، وحارب الإمبراطور بروبس (Probus) فى عام ٢٧٦ م الفرنجة والألامانى حتى أرجعهم وراء الرين . ولكن مماله مغزاه العميق الدال على جو القلق الذى أوجدته تلك الغارات ، أن أورليان (٢٧٠ — ٢٧٥ م) حصّن روما ، وكانت مدينة مفتوحة آمنة طوال سنى الإمبرطورية الأولى .

وفى ٣٢١ م هبط القوط من جديد على الدانوب ، ينهبون ما هو الآن بلاد الصرب وبلغاريا فدفعهم قسطنطين الأكبر إلى الوراء ، وسنزيدك عنه بيانا فى الفصل التالى . وفى قريب من نهاية عصره (٣٣٧ م) حصل الوندال وهم شعب تربطهم صلات الرحم والقربى بالقوط الذين كانوا يدفعونهم أمامهم ، على إذن بعبور الدانوب إلى بانونيا (Pannonia) وهى الآن ذلك القسم الواقع غربى النهر من بلاد المجر .

بيد أنه عند منتصف القرن الرابع ، كانت الشعوب الهونية فى الشرق قد عادت إلى العدوان من جديد . وكانوا أخضعوا الآلانى (Alani) من زمن بعيد ، وهاهم الآن يجملون القوط الشرقية من أتباعهم الذين يدفعون لهم الجزية . وحذت القوط الغربية حذو الوندال ، وأعدوا العدة لعبور الدانوب إلى الأراضى الرومانية . ثم دب بين الطرفين شىء من النزاع على شروط هذه الإقامة ، وثارت ثائرة القوط الغربية فعمدت إلى خطة الهجوم ، وهزمت الإمبراطور ڤالنس (Valens) فى أدرنة ، وقد قتل فى هذه المعركة . فسُمح لهم عند ذاك بالاستقرار فيما هو الآن بلغاريا ، وأصبح جيشهم جيشاً رومانيا بالاسم وإن احتفظوا برؤسائهم ، الذين كان أبرزهم ألاريك (Alaric) . ومما يدلك على مبلغ اصطباغ الإمبراطورية الرومانية بالطابع الهمجى اصطباغا تاما ، أن أكبر خصم لألاريك القوطى ، وهو ستيليكو (Stilicho) كان من وندال بانونيا . وكانت الكتائب فى بلاد الغال تحت إمرة أحد الفرنجة ، وكان الإمبراطور تيودوسيوس الأول (Theodosius) (الذى تولى العرش من ٣٧٩ إلى ٣٩٥ م) أسبانياً تنصره بوجه خاص جنود حليفةٌ من القوط .

وكانت الإمبراطورية آخذة فى الانقسام حينذاك نهائياً إلى نصفين شرقى (ناطق بالإغريقية) وغربى (ناطق باللاتينية) . وقد خلف تيودوسيوس العظيم على العرش ابناه أركاديوس فى القسطنطينية وهونوريوس فى راڤنّا (Ravenna). فاتخذ الاريك من الملك الشرقى ألعوبة فى يده ، واتخذ ستيليكو ألعوبة من الغربى . وعند ذاك يظهر الهون لأول مرة داخل

الإمبراطورية بوصفهم جنوداً مساعدة حليفة تحت قيادة ستيليكو . وفى هـذا النزاع بين الشرق والغرب ؛ انهارت الحدود — إن كان لا نزال فى طوقنا أن نتكلم عن وجود حدود بين الهمجى الذى يقف خارج الحدود متطفلالم يأذن له أحد ، وبين الهمجى الذى وكل إليه عمـل فى الداخل . وسارت جماعة جديدة من الوندال مع أفواج أخرى من القوط والآلان والسويفيين (Suevi) نحو الغرب بملء حريتهم ، وهم يعيشون على حساب البلاد . وحدث فى وسط هـذه الربكة حدث جلل ، فإن ألاريك القوطى انحدر فى إيطاليا وفتح روما بعد حصار قصير (٤١٠ م) .

ولما وافت ٤٢٥ م كان الوندال (الذين رأيناهم أولا فى ألمانيا الشرقية) وجزء من الآلانيين (الذين ذكرناهم لأول مرة فى جنوب روسيا الشرقى) قد اخترقوا بلاد الغال وجبال البرانس ، واندمجوا بعضهم فى بعض ثم استقروا فى جنوب أسبانيا . وكان هناك هون يسيطرون على بانونيا وقوط فى دالماشيا . وهبط إلى أرض بوهيميا ومورافيا شعب (سلافى) صقلبى واستقر هناك هو التشك (Czechs) (٤٥١ م) . وكان فى بلاد البرتغال وفى شمال الوندال فى أسبانيا قوط غربيون وسويفيون . وقسمت بلاد الغال بين القوط الغربية والفرنجة والبورغنديين . وكانت تجتاح بريطانيا قبائل من الجرمان من الأراضى المنخفضة وجماعات من جتلندة يعرفون بالجوت Jutes[1] والأنجل والساكسون ، وكان البريطانى الكلتى فى الجنوب الغربى يفر من أمامهم عبر البحر إلى ما هو اليوم بريتانى بفرنسا .

والتاريخ الثابت عادة لهذا الغزو هو ٤٤٩ م ، بيد أنه كان فيما يرجح أبكر من هـذا . وحدث نتيجة لمؤامرات دبرت بين اثنين من السياسيين فى الدولة الرومانية أن وندال جنوب أسبانيا تحت إمرة ملـكهم جنسريك Genseric عبروا البحر بقضهم وقضيضهم إلى إفريقيا الشمالية (٤٢٩ م) وأصبحوا سادة قرطاجنة (٤٣٩ م) ، وحصلوا على السيادة فى البحر ، وغزوا روما واستولوا عليها ونهبوها (٤٥٥ م) ، ثم عبروا البحر إلى صقلية ، وأقاموا مملـكة فى صقلية الغربية ، استمرت هناك مئة سنة حتى ٥٣٤ م . ومملـكة الوندال هذه كانت تضم أيضاً إبان أقصى اتساع بلغته (٤٧٧ م) ، كورسيكا وسردينيا وجزائر الباليار ، كما كانت تملك جزءاً كبيراً من شمال إفريقية .

وإنا لنقدم إليك عن هذه المملـكة الوندالية ، حقائق وأرقاما تبين بغاية الوضوح الطبيعة

---

(١) الجوت Jutes هم قبائل ألمـانية غزت بريطانيا واستقرت هناك فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين واحتلوا أجزاء من كنت وهمبشير Hampshire .

الحقة لهذه الغزوات البربرية وماصاحبها من اضطرابات ، فإنها لم تكن فى الحقيقة غزوا ، أو تبدل شعب أو جنس بآخر ، بل إن ما حدث كان شيئاً مخالفاً لذلك تماماً ، إذ كان ثورة اجتماعية ابتدأت ثم تقنعت بقناع سطحى من الغزو الأجنبى ، مثال ذلك أن كل الأمة الوندالية التى انتقلت من أسبانيا إلى إفريقية بما حوت من رجال ونساء وأطفال ، لم تكن تزيد فى عددها عن ثمانين ألف نسمة .

وقد تهيأ لنا العلم بذلك إذ وصلت إلينا تفاصيل عن مسألة نقلهم بحراً . وينبئنا الدكتور شورتز Schurtz[1] «لم يظهر فى أثناء كفاحهم من أجل أفريقيا الشمالية أى أثر لأى مقاومة جدية أبداها السكان . وقد دافع بونيفاس ، (والى شمال إفريقية الرومانى) عن مدينة هيبو Hippo بمعونة المرتزقة من القوط ، على حين لم يعره الأهالى الأصليون أى مساعدة تذكر ، وأن قبائل البلاد المترحلين كانت بين متخذ مسلكا مريباً وبين منتهز الفرصة للاستفادة من الصعوبات التى أخذت تواجه الوالى الرومانى وذلك بالقيام بهجمات والاشتغال فى حملات غايتها النهب ، وهذا الانحلال الخلقى إنما نشأ من الأحوال الاجتماعية السائدة ، ولعلها تطورت فى إفريقيـة تطوراً أسوأ منـه فى أى جزء من أجزاء الإمبراطورية الرومانية . فإن الفلاحين الأحرار كانوا قد أصبحوا من زمن بعيد (موالى أرض) لكبار أصحاب الأراضى ، وكانت منزلتهم لا تفضل بكثير جماهير الأرقاء الذين كنت تلقاهم أينما حللت . كذلك أصبح كبار ملاك الأراضى بدورهم غنيمة هينة لسياسة الابتزاز ، التى كان يتبعها ولاة لا ضمير لهم ولا يتورعون عن أية منقصة ، وأخذ ذلك يتكاثر منهم تكاثراً يزداد قدراً كلما أمعنت هيبة الإمبراطورية سقوطا وانهيارا حتى بلغ حداً لم يسبق له مثيل . فلم يكن أحد من الناس يملك شيئاً من المـال يخاف عليه الضياع ليقبل حين ذاك أن يكون له مقعد فى مجلس سناتو المدن الكبيرة ، وهو شرف كان فى يوم ما هدف الطامحين ، ذلك أن أعضاء السناتو كان يطلب إليهم أن يعوضوا كل نقص فى موارد الدخل . وكان هـذا النقص فى تلك الأيام متلاحقا جسيما ... ... وكانت تقوم فى البلاد فتن دموية متكررة ، ترجع على الدوام فى النهاية إلى فادح عبء الضرائب ... ... » .

فقد تجلى لك إذن أن الوندال هبطوا تلك البلاد بوصفهم مخففا إيجابيا يقدم العون الفعال الذى يلطف شرة مثل هذا النظام . فأبادوا طبقة الملاك الكبار ، ومحوا كل الديون

(١) فى كتاب تاريخ هلمولت العالمى

التى للمرابين الرومان ، وألغوا آخر آثار الخدمة العسكرية . فوجد المزدرعون أنفسهم أيسر حالا . واحتفظ صغار الموظفين بمراكزهم حتى لم يعد الأمر غزوا بمقدار ما كان إصلاحا للأمور ، وتحريرا للناس مما كانوا يلقون من عنت وظلم .

وقد حدث يوم كان الوندال ما يزالون فى إفريقية أن ظهر بين الهون زعيم عظيم هو أتيلا Attila . وكانت قصبة حكومته فى السهول الواقعة شرق نهر الدانوب . فتسلط ردحا من الزمان على إمبراطورية ضخمة من قبائل هونية وجرمانية ، وكان سلطانه يمتد من نهر الرين إلى آسيا الوسطى ، وكان يتفاوض على قدم المساواة مع إمبراطور الصين . وتحدى راقنا والقسطنطينية عشر سنوات . وحدث أن هونوريا Honoria حفيدة تيودوسيوس الثانى عاهل الإمبراطورية الشرقية ، وإحدى أولئك الشابات المفتونات ، اللواتى يجلبن على العالم الكثير من المتاعب لقيت بعض التضييق لاتصالها بأحد تشريفاتية القصر اتصالا غراميا ، فأرسلت خاتمها إلى أتيلا ، واستدعته ليكون زوجها ومنقذها . كذلك استحثه جنسريك الوندالى أن يهاجم الإمبراطورية الشرقية ، عندما واجهته محالفة بين الإمبراطورين الشرق والغربى. فأغار بجيشه جنوبا حتى بلغ أسوار القسطنطينية نفسها مدمرا فى زحفه على حد قول جيبون سبعين مدينة تدميرا تاما وهو يتقدم إلى الأمام ، وفرض على الإمبراطور صلحا جائرا ، لم يكن يحوى فيما يظهر أى بند يقضى بإطلاق سراح هونوريا لتسليمها لبطلها .

ولسنا بقادرين بعد إذ طال العهد على تلك الأمور أن نعمل الحدس فى تعرف الدوافع التى دعت إلى إغفال ذلك الموضوع . ولكن أتيلا استمر يتكلم عنها بوصفها عروسه المخطوبة ولم يبرح يتخذ من تلك الرابطة تكأة للعدوان . وفى المفاوضات التالية رافق شخص معين اسمه بريسكوس Priscus بعثة إلى معسكر ملك الهون ، والبقايا الباقية من القصة التى كتبها ، تلقى لمحة من الضوء على المعسكر وتكشف النقاب عن أسلوب حياة ذلك الفاتح العظيم .

وكانت هيئة السفارة فى حد ذاتها مكونة تكوينا عجيبا ، فكان على رأسها مكسمين Maximin وهو سياسى شريف ذهب وهو حسن النية ، فلم يكن يعرف البتة ، كما لم يكن بريسكوس يدرى حيناً من الزمان أن فيچيليوس Vigilius ، مترجم البعثة ، كان مكلفا أيضا بمهمة سرية من لدن بلاط تيودوسيوس ترمى إلى الوصول بطريق الرشوة إلى اغتيال أتيلا . سارت البعثة الصغيرة بطريق نيش ، فعبرت الدانوب فى بعض زوارق الكانو ، المحتفرة من شجرة واحدة ، وكانت تعتمد فى تموينها على ما تقدمه إليها القرى فى الطريق التى مرت بها

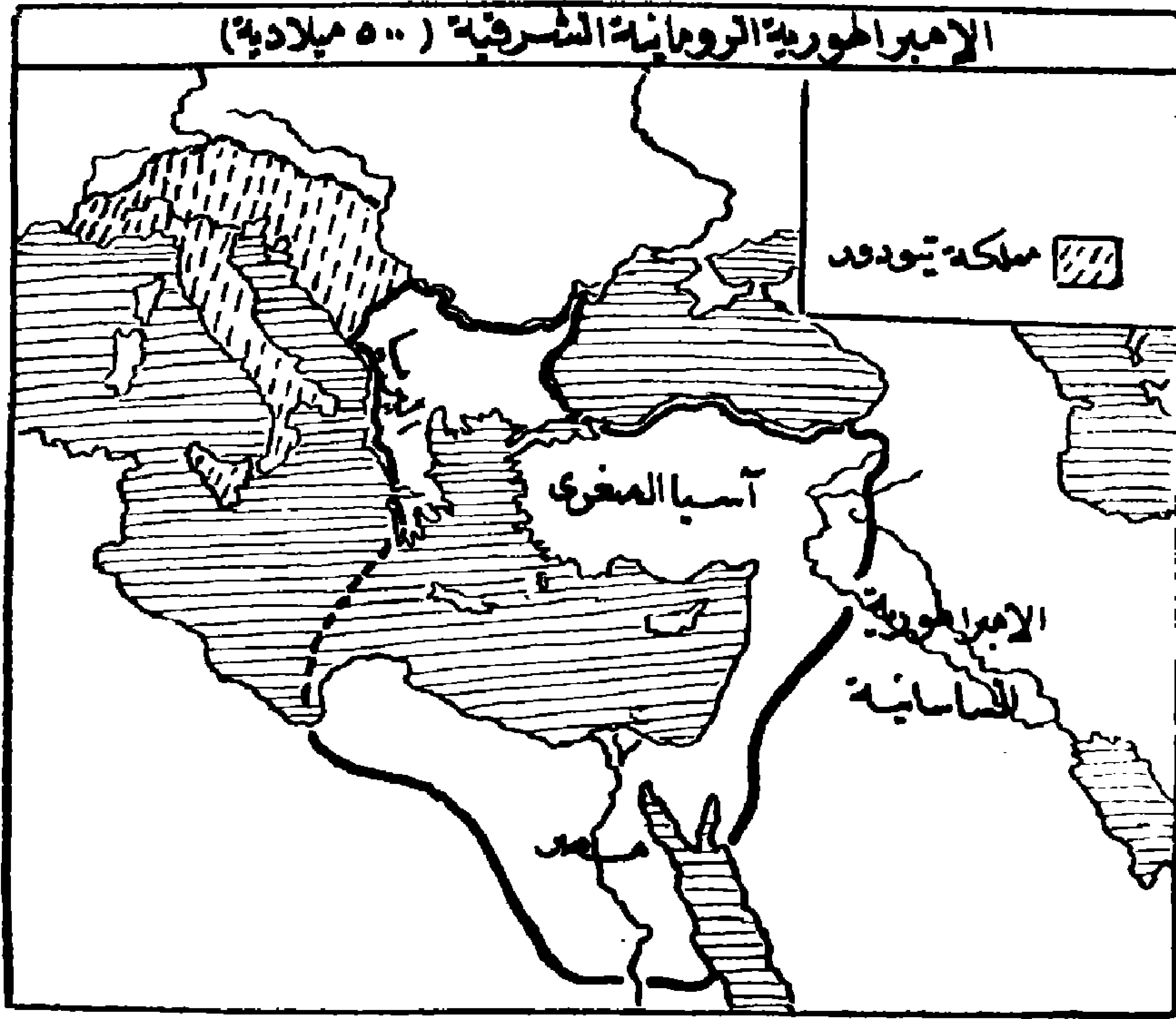
من عطايا . وسرعان ما استرعى الاختلاف بين ألوان الأطعمة نظر أعضاء البعثة . فيذكر بريسكوس خمر العسل بدل النبيذ ، ويذكر الذرة الرفيعة بدل القمح ، ويذكر شرابا إما أن يكون مستقطرا[(١)] أو خمرا من الشعير . وإن الرحلة خلال بلاد المجر لتذكر القارئ في كثير من حوادثها ، برحلات الرحالة في أواسط إفريقية في أثناء العصر الفيكتوري . وقد أبت مكارم الأهالي إلا أن يقدموا لأعضاء البعثة زوجات مؤقتات .

وكانت عاصمة أتيلا أقرب إلى معسكر فسيح وقرية منها إلى مدينة . إذ لم يكن فيها غير بناء واحد من الحجر ، وهو حمام مبنى على الطراز الرومانى، وكانت كتلة السكان تقيم في أكواخ وخيام . وكان أتيلا والشخصيات البارزة في قومه يسكنون في قصور من الخشب أقيمت في حظائر عظيمة مسورة بأوتاد ومن حولهم زوجاتهم المديدات وأعوانهم .وكان هناك استعراض هائل للأسلاب والمغانم ، بيد أن أتيلا نفسه قد اتخذ بساطة المترحلين ديدنه . فكان يتناول شرابه وطعامه في فناجين وصحاف من الخشب . ولم يكن يمس الخبز قط . وكان يشتغل ، دائبا ، ويقيم مجلسا علنيا أمام بوابة قصره ، وكان في العادة في سرجه على الدوام وكانت العادات البدائية لدى كل من الآريين والمنغول ، من إقامة ولائم عظيمة في البهو ، ما تزال مرعية عند القوم ، يكثرون فيها من معاقرة الخمر . ويصف بريسكوس كيف غنى الشعراء أمام أتيلا . « فكانوا يلقون أشعارا نظموها هم أنفسهم يشيدون فيها ببسالته وانتصاراته . وكان يسود البهو صمت عميق ، واسترعى التفات الضيفان صوت الرجال وهم يغنون في انسجام صوتى شعرا يشيد بمآثرهم العظيمة ويخلد ذكراها . وكان ينبعث من عيون المقاتلة حمية حربية ، إذ كانوا جد مشوقين إلى القتال . وكانت دموع الشيوخ تعبر عن يأسهم الكريم من عدم تمكنهم بعد ، أن يأخذوا بنصيبهم من خطر الميدان ومجده . ويعقب هذه التسلية ، التى ربما جاز أن تعد مدرسة تلقن فيها الفضيلة العسكرية ، فصل مضحك كان يحط من كرامة الطبيعة الإنسانية ، إذ كان يقوم مهرجان أحدهما مغربى والآخر إسكيذى على التوالى باستثارة ضحك النظارة الأفظاظ بشكليهما الشوهين ، وثيابهما المضحكة وحركاتهما الشاذة وأحاديثهما السخيفة ، وخلطهما الغريب غير المفهوم بين اللغات اللاتينية والقوطية والهونية ، وكان البهو يدوى بضحكات عالية خليعة . وفي وسط هذا الصخب المفرط ، لم يكن أحد لا تتغير أسارير سحنته إلا أتيلا وحده فإنه ظل محتفظا بوقاره الثابت الذى لا يتغير »[(٢)] ومع أن أتيلا كان متيقظا حذرا ، كما اعترف بذلك من اختير لتنفيذ المهمة السرية التى كلف بها فيجيليوس

---

(١) ، (٢) اقتباسات عن جيبون .

فإنه سمح لهذه البعثة بأن تعود فى سلام إلى القسطنطينية ومعها هدايا مكونة من خيول عديدة وما إليها ، ثم أرسل إلى تيودوسيوس الثانى سفيرا ليبلغ ذلك العاهل رأيه فيه . وقال الرسول « إن تيودوسيوس ينحدر من والد نبيل محترم ، وإن أتيلا كذلك ينحدر من سلالة نبيلة ، وإنه كان بأعماله معوانا للكرامة والمهابة التى ورثها عن أبيه مونزوك Munzuk ولكن



١١٨

تيودوسيوس ضحى بشرف آبائه ، وإذ قبل أن يدفع الجزية فإنه حط بنفسه إلى مرتبة العبيد . فمن العدل إذن أن يوقر الرجل الذى وضعته المقادير والجدارة فى مرتبة أسمى منه ، بدلا من أن يحاول محاولة عبد أثيم ، أن يتآمر سرا « على سيده » .

وقوبل هذا التحدى الصريح بخنوع دنىء . وابتهل الإمبراطور طالبا الغفران . ودفع فدية عظيمة .

وفى (٤٥١) أعلن أتيلا الحرب على الإمبراطورية الغربية ، وغزا بلاد الغال . ولعمرى لقد كانت الأمور تجرى على مايهوى طالما كان اشتباكه فى الحروب بقوات الإمبراطورية، فإنه نهب معظم مدن فرنسا حتى أورليان جنوبا . وعند ذاك اتحد ضده الفرنجة والقوط الغربية والقوات الإمبراطورية ، وحدثت معركة عظيمة شديدة فى ترويس Troyes (٤٥١) قتل فيها من الجانبين ما يربو على مئة وخمسين ألف رجل ، فانتهت بصده وأنقذت أوربا من أن

يكون لها سيد أعلى مغولى . وما كانت هذه الكارثة لتستنفد قط موارد أتيلا . فوجه التفاته جنوبا ، واجتاح شمال إيطاليا . فأحرق أكويليا وبادوا Padua ثم نهب ميلانو ، بيد أنه تصالح مع أعدائه تلبية لرجاء البابا ليو الأول ، ومات (٤٥٣) ....

ومنذ ذلك الحين اختفى من التاريخ هون أتيلا ، وهو الاسم الذى يعرفون به فى أوربا . فإنهم اختلطوا فيما أحاط بهم من سكان وتفككوا . ولعل دماءهم كانت مخلطة من قبل اختلاطا كثيراً كما كانوا آريين أكثر منهم مغولا . وهم لم يصبحوا كما قد يظن المرء سكان بلاد المجر، وإن كانوا على الراجح تركوا هناك أحفاداً كثيرين . وبعد ذلك بنحو مئة سنة ، أتى شعب آخر هونى أو مختلط ، هم الآقار Avars قادمين من الشرق إلى بلاد المجر ، بيد أن شرلمان دفعهم منها نحو الشرق مرة ثانية ٧٩١ — ٧٩٥ م . وجاء الماجيار (Magyars) وهم الهنغاريون المصريون نحو الشرق بعد ذلك وكانوا شعبا (تركياً فنلندياً Turko Finish) . والمجرية لغة تنمى إلى القسم الفنلندى الأجرى Finno Ugrian من الألسن الأورال آلتائية . وكان المجر على ضفاف الفولجا قرابة ٥٥٠ م واستقروا فى هنغاريا قرابة (٩٠٠) ... على أننا أخذنا نتجاوز الحد فى إمعاننا فى هذا الحديث . ويجدر بنا أن نعود إلى روما .

ففى عام ٤٩٣ أصبح تيودوريك (Theodoric) وهو من القوط ملكا على روما ، على أنه مضت سبعة عشر عاما وليس هنـاك إمبراطور رومانى . وبذلك جاءت خاتمة « السيادة العالميـة » العظيمة للقياصرة الأرباب وأثرياء رجال روما المفتنين للرقيق ولفظت آخر أنفاسها وهى فى حال من الانحلال والانهيار الاجتماعيين لا مثيل لها .

٧ — الإمبراطورية الشرقية الهلينية المبتعثة

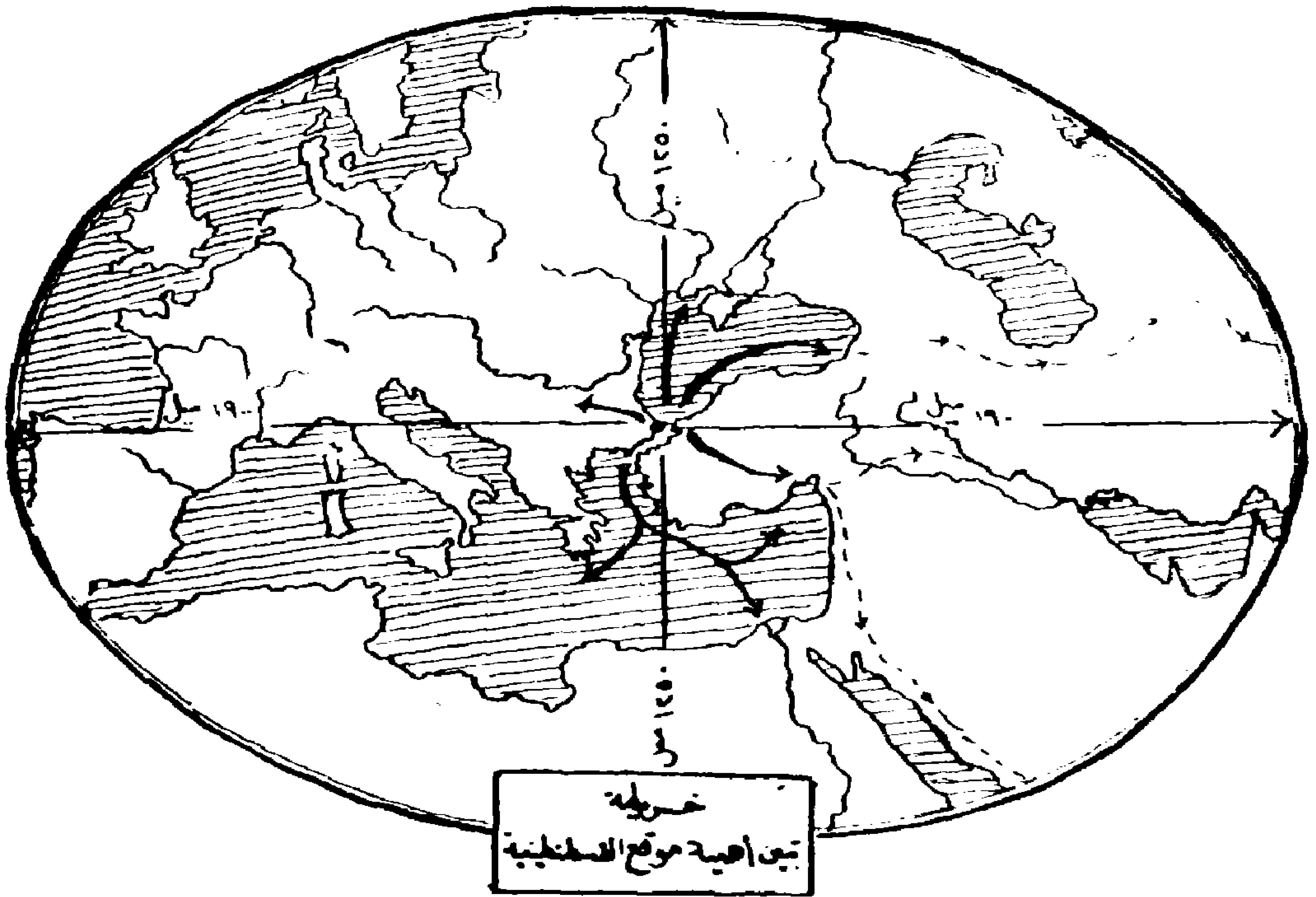
ومع أن النظام الإمبراطورى الرومانى انهـار فى كل أنحاء أوربا الغربية وإفريقية الشمالية ، ومع أن الديون اختفت وإنتاج مواد الترف امتنع واختفت الأموال ، ومع أن الدائنين كانوا يعودون صفر اليدين ، ولا تدفع لهم ديونهم وأصبح الأرقاء بلا أسياد ، فإن تقاليد القياصرة كانت لا تزال مرعية فى القسطنطينية . ولقد سنحت لنا من قبل الفرصة لذكر اسم دقلديانوس (٢٨٤ م) وقسطنطين الأكبر (٣١٢ م) بوصفهما شخصيتين بارزتين بين القياصرة المتأخرين . وإنمـا يدين العالم للثانى بفضل إقامته مركزا إمبراطوريا جديداً فى القسطنطينية .

ففى وقت مبكر جداً من عصر الإمبراطورية أخذ الناس يدركون عدم ملاءمة مركز روما لأن تكون عاصمة عالية بسبب نكوص الرومان عن استعمال البحر . وقد قضى تدمير قرطاجنة وكورنثه على سفن الملاحة التى كانت تجتاز الطرق البحرية الرئيسية بالبحر المتوسط . فإن شعبا لم يكن يستخدم البحر على الوجه الأكمل ، وقد اتخذ مقره الإدارى فى روما ، كانت عقباه المحتومة أن كل كتيبة تسير وكل جماعة من الموظفين ترحل وكل أمر يصدر — لا بد لها أن تتجه شمالا مسافة طولها نصف إيطاليا قبل التحول شرقاً أو غربا . ومن ثم يكاد كل الأباطرة الأكثر اقتداراً يقيمون محاطّ إدارتهم فى مركز من المراكز الثانوية ، يمتاز بموضع أكثر ملاءمة . فكانت سيرموم Sirmium (على نهر السيف) وميلانو وليون ونيكوميديا (فى بيثينيا) من بين أمثال تلك العواصم الإضافية . ولبثت دورازو ردحا من الزمان هى العاصمة فى حكم الإمبراطور دقلد يانوس . وكانت رافنا بالقرب من رأس الأدرياتى عاصمة آخر الأباطرة الرومان أيام آلاريك وستيليكو .

وكان قسطنطين الأكبر هو الذى صمم على نقل مركز السلطة الإمبراطورية إلى البسفور نقلا مستديما . ولقد سبق أن لحظنا وجود مدينة بيزنطه ، التى اختار قسطنطين أن يجعل منها عاصمة له ، والتى مثلت دوراً فى قصة هستيايوس المعقدة كما صدت فيليب المقدونى . فلو تأمل القارئ موقعها ، لرأى أنها لو قيض لها سلسلة من الأباطرة المقتدرين ، وكانت مركزاً لشعب له بعض التماسك والروح والفن البحرى ، (ولم يكن : أى من هذين الأمرين مكفولا لها) ، لقد كانت من حسن الموقع بمنزلة عظيمة خارقة لكل مألوف . وكانت سفنها تستطيع أن تتوغل فى الأنهار حتى قلب الروسيا ، وكانت تحد كل تقدم يقوم به البرابرة ، وتتسلط على الطرق التجارية المؤدية إلى الشرق . وكانت على مسافة دانية إلى حد يدعو إلى الدهشة ، من أرض الجزيرة . ومصر وبلاد الإغريق وكل جهات العالم الأكثر رخاء والأوفر حظا من المدنية فى ذلك الزمان . بل بلغ بها الأمر أنها مع كونها وقعت فى حكم سلسلة من ملوك عاجزين ، وفى ظل حالات اجتماعية منحلة الأخلاق ، فإن بقايا الإمبراطورية الرومانية — وقد تمركزت فى القسطنطينية — صمدت هناك ما يقارب الألف سنة .

وظهرت من قسطنطين الأكبر النية الواضحة على جعل القسطنطينية مركزا لإمبراطورية غير مجزأة . بيد أنا إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى وسائل السفروالنقل التى كانت فى متناول ذلك الزمان ، رأينا الظروف الجغرافية لأوربا وآسيا الغربية ، لا تشير إلى أى مركز واحد بالذات للحكومة . فلئن اتجهت روما غربا بدل أن تتجه شرقا ، ففاتها بذلك أن تمد سلطانها إلى

ما وراء الفرات ، فإن القسطنطينية من الناحية الأخرى كانت بعيدة عن بلاد الغال بعداً تتقطع دونه كل علائق الأمل . ومدنية البحر الأبيض الموهنة القوى أفلتت فى الواقع إفلاتا تاما من يد الغرب بعد أن بذلت بعض الجهد فى سبيل الحصول على إيطاليا . ثم تركزت بوجه الخصوص على البقايا المركزية والدعائم الأساسية التى قامت عليها إمبراطورية الإسكندر . واستعادت اللغة الإغريقية سلطانها الذى لم يحدث البتة أن تقوض تقوضا خطيراً بسبب استعمال اللاتينية رسميا ويشير الناس بوجه عام إلى هذه الإمبراطورية « الشرقية » أو البيزنطية ، كأنما كانت استمراراً للتقاليد الرومانية . بينما هى فى الحقيقة أقرب كثيراً أن تكون استئنافاً لإمبراطورية الإسكندر .



(١١٩)

وما كانت القوة الفكرية تنهض من وراء اللغة اللاتينية ، ولا توفر لها من الأدب والعلم ما يجعل منها ضرورة لا يستغنى عنها أذكياء الرجال فيطوّع لها ذلك التغلب على الإغريقية. فإن أية لغة مهما بلغ شأن صفتها الرسمية لا تستطيع أن تقوم لها قائمة تمكنها من منافسة أخرى قد أتيح لها المزايا الناجمة عن أدب عظيم أو معلومات موسوعية . فاللغات التى تفرضها الدول المعتدية يجب أن تصاحبها هباتها ، وكانت هبات الإغريقية أعظم من هبات اللاتينية عظما لا يدع سبيلا للمقارنة . وكانت الإمبراطورية الشرقية منذ بواكير انفصالها ناطقة

بالإغريقية ، وكانت استمراراً للتقاليد الهلينية ، وإن يكن ذلك الاستمرار مشوبا بعوامل الانحطاط . ولم يعد مركزها الفكرى بعد فى بلاد الإغريق بل فى الإسكندرية ولم تعد عقليتها بعد عقلية مماذنين أحرار الفكر صريحى القول ، من طراز أرسطو الإستاجيرى[1] وأفلاطون الإغريقى . بل كانت عقليتها عقلية المتحذلقين وعقلية رجال عاجزين سياسيا . وكانت فلسفتها تهربا باهراً من حقائق الأمور ،وكان حافزها العلمى قد خبا . ومع ذلك فإنها كانت هلينية على كل حال وما كانت باللاتينية . لقد ظهر الرومانى على المسرح هنيهة ثم توارى عن الأبصار مرة أخرى ، والواقع أنه اختفى إلى حد كبير من الغرب أيضا . ولما حل القرن السادس الميلادى ، كان سكان أوربا وإفريقيا الشمالية قد أصابتهم رجة عنيفة حركتهم حركة الأرض الطباقية حين يصيبها الزلزال المجلجل. وعندما تبدأ تلك الطبقات الطباقية أن تستقر من جديد فى القرنين السابع والثامن ويشرع السكان فى أن يتخذوا خصائص محددة محلية التكوين ، لا يتبقى من الرومانى سوى اسمه فقط فى الإقليم المحيط بروما .

وإنا لنجد فى لغته اللاتينية فى أجزاء كبيرة من إمبراطوريته الغربية ، تعديلات لحقها التغير وأخرى لا تزال تتغير . حدث ذلك فى بلاد الغال حيث كان الفرنجة يتعلمون من اللاتينية صيغة غالية وبذلك يطوّرون اللغة الفرنسية . وفى إيطاليا تجلى تأثير المغيرين التيوتون ما بين لومبارد وقوط ، وتحورت اللاتينية إلى لهجات إيطالية متنوعة ، وفى أسبانيا والبرتغال أخذت تتحول إلى الأسبانية والبرتغالية . والقدر الأساسى من اللاتينية فى لغات هذه الأقاليم ، يساعدنا على إدراك انعدام القيمة العددية لمختلف الغزاة من الفرنجة والوندال والآفار والقوط ومن إليهم من المتكلمين بالألمانية كما تساعد على تبرير ما قلناه من أن ما حدث للإمبراطورية الغربية لم يكن فتحا وتبدل سكان بآخرين قدر ما كان انقلابا سياسيا واجتماعيا . كذلك احتفظ إقليم ڤاليس (Valais) بسويسرا الجنوبية بلغة لاتينية الأساس ، وهكذا كانت حال مقاطعة (: كانتون) جريسون . وأعجب من هـذا وأدعى للإقناع أن داسيا (Dacia) ومويسيا الدنيا (Moesia) التى منها أجزاء كبيرة تقع فى شمالى الدانوب قد أصبحت دولة رومانيا الحديثـة . ومع أن هـذه الأقاليم لم تلحق بالإمبراطورية إلا مؤخرا ، ولم تلبث حتى ضاعت من يديها فإنها كذلك احتفظت باللغة اللاتينية .

فأما فى بريطانيا فإن اللاتينية محاها الأنجلوسكسون الغازون محوا تاما . وعن لهجاتهم المتنوعة ، نبتت للفور مادة الاشتقاق الأساسية فى اللغة الإنجليزية .

---

(١) ستاجيرا مدينة فى مقدونيا ولد فيها أرسطو الفيلسوف فعرف بأرسطو الاستاجيرى .

بيد أنه على حين كان تحطيم البناء السياسى والاجتماعى الرومانى كاملا على هذه الشاكلة ، وعلى حين استبعدته فى الشرق التقاليد الإغريقية الأقدم منه عهداً والأشد قوة وعلى حين نجده فى الغرب تمزق إلى أجزاء ، شرعت تتخذ لنفسها حياة منفصلة خاصة بها — ، فلقد كان هناك شيء واحد لم يهلك ، بل ترعرع ونما ، وكان ذلك هو تقاليد إمبراطورية روما العالية وسيادة القياصرة فلما قضى على هذه الحقيقة اتسع أمام الأسطورة مجال الامتداد والتوسع حتى إذا زال عن فكرة السيادة العالمية الرومانية المتسمة بالوقار والعظمة كل احتمال للتحقيق والإخراج إلى حيز التنفيذ وزال كل أمل فى ظهورها عمليا — ، ربت تلك الفكرة فى خيال الجنس البشرى ، ولا تزال ممسكة بزمامه إلى يومنا هذا .

ذلك أن الفكر الإنسانى ظلت تطيف به منذ زمان الإسكندر فكرة تبشر بإمكان توحيد الجنس البشرى توحيداً سياسيا ولطالما دار بخلد كل قوى من أقوياء ملوك البرابرة ورؤسائهم وزعمائهم الذين كانوا يغيرون فى بحران تلك الفوضى الضخمة الناشبة أظفارها فى الإمبراطورية المنحلة المتضعضعة وجود ملك للملوك يتوفر له من القوة والجبروت نصيب أعظم مما لهم جميعاً ويهب القانون الحق للناس كافة ، ويقيم فى العالم قسطاسا مستقيما — وكانوا على أتم استعداد للإيمان بأن قد جاء فى الماضى زمان وتهيأ مكان ظهر فيهما قيصر قادر على العودة من فوره لتسلم مقاليد سيادته مرة ثانية . وأن قيصر كان فيما غبر من الأيام هو ملك الملوك المطلوب . ولقد كانوا كذلك يبجلون ذلك اللقب القيصرى ويغارون منه ويضعونه فى منزلة تعظم ألقابهم ورتبهم . وما تاريخ أوربا الدولى منذ ذلك الحين إلى وقتنا هذا إلا تاريخ ملوك ومغامرين يعملون لمنصب القيصرية والإمبراطورية . ونحن محدثوك عن بعض هؤلاء فى الحين المناسب . ولقد بلغ من انتشار هذا (التقيصر) وشموله أجزاء العالم أن الحرب العظمى ١٩١٤ — ١٩١٨ ثلت عروش مالا يقل عن أربعة من هؤلاء القياصرة هم إمبراطور ألمانيا (أى قيصرها) وقيصر النمسا وقيصر الروسيا ثم ذلك الشخص الغريب المضحك قيصر بلغاريا . وكان الإمبراطور الفرنسى نابليون الثالث قد هوى عن عرشه فى ١٨٧١ م . ولم يبق فى العالم اليوم أحد تهيأ لمواصلة حمل اللقب الإمبراطورى والنهوض بتقاليد قيصر المؤله غير العاهل البريطانى الذى يسمى قيصر الهند . (وهى بلاد لم تر من قبل قيصراً حقيقيا) وهو يرث هذا اللقب عن المتولى الأعظم الذى سنتكلم عنه فى حينه .

تم الكتاب الخامس ويعقبه السادس

حاويا تاريخ المسيحية والإسلام

تنبيه القارئ

بدرت بعض أخطاء نستميح عنها القارئ عذراً ونرجوه أن يصلحها فى متن الكتاب قبل أن يشرع فى مطالعته .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٤٢	١١	تطوو	تطور
٢٤٨	١٧	ويأحذ	ويأخذ
٢٥١	١٤	بالذكز	بالذكر
٢٩١	تحت الصورة	٤٠٠سفينة حربية آثينية قم	سفينة حربية آثينية ٤٠٠ قم
٣١٠	تحت الصورة	٠٨ — جنديان من الحرس	٧٠ — جنديان من الحرس
		الفارمى	الفارسى
٣٨٨	١٨	الثيوقراطية	الثيوقراسيا
٣٨٩	٦	متراس	متراس
٤١٩	العنوان رقم ٥	كانو وروح كاتو	كاتو وروح كاتو
٤٥٩	العنوان	كيف قوصت الحروب	كيف قوضت الحروب
٤٩٦	العنوان رقم ١	ثبت موحز بالأباطرة	ثبت موجز بالأباطرة
٤٩٦	العنوان رقم ٥	حركة الوديان العظيمة	حركة السهول العظيمة
٥١٠	٣	زرواستر	زرادشت



